

الفتوحات الإسلامية

دراسة تاريخية وشرعية



الشيخ علي حسن غلوم

الشيخ
علي حسن غلوم

الفتوحات الإسلامية

جميع حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى

١٤٤٢ هـ - ٢٠٢١ م

من مطبوعات

مسجد سيد هاشم بهبهاني - الكويت

alwalaa.com

Email: alwalaa66@yahoo.com

الشيخ
علي حسن علوم

الفتوحات الإسلامية

دراسة تاريخية وشرعية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٣	المقدمة بقلم المؤلف
٢٥	١. مدخل
٣١	٢. مصادر أخبار الفتوحات
٣٧	تعريف وتقييم
٤٢	ذات السلاسل
٤٧	صورة معكوسة
٥٥	اختلاق الأماكن
٥٧	اختلاق الشخصيات
٥٩	القنقاء بن عمرو التميمي
٦٣	معركة القادسية
٦٧	أسباب انتشار أخبار سيف
٧٣	مشكلة أخبار الطبري
٧٨	تجربة بروانه بور شريعتي
٩٢	تقييم فتوح البلدان
٩٥	٣. أصالة الحرب أم السلم؟
٩٨	دعوى النسخ في القرآن
١٢٥	مشروعية الجهاد الابتدائي
١٢٦	تعريف الجهاد الابتدائي
١٣٥	أدلة الجهاد الابتدائي
١٣٧	ضرورة القراءة الشمولية
١٤١	دوافع الفتوحات

١٤٥	٤. موقف الأئمة من الفتوحات
١٤٧	موقف الإمام علي من الفتوحات
١٤٩	الإمام علي يُخبر عن دوره في الفتوحات
١٥٢	الموقف الأول
١٥٥	رواية ابن أعثم
١٥٨	مشورة الإمام علي
١٦٧	مفاجأة روايتي البلاذري والمسعودي
١٦٩	الموقف الثاني
١٧٢	رواية معارضة
١٧٥	رواية ابن أبي الحديد
١٧٧	كراهية الخروج بنفسه
١٨٠	استخلاص الموقف
١٨١	تزويج الإمام الحسين بابنة يزيدجرد
١٨٤	أم حبيب الصهباء
١٨٦	فتوحات عهد الإمام علي
١٩٥	فرضية ثانية
١٩٨	فرضية ثالثة
١٩٩	مشاركة الحسنين في بعض الفتوحات
٢٠١	قراءة أولية تحليلية
٢٠٢	فتح أفريقيا
٢٠٤	فتح طبرستان
٢٠٨	الرأي في المسألة
٢٠٨	موقف الأئمة من بعد الحسين
٢٠٩	الإمام زين العابدين
٢١٤	الإمام محمد الباقر
٢١٦	الإمام جعفر الصادق

- الإمام علي الرضا ٢١٨
- الإمام محمد الجواد ٢١٩
- النتيجة ٢٢٠
- ٥. بحث أسامة** ٢٢٩
- نماذج من التحرشات والاعتداءات ٢٢٣
- الاعتداء على مبعوث النبي ٢٢٥
- المماثلة في الخروج ٢٢٧
- ٦. أوضاع دولة الروم** ٢٥٥
- حدود دولة الروم ٢٦١
- الدين والمذهب ٢٦٣
- الأوضاع السياسية ٢٧٠
- انقلاب كسرى الثاني ٢٧٢
- الاحتكاك بالمسلمين ٢٨٠
- ٧. أوضاع دولة الفرس** ٢٨٧
- الوضع الاجتماعي والديني ٢٩٢
- الوضع الاقتصادي ٢٩٤
- الوضع العسكري ٢٩٥
- الوضع السياسي ٢٩٥
- تعاقب الأكاسرة ٣٠١
- ٨. وصف إجمالي للفتوحات** ٣٠٧
- مليء الفراغ السياسي ٣١٥
- عزل خالد بن سعيد الأموي ٣١٨
- حركة قوات المسلمين ٣٢١
- معركة اليرموك الحاسمة ٣٢٥
- فتح مصر ٣٢٧
- فتح ما بعد مصر ٣٣٥

٣٣٥	فتوحات العراق وفارس
٣٣٨	يوم الجسر
٣٤٠	يوما القادسية وجلولاء
٣٤٤	يوم الجراثيم
٣٤٦	فتح نهاوند
٣٤٧	تمصير البصرة
٣٤٩	تمصير الكوفة
٣٥٥	٩. أسباب الانتصار
٣٦٢	تفسير غيبي
٣٦٥	تفسير اقتصادي
٣٦٧	ملاحظات على ما سبق
٣٧٠	الانتشار بالعنف والإرهاب
٣٧١	مقولات أخرى
٣٧٣	كلمات منصفة
٣٧٨	محاولة التفاف
٣٨٤	شهادة أرمنية
٣٨٨	شهادة صينية
٣٩١	١٠. مصادر الكتاب

المقدمة

بقلم المؤلف

بقلم المؤلف

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم النبيين، محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين.

الفتوحات الإسلامية أو (فتوح المسلمين) أو ما عبّر عنه البعض بـ (الفتوحات العربية) عنوان يُطلق على مجموعة الحروب التي خاضها المسلمون بعد وفاة رسول الله «صلى الله عليه وآله» ضد الفرس والروم والبربر والقوط^(١) والتُّرك وغيرهم ضمن قارات آسيا وأفريقيا وأوروبا، واستمرّت أكثر من قرنين من الزمان خلال عهد (الخلافة الراشدة) والدولتين الأموية والعباسية، بل وتشمل -بحسب البعض- الحروب التي خاضتها الدولة العثمانية أيضاً في أوروبا وتوسّعت فيها وامتدّت.

• دوافع البحث:

قد يتساءل البعض عن الداعي لطرح مثل هذا الموضوع التاريخي الذي قد يثير بعض الحساسيات عند الشيعة والسنة على حد سواء.

١. القوط Visigoths من الشعوب الجرمانية وحكموا في بدايات القرن السادس الميلادي غالبية شبه الجزيرة الأيبيرية، أي أسبانيا والبرتغال.

فمن جهة سيشتمل هذا البحث على تعداد وشرح إنجازات ضخمة تمت في العهد الراشدي ثم في عهد الخلافتين الأموية والعباسية، ونعلم الموقف الشيعي من مسألة الحكم والخلافة والحديث عن مدى شرعية الخلافة وإنجازاتها في ضوء الاعتقاد بوصية النبي «صلى الله عليه وآله» لعلي «عليه السلام»، وما جرى بعد وفاة النبي في هذا الإطار، وعليه فإن أي حديث عن إنجازات الخلفاء -دون علي- يُعتبر إضفاءً للشرعية على الحكم، وتمجيذاً لإنجازاتها، وهو ما لا يتلاءم مع موقف الموالاة لعلي وأهل بيته «عليهم السلام».

ومن جهة أخرى، فإن مجرد المناقشة في مشروعية الفتوحات الإسلامية يمثل -بالنسبة لأهل السنة- فتحاً ملفاً من الملفات الشائكة والحساسة مذهبياً وتاريخياً، وقد يُعد من قبل البعض أمراً غير مقبول، ونوعاً من (التحرّش) المذهبي الذي لا يعود بكثير فائدة على المسلمين، إن لم يُعد عليهم بالضرر.

وقد تصحّ هذه الملاحظات أو تلك فيما لو كان الغرض هو الإثارة أو التحرّش أو التمجيد أو التسقيط، أو البحث البعيد عن الموضوعية، ولكن الدوافع -ومسار البحث أيضاً- بعيد كل البعد عن هذه التصورات البدوية التي قد تتبادر إلى الأذهان.

ومن الضروري أن نتعوّد على فتح الملفات المختلفة بشكل علمي حريفي، بما فيها تلك التي تحمل الطابع المذهبي، وحتى الديني، مهما كانت حساسيتها، لأنّ فضاء المعرفة اليوم فضاء مفتوح للجميع، وما عادت المعلومة حكراً على النخبة المتخصصة، أو محبوسة داخل المكتبات التي لا يرتادها إلا ذوو الاهتمام بالشؤون التاريخية أو الدينية، بل هي متاحة للجميع، ولم تُعد هناك

في عالم الإنترنت والتواصل الاجتماعي (محرّمات) بحثية. ولذا فمن الأجدر أن تُعرَض هذه الموضوعات بكل شفافية من خلال أدلّتها ومصادرها، لتفويت الفرصة على مَنْ قد يطرحها بشكل غير علمي، أو لمأرب غير علمية.

كما أنني لست في وارد تلميع صورة أحد أو الإساءة إلى أحد، بل الغرض هو عرض ومناقشة ونقد ما هو موجود في المصادر في محاولة لتكوين رؤية -ولو إجمالية- عن مسألة الفتوحات الإسلامية والتي يندر أن تُعالج في الوسط الشيعي إلا بشكل سريع ومختصر جداً، مع وفرة ما عُرض في الوسط السنّي، مع محاولة استكشاف موقف أهل البيت «عليهم السلام» من الفتوحات وعن مشاركة أو عدم مشاركة أحدٍ منهم فيها، وعن الأسباب الكامنة وراء مشاركة العديد من الأسماء البارزة من شيعة علي «عليه السلام» فيها، وغير ذلك من الأسئلة ذات الطابع (المذهبي) الخاص التي سأعرضها بالتدرّج.

وقد راعيت في أثناء الإعداد أن تكون المادة ثرية بالمعلومات، ومختصرة في التفاصيل ما أمكن إلى ذلك سبيلاً، وإلا سأكون قد خرجت من الغاية الرئيسة للبحث، ولربما يكون الكتاب مملاً لكثيرين. وعليه، يمكن القول باختصار جداً أن الدوافع الكامنة وراء هذا البحث تتلخّص في النقاط التالية:

• الدافع الأول:

لهذه الحروب أهميتها الكبرى في انتشار الإسلام وسقوط بعض الامبراطوريات والممالك مثل امبراطورية الفرس، ومملكة القوط الغربية، وفقدان امبراطورية روما البيزنطية لقدر كبير ومهم من الأراضي التي كانت

تحت سلطانها في الشام وشمال أفريقيا والأناضول، ووصول المسلمين إلى تخوم الصين والهند وبلاد الصقالبة^(١) والفرنجة^(٢)، وما استتبع ذلك من انتشار الإسلام في تلك النواحي بشكل كبير وبمعية اللغة العربية، ومن ثمّ ظهور الحضارة الإسلامية في تلك النواحي وتأثيرها وتفاعلها مع سائر الأمم والحضارات وتأثرها بها أيضاً، كل ذلك يجعل من البحث والتحقيق في هذا الموضوع أمراً مهماً وحساساً في نفس الوقت.

• الدافع الثاني:

لمدرسة أهل البيت «عليهم السلام» موقف من الفتوحات الإسلامية لا يتوافق مع الطرح التقليدي لها، والمتلخص في التمجيد والثناء على طول الخط، بل برزت في الآونة الأخيرة بعض الأصوات في الوسط (السني) أيضاً والتي باتت تتناول هذا الموضوع بشيء من النقد والتحقيق، وهي حالة إيجابية قد تؤدي إلى وضع بعض الأمور في نصابها الصحيح، أو على الأقل التعامل مع الأحداث التاريخية -ولو تلك التي تمس الدولة الإسلامية في (العهد الراشدي) أو

١. الصقالبة (السلاف) تسمية أطلقها العرب على عدد من الشعوب المتحدرة من أصول شتى، كانت تنزل نواحي كبيرة من أوروبا، وتعتبر اليوم أكبر مجموعة عرقية لغوية في أوروبا. يُصنف السلافيون في الوقت الحالي إلى السلاف الشرقيين (معظمهم من البيلاروسيين والروس والروسيين والأوكرانيين) والسلاف الغربيين (بشكل رئيسي التشيك، والكاشوبيين، والمورافيين، والبولنديين، والسلوانيين، والسلوفاك)، والسلاف الجنوبيين (بشكل رئيسي البوشناق، والبلغار، والكروات، والمقدونيين، والغوراني، والمونتينيغريين، والصرب والسلوفينيين)

٢. الإفرنج أو الفرنجة أو الفرنسيين هم مجموعة قبائل جرمانية غربية اتحدت وشكلت في نهايات القرن الثامن الميلادي امبراطورية في نواحي من ألمانيا وفرنسا الحاليين.

صحابة رسول الله «صلى الله عليه وآله» بعيداً عن المغالاة والتهويل، فضلاً عن الدولة الأموية وما بعدها من حكومات، مع الحفاظ على قراءة تلك الأحداث في صورتها العامة وفي تفاصيلها ضمن السياقات الطبيعية والمنطقية، ووفق الظروف المحيطة بها، حالها في ذلك حال أي حدث تاريخي يتم التحقيق فيه بعيداً عن الحساسيات المذهبية أو القومية أو غيرها.

• الدافع الثالث:

إضافة إلى نقد الفتوحات الإسلامية والتحقيق فيها في الوسط الإسلامي، نجد أن المستشرقين أيضاً قد طرّقوا هذا الباب، وقدّموا قراءاتهم الخاصة بذلك وفق مناهجهم في الدراسات التاريخية، وفي بعض الأحيان بدوافع دينية أو عرقية أو حتى (استعمارية) دفعت بهم بعيداً عن الحيادية التي تتطلبها مثل هذه الأبحاث.

كما أن موجة الإلحاد الجديد، وما استتبعها من التعرّض والإساءة والنقد العنيف للكثير من القضايا المرتبطة بالإسلام، ومن ضمنها الفتوحات الإسلامية وما يُعرف بعنوان (انتشار الإسلام بالسيف)، يأتي كمبرر آخر ودافع إضافي لأن تُشرّع أبواب هذا الموضوع على مصراعيه.

• الدافع الرابع:

إعادة دراسة وتقديم هذا الأحداث المفصلية في تاريخ الإسلام من الناحية الشرعية والتاريخية على ضوء القرآن الكريم باعتباره المرجع الأول والنص الوحيد الذي حافظ على عصمته من الزيادة والنقصان والتحريف والتبديل

والتغيير والتزييف، واهتداءً بالتوجيه النبوي الذي صدر عنه في الأيام الأخيرة من حياته والمروي بألفاظ فيها شيء من الاختلاف، ومن بينها اللفظ التالي أنه قال «صلى الله عليه وآله»: (كأنِّي قد دُعيت فأُجبت، إني قد تركت فيكم الثقلين، أحدهما أكبر من الآخر، كتاب الله وعترتي أهل بيتي، فانظروا كيف تخلفوني فيهما، فإنهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض)^(١).

ولكون القرآن الكريم هو المعيار في تقييم ما بلغنا من أحاديث وأخبار رُويت عن رسول الله «صلى الله عليه وآله» أو عن أحد من أئمة أهل البيت «عليهم السلام» للتأكد من احتمالية صدورهما فعلاً عن أحدهم، امتثالاً لأمر النبي «صلى الله عليه وآله»، ويدلّ على ذلك روايات عديدة.

عن هشام بن الحكم وغيره، عن أبي عبد الله «عليه السلام» قال: (خطب النبي «صلى الله عليه وآله» بمنى فقال: أيها الناس ما جاءكم عني يوافق كتاب الله فأنا قلته، وما جاءكم يخالف كتاب الله فلم أقله).

عن السكوني، عن أبي عبد الله «عليهم السلام» قال: قال رسول الله «صلى الله عليه وآله»: (إن على كل حق حقيقة، وعلى كل صواب نوراً، فما وافق كتاب الله فخذوه، وما خالف كتاب الله فدعوه).

عن عبد الله بن أبي يعفور... قال: (سألت أبا عبد الله «عليه السلام» عن اختلاف الحديث يرويه من نثق به ومنهم من لا نثق به؟ قال: إذا ورد عليكم حديث فوجدتم له شاهداً من كتاب الله أو من قول رسول الله «صلى الله عليه وآله»، وإلا فالذي جاءكم به أولى به).

١. النسائي: سنن، ح ٨١٤٨.

عن أيوب بن الحر قال: (سمعت أبا عبد الله «عليهم السلام» يقول: كل شيء مردود إلى الكتاب والسنة، وكل حديث لا يوافق كتاب الله فهو زخرف)^(١).

أي أننا إذا أردنا أن نقيم ما بلغنا من روايات عن الأئمة «عليهم السلام»، فإن الطريق لذلك - أو فقل من طرق ذلك - أن نعرضه أولاً على القرآن الكريم، ثم نعرضه على ما ثبت من سنة رسول الله «صلى الله عليه وآله».

وقد روي ما يشبه ذلك في مصادر أهل السنة، ومن ذلك ما عن رسول الله «صلى الله عليه وآله» أنه قال: (ما جاءكم عنّي فاعرضوه على كتاب الله فما وافقه فأنا قلته، وما خالفه فلم أقله)^(٢).

ولا يلتفت إلى قول بعضهم أن هذه من روايات الزنادقة أو الخوارج على اعتبار أننا مأمورون بطاعة النبي «صلى الله عليه وآله» كطاعتنا لله «تعالى»، لأننا لسنا في معرض ردّ كلام رسول الله «صلى الله عليه وآله» والعياذ بالله، بل التحقيق في ما بلغنا وما روي لنا أنه كلامه «صلى الله عليه وآله»، وعندما نبحت في مدى صحة هذه النسبة، نلجأ إلى القرآن الكريم لنرى مدى التوافق أو التعارض أو الاختلاف بينهما، كوسيلة من وسائل التحقق تماماً كما يدرس المحققون أسانيد الروايات ومصادرها في محاولة للتأكد من صحتها وصدورها عن النبي «صلى الله عليه وآله».

فما الذي يُبيح لهم دراسة الروايات والأخبار من الناحية السندية بهذا الغرض، ويمنع عرضها على القرآن الكريم لنفس الغاية؟

١. كل الأحاديث السابقة تجدها في الكافي للكليني، ج ١، ص ٦٩.

٢. الشافعي: الأم، ج ١، ص ٩٨.

وخلاصة القول أننا لا نتكلم عمّا صدر حتماً عن النبي «صلى الله عليه وآله»، بل عمّا روي عنه، وهناك فرق بينهما، فربما هذا المروي موضوع، وربما ناقص، وربما أضيف عليه... إلخ.

كما أنّه قد يكون للعقل وللعلوم الطبيعية الثابتة والأكيدة دوراً أيضاً في التقييم. ويمكن أن يستدل على ذلك بما جاء مثلاً عن النبي «صلى الله عليه وآله» أنه قال: (ما جاءكم عني من حديث موافق للحق فأنا قلته، وما أتاكم عني من حديث لا يوافق الحق فلم أقله، ولن أقول إلا الحق)^(١).

ويمكن أن يستدل على ذلك أيضاً بما روي عن علي «عليه السلام» أنه قال: (اعقلوا الخبر إذا سمعتموه عقل رعاية لا عقل رواية، فإن رواية العلم كثير، ورعاته قليل)^(٢). وهذه الكلمة تحتمل معنيين:

الأول، أن لا نقصر على رواية النص فقط دون سعي للتدبر فيه والاستفادة منه. والثاني: أن لا نقبل كل ما يبلغنا من الأخبار، بل لابد من التفكير والتدبر فيه وعرضه على المعايير المختلفة في محاولة لكشف مدى صحة صدوره عن مصدره.

• الدافع الخامس:

وأخيراً، فإنّ تناولي لحروب وغزوات النبي «صلى الله عليه وآله» خلال مواسم ماضية، والذي صدر عنه كتاب (السيرة العسكرية لسيد المرسلين محمد) بالإضافة إلى البحث الخاص بحروب الردة، ومؤلف (السيرة العسكرية لأمير

١. الصدوق: معاني الأخبار، ص ٣٩٠، ح ٣٠.

٢. الرضي: نهج البلاغة، الحكمة ٩٨.

المؤمنين علي) استدعى منّي أيضاً التعرّض للفتوحات الإسلامية بالبحث باعتبارها حلقة من حلقات الأحداث العسكرية التي عاشها المسلمون في العهد الإسلامي الأول.

• موضوعات البحث:

- وخلال هذا البحث سأتناول الموضوع من زوايا عدة من بينها:
- دراسة مصادر روايات الفتوحات وما وقع فيها من تزوير وتحريف، والمقارنة فيما بينها
- دراسة قرآنية تاريخية حول أصالة الحرب أم السلم والموقف من الجهاد الابتدائي، ومحاولة تحديد دوافع الفتوحات على ضوء ذلك
- موقف أمير المؤمنين من فتوحات العهد الراشدي
- مشاركة الحسنين في الفتوحات
- موقف الأئمة من بعد الحسين تجاه فتوحات العهدين الأموي والعباسي
- بعث أسامة إلى نواحي الأردن على عهد رسول الله فأبي بكر
- أوضاع دولتي الروم والفرس في العهد القريب من زمن الفتوحات
- نظرة إجمالية لمجريات أحداث الفتوحات ومساراتها ونتائجها
- قراءة في أسباب الانتصار في الفتوحات ونقد آراء بعض المستشرقين في هذا الإطار

ويأتي هذا الكتاب بعد طرح الموضوع في سلسلة محاضرات على جمهور مسجد سيد هاشم بهبهاني خلال موسم شهر رمضان ١٤٤٢ هـ، وتم تقسيمه على عشرين جلسة، وفي الكتاب إضافات أخرى لإشباع الموضوع وتقديم بعض التفاصيل التي يصعب طرحها خلال العرض المباشر.

ولا يفوتني هنا أن أشكر كلاً من سماحة الشيخ الدكتور مرتضى فرج وسماحة الشيخ الدكتور حسن البلوشي حيث زوداني ببعض المصادر المفيدة بمبادرة منهما. أسأل الله «عز وجل» أن يتقبل هذا العمل بأحسن القبول.

علي حسن غلوم علي

الكويت - ١٤٤٢ هـ / ٢٠٢١ م



مدخل

مدخل

بعد وفاة النبي «صلى الله عليه وآله» في شهر ربيع الثاني من سنة ١١هـ/٦٣٢م تم إطلاق حملة أسامة بن زيد بن حارثة نحو مؤتة (في الأردن)، وهي التي جهّزها رسول الله فتعطّلت لأسباب سنذكرها لاحقاً. وبعد سنتين تقريباً، ومن المحتمل في شهر صفر ١٣هـ/ إبريل ٦٣٤م انطلقت الحملات في اتجاه الشام، كما انطلقت بعدها -أو بموازاتها- حملات في اتجاه العراق.

أما في الشام فقد كانت القوات مقسّمة إلى ثلاثة أقسام، توجّهت كلٌّ منها في اتجاه، فلسطين والأردن ودمشق، وتحت كل لواء قرابة ٨ آلاف مقاتل. ووقعت أوّل معركة في جنوب فلسطين في وادي عربة، ثم في بُصرى جنوب سورية وسرعان ما تصالح أهلها مع المسلمين، ثم منطقة (حوران) الممتدة من جنوب دمشق إلى شمال الأردن، ثم كانت وقعة (أجنادين)، وشهدها من الروم زهاء مائة ألف، وانتصر فيها المسلمون على قلة عددهم، وهرب على إثرها هرقل امبراطور الروم من حمص إلى أنطاكية.

بعد ذلك وقعت عدة مواجهات في الشام، ومنها (مرج الصفر)، ثم فُتحت دمشق بعد حصار وصُلح في شهر رجب من سنة ١٤هـ/٦٣٥م، وأعقبته

حمص التي استسلم أهلها وصالحوا المسلمين، ثم كان فتح اللاذقية بعد قتال يسير وُصِّلح، وأعقب ذلك بعض المدن الساحلية.

في رجب ١٥هـ / أغسطس ٦٣٦م جمع هرقل قوة كبيرة من الروم وأهل الشام وأهل الجزيرة (شمال العراق) وأرمينية، وشكّل جيشاً قوامه مائتا ألف مقاتل، ووقعت المواجهة مع المسلمين الذين بلغ عدد مقاتليهم ما بين ٢٤ - ٣٦ ألفاً، قرب نهر (اليرموك) في الأردن، واستمرّت لعدّة أيام وكانت المعركة الفاصلة بين المسلمين والروم، وترتّب على هذا النصر العظيم أن استقرّ المسلمون في بلاد الشام، واستكملوا فتح مدنه. وفي سنة ١٩هـ / ٦٤٠م كانت كل بلاد الشام تقريباً تحت نوع ما من الحكم الإسلامي.

ثم واصل المسلمون مسيرة الفتح إلى الشمال الإفريقي وشمال العراق وجنوب تركيا (الجزيرة)، حيث تمت مصالحة أهالي مناطق موزعة على الشمال السوري والعراقي وجنوب تركيا، ثم فتحت نواحي من أرمينيا.

أما مصر، فقد أراد حاكمها الروماني (المقوقس/كيروس) أن يصلح المسلمين ابتداءً، إلا أن هرقل عارضه وعزله، واستطاع المسلمون أن يفتحوها تدريجياً بعد مواجهات قليلة مع الروم واتفاقيات صلح.

ثم توجّه المسلمون ناحية ليبيا فتنّس، ففتحت ما بين مواجهات مع الروم ومصالحات، ثم امتدّ التوسّع في العهد الأموي لاحقاً باتجاه المغرب والأندلس، ومجموعة من جزر البحر الأبيض المتوسط.

أما في العراق، فقد بدأت حركة الفتوح على عهد الخليفة أبي بكر وبمساعدة

بعض القبائل العربية المعادية للفرس الذين كانوا يحكمونها، وتتقل جيش المسلمين من الجنوب باتجاه وسط العراق، وتراوحت الأحداث بين المواجهات العسكرية والمصالحة دون قتال، حتى بلغ المسلمون الحيرة، وصالحوا أهلها، وهكذا تكرر المشهد في عدة نواحي، ثم وقع القتال في مدينة (تستر) حيث كان النصر حليف المسلمين.

وتوالى الفتوحات بالقوة أحياناً وبالصلح أحياناً أخرى، حتى أرسل الفرس القائد (رستم) ومعه أربعة آلاف مقاتل، ف وقعت معركة (قُسُ الناطف) أو (يوم الجسر) آخر شهر رمضان سنة ١٣ هـ/نوفمبر ٦٣٤م وهُزم فيها المسلمون، فتوقفت حركة الفتوح في العراق لمدة سنة تقريباً حيث تواجه الطرفان من جديد ولكن في القادسية جنوب الحيرة، وكان النصر للمسلمين فيها، وكانت ضربة قاصمة للفرس في العراق.

تمدد المسلمون شمالاً، ثم انتقلت المواجهة بعد سنوات إلى داخل الأراضي الإيرانية، وكانت الضربة النهائية التي أسقطت دولة الساسانيين في معركة (نهاوند) التي سُميت (فَتْح الفتوح)، وكانت البوابة التي من خلالها فُتحت مناطق كثيرة من إيران بحدودها الحالية، وأذربايجان وأفغانستان وتركمنستان والباكستان وغيرها، وذلك على مدى سنوات متعاقبة خلال (العهد الراشدي).

مصادر أخبار الفتوحات

مصادر أخبار الفتوحات

عَنِ المؤرِّخون المسلمون في القرن الثاني الهجري عناية كبيرة بتدوين السيرة النبوية والمغازي على عهد رسول الله «صلى الله عليه وآله». وفي النصف الثاني من هذا القرن أيضاً صارت أخبار الفتوحات الإسلامية من بين تلك الأحداث التي خُصِّصت لها كتب بعينها، وكان أبرز مَنْ دَوَّنَها:

- أبو حذيفة إسحاق بن بشر (ت ٢٠٦هـ) الذي أَلَّفَ في فتوح بيت المقدس.
- محمد بن عمر الواقدي (ت ٢٠٧هـ) الذي أَلَّفَ في فتوح الشام وفتوح العراق، ونُسبت إليه كتب في فتوح إفريقية، ومَنف في مصر، والإسكندرية، والجزيرة، وغيرها.
- أبو عبيدة معمر بن المثنى (ت قبل ٢١٠هـ)، وله فتوح أرمينية، وأيام العرب.
- علي بن محمد المدائني (ت قبل ٢٢٥هـ) الذي أَلَّفَ في الفتوح عدداً كبيراً من الكتب، كفتوح الشام، والعراق، والبصرة، وخراسان، وسجستان، وفارس، والأبلة، وأرمينية، وكرمان، وكابل، وعمان، وطبرستان، ومصر، والري، والجزيرة، والأهواز، والبحرين، وبرقة، ومكران، والحيرة.. وأفرد لكل بلد كتاباً، ومن الواضح أن بعضها يرتبط بأخبار الردّة لا الفتوحات بالمعنى الاصطلاحي.

o عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم (ت ٢٥٧هـ) الذي ألف في فتوح مصر والمغرب.

ومن المنطقي هنا أن نعتمد على أقدم المصادر المتوفرة بين أيدينا حول الفتوحات، لأنها ستكون الأقرب عهداً بالأحداث، وبالتالي الأقرب أخذاً عمّن روى عن شهود العيان، إذ سيكون الفاصل بينهما أحياناً راويين أو ثلاثة فقط. وسأعتمد - في المقام الأول - فيما أعرضه من تفاصيل الأحداث المتعلقة بحركة الفتوحات على ما جاء في كتاب (فتوح البلدان) لأحمد بن يحيى بن جابر المعروف بالبلاذري، والذي نشأ في بغداد وأخذ عن علمائها في النصف الأول من القرن الثالث الهجري، وحضر حلقاتهم في الحديث والأدب والسير. وكان أكثر من أخذ عنهم، الحسين بن علي الأسود (٢٥٤هـ) والقاسم بن سلام (٢٢٤هـ) وعلي بن محمد المدائني (٢٢٥هـ) ومحمد بن سعد كاتب الواقدي (٢٣٠هـ)، وقد ذكرت المصادر معرفته باللغة الفارسية، وكذلك يبدو أنه أحاط بشيء من ثقافة الروم. وبعد أن أخذ طرفاً كبيراً من علم أهل العراق توجه إلى الشام، وأخذ عن بعض علمائه. وقد كان لأساتذته وثقافته ورحلاته وتردده على قصور الخلفاء أثر في إنتاجه وفي نوع هذا الإنتاج، فقد استفاد عن طريق (ابن سعد) جميع روايات الواقدي في الفتوح، وله عدة كتب فيها، واستفاد من المدائني نفسه رواياته في كتبه الكثيرة في الفتوح والبلدان، وأخذ عن طريق حفيد المؤرخ وعالم الأنساب هشام بن محمد بن السائب المعروف بابن الكلبي ما رواه جدّه في الأنساب، ولذا نجد البلاذري مؤرخاً للبلدان، ونسابة، وهذه الاتجاهات هي التي ظهرت بعد في كتبه. وثمة تأثير آخر لمعرفته

الفارسية هو نقله آثار الفرس إلى العربية، حتى نعتة ابن النديم بأنه كان أحد النقلة إلى اللسان العربي. هذه الثقافة الحضارية أهّلتة أن يكون عالماً مؤلفاً وأن يكون نديماً للخلفاء، وأن يأخذ عنه كثيرون. عاصر عهد المأمون العباسي فما بعد، وجالس بعض الخلفاء العباسيين كالمثوكل والمستعين والمعتز، وبدأ مجده بالزوال، منذ توفّي الأخير، فانعزل وجفا القصور. ومات في آخر خلافة المعتمد سنة ٢٧٩ هـ على الأرجح، وقد تجاوز الثمانين من عمره. من مصنفاته (فتوح البلدان) الذي قال فيه المؤرخ علي بن الحسين المسعودي صاحب (مروج الذهب): (لا نعلم في فتوح البلدان أحسن منه)، وهو المصدر الذي سأميل إليه في عرض أخبار الفتوحات كما ذكرت من قبل، وذلك لأنّه يروي أخبار الفتوحات عن أكثر من مرجع سبقه وإن تخالفت في مضمونها، وقد أحصى الدكتور صلاح الدين المنجد^(١) ناشر كتاب فتوح البلدان في نسخته المحقّقة والمنقّحة مصادر روايات البلاذري فوجدها كالتالي:

○ الحسين بن الأسود الكوفي نزيل بغداد

○ القاسم بن سلام

١. صلاح الدين المنجد (ت ١٤٢١ هـ ٢٠١٠ م) باحث وكاتب من أهل دمشق، عُرف بلقب (سندباد المخطوطات) أو (أبو المخطوطات العربية). بلغ عدد مؤلفاته مائة وخمسين كتاباً، ما بين نصوص تراثية محقّقة، أو مؤلفات وكتب في القانون الدولي، والدبلوماسية في الإسلام، والتاريخ، والأدب واللغة، وعلم الخط والآثار القديمة التاريخية، والسياسة العربية المعاصرة، والمعاجم، وقد تُرجمت بعض مؤلفاته إلى الفرنسية، والإنجليزية، والهولندية، والإسبانية، والألمانية، والإيطالية، والفارسية، والتركية. وله مئات من المقالات نُشرت في المجلات والصحف العربية والأوروبية. من مصنفاته (المنتقى من دراسات المستشرقين). وقد أخذت تعريف البلاذري عنه، بتصرّف.

○ محمد بن سعد كاتب الواقدي

○ علي بن محمد المدائني

○ عمرو بن محمد الناقد

○ العباس بن هشام الكلبي

أما ما سواهم فقد أخذ عنهم أخباراً قليلة. وقال المنجد: (ولا نعرف مؤلفاً في الفتوح بعد أحمد بن يحيى، فهو، كما قيل، خاتمة مؤرّخي الفتح. وإذا علمنا أن كتب الواقدي لم تثبت صحة الكثير منها، وأن كتب المدائني لم تصل إلينا، رأينا أن كتاب البلاذري هذا هو أهم مصدر من المصادر التاريخية، وأكثرها صحّة عن الفتوح العربية.... وقد نقل منه ياقوت في معجم البلدان نقولاً كثيرة، واعتمد عليه وجعله من مصادره)^(١).

هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإنّ البلاذري يُعَدُّ الأقل اعتماداً على روايات (سيف بن عمر التميمي) الوضع الذي أفسد كثيراً في روايات الفتوحات الإسلامية وغيرها، وغير مجرى أحداث التاريخ الإسلامي بعد وفاة رسول الله بشكل جذري، سواء من حيث تحديد أسماء قيادات الجيش الإسلامي وأعدائه، أو تفاصيل الأحداث وأزمنتها، أو ما ترتّب على تلك الفتوحات من نتائج ومعطيات، وغير ذلك من الأمور التي سأضرب عليها بعض الأمثلة، كما ستوضح معنا لاحقاً عند عرض بعض أخبار وتفاصيل الفتوحات.

وقد تناولت هذه الشخصية والآثار التدميرية لكتبه، وذلك في بحثي وكتابي

١. البلاذري: فتوح البلدان، ج ١، ص ٢١، مقدمة الناشر.

(حروب الردّة)، وسأتحدّث عنه مجدداً وذلك من باب التذكير والإشارة إلى ما أحدثه في أخبار الفتوحات والتزوير الكبير الذي طالها، ولا سيما وأنّ الكثير مما يُطرح اليوم من قبل المسلمين والمستشرقين حول الفتوحات مبنيٌّ على مروياته.

وقد تمكّن سيف من خلال رواياته من أن يضخّم بعض الأحداث ويهوّل في تفاصيلها، كما واستطاع أن يخلق أعداداً كبيرة من الشخصيات والأماكن الجغرافية والحروب وغير ذلك، فقد صنّف كتاب (الفتوح الكبير والردّة) فأخذ عنه المؤرّخون الموسوعيّون من قبيل أبي جعفر الطبري (ت ٣١٠هـ)، وابن عساكر (ت ٥٧١هـ) والذهبي (ت ٧٤٨هـ)، وانتشرت تلك الأساطير والروايات المختلقة والمحرّفة من خلال مصنفاتهم الموسوعيّة إلى سائر المصنّفين، من قبيل ابن الأثير (ت ٦٣٠هـ) وابن كثير (ت ٧٧٤هـ) وأبي الفداء (ت ٧٣٢هـ). كما وانتقلت إلى المستشرقين الذين تلقّف بعضهم رواياته حيث وجدوا فيها غايتهم بما يخدم التصورات التي يقدّمونها عن الإسلام.

• تعريف وتقييم:

هو سيف بن عمر التميمي الأسيدي كما في الطبري، وأسيّد هو عمرو بن تميم. قالوا عن سيف:

○ يحيى بن معين (ت ٢٣٣هـ) ويعدّ من أهم علماء الجرح والتعديل عند أهل السنة: (فلس خير منه).

○ أبو داود صاحب السنن ويعد من أئمة الحديث في زمانه (ت ٢٧٥هـ):

(ليس بشيء، كذاب).

○ النسائي (ت ٣٠٣ هـ) صاحب السنن، ويعد من أئمة الحديث في زمانه: (ضعيف).

○ الحافظ الدارقطني (ت ٣٨٥ هـ) أحد أشهر أهل الاختصاص في علم الرجال عند أهل السنة: (متروك الحديث).

الحاكم النيسابوري (ت ٤٠٥ هـ) أحد أئمة الحديث وصاحب المستدرک على الصحيحين: (أُتهم بالزندقة، وهو في الرواية ساقط)^(١).

والزنديق كلمة فارسية الأصل، وقد سَمَّى الفرس كل من أتى في شريعتهم شيئاً مخالفاً لكتابهم المنزل أو عدل إلى التأويل بـ «زندي» أي المنحرف من ظاهر الكتاب إلى التأويل المخالف للتنزيل، ثم أخذت العرب هذه الكلمة وعربتها وقالت «زنديق» وصارت عندهم اسماً للمانوية، وقيل لأتباع ماني «زندقة». والممانوية ديانة تنسب إلى (ماني بن فتك) المولود في عام ٢١٦ م في بابل. وهي عقيدة باطنية ثنوية، أي تقوم على معتقد أن العالم مركب من أصلين قديمين أحدهما النور والآخر الظلمة، وهي متفرعة ومتحوّرة عن الزرادشتية التي ظهرت قبل ذلك بقرون.

ولعلّ أقدم نص رسمي إسلامي في تعريف الزندقة هي وصية الخليفة المهدي لابنه موسى (الهادي) وليّ عهده من بعده حين قال له، وقد قدّم إليه زنديق

١. انظر ابن شاهين: تاريخ أسماء الضعفاء والكذابين، ص ١٠٠. والذهبي: ميزان الاعتدال، ج ٢، ص ٢٥٥. وسعد: منهج الإمام أبي عبد الرحمن النسائي في الجرح والتعديل، ص ٢١٨٨، العسقلاني: تهذيب التهذيب، ترجمة برقم ٥١٧.

فاستتابه فأبى أن يتوب، فضرب عنقه وأمر بصلبه: (يا بني، إذا صار الأمر إليك فتجرّد لهذه العصابة -يعني أصحاب ماني- فإنها تدعو الناس إلى ظاهرٍ حسنٍ كاجتناب الفواحش والزهد في الدنيا والعمل للآخرة، ثم تخرجها من هذا إلى تحريم اللحوم ومسّ الماء الطهور، وترك قتل الهوام تحرّجاً ثم تخرجها إلى عبادة اثنين أحدهما النور والآخر الظلمة، ثم تبيح بعد هذا نكاح الأخوات والبنات، والاختسال بالبول وسرقة الأطفال من الطرق لينقذوهم من ضلال الظلمة إلى هداية النور، فارفع فيها الخشب^(١) وجرد السيف فيها، وتقرب بأمرها إلى الله، فإني رأيت جدي العباس «رضي الله عنه» في المنام قلدني سيفين لقتل أصحاب الإثنين^(٢)»^(٣).

وقد نشط الزنادقة وجأهروا أيام العباسيين، ولهم حوارات مع الإمام الصادق «عليه السلام». وكان من بين أنشطتهم وضع الحديث على لسان النبي «صلى الله عليه وآله» وسواه، والدسّ في المؤلفات وأمثال ذلك من طرق التزوير بهدف تشويه الإسلام، وإفساد أمور المسلمين.

ونجد مثلاً أن الزنديق عبد الكريم بن أبي العوجاء الذي قتله أحد الأمراء العباسيين في البصرة، قال حين قُدّم للقتل: (لقد وضعت فيكم أربعة آلاف حديث، أحرم فيها الحلال، وأحلّ فيها الحرام)^(٤).

ونقل ابن الجوزي في كتابه (الموضوعات) أن الزنادقة قصدوا إفساد

١. كناية عن للصلب.

٢. أي القائلون بآلهين.

٣. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ٦، ص ١٠٥.

٤. ابن حجر: لسان الميزان، ج ٤، ص ٥١.

الشرعية وإيقاع الشك فيها في قلوب العباد والتلاعب بالدين، وروى عن المهدي العباسي أنه قال: (أقرّ عندي رجل من الزنادقة أنه وضع أربعمئة حديث، فهي تجول في أيدي الناس)^(١).

وتذكر بعض المصادر أن بعض الزنادقة كانوا يستغلّون فرصة تغافل الأستاذ عن كتابه، فيدسّون فيه ما ليس من حديثه، فيرويه ذلك الأستاذ ظناً منه أنه من حديثه!! وهذا يذكرنا بأسلوب المغيرة بن سعيد الذي كان يدسّ في كتب أصحاب أئمة أهل البيت «عليهم السلام».

ففي (رجال الكشي) عن اليعقطيني، عن يونس بن عبد الرحمن: (أنّ بعض أصحابنا سأله وأنا حاضر فقال له: يا أبا محمد، ما أشدّك في الحديث وأكثر إنكارك لما يرويه أصحابنا، فما الذي يحملك على ردّ الأحاديث؟ فقال: حدثني هشام بن الحكم أنه سمع أبا عبد الله «عليه السلام» يقول: لا تقبلوا علينا حديثاً إلا ما وافق القرآن والسنة أو تجدون معه شاهداً من أحاديثنا المتقدمة، فإنّ المغيرة بن سعيد «لعنه الله» دسّ في كتب أصحاب أبي أحاديث لم يحدث بها أبي، فاتقوا الله ولا تقبلوا علينا ما خالف قول ربنا «تعالى» وسنة نبينا محمد «صلى الله عليه وآله»، فإنّا إذا حدّثنا قلنا: قال الله «عزّ وجل»، وقال رسول الله «صلى الله عليه وآله». قال يونس: وافيتُ العراق فوجدت بها قطعة^(٢) من أصحاب أبي جعفر «عليه السلام» ووجدت أصحاب أبي عبد الله «عليه السلام» متوافرين، فسمعت منهم وأخذت كتبهم فعرضتها بعدُ على

١. ابن الجوزي: الموضوعات، ج ١، ص ٢١.

٢. أي مجموعة قليلة منهم.

أبي الحسن الرضا «عليه السلام» فأكثر منها أحاديث كثيرة أن يكون من أحاديث أبي عبد الله «عليه السلام»، وقال لي: إن أبا الخطاب كذب على أبي عبد الله «عليه السلام»، لعن الله أبا الخطاب، وكذلك أصحاب أبي الخطاب يدسون هذه الأحاديث إلى يومنا هذا في كتب أصحاب أبي عبد الله «عليه السلام»، فلا تقبلوا علينا خلاف القرآن، فإننا إن تحدثنا، حدثنا بموافقة القرآن وموافقة السنة، إننا عن الله وعن رسوله نُحدث، ولا نقول: قال فلان وفلان فيتناقض كلامنا، إن كلامَ آخرنا مثل كلام أولنا، وكلام أولنا مصداق لكلام آخرنا، وإذا أتاكم من يُحدثكم بخلاف ذلك فردوه عليه وقولوا: أنت أعلم وما جئت به، فإن مع كل قول منّا حقيقة وعليه نور، فما لا حقيقة معه ولا نور عليه فذلك قول الشيطان^(١).

وفي رجال الكشي أيضاً عن يونس، عن هشام بن الحكم أنه سمع أبا عبد الله «عليه السلام» يقول: (كان المغيرة بن سعيد يتعمد الكذب على أبي «عليه السلام» ويأخذ كتب أصحابه، وكان أصحابه المستترون بأصحاب أبي يأخذون الكتب من أصحاب أبي فيدفعونها إلى المغيرة، فكان يدس فيها الكفر والزندقة ويسندها إلى أبي «عليه السلام»، ثم يدفعها إلى أصحابه فيأمرهم أن يبيتوها في الشيعة. فكل ما كان في كتب أصحاب أبي «عليه السلام» من الغلو فذاك مما دسّه المغيرة بن سعيد في كتبهم)^(٢). هكذا اشتغل الزنادقة لتدمير ما أرادوا تدميره في الثقافة الإسلامية.

١. المجلسي: بحار الأنوار، ج ٢، ص ٢٤٩-٢٥٠.

٢. المجلسي: بحار الأنوار، ج ٢، ص ٢٥٠.

ننتقل الآن لتقديم بعض النماذج من روايات سيف بن عمر التميمي فيما له علاقة بخصوص الفتوحات الإسلامية ونحاول تقييمها بالمقارنة بما رواه غيره حول نفس الأحداث.

• ذات السلاسل:

قد يتفاجأ المرء أن وقعة مشهورة كوقعة ذات السلاسل لم يكن لها وجود في التاريخ - بالصورة المعروفة - بل هي من مختلقات سيف بن عمر! وقد ركّز فيها سيف على نقطة خطيرة ما زالت تأثيراتها حاضرة في التصور العام، وتتمثل في انتشار الإسلام عن طريق السيف والحروب الدموية الرهيبة التي لا تقلّ أبداً عن تلك التي جرت على يد المغول والقادة العسكريين السفّاكين الذي لا يملّون من إراقة الدماء وتحقيق النتائج الميدانية بأي ثمن ووسيلة.

فالقصة - بحسب نقل الطبري لها عن سيف - جاءت كالتالي: (عن سيف، عن المجالد، عن الشعبي، قال: كتب خالد إلى هرمز قبل خروجه مع آزادبه أبي الزيادة الذين باليمامة، وهرمز صاحب الثغر يومئذ، أما بعد، فأسلم تسلم، أو اعتقد لنفسك وقومك الذمة، وأقرر بالجزية وإلا فلا تلومن إلا نفسك، فقد جئتكم بقوم يحبّون الموت كما تحبون الحياة).

ثم أكمل سيف روايته قائلاً: (لما قدّم كتاب خالد على هرمز كتب بالخبر إلى شيري بن كسرى، وإلى أردشير بن شيري، وجمع جموعه، ثم تعجّل إلى الكواظم^(١) في سرعان أصحابه^(٢)، ليتلقى خالدًا.... واقتربوا في السلاسل،

١. وهي منطقة كاظمة التي تقع حالياً شمال دولة الكويت.

٢. أي أسرهم.

فقال من لم ير ذلك لمن رآه: قيّدتم أنفسكم لعدوكم! فلا تفعلوا، فإنّ هذا طائر سوء^(١). فأجابوهم وقالوا: أمّا أنتم فحدّثونا أنكم تريدون الهرب. فلما أتى الخبر خالداً بأنّ هرمرز في الحفير، أمال الناس إلى كاظمة، وبلغ هرمرز ذلك فبادره إلى كاظمة فنزلها وهو حسير، وكان من أسوأ أمراء ذلك الفرع جواراً للعرب، فكلّ العرب عليه مُغيظ، وقد كانوا ضربوه مثلاً في الخُبث حتى قالوا: أخبث من هرمرز! وأكفر من هرمرز^(٢)! وتعبى هرمرز وأصحابه واقتربوا في السلاسل والماء في أيديهم^(٣)، وقَدِم خالد عليهم فنزل على غير ماء، فقالوا له في ذلك، فأمر مناديه فنادى: ألا انزلوا وخطّوا أثقالكم ثم جالدوهم على الماء، فلعمري ليصيرنّ الماء لأصبر الفريقين وأكرم الجندين^(٤).

فحطّ الأثقال والخيول وقوف، وتقدّم الرجل ثم زحف إليهم حتى لاقاهم فاقتتلوا، وأرسل الله سحابةً فأغرزت ما وراء صفّ المسلمين فقوّاهم بها^(٥) وما ارتفع النهار وفي الغائط^(٦) مقترن أي أنه تم قتل كل أفراد الجيش.

وفي رواية أخرى لسيف: (وأرسل هرمرز أصحابه بالغد ليغدروا بخالد،

١. أي شؤم.

٢. هذا المثل من اختراع سيف ولا أصل له.

٣. أي كانت مياه الشرب في الآبار ونحوها تحت سيطرتهم.

٤. يبدو أن سيفاً أخذ هذه القصّة عن حادثة وقعت لجيش الإمام علي حين اتجه إلى صفّين فوجد أن قوات معاوية قد سيطرت على النهر ومنعت قواته من أن تستقي منه، فغلبهم عليه، وسمح للجميع بالاستفادة منه.

٥. يبدو أن سيفاً أخذ هذه الجزئية محاكاة لما جرى في غزوة بدر الكبرى، قال الله «تعالى»: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُم رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾.

٦. الغائط: الأرض الواسعة.

فواطؤوه على ذلك ثم خرج هرمز فنادى: رجل ورجل^(١) أين خالد؟ وقد عهد إلى فرسانه عهده فلما نزل خالد نزل هرمز ودعاه إلى النزال، فنزل خالد فمشى إليه فالتقيا فاختلفا ضربتين واحتضنه خالداً، وحملت حامية هرمز وغدرت، فاستلحموا خالداً، فما شغله ذلك عن قتله. وحمل القعقاع بن عمرو واستلحم حماة هرمز فأناموهم وإذا خالد يماصعهم^(٢) وانهمزم أهل فارس وركب المسلمون أكتافهم إلى الليل! وجمع خالد الرثا^(٣) وفيها السلاسل، فكانت وقر بغير، ألف رطل، فسُميت ذا السلاسل^(٤).

ثم يستطرد سيف في خبر آخر يروي فيه فتح البصرة والأبلة^(٥)، وهو ميناء

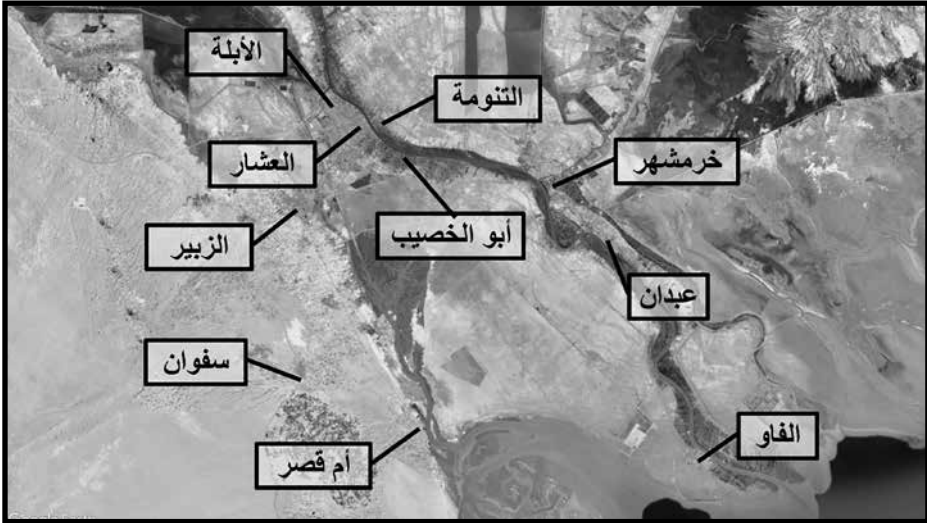
١. أي أنه يطلب المبارزة الفردية.

٢. مَصَعَ فلاناً: ضربه بالسيف أو السوط.

٣. أي الثياب الخلقية.

٤. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٣٠٩-٣١٠.

٥. كانت (الأبلة) الميناء البحري الواقع على الخليج العربي جنوب العراق، قال الطبري بشأنها: (كانت مرفأ السفن من الصين وما دونها). وقال ياقوت الحموي في (معجم البلدان): (بلدة على شاطئ دجلة البصرة العظمى في زاوية الخليج الذي يدخل إلى مدينة البصرة، وهي أقدم من البصرة... وكانت الأبلة حينئذ مدينة فيها مسالح) أي قوات عسكرية (من قبل كسرى، وقائد. وكان خالد بن صفوان يقول: ما رأيت أرضاً مثل الأبلة مسافة، ولا أغذى نطفة، ولا أوطأ مطية، ولا أريح لتاجر، ولا أخفى لعائد. وقال الأصمعي: جنان الدنيا ثلاث: غوطة دمشق، ونهر بلخ، ونهر الأبلة. وحشوش) البساتين المتنوعة الخضرة (الدنيا خمسة: الأبلة، وسيراف، وعمان، وأردبيل، وهيت). وصفها محمد بن عبد المنعم الحميري (ت ٩٠٠ هـ/١٤٩٥ م) في كتابه (الروض المعطار في خبر الأقطار): (وهي صغيرة المقدار حسنة الديار واسعة العمارة متصلة البساتين عامرة بالناس المياسير وهم في خصب من العيش ورفاهية. وهي في قول محمد بن سيرين القرية التي مر بها موسى والخضر «عليه السلام» فاستطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما، قالوا: وهم أبخل أهل قرية وأبعدها من السخاء). وهي تعد اليوم ضمن مدينة البصرة بحدودها الحالية.



موقع الأبلّة

قريب من البصرة، وكيف تمت الاستعانة بفيل، وكمية الغنائم الهائلة التي حصل عليها المسلمون وغير ذلك^(١).

وبغض النظر عن مسألة ربط المقاتلين بالسلاسل أثناء القتال لمنعهم من الهروب، وهو الأمر الذي لا يمكن لأي قائد عسكري أن يقوم به مهما كان غيباً، لما في ذلك من إعاقة تامة لحركتهم ومناوراتهم، فضلاً عن احتمال إسقاط بعضهم البعض وتحوّلهم إلى فرائس سهلة بيد الخصوم، تبقى مسألة قتلهم من قبل جيش المسلمين وإبادتهم عن بكرة أبيهم، وبحسب تعبير سيف: (وما ارتفع النهار وفي الغائط مقترن... وركب المسلمون أكتافهم إلى الليل) أمراً محتملاً في ساحات المعارك.

إلا أن النصوص الأخرى التي لم تأت عن طريق سيف تحكي الحدث بصورة

١. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٣٠٩.

مغايرة تماماً، ولا نجد فيها هذه الوحشية التي لا تُبقي على أسير مربوط بالسلاسل على قيد الحياة. الأمر الذي يدفعنا إلى الشك في نوايا سيف من روايته الغريبة، والتي قد يكون الدافع لها زندقته التي دفعته لتشويه صورة الإسلام والفتوحات، وكما لو كان الإسلام فعلاً قد انتشر بالسيف وحروب الإبادة الجماعية والوحشية!

والآن، فلنلاحظ ماذا قال سائر الرواة عن تلك المواجهة التي تمت بين المسلمين والفرس والتي تحدّث عنها سيف بهذه الصورة.

روى البيهقي: (قال خريم بن أوس بن حارثة بن لام: لم يكن أحدٌ أعدى للعرب من هرمز، فلما فرغنا من مسيلمة وأصحابه، أقبل إلى ناحية البصرة، فلقينا هرمز بكازمة في جمع عظيم، فبرز خالد بن الوليد ودعا إلى البراز، فبرز له هرمز فقتله خالد «رضي الله عنه»، وكتب بذلك إلى أبي بكر الصديق «رضي الله عنه»، فنفله سلبه^(١)).

وفي المعجم الكبير للطبراني تنمة الخبر: (ثم سرّنا على طريق الطف الشاطيء أو ما أشرف على ريف العراق (حتى دخلنا الحيرة...)^(٢)).

وقد تنبّه الطبري إلى تفرّد سيف بتلك الروايات وأنها من اختلافاته، فقال بعد الروايات السابقة عن ذات السلاسل وفتح البصرة والأبلة: (وهذه القصة في أمر الأبلة وفتحها خلاف ما يعرفه أهل السير وخلاف ما جاءت به الآثار الصحاح، وإنما كان فتح الأبلة أيام عمر «رحمه الله» وعلى يد عتبة

١. البيهقي: السنن الكبرى، ح ١٢٥٧٠.

٢. الطبراني: المعجم الكبير، ج ٤، ص ٢١٤.

بن غزوان^(١) في سنة أربع عشرة من الهجرة^(٢). ثم أورد الطبري الأخبار المروية في فتح الأبلّة - التي وعد بها - ضمن أخبار العام الرابع عشر، وليس في ما أورده هناك شيء ممّا رواه سيف في ذلك. وبالتالي، فإنّ معركة كاظمة لم تكن بهذه الصورة المنقولة في روايات سيف، كما لم يستتبعها فتح الأبلّة والبصرة.

• صورة معكوسة:

والواقع - كما سيتبيّن معنا تدريجياً - أن الرواة غير سيف رووا في أحداث الفتوحات في العراق وغيرها تفاصيل تؤكّد على أنّ أهل مناطق عديدة من تلك التي دخلها المسلمون كانوا يستقبلونهم بالصلح، ودفع الجزية أو بالمواجهة البسيطة التي سرعان ما تنتهي ويتوزّع بعدها المقاتلون.

نعم، وقعت بعض المواجهات والحروب العنيفة والمعدودة في نفس الوقت مع الجيش الساساني. ولنأخذ بعض الشواهد، ونرجيء بعضها الآخر للعرض في فصول لاحقة.

١. عتبة بن غزوان بن جابر بن وهيب المازني (ت ١٧ هـ) صحابي بدري، كان حليفاً لبني نوفل بن عبد مناف في الجاهلية. أسلم قديماً، وقيل كان سابع سبعة أسلموا في بداية البعثة. هاجر إلى الحبشة أولاً، ثم إلى المدينة، وشارك مع النبي «صلى الله عليه وآله» في غزواته كلها، وكان فيها من الرماة المهرة، ثم شارك في فتح العراق، وهو الذي اختطّ البصرة، وكان أول ولايتها. قضى في البصرة ستة أشهر، ثم سار إلى المدينة المنورة يستعفي من الولاية، فرفض عُمر، وردّه إلى ولايته، فمات في الطريق سنة ١٧ هـ، وعمره يومها ٥٧ سنة، ودفن بالقرب من المدينة المنورة.

٢. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٣١٠.

١. من الشواهد ما ذكره المستشرق البريطاني المعاصر (هيو كينيدي)^(١) في كتابه (الفتوح العربية الكبرى) في معرض ردّه على المشكّكين في الروايات الإسلامية التي تتحدث عن بعض الفتوحات، بأنها قد تكون من وضع خيال المؤلفين أو الرواة، لاسيما تلك التي تدلّ على وجود تعاون بين بعض أهالي المدن المفتوحة وبين المسلمين، قال: (فالحولية السوربانية الخوزستانية مثلاً، أو التاريخ الأرمني الذي كتبه سيببوس Sebeos، كلاهما روايات كتبها مسيحيون في غضون قرن بعد تلك الحوادث التي يتحدثون عنها، وهما أقصر كثيراً وأقل تفصيلاً عن الروايات العربية، ولكنهما تؤكدان الإطار العام للتاريخ العربي، بل إنهما في بعض الأحيان تؤكدان التفاصيل.

فمثلاً، تقول المصادر العربية أن مدينة (تُسْتَر) جيدة التّحصين سقطت بأيدي المسلمين بسبب خيانة بعض السكان، الذين بيّنوا للمسلمين كيف يدخلون عبر قنوات الماء المغطّاة. ومثل هذا العنصر غالباً ما كان يتم استبعاده على أساس أنه عبارة عن صياغة بلاغية ولا قيمة له، أننا نجد روايات مماثلة عن فتوح مدن وحصون أخرى.

أما في هذه الحالة، فإنّ مؤرخة خوزستان المحلية وهي مصدر سورياني مسيحي لا علاقة له ألّبتة بالتراث الإسلامي، تحكي لنا القصة نفسها بشكل مستقل، مما يوحي بشدة أن المدينة سقطت فعلاً بالطريقة التي ورد وقفها. ومغزى هذا أنه يمكن الاعتماد على المصادر التي تتحدث عن فتح تستر بدرجة

١. هيو كينيدي Hugh Nigel Kennedy (ولد ١٩٤٧م) مستشرق ومؤرخ بريطاني، ويعمل في مدرسة الدراسات الشرقية للندية. من مؤلفاته: The Prophet and the Age of the Caliphates.

أكبر مما كنا نظن، وربما يصدق هذا على المناطق الأخرى أيضاً^(١).

٢. وأضاف في مكان آخر حول العلاقة بين أهل قم والمسلمين: (وفي بعض الأحيان، كان العرب يلقون الترحيب من السكان المحليين، وفي مدينة قم الصغيرة، التي اشتهرت فيما بعد بوصفها واحدة من المزارات العظمى في إيران، رحّب الحاكم المحلي يزدانفر بالمستوطنين العرب، وأعطاهم قرية لسكناهم، وزوّدهم بالأراضي والحيوانات والبذور لكي يبدأوا الزراعة، وكان سبب هذا الكرم أن أهل قم كانوا يعانون من إغارات الديلم القادمين من الجبال في الشمال، وكان يزدانفر يأمل في أن يقوم العرب بالدفاع عن الجماعة التي سكنوا بينها ضد أعمال السلب والنهب التي يقوم بها أولئك المغيرون)^(٢).

٣. ويذكر في موضع ثالث حول فتح أذربايجان: (ومرّة أخرى، لقي العرب المساعدة بفضل تعاون شخص مهم من النخبة الإيرانية، كان أسفندياز -أخو رستم الذي كان قد تولّى قيادة الجيوش الفارسية في هزيمتها الكارثية بالقادسية- هو ذلك الشخص. وربما كانت العائلة قد جاءت من هذه المنطقة، وقاد أسفندياز جيوش أذربايجان ووافق على أن يكون وسيطاً بين القائد العربي والسكان المحليين.... ومرة أخرى كانت الدبلوماسية هي التي ضمنت نجاح جيوش المسلمين)^(٣).

١. كينيدي: الفتوح العربية الكبرى، ص ٤٢-٤٤.

٢. كينيدي: الفتوح العربية الكبرى، ص ٢٥٣.

٣. كينيدي: الفتوح العربية الكبرى، ص ٢٥٧.

٤. وحول فتح مدينة دربند التي يسميها العرب (باب الأبواب) الواقعة حالياً في داغستان ضمن الاتحاد الروسي: (كان قائد الحامية الساسانية رجلاً يدعى «شهربراز»^(١)) وكان واعياً تماماً لأصوله الارستقراطية، ومن الواضح أنه لم يكن يتعاطف مع أهل القوقاز والأرمن الذين كانوا يحيطون به، ولأنه كان يعرف أن الحكم الساساني قد انهار في الأماكن الأخرى، فقد سعى إلى الارتباط مع القادة العرب، ودخل في سلسلة من المفاوضات تم الاتفاق فيها على إعفائه هو ورجاله من دفع الجزية، في مقابل الخدمة العسكرية في جيش الحدود. وبهذه الطريقة لم تتم هزيمة العناصر الباقية من الجيش الساساني، وإنما دخلوا في صفوف جيوش الإسلام. ولا شك أن بعضهم سرعان ما اعتنقوا الإسلام... وقيل إنه تم اتخاذ ترتيبات مماثلة مع السكان المسيحيين في مرتفعات أرمينية وتوغلت الجيوش العربية حتى تبليسي في جورجيا)^(٢).

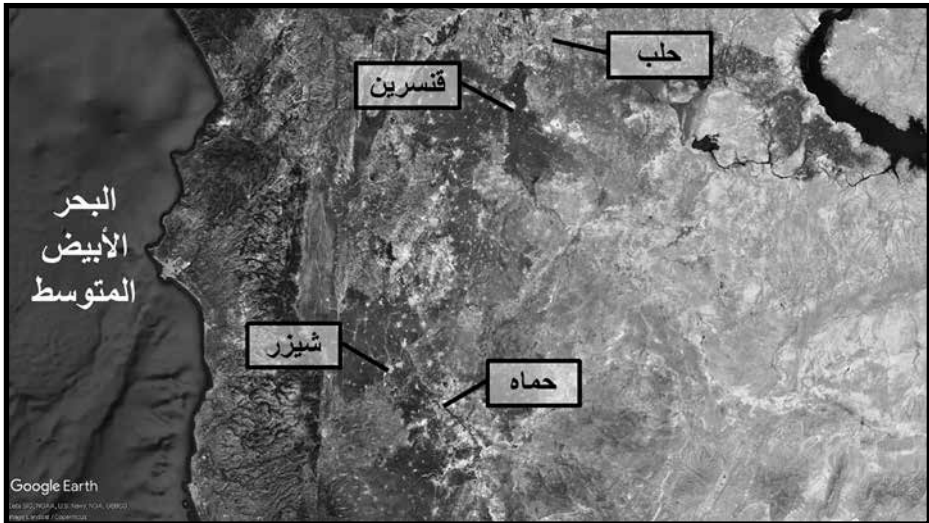
٥. وفي كتاب (الاكتفا بما تضمنه من مغازي رسول الله «صلى الله عليه وآله» والثلاثة الخلفاء) للكلاعي البلسني رواية عن شاهد عيان من جيش الروم أسلم لاحقاً وأخبر عن بعض مشاهداته، ومن بينها موقف بعض العرب في الشام من المسلمين (الفاتحين/الغزاة)، والرواية كالتالي: (عن رجل من الروم يدعى جرجة، كان قد أسلم فحسن إسلامه، قال: كنت في ذلك الجيش الذي بعث قيصر من أنطاكية مع باهان، فأقبلنا ونحن لا يُحصي عددنا إلا الله، ولا نرى أن لنا غالباً من الناس، فأخرجنا أوائل العرب من أرض قنّسرين،

١. وتعني في الفارسية خنزير المملكة أو خنزير الإمبراطورية (كرّاز كشور - كراز امپراتوري) ويُطلق للشّاء والدلالة على البطولة، كما أنه من رموز الآلهة القديمة.

٢. كينيدي: الفتوح العربية الكبرى، ص ٢٥٨.



مدينة دربند وبعض المدن القريبة منها



موقع قنسرين وشيزر

ثم أقبلنا في آثارهم حتى أخرجناهم من حمص، ثم أقبلنا في آثارهم حتى أخرجناهم من دمشق. قال: ولحق بنا كل من كان على ديننا من النصارى، حتى إن كان الراهب لينزل عن صومعته وقد كان فيها دهرًا طويلاً من دهره، فيتركها وينزل إلينا ليقا تل معنا غضباً لدينه ومحاماة عليه، وكان من كان من العرب بالشام ممن كان على طاعة قيصر ثلاثة أصناف، فأما صنف فكانوا على دين العرب^(١) وكانوا معهم، وأما صنف فكانوا نصارى، وكانت لهم في النصرانية نية^(٢)، فكانوا معنا، وأما صنف فكانوا نصارى ليس لهم في النصرانية تلك النية، فقالوا: نكره أن نقاتل أهل ديننا ونكره أن ننصر العجم^(٣) على قومنا، وأقبلت الروم تتبع أهل الإسلام وقد كانوا هائبين لهم مرعوبين منهم، ولكنهم أي المسلمين لما رأوهم قد خلوا لهم البلاد وتركوا لهم ما كانوا افتتحوا، جرأهم ذلك عليهم مع عددهم الذي لم يجتمع قط لأحد من قبلهم^(٤).

٦. وفي نفس المصدر حول معركة اليرموك ما يدل على توظيف بعضهم لخدمة جيش المسلمين: (قال ابن قرط: ولما نزل الروم منزلهم الذي نزلوا فيه، دسنا إليهم رجالاً من أهل البلد كانوا نصارى قد أسلموا، فأمرناهم أن يدخلوا عسكرهم فيكتموا إسلامهم ويأتونا بأخبارهم، فكانوا يفعلون ذلك)^(٥).

١. أي الإسلام.

٢. أي اعتقاد راسخ.

٣. غير العرب، والمراد هنا خصوص الروم.

٤. الكلاعي: الاكتفا، ج ٢، ص ٢٦٠-٢٦١.

٥. الكلاعي: الاكتفا، ج ٢، ص ٢٦١.



موقع طبرية وبيسان

٧. وفي وقعة (فحل) التي قيل أنها جرت في موضع بين طبرية وبيسان، ومع تكالب الروم على المسلمين وقفت لخم وجذام وغسان وعاملة والقين وقبائل من قضاة فدخلوا مع المسلمين، فكثُر عددهم، وروى ابن عساكر في تنمة وصف الأحداث أنه: (أخذ أهل البلد من النصارى يرسلون المسلمين فيُقدّمون رجلاً ويؤخرون أخرى) أما سبب ترددهم في نصرة المسلمين قد بينوه (ويقولون: يا معشر المسلمين، أنتم أحب إلينا من الروم، وإن كانوا على ديننا، أنتم أوفى لنا وأرأف بنا وأكف عن ظلمنا من الروم، ولكنهم قد غلبونا على منازلنا)^(١).

٨. وروى ابن آدم في كتابه (الخراج) أنه قديم زعماء قبائل العرب بالسواد، وفيهم ابن الرفيل على الخليفة عمر فقالوا: (يا أمير المؤمنين، إننا قوم من أهل السواد وكان أهل فارس قد ظهوروا وأضرّوا بنا، ففعلوا وفعلوا حتى ذكروا

١. ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، ج ٤١، ص ١٣٠.

النساء، فلما سمعنا بكم فرحنا بكم وأعجبنا ذلك، فلم نرد كَفَّكُمْ عن شيء حتى أخرجتموهم عنا، فبلغنا أنكم تريدون أن تسترققونا) كونهم من غير المسلمين (فقال عمر «رضي الله عنه» فالآن إن شئتم فالإسلام، وإن شئتم فالجزية) فاخترأوا الجزية^(١).

٩. وأشارت عدد من المصادر التاريخية إلى أن (بطريك/بطريق)^(٢) تكريت واسمه (ماروثا) فتح حصن المدينة للمسلمين، وحال بذلك دون هروب الحامية الرومية، لتقع بقبضة المسلمين نتيجة عدائه للبيزنطيين الذين كانوا يمارسون الاضطهاد بحق من يخالفونهم في المذهب. فقد كان المذهب اليعقوبي المنوفستي^(٣) قد انتشر إلى الجنوب والشرق من جبل سنجار حتى شمال تكريت التي تتصل بهذه المناطق^(٤).

١٠. وإذا كان الساسانيون قد وظفوا بعض القبائل العربية في حروب الردة والتمرد على دولة الإسلام الفتية، فإن الخلافة من بعد النبي «صلى الله عليه وآله» عملت على توظيف البعض الآخر منهم ضد الساسانيين، لاسيما وأن حالة التمرد عليهم في العراق كانت قد بدأت قبل هذا التاريخ.

يقول د. عدي الجبوري في كتابه (دوافع الفتوحات الإسلامية): (الدولة

١. ابن آدم: الخراج، ص ٣٢-٣٤.

٢. مرتبة دينية مسيحية.

٣. المذهب اليعقوبي نسبة إلى الأب السوري يعقوب البرادعي الذي قام بالدعوة له ونشره، وهو مذهب الكنائس الشرقية (الأرثوذكس). أطلق عليه لقب البرادعي لأنه كان يرتدى ملابس المسؤولين في فترة اضطهاد المسيحيين القائلين بالطبيعة الواحدة للمسيح رافضين بذلك قرارات مجمع خلقدونيا سنة ٤٥١م.

٤. الجبوري: دوافع الفتوحات الإسلامية، ص ٢١٩.

العربية الإسلامية في تلك الأثناء كانت عازمة على مواصلة سياسة الرسول «صلى الله عليه وآله» في الفتح وتحقيق أهداف الإسلام الكبرى في الانتشار وتحرير الأرض، والتي تزامنت مع نشاطات أبناء تلك القبائل الهادفة إلى طرد المحتل - كما هو حال القبائل العراقية - إذ عملت الخلافة على استثمار وتوظيف كل تلك الظروف خدمةً لأهدافها الأولى من خلال تشجيعها لهم وتخويلها بعضهم بالإغارة ومواجهة المحتلين بالقوة، لاسيما وأن منهم من كان على الإسلام^(١).

وعندما سنقوم بالاطلاع على بعض التفاصيل التاريخية حول علاقة الروم البيزنطيين بأهل الشام ومصر وأرمينية وغيرها، يمكن أن نتفهم ردود فعل أهالي تلك البلاد ضدّهم لاسيما بلحاظ كونهم محتلين لأرضهم منذ قرون، وكان الاختلاف المذهبي سبباً في اضطهاد الأهالي بشدّة وبأبشع الصور، علاوة على فرض الضرائب الباهظة والإجبار على المشاركة في الحروب وما إلى ذلك من أمور دفعتهم إلى اتخاذ موقف العداء مع البيزنطيين والانحياز للمسلمين.

• اختلاق الأماكن؛

ضمن حديثه عن حرب الهرمزان، وهي من ضمن فتوحات بلاد فارس، اختلق سيف موقعاً بالقرب من الأهواز اسمه (دُلوْث)، ونقل عنه اسم الموقع كل من الطبري في تاريخه وياقوت الحموي في معجم البلدان. وحينما نراجع المصادر الأخرى التي لم تأخذ من سيف، فإنها لا تذكر ذلك المكان نهائياً، وذلك من قبيل المصنفات التالية:

١. الجبوري: دوافع الفتوحات الإسلامية، ص ٢٢٧.

- صفة جزيرة العرب: الحسن بن أحمد المعروف بابن الحائك (ت ٣٣٤هـ).
- فتوح البلدان: أحمد بن يحيى البلاذري (ت ٢٧٩هـ).
- الآثار الباقية عن القرون الخالية: محمد بن أحمد البيروني (٤٤٠هـ).
- معجم ما استعجم: عبد الله بن عبد العزيز البكري الوزير (٤٧٨هـ).
- تقويم البلدان: إسماعيل صاحب حماه (ت ٤٣٢هـ).

قال ياقوت الحموي: (دُلُوث: قال سيف عن رجل من عبد القَيْس يُدعى صُحاراً، قال: قدمت على هَرَم بن حَيَّان أيام حرب الهرمزان بنوإحي الأهواز وهو فيما بين دُلُوث ودُجَيْل^(١) بجلال من تَمَر) الجَلَّة: قُفَّة التمر (وذكر خبراً. وسماها في موضع آخر دُلُث)^(٢).

وهكذا نقل عنه الحموي وجود موضع ببلاد فارس اسمه طاووس، قال: (طاووس: موضع بنوإحي بحر فارس عن سيف كان العلاء الحضرمي أرسل إليه جيشاً في البحر من غير إذن عمر فسخط عليه وعزله...) ^(٣). وأخذ عنه الطبري أيضاً في تاريخه.

كما نقل عنه الحموي وجود موضع بجزيرة العرب اسمه القُرْدُودَة، قال: (القُرْدُودَة: لما تنبأ طليحة ونزل بسميراء، أرسل إليه ثمامة بن أوس بن لام الطائي أن معي من جديلة خمسمائة فإن دهمكم أمر فنحن بالقردودة

١. عرف العرب نهر كارون باسم دجيل الأحواز، وإنما سموه بدجيل للتمييز بينه وبين دجلة العراق، وهذا النهر يمر بمدينة الأهواز فيقسمها إلى منطقتين.

٢. الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٤٦٠.

٣. الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ١٤٢.

والأنسر، دُوِّين الرَّمْل^(١). وأخذ عنه الطبري أيضاً في تاريخه ضمن حديثه عن ردّة غطفان.

وقد ذكر السيد مرتضى العسكري -الذي كان له دور كبير في كشف حقيقة ما فعله سيف بن عمر في أخبار الردّة والفتوحات وما بعد ذلك- ١٣ موضعاً مختلفاً من قبل سيف بن عمر، وقال: (هذه إلى كثير غيرها يوردها الحموي في معجم البلدان اعتماداً على قصص سيف، بينما لا نجد لها ذكراً في الكتب البلدانية الأخرى)^(٢).

• اختلاق الشخصيات:

كتاب (خمسون ومائة صحابي مختلق) ألّفه السيد مرتضى العسكري بعد كتابه (عبد الله بن سبأ) الذي سلّط فيه الضوء على دور سيف بن عمر، وعلى إثر اكتشافه مسألة اختلاق الشخصيات، وخصّصه لذكر أسماء وبعض أحوال الشخصيات الوهمية التي اختلقها سيف بن عمر التميمي وبلغت أكثر من ١٥٠ شخصية، ومن بينهم الأسماء التالية:

القسم الأول - صحابة من تميم

١. القعقاع بن عمرو بن مالك التميمي من شيعة الإمام علي .

٢. عاصم بن عمرو بن مالك التميمي .

٣. الأسود بن قطبة بن مالك التميمي .

١. الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٣٢٢.

٢. العسكري: عبد الله بن سبأ، ج ١، ص ٣٠٥.

- ٤ - أبو مفزر التميمي .
- ٥ - نافع بن الأسود بن قطبة بن مالك التميمي من شيعة الإمام علي .
- ٦ - عفيف بن المنذر التميمي .
- ٧ - زياد بن حنظلة التميمي من شيعة الإمام علي .
- ٨ - حرملة بن مريطة التميمي .
- ٩ - حرملة بن سلمى التميمي .
- ١٠ - الربيع بن مطر بن ثلج التميمي .
- ١١ - ربعي بن الأفكل التميمي .
- ١٢ - أط بن أبي أط التميمي .
- ١٣ - سكير بن خفاف التميمي .
- ١٤ - عوف بن العلاء الجشمي التميمي .
- ١٥ - أوس بن جذيمة التميمي .
- ١٦ - سهل بن منجاب التميمي .
- ١٧ - وكيع بن مالك التميمي .
- ١٨ - حصين بن نيار الحنظلي التميمي .
- ١٩ - الحارث بن أبي هالة التميمي ربيب رسول الله .
- ٢٠ - الزبير بن أبي هالة التميمي ربيب رسول الله .
- ٢١ - طاهر بن أبي هالة التميمي ربيب رسول الله .

٢٢- زر بن عبد الله الفقيمي التميمي .

٢٣- الأسود بن ربيعة التميمي .

وبعد أن قدّم السيد العسكري دراسته حول كل هذه الشخصيات قال: (بهذا ننهي من دراسة ثلاثة وعشرين صحابياً ممن اختلقهم سيف بن عمر من تميم وهو آخر الجزء الأول من هذا الكتاب، ونسأل الله «تعالى» أن يوفقنا لإصدار بقية دراساتنا عنم اختلقهم من صحابة للرسول، وأن ينفع بها المؤمنين، ويجعلها خالصة لوجهه الكريم)^(١). ولكنه «رحمه الله» لم يكمل هذه الدراسة وتوقّف عند هذا الحد.

• القعقاع بن عمرو التميمي:

ولنطالع مختصراً مما ذكره حول الصحابي المختلق (القعقاع بن عمرو التميمي) لارتباط شخصيته وسيرته المزعومة بالفتوحات الإسلامية. قال السيد العسكري: (في عشرات الكتب الشهيرة ورد ذكر القعقاع، وترجمته في عداد الصحابة ورواة الحديث عن الرسول «صلى الله عليه وآله»، وأوّل من وجدناه يفرد له ترجمة - ممن بقي مؤلّفه في متناول أيدينا - أبو عمر في الاستيعاب^(٢)، قال بترجمته: «هو أخو عاصم بن عمرو التميمي، وكان لهما البلاء الجميل والمقام المحمود في القادسية». وتلاه ابن عساكر في موسوعته الكبرى تاريخ مدينة دمشق... هكذا وصفوا القعقاع بن عمرو منذ القرن الثاني الهجري حتى عصرنا الحاضر، حيث وصفوه بـرجل النجدة

١. العسكري: خمسون ومائة صحابي مختلق ج ٢، ص ٢٦٦.

٢. أي في كتاب (الاستيعاب في معرفة الأصحاب) لابن عبد البر القرطبي.

ونعتوه بفاتح خانقين، وحُلوان، وهمذان ضمن ذكر قادة الفتح الإسلامي، فمن هو القعقاع هذا؟... أخرج الطبري وابن عساكر عن سيف أنه روى، وقال: كان القعقاع من أصحاب النبي. وقال ابن حجر: أنشد سيف للقعقاع:

ولقد شهدت البرق برق تهامة يهدي المقانب راكبا لعيار
في جند سيف الله سيف محمد والسابقين لسنة الأحرار

.... روى ابن حجر بترجمته من الإصابة عن سيف بسنده إلى القعقاع قال: «قال لي رسول الله «صلى الله عليه وآله»: ما أعددت للجهاد؟ قلت: طاعة الله وطاعة رسوله والخيل، قال: تلك الغاية».... روى أيضاً ابن حجر في الإصابة^(١) عن سيف عن عمرو بن تمام عن أبيه عن القعقاع بن عمرو، قال: شهدت وفاة رسول الله «صلى الله عليه وآله»، فلما صلينا الظهر جاء رجل حتى قام في المسجد، فأخبر بعضهم أن الأنصار قد أجمعوا أن يولّوا سعداً - يعني ابن عبادة - ويتركوا عهد رسول الله «صلى الله عليه وآله» فاستوحش المهاجرون (من ذلك) ومن عادة سيف أن يختلق الروايات بحيث يميل من خلالها إلى الفئة الحاكمة ومن يواليها (ثم قال ابن حجر: أخرجها ابن السكن وقال: «سيف بن عمر ضعيف». وأخرج الرازي^(٢) هذه الرواية بترجمة القعقاع مختصراً وقال: «سيف متروك، فبطل الحديث، وإنما ذكرناه للمعرفة»^(٣)).

ثم قام السيد العسكري بدراسة أسانيد تلك الأخبار التي نقلها المصنفون عن سيف حول القعقاع فكانت المفاجأة، قال: (بحثنا عن هؤلاء الرواة في كتب

١. أي في كتاب (الإصابة في تمييز الصحابة) لابن حجر العسقلاني.

٢. العسكري: خمسون ومائة صحابي مختلف ج ١، ص ١٢٩ - ١٣٠.

٣. أي الحافظ ابن أبي حاتم الرازي في كتابه (الجرح والتعديل).

الحديث والتاريخ والأنساب والأدب، ولما لم نجد لهم ذكراً في غير أحاديث سيف، جاز لنا أن نعتبرهم من مختلقات سيف من الرواة^(١)!

أي أنّ سيفاً لم يكتف باختلاق القعقاع، بل جعل لروايته عنه أسانيد لشخصيات مختلقة أيضاً!

ثم جاء السيد العسكري ببعض روايات سيف عن مشاركة القعقاع في حروب الردّة والفتوحات، ومنها خبر فتح (أليس^(٢)) في العراق، قال: (وروى في خبر أليس أن نصارى العرب وعرب الضاحية غضبوا لمن قُتل منهم، فكاتبوا الفرس، فجاء إليهم القائد الفارسي جابان بجيشه واجتمعوا بأليس، واقتتلوا قتالاً شديداً، وزاد كلّهم توقعهم المدد من ملكهم، فألى خالد - إن انتصر عليهم - ألا يُبقي منهم أحداً يقدر عليه، وأن يُجري نهرهم بدمائهم، فلما انتصر عليهم منع عن قتل الأسرى، وأمر بجلبهم من كل جانب، فانتشر الجيش يجلب الأسرى من جوانب أليس، فأقبلت الخيول بهم أفواجا، مستأسرين يُساقون، ووكل بهم رجالاً يضربون أعناقهم في النهر، ففعل ذلك بهم يوماً وليلة، وطلبوهم الغد وبعد الغد حتى انتهوا إلى النهرين، ومقدار ذلك من كل جوانب أليس، فضرب أعناقهم وقال له القعقاع وأشباهُ له: لو أنك قتلت أهل الأرض لم تجر دماؤهم، إن الدماء لا تزيد على أن تترقق^(٣) منذ

١. العسكري: خمسون ومائة صحابي مختلف ج ١، ص ١٢٢.

٢. قال ياقوت الحموي: (أليس: مصغر بوزن فليس.... قال محمود وغيره: أليس بوزن سُكيت. الموضع الذي كانت فيه الواقعة بين المسلمين والفرس، في أول أرض العراق من ناحية البادية وفي كتاب الفتوح أليس قرية من قرى الأنبار).

٣. تترقق: تجري جرياً سهلاً.

نهيت عن السيلاَن ونهيت الأرض عن نشف الدماء، فأرسلَ عليها الماء تبرَّ يمينك. وقد كان صدَّ الماءَ عن النهر، فأعاده فجرى دماً عبيطاً، فسمِّي نهر الدم لذلك الشأن إلى اليوم.... كانت على النهر أرحاء فطحنت بالماء -وهو أحمر- قوتَ العسكر ثمانية عشر ألفاً أو يزيدون ثلاثة أيام.... وبلغت قتلهم سبعين ألفاً^(١).

ثم قال في معرض المقارنة بين روايات بعض المؤرِّخين الذين ذكروا أن خالد بن الوليد صالح أهل أليس ولم يقع بينه وبينهم قتال، وبين روايات سيف التي تحكي وقوع قتال كبير وقتل للأسرى وصبغ للنهر بدمائهم لثلاثة أيام: (في أليس ذكروا أن خالداً صالحهم على أن يكونوا أدلاء وعيوناً للمسلمين على الفرس، وسيف يذكر معركة هائلة وقسوة وفضاظة، فهل كان الدافع لسيف ذكر بطولات لمضر فحسب، أم أنَّ له مع هذا دافعاً آخر، وهو بيان أن الإسلام انتشر بحدِّ السيف وإراقة الدماء لا بمساعدة الشعوب على حكامهم كما كان الواقع؟)^(٢). وذكر السيد العسكري بعد ذلك حصيلة روايات سيف من الوضع حول أليس فجاءت كالتالي:

١. قائد للفرس اسمه قارن بن قريانس

٢. مكان اسمه (الثني) وآخر اسمه (الولجة)، يترجمان في الكتب البلدانية.

٣. أربعة رواة للحديث: المهلب بن عقبة الأسدي، أبو عثمان يزيد بن أسيد

١. العسكري: خمسون ومائة صحابي مختلف ج ١، ص ١٤٣-١٤٤.

٢. العسكري: خمسون ومائة صحابي مختلف ج ١، ص ١٤٦.

الفساني، زياد بن سرجس الأحمر، عبد الرحمن بن سياه الأحمر، يضافون إلى رواية الحديث .

٤. رَجَز يضاف إلى تراثنا الأدبي التاريخي.

٥. قتل بطل فارسي يعدل بألف، واتكاء خالد عليه وتغديه في ساحة الحرب مما يُعجب محبِّي الأساطير والراغبين في تكثير مناقب السلف الصالح.

٦. قتل عام استمر أياماً وليالي ممن يُجلبون من الأراضي القريبة والبعيدة.

٧. طحن الأرحية ثلاثة أيام قوت ثمانية عشر ألفاً أو يزيدون بالماء الأحمر من الدم.

٨. ثلاثون ألف قتيل في معركة الثني، وسبعون ألفاً في أليس، ومائة ألف غيرهم من غرق.

٩. مكرمة لبطل تميم، القعقاع وأشباهه، ولولاهم لبقى خالد يضرب الأعناق على حدّ زعم سيف إلى ما شاء الله، وهذا ما يُعجب به أعداء الإسلام الذين يرغبون أن يسمعوا كثرة القتلى في الفتوح الإسلامية. كل هذا من بركة أحاديث سيف^(١).

• معركة القادسية :

ستمرّ معنا معركة القادسية أثناء عرض الفتوحات، وقد ضخم سيف بن عمر أحداثها حتى أن الطبري روى عنه أخبار ثلاثة أيام مميّزة فيها، وهي:

١. يوم أرمات حيث كان النصر فيه حليف الفرس

١. العسكري: خمسون ومائة صحابي مختلف ج ١، ص ١٤٩.

٢. يوم أغواث والنصر فيه حليف المسلمين بفضل القعقاع

٣. يوم عماس

وفيه ذكر صَرَف الخليفة جيشاً نحو العراق للمساندة وفي مقدّمته القعقاع بن عمرو، قال سيف: (فانجذب القعقاع وطوى وتعلّل، فقدم على الناس صبيحة يوم أغواث وقد عهد إلى أصحابه أن يتقطعوا أعشاراً، وهم ألف، فكلما بلغ عشرة مدى البصر سرّحوا في آثارهم عشرة، فقدم القعقاع أصحابه في عشرة، فأتى الناس فسلم عليهم وبشّروهم بالجنود.... فتقدم ثم نادى: مَنْ يبارز؟ فقالوا فيه بقول أبي بكر: لا يُهزَم جيش فيهم مثل هذا. وسكنوا إليه. فخرج إليه ذو الحاجب، فقال له القعقاع: مَنْ أنت؟ قال: أنا بهمن جاذويه. فنادى: يا لثارات أبي عبيد! ^(١) وسليط وأصحاب يوم الجسر! فاجتلدا فقتله القعقاع، وجعلت خيله تردّ قطعاً وما زالت تردّ إلى الليل وتنشط الناس، وكأن لم يكن بالأمس مصيبة، وكأنما استقبلوا قتالهم بقتل الحاجبي ^(٢)، وللحاق القطع، وانكسرت الأعاجم لذلك. ونادى القعقاع أيضاً: من يبارز؟ فخرج إليه رجلان أحدهما البيرزان والآخر البندوان، فانضمّ إلى القعقاع الحارث بن ظبيان بن الحارث أخو بني تيم اللات فبارز القعقاع البيرزان فضربه فأذرى رأسه، وبارز ابن ظبيان البندوان فضربه فأذرى رأسه، وتوردهم فرسان المسلمين وجعل القعقاع يقول: يا معاشر المسلمين باشروهم بالسيوف فإنما يُحصد بها الناس. فتواصى الناس وتشايعوا إليهم فاجتلدوا بها حتى المساء...

١. والد المختار الثقفي، لأنه قتله.

٢. أي بهمن جاذويه ذو الحاجب.

وحمل بنو عمّ القعقاع يومئذ عشرة عشرة من الرّجاله على إبل قد ألبسوها فهي مجلّة مبرقعة، وأطافت بهم خيولهم يحموهم، وأمرهم أن يحملوا على خيلهم بين الصّفين يتشبّهون بالفيلة، ففعلوا بهم يوم أغواث كما فعلت فارس يوم أرمات، فجعلت تلك الإبل لا تصمد لقليل ولا لكثير إلا نفرت بهم خيلهم، وركبتهم خيول المسلمين^(١).

وروى الطبري عن سيف أيضاً قوله: (فحمل القعقاع يومئذ ثلاثين حملة، كلما طلعت قطعة حمل حملة وأصاب فيها وجعل يرتجز ويقول:

أزعجهم عمداً بها إزعاجاً أطنع طعناً صائباً ثجاجاً
أرجوبه من جنة أفواجا)^(٢).

ثم روى الطبري عن سيف مجريات يوم عمّاس، وفيه تفاصيل كثيرة عن دور القعقاع في تحقيق الانتصار، وأنه كان يوماً شديداً على الطرفين، وأن سعد بن أبي وقاص لما رأى الفيلة تتفرق بين الكتائب، أمر القعقاع وعاصم ابني عمرو أن يكفيا الفيل الأبيض، وكانت بقية الفيلة تالفة، فأخذا رمحين أصمّين لئنين، فدبّا فيمن معهما من جند حتى وضعا رمحيهما في عيني الفيل الأبيض، ففقأ عينيّه، فأدلى مشفره، فضر به القعقاع بسيفه، فقطعه، ووقع لجنبه، ثم أنشد القعقاع شعراً حماسياً في ذلك.

وأعقب الطبري بذلك خبر (ليلة الهرير) وبطولات القعقاع فيها وأشعاره، فقامت الحرب تلك الليلة حتى الصباح، ولما أصبحوا، والناس لم يغمضوا

١. العسكري: خمسون ومائة صحابي مختلف ج ١، ص ١٨٢-١٨٦.

٢. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٣، ص ٥٥.

ليلتهم كلها، حثَّهم القعقاع على مواصلة القتال والصبر، وهبَّت ريح عاصف وقلعت طيارةً رستمَ عن سريرهِ، وانتهى القعقاع ومن معه إليه، فقتلوه، وانتصر المسلمون، وفر المشركون، وأمر سعد القعقاع وآخرين من الجيش أن يتبعوا أثر الفارَّين، فاتبعوهم حتى انتهوا الى الردم وقد بثقوه^(١) ليمنعوا المسلمين من عبوره، فضرب بكير بن عبد الله فرسه وقال لها: (ثبي أطلال) فتجمَّعت وقالت: (وثباً وسورة البقرة) ووثبت!! فاقتحم الباقون خلفه وذهبوا خلف الفارين، وقتلوا من وجدوا منهم حتى انتهوا إلى النجف ثم رجعوا^(٢).

قال السيد العسكري معلّقاً: (إنَّ أسطورة نطق «أطلال» فرس بكير ويمينها) قَسَمها (بسورة البقرة أن تثب، انتشرت انتشاراً عجيباً، وأوردها العلماء في كتبهم بتصرّف، ولم يذكروا مصدرهم، ومنهم ابن الكلبي...) الذي قال: (ويقال: أن عرض نهر القادسية يومئذ أربعون ذراعاً، فقال الأعاجم: هذا أمر من السماء!)^(٣). ثم عدّد السيد العسكري أسماء مَنْ نقل الأسطورة هذه عن الطبري عن سيف.

لم تنته أساطير سيف حول القعقاع التميمي عند هذا الحد، حيث أقحمه في فتوحات أخرى، لتكون حصيلة سيرته الوهمية بأكملها أنه صحابي شهد السقيفة وأخبر عنها، وشهد حروب الردّة وقاد فيها حملة بأمر الخليفة أبي بكر، ثم كان مدداً لفتوحات العراق والشام، وأخيراً ولاه الخليفة عثمان على الحرب في الكوفة عام (٣٤ - ٣٥هـ).

١. بثقوه: خربوه حتى ينبثق ويتفجر منه الماء.

٢. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٣، ص ٥٥-٧٣.

٣. العسكري: خمسون ومائة صحابي مختلف ج ١، ص ١٨٩-١٩٠.

وأقحمه سيف في أخبار الفتن على عهد الخليفة عثمان حتى مقتله، ثم على عهد أمير المؤمنين «عليه السلام» فكان الناصح للمسلمين! وأرسله الإمام ليدعو طليحة والزبير وأم المؤمنين للألفة والجماعة فتجح في السفارة، وأشرف القوم على الصلح، غير أن السبئيين أفسدوا أمر الصلح، وأنشبوا القتال ليلاً دون رضا الطرفين، فاشترك الققعاق مع الإمام في المعركة ثم تقدم إلى جمل أم المؤمنين وأمر به فُعقر، وندمت أم المؤمنين، وندم الإمام من المشاركة في تلك الواقعة، وتمنّيا موتهما عشرين عاماً قبل ذلك.

وأمره الإمام أن يجلد من خطأ أم المؤمنين مائة جلدة، وذكر سيف ما يدل على حضور الققعاق صفين بعد ذلك، وأن معاوية نقله بعد عام الجماعة من الكوفة إلى إيليا بفلسطين.

هذا نموذج مختصر من نماذج ما قام به سيف بن عمر التميمي في تزوير التاريخ، والوضع والاختلاق والدس والتحريف، وما زالت رواياته هي الروايات المفضلة في قراءة التاريخ الإسلامي، لأنها بكل بساطة تتناغم مع ما يشتهي البعض سماعه حولها. وما قام به سيف كان دافعه الزندقة ومحاربة الإسلام بطريقة خبيثة وماكرة.

• أسباب انتشار أخبار سيف:

أما أسباب انتشار أخبار سيف بشكل غريب، واختيارها من قبل الطبري وسواه إلى هذا اليوم وتأثيرها على الموسوعات العلمية وتفضيلها على ما سواها من روايات المؤرخين فهي كالتالي:

١. وضع سيف تلك الأخبار كما رغب المعجبون بها أن يكون التاريخ لا كما كان فعلاً قد حصل على أرض الواقع، ومن أمثلة ذلك أن المعجبين بها من المسلمين وجدوا ما رغبوا في أن يسمعه عن أمراء المسلمين بظهورهم أحياناً بطبائع ملائكية، وأحياناً ببطولات فذة، وأحياناً ثلاثة بأخبار مختلفة ممزوجة بكرامات ومعجزات، كإقلاب رمل الدهناء لجيشهم ماء، وماء البحار رماً، وتكليم البقر إياهم وإخبارهم بمكانها، وقسم الفرس بسورة البقرة وقفزها مسافة ٢٠ متراً.

والواقع أن الإنسان عموماً ينزع إلى الغيبيات، وهذه من فطرته التي وضعها الله «عز وجل» فيه كي يؤمن بالله وملائكته والآخرة وغير ذلك، أي الغيب الحقيقي، ولكن متى ما فلتت زمام الأمور عند الإنسان ولم يضع ضوابط لذلك فإنه قابل أن يحول الوهم إلى غيب وحقيقة، والخرافة إلى واقع، والأسطورة إلى تاريخ... حتى غير المتدينين تجدهم ينزعون إلى ذلك ولكن بصورة أخرى، حيث يقبلون على التنجيم والسحر والشعوذة والكهانة وقراءة الطالع بالفنجان والكف وأمثال ذلك، وإلا ما الذي يجعل مؤلفاً قصصياً من قبيل سلسلة قصص الساحر (هاري بوتر) يكون أحد أكثر الكتب مبيعاً في العالم وبشتى اللغات؟

ولذا نبه الله إلى ضرورة أن نصدق بما قام عليه الدليل وكان علماً، وأما الظن فلا يغني ولا يفيد، وهذه ضابطة رئيسة في هذا الباب: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنْتَ تُؤَفِّكُونَ، قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ

أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ، وَمَا يَتَّبِعْ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿١﴾.

٢. تبرير الجرائم التي ارتكبت من قبل الحكام من آل أمية وآل العباس ضد خصومهم، فلا تصبح بذلك شاذة بعيدة عن الطابع العام لحروب المسلمين في العهد الإسلامي الأول، وفيهم صحابة رسول الله الذين تربوا على يديه وخبروا أسلوبه في الحرب وكيفية التعامل مع الخصوم والأعداء. ولا يخفى على القاريء الحصيف أن التاريخ -ومحط نظرنا التاريخ الإسلامي- كُتب بأمر الحكام أو تزلّفاً وتقرّباً إليهم أو لعطاياهم، وإلا لماذا خلت هذه المؤلفات التاريخية -تقريباً- من سيرة أبناء المجتمعات وحياتهم وقضاياهم وهمومهم ومشاكلهم، وانصبّ التركيز على مواليد الحكام وإنجازاتهم ومتى تزوجوا ومن ولدوا ومتى ماتوا ومن خلفهم والقضايا الرئيسية المرتبطة بالدولة والحروب والاتفاقيات وما شاكل ذلك؟ فغابت عنا الصورة الحقيقية لواقع المجتمعات الإسلامية آنذاك وطبيعة العلاقات البشرية وتفاعلهم مع بيئاتهم الثقافية والعلمية والاجتماعية والاقتصادية والدينية إلا ما استطعنا جمعه كمفردات مبعثرة نكوّن من خلالها صورة ناقصة ومشوّهة عن الواقع الاجتماعي والاقتصادي والمعيشي في تلك الحقب المديدة.

٣. اختيار المستشرقين لرواياته وتفضيلها على ما سواها (وتبعهم على ذلك المتأثرون بهم) لأنهم تتناسب مع ما رغبوا في أن يسمعوه عن جيوش المسلمين

الأولين، من إسراف في القتل، حتى أنّ عدد القتلى كان ينوف على المائة ألف في غالب حروبهم، بالإضافة إلى قسوة في الحرب، كرواية أن خالداً بقي ثلاثة أيام بلياليها في بعض حروبه يضرب أعناق أسرى الحرب ومن عثر عليه من الرعايا المسلمين، إلى غير ذلك مما يدلُّ على أن جيوش المسلمين كانت كجيوش هولاكو وأضرابه من المتوحشين، وأن حروبهم كانت حروب إبادة وإفناء للبشرية. كما ووجدوا فيها أن جميع المسلمين خارج الحرمين - مكة والمدينة - قد ارتدّوا عن دينهم بعد النبي، وأنهم أرجعوا إلى الإسلام بحدّ السيف، إذاً فالإسلام قد انتشر بحدّ السيف وحده.

٤. الأسلوب الماكر الذي استعمله سيف في تزيين مفترياته بإطار من نشر مناقب الصحابة والخلفاء من وحي خيالاته. هذا الأمر أثر على كثير من العلماء والباحثين والمؤرخين والمؤلفين والصحفيين وغيرهم، فهم حيث قرأوها صدقوها بعاطفتهم، فبذلوا وسعهم في نشرها وترويجها مع علمهم أحياناً بكذبها.

ففي فتوح العراق مثلاً أورد مفترياته تحت شعار مناقب خالد بن الوليد، فقد وضع على لسان أبي بكر أنه قال بعد معركة أليس وهدم مدينة أمغيشيا: (يا معشر قريش - يخبرهم بالذي أتاه - عدا أسدكم على الأسد فغلبه على خراذيله)^(١) أعجزت النساء أن ينشأ مثل خالد)^(٢).

ولو أنهم تمعنوا فيها قليلاً، لما وجدوا فيها - في كثير الأحوال - فضيلة

١. الخراذيل: قطع اللحم.

٢. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٥٦٣.

للسحابي، بل فيها مذمة لهم وتشويه لصورتهم. فجلب خالد عشرات الألوف من البشر وذبحهم على النهر ليجري نهرهم بدمائهم براً بقسمه ليست فضيلة له. وهدمه مدينة أمغيشيا ليس فضيلة.

وها نحن اليوم نجد المسلمين في ورطة تفسير أفعال الدواعش وأمثالهم الذين يقوم (فقههم) إن صح التعبير ومبررات أفعالهم الإجرامية على ما ورد في تلك الأخبار، من قتل وإبادة وذبح وتفجير للآثار وتخريب للمعالم الحضارية في المدن وأمثال ذلك، وكلما حاولوا إيجاد مخرج من ذلك، ووجهوا بأخبار سيف وأمثاله ممن زيفوا التاريخ على أن ما جاءوا به بطولات، والواقع أنها جرائم... فبطلت محاولاتهم.

إن إحدى السبل الجذرية لمعالجة الأمر هو تحكيم مرجعية القرآن في تحديد الموقف الشرعي نظرياً من قضية الحروب ومتى تُشن ولماذا تُشن ومتى توقّف وماذا يترتب عليها من أحكام. والسبيل الأخرى تتمثل في العودة إلى التاريخ لقراءته بنظرة علمية فاحصة وحيادية بعيداً عن العاطفة والمزاج من قبل السنة والشيعة معاً.

وأنا أعلم أن من بين وسطنا الشيعي من ينزعج من الدعوة للتصحيح هذه على اعتبار أنها تبرّر أفعال وتلمّع صورة من يعتبرونهم مسؤولين عما جرى بعد وفاة رسول الله «صلى الله عليه وآله» بشأن الحكم وما إلى ذلك.

ولكن علينا أن ندرك أن الإسلام على المحك، صورة الإسلام، ومضمون الإسلام، وعلينا أن نتعلم من علي «عليه السلام» الذي قال: (لقد علمتم أنني أحق الناس بها من غيري، ووالله لأسلمن ما سلمت أمور المسلمين، ولم يكن

فيها جور إلا عليّ خاصة؛ التماساً لأجر ذلك وفضله، وزهداً فيما تنافستموه من زخرفته وزبرجه^(١).

وقوله: (أما بعد فإن الله «سبحانه» بعث محمداً «صلى الله عليه وآله» نذيراً للعالمين ومهيماً على المرسلين، فلما مضى «عليه السلام» تنازع المسلمون الأمر من بعده، فوالله ما كان يلقي في روعي ولا يخطر ببالي أن العرب تزجج هذا الأمر من بعده «صلى الله عليه وآله» عن أهل بيته، ولا أنهم منحوه عني من بعده، فما راعني^(٢) إلا انثيال الناس على فلان^(٣) يبايعونه، فأمسكت يدي حتى رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الاسلام يدعون إلى محق دين محمد «صلى الله عليه وآله»، فخشيت إن لم أنصر الاسلام وأهله أن أرى فيه ثلماً أو هدماً تكون المصيبة به علي أعظم من فوت ولايتكم التي إنما هي متاع أيام قلائل يزول منها ما كان كما يزول السراب، أو كما يتقشع السحاب، فنهضت في تلك الأحداث حتى زاح الباطل وزهق، واطمأن الدين وتنهه^(٤)).

بل إننا إن لم نشجع على إعادة قراءة التاريخ وتمحيصه سيصيبنا ما يصيب الآخرين، لأن عدداً كبيراً ممن شاركوا في تلك الفتوحات، وبالتالي تلك الجرائم بحسب أخبار سيف، كانوا من كبار شيعة علي «عليه السلام» كعمار والمقداد ومالك الأشتر وعشرات غيرهم.

بل إن علياً «عليه السلام» بنفسه سيكون متورطاً فيها إذ شارك بالمشورة

١. الرضي: نهج البلاغة، الكلمة ٧٤.

٢. راعني: أفرعني.

٣. انثيال الناس: انصبابهم.

٤. الرضي: نهج البلاغة، الكتاب ٧٢.

الإيجابية، وبالسماح لشييعته بالمشاركة، وبترتيب الآثار المختلفة على الفتوحات كما سيأتي معنا.

• مشكلة روايات الطبري:

يُعدّ تاريخ الطبري من أهمّ مصادر أخبار (الفتوحات) عند الباحثين في هذا المجال، إن لم يكن الأهمّ على الإطلاق، ولكنه قد اعتمد على روايات سيف بن عمر التميمي بشكل رئيس، وجاءت روايات غيره كروايات هامشية غير مؤثرة تقريباً في المشهد العام الذي رسمته روايات سيف. ولأبَيّن حجم الكارثة المعلوماتية فيما له علاقة بـ (الفتوحات) و(حرب الجمل) مما انتقل من روايات سيف المختلقة إلى الموسوعات التاريخية، فقد قمت بنفسي بعملية إحصاء بسيطة من خلال (تاريخ الأمم والملوك) للطبري حول ما جاء في هذا الكتاب. فقد قام الطبري بتقسيم فصوله بحسب السنوات، فيذكر في كل سنة أحداثها، وعندما نأتي مثلاً إلى أحداث السنة ١٤ من الهجرة النبوية الشريفة والتي تتركز فيها أحداث (معركة القادسية) وهي من المعارك المفصلية في تاريخ الفتوحات الإسلامية، وما له علاقة بها من قبلُ ومن بعدُ، سنجد أنه يُقدّم لنا تفاصيل هذا الحدث التاريخي من خلال ١٦٥ رواية عن سيف، في مقابل ٢٦ رواية فقط عن غيره. أي أن ما نسبته ٨٦,٤٪ تقريباً من مجمل الروايات في هذا الفصل كانت من نصيب روايات سيف!! كما أننا لو جمعنا كل المرويات عن غيره من حيث عدد الصفحات التي استوعبتها فلن تتجاوز ٧ صفحات، بينما امتدت روايات سيف لتستوعب ٥٤ صفحة تقريباً، أي ما نسبته ١١,٥٪ من الصفحات في مقابل ٨٨,٥٪ منها لروايات سيف.

وفي فصل أحداث السنة ١٥ للهجرة، والتي تتركز حول بعض فتوحات الشام، نجد أن عدد روايات سيف هي ٣٧ رواية في مقابل ٣ روايات عن غيره! أي ما نسبته ٩٢,٥٪ من الروايات في هذا الفصل عن سيف بن عمر، و٧,٧٪ لغيره!! ومجمل عدد الصفحات ١٤ صفحة، ١٢ منها تقريباً لروايات سيف، أي ما نسبته ٨٥,٧٪.

وفي فصل أحداث السنة ١٦ للهجرة، وترتبط بفتح (المدائن) في العراق وبعض مدن غرب وشمال العراق مثل (جلولاء) و(تكريت) و(الموصل) نجد أن عدد مرويات سيف حول هذه الفتوحات هي ٧٨ رواية، وليس فيه أية رواية عن غيره!! نعم هناك ٧ روايات في آخر الفصل، ولكنها ترتبط بتعيين السنة الهجرية وعن الحج وأمور إدارية متفرقة ولا علاقة لها بالفتوحات. أي أن ما نسبته ١٠٠٪ من روايات هذا الفصل حول بعض فتوحات غرب وشمال العراق كانت من نصيب روايات سيف!!

وعلى هذا فقس... فكم هو مُزَوَّر هذا التاريخ الذي قدّمه سيف ومُرّره عبر مصنفات المؤرخين الكبار!!؟

وقد اعتبر الدكتور سعد بن عبدالرحمن العبيسي في مقال له بعنوان (قراءة في تاريخ الطبري عن معركة القادسية وفتح المدائن) أن تاريخ الطبري يُعدُّ من المصادر التاريخية الأصلية في أخبار الفتوحات الإسلامية في العراق في العصر الراشدي، فقد تتبّع أخبارها، ورصد أحداثها، وعلّل أسبابها، ودوّن مادةً علميةً غزيرةً عنها ذات قيمة تاريخية، قلّما يجدُّ الباحثُ مثلها في غزارتها، وشمولها، واتّساعها في مصدر تاريخي آخر. وقد اعتمد الطبري على مصادر

تاريخية أصلية ضاعت أصولها، وإنَّ مَنْ يُمعن النظر في النصوص الواردة في تاريخ الطبري عن معركة القادسية، وفتح المدائن يلاحظ أنَّ مرويَّات سيف بن عمر في الفتوح تُعدُّ من أهمِّ المصادر الأصلية، التي اعتمد عليها الطبري في إيرادهِ لأخبار الفتوحات الإسلامية في جبهة العراق.

وقد بلغت مرويَّات سيف بن عمر التي دوَّنها الطبري في تاريخه عن معركة القادسية، وفتح المدائن، ومعركة جلولاء، مائتين وإحدى وعشرين رواية.

ومن هنا صار للنصوص التاريخية الواردة في تاريخ الطبري عن معركة القادسية، وفتح المدائن قيمةٌ علميَّةٌ تاريخيَّةٌ، وذكر الأسباب، ومن بينها:

١- كون الطبري إماماً من أئمَّة المسلمين، وعالمًا من علمائهم، عاش في زمنٍ متقدِّم من تاريخ الإسلام (القرن الثالث الهجري).

٢- كون تاريخ الطبري من أقدم المدوَّنة التاريخية لتاريخ الإسلام وأوسعها، وأكثرها شمولاً، ممَّا جعله أوسع المصادر التاريخية لعصر الخلافة الراشدة، وخاصة في جانب الحياة السياسية، والنشاط الدعوي والعسكري لحركة الفتح الإسلامي.

٣- كون الطبري أطلع على مصادر أصلية في الفتوحات الإسلامية، اتَّسمت بغزارة مادتها العلمية عن فتوحات العراق بصورة عامَّة، وعن معركة القادسية، وفتح المدائن بصورة خاصَّة، وقد فُقد كثيرٌ من أصول تلك المصادر، فحفظ الطبري في تاريخه كثيراً من مادتها العلمية، لا سيَّما كتاب (الفتوح) لسيف ابن عمر، الذي يُعدُّ من المصادر الأصلية التي اعتمد عليها الطبري في أخبار الفتوحات الإسلامية في جبهة العراق.

٤- أنَّ الطبري صَدَّرَ مادته العلمية بالأسانيد غالباً، وهذه ميزةٌ ازدانَ بها تاريخه، لكن مادته التاريخية بصورة عامة، تحتاج دراستها إلى موازين نقدية واضحة.

٥- أنَّ مَنْ جاء بعد الطبري من مؤرّخي المسلمين اعتمدوا على تاريخه، وإنَّ نظرة متأنية في تاريخ ابن الجوزي (المنتظم)، و(دلائل النبوة) لأبي نعيم الأصبهاني، و(الكامل) لابن الأثير، و(تاريخ الإسلام) للذهبي، و(البداية والنهاية) لابن كثير، تؤكد ذلك.

ثم عرَّج الباحث للتعريف بسيف بن عمر التميمي، صاحب المصدر الأكبر لروايات الفتوحات، فقال: (فقد بلغت مرويات سيف بن عمر التي وردت في تاريخ الطبري مائتين وستاً وستين رواية، وقد ذُكر اسم سيف بن عمر في أكثر من ٣٠٠ موضع من تاريخ الطبري، وورد اسمه لأول مرة في حوادث سنة عشر للهجرة، وورد اسمه لآخر مرة في حوادث سنة ست وثلاثين للهجرة، ولم يذكر الطبري رواية له بعد ذلك).

وأضاف حول توثيقه: (وإذا كان رجال الحديث وضعوا شروطاً مشددة في قبول الحديث، فإنَّ ذلك يرجع إلى أهمية الحديث النبوي، وتعلُّق الأحكام الشرعية به، فلا بدَّ من التشدد في نقده قبل قبوله، والإسناد هو المحور الأساس الذي يدور حوله النقد؛ لذا فإنَّ المحدثين لم يقبلوا رواية سيف بن عمر وأمثاله في الحديث، فلم يحظَ سيف بتوثيق أحد من المحدثين، بل رموه بالضعف؛ لكنَّ عدداً من رجال الحديث الذين لم يحظَ سيف بتوثيقهم فلم يقبلوا روايته في الحديث، قبلوا روايته في الأخبار، فأوردوا عدداً من مروياته

في الأخبار في كتبهم، ونعتوه بنعوت جيدة، فقد وصفه الذهبي بقوله: «كان أخبارياً عارفاً».

تعليق: وهنا المفارقة القاتلة، فكيف يؤخذ عنه في التاريخ ويكون المصدر الأول والأساس لأخبار الفتوحات وهو ضعيف في نفسه؟! ألا يخاف من تأثير (ضعفه) هنا أيضاً؟ أم تقبل مروياته هنا لأنها كما نحب لها أن تكون؟ نعود لكلام الباحث ولنلاحظ ماذا قال بعد ذلك:

(أما ابن حجر، فقد نعت سيف بن عمر بقوله: «ضعيف في الحديث، عمدة في التاريخ»، وقال: «أفحش ابن حبان»^(١) القول فيه حين اتهمه بالزندقة، ورواية الموضوعات عن الأثبات»^(٢)). فالرجل ينسب إلى الثقات ما لم يقولوه.. أي أنه بكل بساطة كذاب وضاع!

وقد تنبه المستشرق (كارل بروكلمان)^(٣) إلى الدور الذي قام به سيف بن عمر التميمي معتبراً أنه صرف همه في تاريخه للفتوح إلى تمجيد قبيلته تميم، وأنه كان مولعاً بالخوض في المحسنات الخيالية، وأن الطبري بالاعتماد عليه من دون سواه تقريباً، أضل المؤرخين الذين جاءوا من بعده واعتمدوه في تأليفهم^(٤).

١. وهو من أهم رجال الجرح والتعديل عند أهل السنة.

2. <https://www.alukah.net/culture/0/31550/#ixzz6iPLkDujg>

٣. كارل بروكلمان Carl Brockelmann (ت ١٩٥٦م) مستشرق ألماني. كلفه نولده بالقيام بدراسة عن العلاقة بين كتاب (الكامل في التاريخ) لابن الأثير، وكتاب (أخبار الأمم والملوك) للطبري، ومن أشهر مؤلفاته (تاريخ الشعوب الإسلامية) و(تاريخ الأدب العربي) وفيه رصد لما كتب في اللغة العربية في العلوم المختلفة من مخطوطات ووصفها ومكان وجودها.

٤. بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية؛ ص: ١٩٥.

واعترف الطبري نفسه -كما مرّ بنا من قبل- بأنّ روايات سيف خلاف ما هو الصحيح. قال: (وهذه القصة في أمر الأبلّة وفتحها خلاف ما يعرفه أهل السير وخلاف ما جاءت به الآثار الصحاح وإنما كان فتح الأبلّة أيام عمر «رضي الله عنه» وعلى يد عتبة بن غزوان في سنة أربعة عشرة من الهجرة، وسنذكر أمرها وقصة فتحها إذا انتهينا إلى ذلك إن شاء الله)^(١).

وعلى الرغم من هذا الاعتراف، إلا أننا نجد أن عمدة روايات الطبري حول فتوحات العراق وغيرها منقولة عن سيف بن عمر! لماذا؟ الجواب فيما قدّمناه من كلام السيد العسكري حول سبب انتشار أخبار سيف على سائر الروايات.

• تجربة بروانه بور شريعتي:

ما زالت آثار اختلاقات سيف بن عمر وأساطيره مؤثرة ومستمرة، حتى أننا نجد في كتاب صدر مؤخراً، وهو في الأصل رسالة دكتوراة، وبعنوان (اضمحلال الامبراطورية الساسانية وسقوطها: التحالف الساساني الفرثي والفتح العربي لإيران) للباحثة الأمريكية إيرانية الأصل بروانه بور شريعتي، وترجمة أنيس عبد الخالق محمود، أنّ المؤلفة قد وقعت في الفخ الذي نصبه سيف للمؤرخين والباحثين، بحيث وصلت إلى نتيجة مفادها أن حروب الردّة كانت على عهد النبي «صلى الله عليه وآله»! وأنّ حركة الفتوحات بدأت على عهده أيضاً، وولذا فإنّ بعض المعارك كتلك التي وقعت في كاظمة وعُرفت من قبل سيف بعنوان (ذات السلاسل) قد وقعت قبل خلافة أبي بكر!

والفخ الذي نصبه سيف هنا يتمثل في ذكر أسماء الملوك وشخصيات من

١. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٣١٠.

الفرس شاركوا في الحروب مع المسلمين الفاتحين وما كانوا في مشهد الأحداث لو أننا بقينا على تصوراتنا التقليدية بأن الأحداث جرت ما بعد وفاة رسول الله... والسبب بسيط جداً، فهذه الشخصيات كانت قد ماتت قبل وفاته «صلى الله عليه وآله»، فكيف تكون مشاركة في الأحداث؟ هذا الأمر دفع بالباحثة الأمريكية إلى ادّعاء أنّ الأحداث وقعت على عهد النبي لا بعد وفاته... والذي سوّغ لها هذا: روايات سيف بن عمر التميمي!!

قالت في مقدمة كتابها وهي تستعرض موطن الإشكال بحسب تصوّرها: (الذي توصلنا إليه من خلال دراسة نقدية لروايات كتب الفتوح عند مقابلتها بقراءة نقدية لكتاب خدّاي نامه^(١))، هو أنّ الفتح العربي المبكر للعراق لم يحدث كما كان يُعتقد سابقاً بين عامي ٦٣٢ و٦٣٤م، أي خلال الحرب الطاحنة بين البهلويين والفرس^(٢) تحديداً، إذ لم يتمكن الطرفان المنهمكان في صراعهما لدعم مرشحيهما إلى العرش، من إلحاق هزيمة موحّدة بجيوش العرب الغازية، فضلاً عن أنّ ما أعقبه من فتح لهضبة إيران لم ينجح إلا بسبب تخلي البيوتات الفرثية في «كوست خراسان» -جهة الشرق- «وكوست أدوربادجان»

١. أي كتاب الملوك، يعد أهم عمل تاريخي صدر على أيام الساسانيين، وتم فيها تسجيل أسماء ملوك السلالات الفارسية وأحداث العصور المختلفة، مختلطة مع الأسطورة، والأصل مفقود، ولكن كانت قد تمت ترجمة الكتاب إلى العربية بعناوين مثل سير الملوك أو سير ملوك الفرس وغيرها فحفظت من خلال ذلك. وهو بالإضافة إلى كتب أخرى أصل لكل ما في الكتب العربية من تاريخ الفرس وأساطيرهم، فأخبار الساسانيين في الطبري مثلاً مأخوذة منها.

٢. كانت السلالة الحاكمة قبل الساسانيين هي سلالة الفرثيين (البارثيين/ الأشكان)، وبقيت هذه السلالة قوية ومسيطرّة على نواح عديدة من الدولة الساسانية وكملاوك محليين إن صحّ التعبير، وكان الملك الساساني ملك الملوك (شاهنشاه)، ثم دخلت أخيراً في صراع مع الساسانيين، وتحالف بعض الفرثيين مع المسلمين الفاتحين أحياناً ضد الساسانيين.

- جهة الشمال- عن آخر ملك ساساني، يزدجرد الثالث، ووقف دعمها الملكية الاساسنية، وعقد سلام مع الجيوش العربية التي في المقابل أبقت السلطة الفعلية لمعظم تلك البيوتات قائمة على أراضيها).

وأضافت الباحثة: (بالمقابل، فإن إعادة تقويم حوادث تاريخ العراق المبكر وصولاً إلى ما بين عامي ٦٢٨ و٦٣٢م له مضامين خطيرة، لا على تسلسل الحوادث في فتح الشام والزحف الشهير لـخالد بن الوليد عبر الصحراء فحسب، بل على مجموعة من الحوادث المهمة في تاريخ صدر الإسلام أيضاً. فإذا كان فتح العراق قد حصل بين عامي ٦٢٨ و٦٣٢م، كما نزعّم، فكيف سنفهم دور النبي محمد ومكان وجوده في بداية فتح العراق استناداً إلى هذا الطرح الحديث، فكيف سيؤثر ذلك في فهمنا التقليدي لتاريخ صدر الإسلام؟ وماذا عن نظرتنا التقليدية إلى دور أبي بكر وعمر بوصفهما خليفين في هذه المرحلة من التاريخ الإسلامي؟ فإذا كان محمد حياً، ماذا عن الردّة؟)

ثم خلصت من خلال بحثها وتساؤلاتها إلى استنتاج تخميني- بحسب تعبيرها- فكان كالتالي: (لعل لإعادة بناء مفهوم فتح العراق مضامين ثورية على فهمنا لتاريخ صدر الإسلام، وسنعرض جواباً تخمينياً ممكناً واحداً عن تلك الأسئلة الحيوية هنا)^(١).

وحول دور روايات سيف بن عمر في وصولها إلى هذه النتيجة قالت: (وروايات الفتوح، ولاسيما روايات الطبري، مستندة إلى روايات سيف بن عمر أساساً، غير أن جميع روايات الفتوح التي تتناول هذه المرحلة من تاريخ

١. بور شريعتي: اضمحلال الامبراطورية الساسانية وسقوطها، ص ٢٩-٣٠.

إيران تتطوي على إشكالية خطيرة، ألا وهي تسلسلها الزمني. فبينما يقدم سيف بن عمر والمصادر التي تقتفيه معلومات مهمة عن هذه المرحلة من تاريخ إيران «٦٢٨-٦٣٢م»، فإنها في الوقت نفسه تفصل في الفتح المبكر للعراق الذي يعود تاريخه إلى عام ١٢-١٣هـ/٦٣٤م، تحت قيادة خالد بن الوليد والمثنى بن حارثة المفترضة، وبينما تعترف الدراسات الحالية بالطبيعة الإشكالية لهذا التسلسل الزمني، ويعترف الجميع أيضاً بصعوبة إعادة بناء مسار تفاصيل هذه المرحلة الأولية من فتح إيران، فإن التسلسل الزمني الأساس لهذه المرحلة من الفتح العربي لبلاد ما بين النهرين قد قُبِلَ عام ١٢-١٣هـ/٦٣٣-٦٣٤م. وستقدم الدراسة الحالية تسلسلاً زمنياً منقحاً لهذا المنعطف الحاسم من تاريخ الشرق الأوسط، أي الفتح العربي المبكر للعراق^(١).

ثم تحدّثت الباحثة عن مشكلة التوفيق بين التواريخ الهجرية والميلادية فيما يخص الأحداث، قالت: (جرى تنفيذ مشكلة توفيق رواية سيف بن عمر عن إيران خلال هذه المرحلة مع رواياته للفتح المبكر للعراق تنفيذاً أعمق بحقيقة أن الأسلوب الحولي المعتمد في تلك الروايات مستند إلى التقويم الهجري. وسنرى أن التسلسل الزمني الموحد الذي بُني على أساس هجرة النبي محمد من مكة إلى المدينة -الذي عادة ما يؤرّخ في عام ٦٢٢م- قد أدخل أول مرة في زمن عُمر في عام ١٦هـ/٦٣٧م، ويُذكر عامي ١٧ و ١٨ أيضاً، ويشير نوّث^(٢) إلى

١. بور شريعتي: اضمحلال الامبراطورية الساسانية وسقوطها، ص ٢٥٥-٢٥٦.

٢. ألبريشت نوّث Albrecht Noth (ت ١٩٩٩م) مستشرق ألماني، تخصص في التاريخ الإسلامي، له عدة مؤلفات حول التاريخ المبكر للإسلام، والحروب الدينية للإسلام في العصور الوسطى، وغير ذلك.

أنه حتى بعد عقود من إدخال عمر هذه الطريقة في تحديد التاريخ، فالخلط الذي ساد والطريقة الاعتبارية التي فرضت بها التواريخ الهجرية في أوقات متأخرة قد أفرز تناقضات واضحة وحادة وغير قابلة للحل، لا تشمل تحديد التواريخ فحسب، بل ترتيب الحوادث المركزية في تاريخ التوسع الإسلامي أيضاً^(١).

وحول تبرير وجود مثل هذا الخلط تقول: (ومن المؤكد أن هذا الوضع مفهوم تماماً نظراً إلى أن العرب في عصور صدر الإسلام كانوا في الأعم الأغلب غير معتادين على أي نظام رسمي للتسلسل الزمني، فكيف رُتبت إذاً رواية سيف بن عمر عن الفتح المبكر للعراق؟ وما نوع علاقة هذا الترتيب بروايته عن الظروف السائدة في إيران خلال المدة بين ٦٢٨-٦٣٢م؟ رُتبت الفتوح المبكرة للأراضي الإيرانية في العراق في روايات سيف بن عمر على أساس التواريخ الهجرية وعهود ملوك وملكات ساسانيين معينين، وتحدد رواية سيف بن عمر تلك الفتوح خلال خلافتي أبي بكر (٦٣٢-٦٣٤م) وعمر (٦٣٤-٦٤٤م) وخلال الفترة بين عامي ١٢ و ١٣ هـ/ ٦٣٣ و ٦٣٤م تحديداً، أي بعد وفاة النبي في عام ٦٣٢م. ويشير بلانكشيب^(٢) إلى أن الطبري يخصص قسماً مهماً من كتابه لتينك السنتين اللتين جرى فيهما فتح الهلال الخصيب حصاراً، والأكثر

١. بور شريعتي: اضمحلال الامبراطورية الساسانية وسقوطها، ص ٢٥٨-٢٥٩.

٢. خالد يحيى بلانكشيب Khalid Yahya Blankinship (مواليد ١٩٤٩ في سيائل واشنطن)، مؤرخ أمريكي متخصص في الدراسات الإسلامية والشرق أوسطية، اعتنق الإسلام عام ١٩٧٣م. في عام ١٩٨٨م حصل على الدكتوراه في التاريخ من جامعة واشنطن. له عدة مؤلفات من بينها The End of the Jihad State.

من ذلك أن المساحة المخصصة لفتح العراق في هذا القسم من كتاب الطبري ضعفت ما هو مخصص لفتح الشام^(١) وما ذاك إلا لأن الأعم الأغلب من تلك الروايات هي عن سيف بن عمر، وهي من وحي خيالاته، حيث أسهب في ذكر تفاصيل أسطورية لغرض في نفسه.

وتشير الكاتبة بعد ذلك إلى اعتماد كتب التاريخ الإسلامية على التاريخ الهجري، والإشكالية التي سببها ذلك على مستوى الترتيب الزمني للأحداث، قالت: (تبنت التحريات عن هذه المرحلة المبكرة من فتح العراق هذا التاريخ الهجري بصورة شاملة حتى ذلك الحين، فعلى غرار ترتيب الطبري مثلاً، نظم المجلد المترجم لهذا القسم من الطبري بهذه الكيفية، ويخبرنا الطبري من طريق سيف بن عمر وغيره من المصادر أن معظم المصادر الثانوية قد اتبعت التسلسل الزمني لروايات الفتوح - الذي يتضمن معارك المذار وولجة وعين التمر والفراض والنمارق وأخيراً معركة الجسر. يؤرخ سيف بن عمر تواريخ المعارك الأربع الأولى بعام ١٢هـ/٦٣٣م، والمعركتين الأخيرتين بعام ١٣هـ/٦٣٤م. وقد أشرنا إلى أخطاء تلك المصادر. غير أن التسلسل الزمني الهجري الوارد في تلك الروايات يأتي إضافة إلى مجموعة مختلفة من مؤشرات التسلسل الزمني، ألا وهي مُدد حُكم الملوك والملكات الساسانيين المتعديدين الواردين في سياق سرد روايات الفتح تلك. والمشكلة الخطيرة التي تواجهنا نتيجة تجاوز تلك الروايات هي أن هذين التسلسلين الزمنيين غير متطابقين، ولذلك تكاد كل معركة ينسبها سيف بن عمر إلى عامي ١٢ و

١. بور شريعتي: اضمحلال الامبراطورية الساسانية وسقوطها، ص ٢٥٩.

١٣هـ/٦٣٣-٦٣٤م أن تكون مرتبطة ارتباطاً منهجياً بعهدٍ محدد لأحد الملوك أو الملكات الساسانيين، شيرويه قُباد ٦٢٨م، وأردشير الثالث ٦٢٨-٦٣٠م، وشهربراز ٦٣٠م، وبرانديخت ٦٣٠-٦٣٢م، وأزرميدخت ٦٣٠-٦٣١م، وفروخ هرمز ٦٣١م، وانتهاءً ببداية حكم يزدجرد الثالث في عام ٦٣٢م، تطابق الأعوام ٨-١١ للهجرة. وعلى أساس هذا التسلسل الزمني البديل، فإنّ هذا يعني حقيقةً قاطعةً مفادها أن تلك المعارك قد جرت بين عامي ٦٢٨ و٦٣٢م حين كانت الملكية منغمسة في صراع فصائلي يقوده أشرافها، وليس كما كان يُعتقد دائماً بين عامي ٦٣٣ و٦٣٤م استناداً إلى التقويم الهجري^(١).

وتؤكد الباحثة رؤيتها بقولها: (وبخلاف الأبعاد الساكنة المميّزة للأخبار الفردية -الأحاديث- توفر لنا رواية سيف بن عمر حركةً زمانية وأحياناً مكانية. على أساس هذا البديل والتسلسل الزمني المستند إلى الساسانيين، فإن تلك المعارك أو الغزوات حدثت بعد الحرب البيزنطية-الساسانية مباشرة، وخلال المرحلة التي كانت فيها كلتا الإمبراطوريتين تتفاوض بشأن معاهدة صلح، وتحاول تطبيق بنودها. ولعل هذا -مثلاً- يفسّر لنا التعاون بين البيزنطيين والفرس في المعركة التي يسميها سيف بن عمر معركة الفراض التي يؤرخها بعام ١٢ هـ/٦٣٣م... فلو تتبعنا التواريخ الساسانية فسنرى أن تلك المعركة لم تحدث في عام ١٢ هـ/٦٣٣م مثلما ذكر سيف بن عمر وقبيل تقليدياً، بل بعد عزل أردشير الثالث وفي إطار الزمن الذي كان البيزنطيون يشيرون فيها إلى تولّي شهربراز السلطة، أي في نحو عام ٩هـ/٦٣٠م، وهي

١. بور شريعتي: اضمحلال الامبراطورية الساسانية وسقوطها، ص ٢٦٠-٢٦١.

المرحلة التي كان فيها التعاون البيزنطي-الساساني يشهد تقدماً ملموساً^(١). وحيث اعتمدت الباحثة على الشخصيات الواردة في روايات سيف وأيام حكمها بالتاريخ الميلادي، لذا فقد رجّحت هذا التصوّر على التصوّر التاريخي لزمان الأحداث بالحساب الهجري، قالت: (تثبت منهجية موضوعية أن مؤشرات التسلسل الزمني الساسانية التي وردت لدى سيف بن عمر درست بصورة أكثر جدية من تواريخه الهجرية، وليست ثمة أسباب مشروعة لتجاهل المؤشرات الساسانية. وفوق ذلك كله، فالتسلسل الزمني لحكم ملوك وملكات ساسانيين مهمّين خلال هذه المرحلة -ممن لدينا عنهم دليل نَمّي- مع أن الإشكالات لا تزال تكتنفه، ثابتٌ بشكل أفضل بكثير نسبياً من التقويم الهجري المبكر غير المؤكّد الذي فرض الأثر الرجعي على تلك الروايات. ولذلك، لدينا هنا مخطط متسلسل زمنياً مستقل نستطيع أن نقيس تواريخنا عليه. ولذلك، ينبغي ألا يكون هناك سبب لرفض مؤشرات التسلسل الزمني البديلة لسيف بن عمر التي تحصر تلك الحروب خلال المدة بين ٦٢٨ و ٦٣٢ م... ولأن معلوماته عن الشئون الداخلية الساسانية في سياق روايته للفتح المبكر للعراق كانت قوية، سنخرج بنتيجة مفادها أن تينك المجموعتين من المعلومات مرتبطتان بعضهما ببعض ترابطاً بالغ التنظيم، حتى إن مجموعة حوادث تفسّر مجموعة حوادث أخرى عند بعض النقاط المفصلية. وفي الذاكرة التاريخية للمشاركين والرواية الأوائل لتلك الحوادث، كانت تلك الفتوح المبكرة مرتبطة ارتباطاً قوياً للغاية بالظروف السائدة في إيران وبحكم ملوك وملكات ساسانيين محددين

١. بور شريعتي: اضمحلال الامبراطورية الساسانية وسقوطها، ص ٢٦٢.

حكموا خلال هذه المرحلة، حتى أنهم أكدوا تلك الروابط تأكيداً حتمياً. ولذلك سنستنتج أن تلك المرحلة - لا التواريخ الهجرية التي افترضها سيف بن عمر - هي التي أفرزت الحوادث التي يربطها ربطاً محكماً بحكم عاهل إيراني (ما)^(١).

وهنا عقدة الموضوع التي كررتها الباحثة عدة مرات: الربط بين أسماء الملوك والشخصيات التي أقحمها زوراً سيف بن عمر في رواياته للفتوحات، وبين زمن وقوع الأحداث، وقد اختارت التمسك بروايات سيف ومن أخذ عن سيف في مضامينها وأسماء الشخصيات الواردة فيها، وقدمتها على التحديد الزمني الهجري لها في تلك الروايات أو في المصادر التي نقلتها كتاريخ الطبري.

ولو أنها تخلّت عن روايات سيف بن عمر بالمرّة، ورجعت إلى روايات غيره، لما وجدت لتلك الشخصيات حضوراً فيها، بل ولما وجدت لبعض المعارك المزعومة وتفاصيلها وشخصياتها ذكراً أبداً، لأنها لم تكن إلا من وحي خيالات سيف وحده، ولما ذهبت إلى ما ذهبت إليه من ادّعاء أن بداية الفتوحات كانت على عهد النبي لا بعد وفاته.

ومن الأمثلة التي قدّمتها الباحثة لتأثير رواية سيف بن عمر على الترتيب الزمني للأحداث بحسب رؤيتها ما جاء بخصوص فتح الأبلّة^(٢)، حيث أن: (القادة الفرس المذكورين في سياق هذه الحملة هم كل من جابان -وهو صيغة

١. بور شريعتي: اضمحلال الامبراطورية الساسانية وسقوطها، ص ٢٦٣-٢٦٤.

٢. مرّ معنا سابقاً كيف زيّف سيف أخبار فتح الأبلّة وجعلها بعد ذات السلاسل، بينما يذكر الطبري أن الرواية الصحيحة أن ذلك تم على عهد الخليفة عمر على يد عتبة بن غزوان!

معربة من كاوان الفارسية الوسيطة- وحاكم أليس ومرزبان الحيرة وقائد سلاح الفرسان الفارسي آزادبه والقائد هرمز، ولعل هذا قائد بوابة الهند، مع أنه افترض أن ظهوره كان تلفيقاً من سيف بن عمر) وهو بالفعل تلفيق من قبله (وخلال مسار الحرب، كتب خالد بن الوليد إلى هرمز يخبره بين اعتناق الإسلام أو دفع الجزيرة، وقد ذكرت تلك الغزوات - كما تسمى- ضمن حوادث عام ١٢هـ/٦٢٣م، وقيل إنها كانت بتوجيه من أبي بكر بعد هزيمة مسيلمة. غير أن ما يهم دراساتها أن سيف بن عمر قدم مؤشراً زمنياً مهماً آخر، فعندما تسلم هرمز رسالة خالد بن الوليد، أرسل الأنباء إلى شيرويه قباذ وإلى أردشير الثالث، ثم عباً قواته.... في حين حكم كل من شيرويه قباذ وأردشير الثالث بين عامي ٩٧هـ/٦٢٨ و٦٣٠م)^(١) أي على عهد حياة رسول الله، على عهد خلافة أبي بكر! هكذا جاء تأثير إقحام سيف لهذين الملكين في الأحداث لتقع الباحثة في فخّه بعد ثلاثة عشر قرناً من الزمان!

تضيف الباحثة: (يمكن أن نلاحظ بسهولة أن معلومات سيف بن عمر عن الشخصيات الساسانية المهمة المشاركة في معركة الأبلّة تبين المنطق الداخلي المعقول جداً حين تُدرس بمعزل عن بقية المعلومات عن القادة والشخصيات العربية، وحين نهمل التأريخ الهجري) وكأنها تعترف ضمناً أن روايات سيف تتضمن تناقضاً داخلياً بيناً، ولكنها ترجح الأخذ بجزئية واحدة، وهي الشخصيات التي أقحمها سيف في رواياته فقط (إذ يقول سيف بن عمر أن هرمز حين نظم جيشه منح قيادة جناحين إلى الأخوين قباذ وأنوشجان، وهما

١. بور شريعتي: اضمحلال الامبراطورية الساسانية وسقوطها، ص ٢٩٠-٢٩١.

من أصل ساساني، إذ ينتسبان إلى الملكين الساسانيين شيرويه قباد وأردشير الثالث. وفوق ذلك، طوبق أنوشجان على أنه ابن جُشنسماه. فمن هي تلك الشخصيات؟ هل نستطيع أن نقيم أي علاقة بينها وبين حُكم شيرويه قباد أو أردشير الثالث؟) وتقوم هنا بتطبيق الشخصية الأولى على وزير الملكين قباد الثاني وأردشير الثالث واسمه -ماه آذر جُشنس- لتفترض أيضاً -بحسب رواية سيف- أنه شارك في معركة الأبلّة، معتبرة أن هذا منطقي جداً! وتقول بعد ذلك: (ولذلك، فاستناداً إلى التسلسل الزمني البديل، لا بد أن تكون معركة الأبلّة قد وقعت في وقت ما بين أيلول/سبتمبر ٦٢٨م ونيسان/أبريل ٦٣٠م، أي في الفترة ما بين عامي ٧هـ و٩هـ) أي على عهد رسول الله لا أبي بكر (لكن لما كانت بعض الروايات لا تزال تذكر شيرويه قباد، فلا بد من أن نستنتج أن تلك المعركة ربما وقعت في وقت ما من عام ٧هـ/٦٢٨م)^(١).

وهكذا تصل الباحثة في نهايات كتابها إلى النتائج التالية: (بدأ الفتح المبكر للعراق في وقت ما من السنة السابعة للهجرة، وقد أثبتنا أيضاً أن معركة الجسر التي يؤرّخها سيف بن عمر بعام ١٣هـ قد وقعت في نهاية ولاية بوراندخت الثانية، أي قبل أن يتولى يزدجرد الثالث الملك في حزيران/يونيو ٦٣٢م مباشرة، حين أدى التحزّب بين البهلويين والفرس إلى منع الإيرانيين من متابعة انتصاراتهم، وفي التقويم الهجري، يوافق هذا عام ١١هـ. واستناداً إلى هذين الدليلين الزمنيين، فقد امتدّ الفتح العربي المبكر للعراق على مدة تبلغ نحو أربع سنوات، من أيلول / سبتمبر ٦٢٨م إلى حزيران / يونيو ٦٣٢م، وهي

١. بور شريعتي: اضمحلال الامبراطورية الساسانية وسقوطها، ص ٢٩٢-٢٩٣.

الحوادث التي تضغطها روايات الفتوح بالفترة ١٢-١٣هـ/٦٣٣-٦٣٤م، خلال خلافة أبي بكر. وهذه هي الملاحظة الأهم التي يمكن أن نخرج بها استناداً إلى تحليلنا، والتي سيكون لها مضامين ثورية على تاريخ صدر الإسلام^(١).

أي نعم، مضامين ثورية خلقتها أساطير المتهم بالزندقة سيف بن عمر التميمي لا غير، فيا لها من ثورة حقيقية !

وبالإضافة إلى كل الملاحظات التي قدمتها، تورطت الباحثة في بعض تفاصيل روايات سيف بن عمر نفسها حيث يرد فيها ذكر الأوامر الصادرة من الخليفين أبي بكر وعمر في تلك الفتوحات وما له علاقة بالقرارات المتخذة على إثرها، من إقرار الجزية أو الخراج أو الإعفاء أو تعيين القادة والولاة والمراسلات الدائرة بينهما وبين الأطراف المختلفة وغير ذلك من تفاصيل أغمضت عنها أو تناستها في معرض تقديمها التحليل الذي اعتبرته قراءة ثورية جديدة، كما ولا نجد في البين أي أثر للنبي لا على مستوى القيادة ولا اتخاذ القرار ولا تقسيم المغانم ولا تعيين القادة العسكريين ولا الولاة ولا غير ذلك من شئون الحاكم أو رئيس الدولة، فهل تعتبر كل ذلك منطقياً ومعقولاً جداً أيضاً؟!

ولذا طرحت هي التساؤل التالي: (ولكن إذا كان النبي حياً حقاً خلال بعض سنوات فتح العراق على الأقل، كما يفترض تاريخ وفاته المعروف في عام ٦٣٢م، فيماذا نفسر غيابه عن روايات الفتوح كلها؟).

لقد كان الحل الأول أمام هذه المعضلة أن تقول: (ولأن معظم الطرق الموحدة

١. بور شريعتي: اضمحلال الامبراطورية الساسانية وسقوطها، ص ٤١٤-٤١٥.

في مقارنة الموضوع في الروايات الإسلامية المبكرة كانت طرقاً إسلامية أضيفت إلى الروايات بأثر رجعي على نحو ما كانت الحال في مسألة الترتيب الهجري الحولي والخليفي للرواية، فهل لنا أن نفترض أن رواة الرواية أو مهذبها الأوائل أو المتأخرين كانوا يحذفون اسمه بشكل ممنهج من روايات الفتوح؟ وهو الحل الذي لا يساعد عليه المنطق والعقل، خاصة وأن نفس سيف لم يذكر النبي في تفاصيل أساطيره، لذا لجأت لافتراض أسخف من السابق حيث قالت: (أو بشكل آخر، هل إنه لم يكن) النبي (مهماً بما يكفي ليُدخله الرواة أو الناسخون في تلك الروايات؟) يا سبحان الله! إن لم يكن دور النبي مهماً في قيادة وتوجيه هذه الجيوش والمعارك وما يترتب على المواجهات مع امبراطورية الساسانيين، بحيث تغافل المؤرخون ذكره في تفاصيلها، فدور من هو المهم والحيوي؟

وأمام سذاجة الإجابتين اللتين قدمتهما وقفت الباحثة موقف الحائر لتقول: (إنّ الدور الدقيق لأبي بكر في تلك الحروب ومدة خلافته وعلاقته بالنبي سوف تبقى أسئلة شائكة للمزيد من البحث)^(١).

ومع هذا كله، فقد اعتبرت الباحثة أن من آثار هذه القراءة الثورية إعادة قراءة حروب الردّة أيضاً، لا في موقعها الزمني فحسب، بل وفي الدوافع والتأثيرات، قالت: (لكن إذا كان النبي حياً خلال الفتح المبكر للعراق، فكيف يمكن أن نفهم طبيعة الردّة؟ لما كان الفتح المبكر للعراق قد حدث بين عامي ٦٢٨ و٦٣٢م، بينما كان النبي حياً فرضاً، ولمدة سنتين على الأقل لم يكن فيهما

١. بور شريعتي: اضمحلال الامبراطورية الساسانية وسقوطها، ص ٤١٥-٤١٦.

أبو بكر خليفة، فإنَّ حروب الردّة ستكتسب معنى مختلفاً جداً، لأنها في هذه الحالة لم تحدث كما كنا نعتقد سابقاً بعد وفاة النبي، بل خلال حياته، ولربما سيعني ذلك بالمقابل أن المضمون الإسلامي للردة كان بسيطاً جداً، وبخلاف ما كنا نعتقد سابقاً) متبنيةً بذلك رأي الباحث (مايكل ليكر) الذي قال: (في حالات كثيرة كانت الردة تسمية خاطئة... لأن قبائل وأمم كثيرة لم يكن لها علاقة من أي نوع كان بالدولة الإسلامية لتعقد أو لا تعقد اتفاقات رسمية معها... وكانت قبائل أخرى ببساطة تتبع زعماء تظاهروا بأنهم أنبياء، وكانت تؤكد في الوقت نفسه استعدادها لمواصلة تطبيق الإسلام) أي أن النبي شن عليهم الحرب على البعض لضمهم إلى الدولة وعلى البعض الآخر لأن قادتهم ادّعوا النبوة لا لأنهم تمردوا على الدولة.

وتضيف الباحثة نتيجة أخرى على ضوء ذلك: (هدف العرب في بدء فتوحهم -في الأغلب- لم يكن الغزو الذي سعوا من خلاله إلى نشر عقيدتهم، بل الاعتراف -بعد أن خارت قوى الساسانيين والبيزنطيين طوال ثلاثة عقود من الحروب وبعد أن أضعف الصراع بين الفصائل الفارسية/البهلوية الساسانيين وبعد حركة القوات المربكة وسوء توزيعها في أنحاء المنطقة كافة- أن الوقت قد حان لمتابعة هدفهم في الوصول إلى المواقع التجارية والثروات التي توفرها تلك المواقع. وقد تنطلق من تحليلنا الكثير من الأسئلة المعلقة بشأن تاريخ صدر الإسلام... وربما نكون قد فتحنا بتحليلنا أيضاً صندوق باندورا^(١)، من

١. صندوق باندورا في الميثولوجيا الإغريقية، هو صندوق حُمل بواسطة باندورا ويتضمن كل شرور البشرية من جشع، وغرور، وافتراء، وكذب وحسد، ووهن، ووقاحة ورجاء. والعبارة تشير إلى مصدر المتاعب التي لا نهاية لها الناشئة عن سوء تقدير واحد وبسيط.

دون قصد^(١). وسأردّ في الفصل الأخير من الكتاب على مزاعم المستشرقين والمتأثرين بهم في ادّعائهم بأنّ دوافع ومنطلقات الفاتحين المسلمين كانت مادية بحتة.

إنّ كل ما سبق من آثار مدمّرة في قراءة التاريخ جاء بسبب عبث سيف بن عمر في الروايات واختلاقاته... ولربما يشهد الباحثون بمرور الوقت المزيد والمزيد من الآثار المدمّرة لأساطيره.

• تقييم فتوح البلدان:

ما ذكرته آنفاً بخصوص روايات الطبري وتقييمها لا يعني أنّ كل ما جاء في (فتوح البلدان) للبلاذري صحيح بالكامل، إذ تواجهنا أيضاً مشكلة التضارب الكبير بين الروايات الدائرة حول حدث معيّن، فلربّما وجدنا حدثاً واحداً وأربعة روايات مختلفة التفاصيل والشخصيات، بل وحتى زمن الوقوع! والسبب في ذلك أن المصادر التي أخذ عنها البلاذري متعددة، وهي بدورها تنقل عن رواة مختلفين، وكلّ منهم يقدّم الحدث كما شاء! وهذا التضارب في الروايات وإن بدا طبيعياً في ظل الرغبة البشرية في نسبة الانتصارات إلى شخصية أو قبيلة تنتمي إليها - كما كان يفعل سيف مثلاً في نسبة أحداث وذكر شخصيات وبطولات لقبيلته بني تميم - إلا أن المسألة تتجاوز ذلك إلى تضارب في تواريخ الأحداث وتفاصيلها، وإلى درجة الاختلاف بين القول بوقوع معركة بين الطرفين وبين القول بأن الطرف المغزو استسلم دون قتال... وغير ذلك.

١. بور شريعتي: اضمحلال الامبراطورية الساسانية وسقوطها، ص ٤١٦-٤١٧.

فعلى سبيل المثال قال البلاذري: (قالوا: فكتب إلى النعمان بن عمرو بن مقرن المزني، وكان مع السائب بن الأقرع الثقفي، بتوليته الجيش، وقال: إن أصبت فالأمير حذيفة بن اليمان، فإن أصيب فجرير بن عبد الله البجلي، فإن أصيب فالمغيرة ابن شعبة، فإن أصيب فالأشعث بن قيس. عن أبي مخنف وكان فتح نهاوند في سنة تسع عشرة يوم الأربعاء، ويقال في سنة عشرين. وحدثنا الرفاعي قال.... عن الحسن ومحمد قالوا: كانت وقعة نهاوند سنة إحدى وعشرين... قالوا: وجّه المغيرة بن شعبة.... جرير بن عبد الله البجلي إلى همدان وذلك في سنة ثلاث وعشرين، فقاتله أهلها ودفع دونها..... وقال الواقدي: فتح جرير نهاوند في سنة أربع وعشرين.... وقد روى بعضهم أن المغيرة بن شعبة سار إلى همدان وعلى مقدمته جرير، فافتتحها... أن المغيرة بن شعبة قدم الكوفة والياً من قبل عمر ابن الخطاب، ومعه كتاب إلى حذيفة بن اليمان بولاية أذربيجان. فأنفذه إليه ... فقاتلوا المسلمين قتالاً شديداً أياماً، ثم إن المرزبان صالح حذيفة عن جميع أهل أذربيجان... وروى الواقدي في إسناده أن المغيرة بن شعبة غزا أذربيجان من الكوفة في سنة ٢٢، حتى انتهى إليها ففتحها عنوة، ووضع عليها الخراج. وروى ابن الكلبي، عن أبي مخنف أن المغيرة غزا أذربيجان سنة ٢٠ ففتحها. ثم إنهم كفروا فغزاها الأشعث بن قيس الكندي)^(١).

هذا مجرد نموذج للتضارب بين الروايات حول الفتوحات المختلفة، ولا يكاد حدث من أحداث الفتوحات إلا وفيه مثل هذا التضارب، فما بالك لو

١. البلاذري: فتوح البلدان، ج ٢، ص ٣٧١-٤٠٢.

أضفنا إليها روايات سيف بن عمر التميمي الذي اختلق الشخصيات والأماكن وتفاصيل الأحداث؟

نعم، قام البلاذري في بعض الأحيان بترجيح رواية على أخرى، دون أن تتضح لنا أسباب هذا الترجيح ومعيارية تقييم تلك المرويات والتفاضل فيما بينها، ولذا تبقى المسألة غامضة ونعيد علمها إلى صاحبها، ولعل السبب أنه يوثق بعض المصادر أكثر من غيرها.

أصل الحرب أم السلم؟

أصالة الحرب أم السلم؟

كي نقرأ مسألة الفتوحات من وجهة نظر شرعية منطلقة من مرجعية القرآن الكريم، ونحدّد بشكل أوضح دوافعها بجانب المعطيات والشواهد التاريخية، لا بد من مناقشة مسألة أصالة الحرب أم السلم... أي هل الأساس في التعامل مع غير المؤمنين برسالة محمد «صلى الله عليه وآله» هو الحرب أم السلم؟ هل الحرب حالة استثنائية تفرضها الظروف أم حالة أصيلة بغض النظر عن الظروف؟

توضيح هذه المسألة سيبيّن لنا الموقف من مسألة (الجهاد الابتدائي)، وهل يمكن أن نبرّر ونجد الدليل على صحة ومشروعية المبادرة إلى القتال وشنّ الحرب على الآخرين من أجل الدعوة إلى الإسلام وفتح الآفاق أمام إيصال كلمة الله للناس؟

من المعلوم أن القرآن الكريم قد اشتمل على آيات تدعو إلى العفو والصفح والجنوح إلى السلم وعدم العدوان وعدم الإكراه والالتزام بالمواثيق والعهود والعقود وما إلى ذلك، كما اشتمل على آيات تدعو إلى الحرب والقتال والغلبة والشدة في التعامل مع (الكافرين)، سواء من المشركين أو أهل الكتاب.

• دعوى النسخ في القرآن:

وقد بدا لبعض المفسرين وعلماء المسلمين من المذاهب المختلفة وقوع نوع من التعارض بين هذه الآيات الشريفة، وارتأوا أنّ الحلّ يكمن في مقولة وقوع النسخ فيها، أي أنّ بعض الآيات المشتملة على حكم شرعي معيّن قد نسخت آيات أخرى شملت حكماً مختلفاً في حال أنه يخصّ ذات الموضوع.. فالمتعلّق واحد، والحكم متباين.

ووقع الاختيار على اعتبار آيات الدعوة إلى القتال ناسخة ولاغية للأحكام وللآيات الداعية إلى السلم والصفح والعفو والتجاوز عن إساءات الآخرين، وعليه فإن الحكم الذي يلزم المؤمنين بالرسالة المحمدية العمل به بعد نزول الآيات الناسخة هو القتال مع الآخر المختلف دينياً، وهذا ما يُصحّح ويشرّع كل الفتوحات الإسلامية التي وقعت بعد رحيل رسول الله «صلى الله عليه وآله»، مادام أن الطرف الآخر ليس من المؤمنين بهذه الرسالة.

فما مدى صحة دعوى النسخ هذه؟ وإلى أيّ مدى يمكن الالتزام بتداعياتها؟ النسخ يعني رفع حكم ثابت في الشريعة بارتفاع أمده وزمانه المحدّد له، أو رفع تشريع سابق - كان يقتضي حسب ظاهره الدوام - بتشريع لاحق، بحيث لا يمكن اجتماعهما معاً، إما ذاتاً بحيث كان التناهي بينهما بيّناً، أو بدلالة دليل خاص، كما لو كان في البين نصٌّ صريح.

ولا شكّ في وقوع شيء من النسخ ضمن تشريعات الرسالة المحمدية، وكذلك في وقوع النسخ لبعض التشريعات في الرسالة المحمدية لبعض ما جاء في

رسالات سماوية سابقة. من أمثلة ذلك:

○ نسخ الحكم الخاص بالقبلة، فمؤدّي الحكم الأول هو جعل قبلة المؤمنين بالرسالة المحمدية نحو المسجد الأقصى، وهو حكم لم يرد تشريعه في القرآن ابتداءً، بل أُشير إليه ضمن آيات الحكم الجديد للقبلة، وعندما نزلت الآيات في العهد المدني -والروايات تشير إلى السنة الثانية من الهجرة- نسخ الحكم وصار المسجد الحرام هو قبلة المسلمين في صلاتهم وفي ذبائحهم ومدافنهم وسائر أحكامهم المرتبطة بالقبلة.

﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ إِيْمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ، قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ، وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾^(١).

ومن أمثلة ذلك المحتملة:

○ نسخ حكم الصلاة في أوقات غير موزعة على اليوم بالشكل الذي نعهده اليوم، ولربما كان حكماً من سنن النبي «صلى الله عليه وآله»، بالحكم الوارد في الآية التالية: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لَدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾^(١).

○ نسخ حكم الصلاة من دون وضوء ولا غسل، ولربما بالاكْتِفَاء بطهارة البدن والثياب ممّا ينال في الطهارة، بآية الوضوء: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾^(٢).

أما إذا قلنا بصحة الرواية التالية، فلن تكون آية الوضوء ناسخة بل مُثَبِّتة للحكم ضمن النص القرآني، ففي قصص الأنبياء: (ذكر علي بن إبراهيم وهو من أجل رواة أصحابنا أن النبي «صلى الله عليه وآله» لما أتى له سبع وثلاثون سنة كان يرى في نومه كأن آتياً أتاه فيقول: يا رسول الله، وكان بين الجبال يرمى غنماً فنظر إلى شخص يقول له: يا رسول الله، فقال له: من أنت؟ قال: أنا جبرئيل، أرسلني الله إليك ليتخذك رسولاً، وكان رسول الله «صلى الله عليه وآله» يكتُم ذلك، فأنزل جبرئيل بماء من السماء، فقال: يا محمد فتوضأ، فعلمه جبرئيل

١. الإسراء: ٧٨.

٢. المائدة: ٦.

الوضوء على الوجه واليدين من المرفق ومسح الرأس والرجلين إلى الكعبين، وعلمه الركوع والسجود، فدخل عليّ إلى رسول الله «صلوات الله عليهما» وهو يصلي - هذا لما تم له «صلى الله عليه وآله» أربعون سنة - فلما نظر إليه يصلي قال: يا أبا القاسم ما هذا؟ قال: هذه الصلاة التي أمرني الله بها، فدعاه إلى الإسلام فأسلم، وصلى معه، وأسلمت خديجة، فكان لا يصلي إلا رسول الله «صلى الله عليه وآله»، وعلي «عليه السلام» وخديجة «عليها السلام» خلفه، فلما أتى لذلك أيام دخل أبو طالب إلى منزل رسول الله «صلى الله عليه وآله» ومعه جعفر، فنظر إلى رسول الله «صلى الله عليه وآله» وعلي بجنبه يصليان، فقال لجعفر: يا جعفر صل جناح ابن عمك، فوقف جعفر بن أبي طالب من الجانب الآخر، ثم خرج رسول الله «صلى الله عليه وآله» إلى بعض أسواق العرب فرأى زيدا فاشتراه لخديجة ووجده غلاماً كَيِّساً، فلما تزوجها وهبته له، فلما نبئ رسول الله «صلى الله عليه وآله» أسلم زيد أيضاً، فكان يصلي خلف رسول الله «صلى الله عليه وآله» علي وجعفر وزيد وخديجة^(١).

إلا أنني بينت في كتابي (في عمق التاريخ) و(أبو الأنبياء) مشكلة كتاب قصص الأنبياء وعدم التمكن من الاعتماد على رواياته.

وهكذا نجد في السيرة النبوية لابن هشام ما يدل على تعليم جبريل النبي الوضوء وذلك في العهد المكي، ولكن لا نعلم من المحدث ولا المصدر الذي اعتمده: (قال ابن إسحاق: وحدثني بعض أهل العلم أن الصلاة حين افترضت على رسول الله «صلى الله عليه وسلم» أتاه جبريل وهو بأعلى مكة، فهمز له

١. المجلسي: بحار الأنوار، ج ١٨، ص ١٨٤.

أصالة الحرب أم السلم؟

بعقبه في ناحية الوادي، فانفجرت منه عين، فتوضأ جبريل «عليه السلام»، ورسول الله «صلى الله عليه وسلم» ينظر إليه، ليريه كيف الطهور للصلاة، ثم توضأ رسول الله «صلى الله عليه وسلم» كما رأى جبريل توضأ، ثم قام به جبريل فصلى به، وصلى رسول الله «صلى الله عليه وسلم» بصلاته، ثم انصرف جبريل «صلى الله عليه وسلم»... فجاء رسول الله «صلى الله عليه وسلم» خديجة، فتوضأ لها ليريه كيف الطهور للصلاة كما أراه جبريل، فتوضأت كما توضأ لها رسول الله «عليه الصلاة والسلام»، ثم صلى بها رسول الله «عليه الصلاة والسلام» كما صلى به جبريل فصلت بصلاته^(١).

○ نسخ الحكم الخاص بالتصدق قبل التناجي مع رسول الله «صلى الله عليه وآله»، وقد ورد تشريع الحكم الأول في القرآن الكريم، كما جاء نسخه فيه أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ، أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾^(٢).

قال العلامة الطباطبائي: (الآية ناسخة لحكم الصدقة المذكور في الآية السابقة، وفيه عتاب شديد لصحابة النبي «صلى الله عليه وآله» والمؤمنين حيث إنهم تركوا مناجاته «صلى الله عليه وآله» خوفاً من بذل المال بالصدقة،

١. ابن هشام: السيرة النبوية، ج ١، ص ٢٤٤.

٢. المجادلة ١٢-١٣.

فلم يُنَاجِه أحدٌ منهم إلا علي «عليه السلام» فإنه نجاه عشر نجوات، كلما نجاه قَدَم بين يدي نجواه صدقة، ثم نزلت الآية ونسخت الحكم^(١).

وروى الطبري عن مجاهد أنه قال: (نَهَوْا عن مناجاة النبي «صلى الله عليه وآله» حتى يتصدَّقوا، فلم ينَاجِه إلا علي بن أبي طالب «رضي الله عنه»، قَدَم ديناراً فتصدَّق به، ثم أنزلت الرُّخصة في ذلك)^(٢).

وروى عن مجاهد أيضاً عن علي «عليه السلام» أنه قال: (آية من كتاب الله لم يعمل بها أحد قبلي، ولا يعمل بها أحد بعدي، كان عندي دينار فصرفته بعشرة دراهم، فكنت إذا جئت إلى النبي «صلى الله عليه وآله» تصدَّقتُ بدرهم، فنُسخت، فلم يعمل بها أحد قبلي ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ﴾)^(٣).

وروى عن قتادة أنه قال: (سأل الناس رسول الله «صلى الله عليه وآله» حتى أحفوه بالمسألة، فوعظهم الله بهذه الآية. وكان الرجل تكون له الحاجة إلى نبي الله «صلى الله عليه وآله»، فلا يستطيع أن يقضيها حتى يقدم بين يديه صدقة، فاشتد ذلك عليهم، فأنزل الله «عز وجل» الرخصة بعد ذلك ﴿فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾)^(٤).

وروى القرطبي في تفسيره (الجامع لأحكام القرآن) عن عبد الله بن عمر أنه قال: (لقد كانت لعلي «رضي الله عنه» ثلاثة لو كانت لي واحدة منهن

١. الطباطبائي: الميزان، ج ١٩، ص ١٨٩.

٢. الطبري: جامع البيان، ج ١٢، ص ٢٠.

٣. الطبري: جامع البيان، ج ١٢، ص ٢٠.

٤. الطبري: جامع البيان، ج ١٢، ص ٢٠.

كانت أحبَّ إليَّ من حُمُر النِّعم: تزويجه فاطمة، وإعطاؤه الراية يوم خيبر، وآية النجوى^(١).

إلا أنه تمَّت المبالغة بشكل كبير في وجود النَّسخ في الأحكام الواردة في القرآن الكريم، كما تم توسعة دائرة النسخ بحيث لم يقتصر على نسخ الحكم الوارد في الآية، بل شمل نسخ تلاوة الآية أيضاً، بمعنى لزوم محوها من القرآن الكريم، والأغرب أنه قيل بوقوع نسخ التلاوة أحياناً مع بقاء الحكم، كما قال البعض بنسخ الحكم الوارد في القرآن بأخبار الآحاد! ولنأخذ بعض الأمثلة على ذلك. أُلِّفَتْ منذ عصر الأئمة «عليهم السلام» كتبٌ خاصة أو شاملة للحديث عن النسخ والمنسوخ، وتناولها مصنفو (علوم القرآن) باعتبارها من أبوابها، ومن بينهم جلال الدين السيوطي (ت ٩١٠هـ) في كتابه (الإتقان في علوم القرآن) والذي لم يرتضِ دعوى وجود مئات الآيات الناسخة والمنسوخة، واعتبر أن الكثير منها من باب التخصيص أو الخطأ في دعوى النسخ، ثم قال: (فقد خرج من الآيات التي أوردها المُكثِّرون الجُمُّ الغفير.... وبقي مما يصلح لذلك عدد يسير)^(٢). ثم ذكر الموارد التي تصحُّ لديه أنها من الأحكام المنسوخة فبلغت العشرين لا أكثر، ونظم فيها أبيات لطيفة، وفي مبتدئها^(٣):

قَدْ أَكْثَرَ النَّاسُ فِي الْمَنْسُوخِ مِنْ عَدَدٍ وَأَدْخَلُوا فِيهِ آيَا لَيْسَ تَنْحَصِرُ
وَهَاكَ تَحْرِيرَ آيٍ لَا مَزِيدَ لَهَا عِشْرِينَ حَرَّرَهَا الْحُذَّاقُ وَالْكُبَرُ

١. القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج ٩، ص ٢٢١.

٢. السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، ج ١، ص ٦٥٣.

٣. السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، ج ١، ص ٦٥٤.

ثم أشار في الآيات اللاحقة بالتفصيل إلى الموارد العشرين التي يرى صحة كونها منسوخة.

وحتى هذا العدد الذي ذكره السيوطي كثير، وله تخريجات من قبيل التقييد أو التخصيص أو غير ذلك. وقد ذكر محمد عابد الجابري^(١) في كتابه (فهم القرآن الكريم) رقماً كبيراً لمجموع ما ادّعي كونه من المنسوخات، ولا أعلم مصدره الدقيق لذلك وإن نسبه إلى السيوطي أيضاً، قال: (وقد تتبّع السيوطي ما قالوا عنه إنه منسوخ وهو أكثر من ٥٠٠ آية، وانتهى إلى أن عدد المنسوخ هو ٢١ آية فقط) والصحيح ٢٠ كما مرّ معنا (وجاء بعد، من المحدثين والمعاصرين، من راجع لائحة السيوطي، فبعضهم حصر النسخ في خمس آيات فقط، بينما أثبت آخرون أن تلك الآيات الخمس نفسها لا نسخ فيها)^(٢).

أما نموذج ما قيل أنه من نسخ التلاوة والحكم معاً فقد ذكره الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني على سبيل المثال في كتابه (مناهل العرفان)، قال: (نسخ الحكم والتلاوة جميعاً، فقد أجمع عليه القائلون بالنسخ من المسلمين) وهذا المدّعى غير صحيح إذ لا إجماع في البين والزرقاني سيناقض نفسه في ذلك بعد قليل (وبدل على وقوعه سمعاً: ما ورد عن عائشة «رضي الله عنها» أنها قالت: «كان فيما أنزل من القرآن عشر رضعات معلومات يحرّم من، ثم نُسخن بخمس

١. د. محمد عابد الجابري (ت ٢٠١٠م) مفكر مغربي، حاصل على دكتوراه الدولة في الفلسفة، وله ٣٠ مؤلفاً في قضايا الفكر المعاصر، أبرزها (نقد العقل العربي) الذي تمت ترجمته إلى عدة لغات أوروبية وشرقية.

٢. الجابري: فهم القرآن الكريم، القسم الثالث، ص ٩٩.

معلومات، وتوفي رسول الله وهنَّ فيما يقرأ من القرآن». وهو حديث صحيح «رواه مسلم (١٤٥٢)»، وإذا كان موقوفاً على عائشة «رضي الله عنها» (أي لم تروه عن النبي «صلى الله عليه وآله» فهو بالتالي ليس من السنّة (فإنَّ له حكم المرفوع) أي ما رواه صحابي دون نسبته صراحةً للنبي، ولكنه مع هذا يُعدّ من كلام النبي وسنّته (لأنّ مثله لا يُقال بالرأي، بل لا بد فيه من توقيف) أي أنها أخذته عن النبي (وأنت خبير بأن جملة «عشر رضعات معلومات يُحرّم من» ليس لها وجود في المصحف حتى تُتلى، وليس العمل بما تفيده من الحكم باقياً، وإذن يثبت وقوع نسخ التلاوة والحكم جميعاً، وإذا ثبت وقوعه ثبت جوازه؛ لأن الوقوع أول دليل على الجواز، وبطل مذهب المانعين لجوازه شرعاً كأبي مسلم^(١) وأضرابه^(٢)).

وذكر الزرقاني أيضاً نموذج نسخ التلاوة مع بقاء الحكم، قال: (فيدل على وقوعه ما صحت روايته عن عمر بن الخطاب، وأبي بن كعب أنهما قالاً: «كان فيما أنزل من القرآن: الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموها ألبتة»، وأنت تعلم أن هذه الآية لم يُعد لها وجود بين دفتي المصحف، ولا على ألسنة القراء، مع أن حكمها باقٍ على إحكامه لم ينسخ)^(٣).

واعتبر المثالان الأخيران دليلين على وقوع نسخ تلاوة الآية بالسنّة ولو لم يكن الحديث متواتراً! وبالطبع فإن آية: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا﴾

١. أبو مسلم الأصفهاني كان من المعتزلة.. وبذا لا يكون هناك إجماع بين المسلمين على وجود نسخ التلاوة والحكم مع وجود من منع ذلك كأبي مسلم.

٢. الزرقاني: مناهل العرفان، ج ٢، ص ١٥٤-١٥٥.

٣. الزرقاني: مناهل العرفان، ج ٢، ص ١٥٤-١٥٥.

أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»^(١) ذكرت كدليل من الأدلة القرآنية التي تبين وقوع النسخ في كتاب الله على مستوى الحكم، وعلى مستوى التلاوة أيضاً، ويؤيد ذلك بقوله «عز وجل»: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنْزِلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٢).

قال ابن كثير في تفسيره: (قال ابن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ﴾ ما نبطل من آية. وقال ابن جريج، عن مجاهد: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ﴾ أي: ما نمح من آية. وقال ابن أبي نجيح، عن مجاهد: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ﴾ قال: نُبِتَ خَطُّهَا وَنُبِدِّلَ حَكْمُهَا. وقال ابن جرير: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ﴾ ما ينقل من حكم آية إلى غيره فتبدله ونغيّره، وذلك أن يحول الحلال حراماً والحرام حلالاً والمباح محظوراً، والمحظور مباحاً. ولا يكون ذلك إلا في الأمر والنهي والحظر والإطلاق والمنع والإباحة. فأما الأخبار فلا يكون فيها ناسخ ولا منسوخ. وأصل النسخ من نسخ الكتاب، وهو نقله من نسخة أخرى إلى غيرها، فكذاك معنى نسخ الحكم إلى غيره، إنما هو تحويله ونقل عبادة إلى غيرها. وسواء نسخ حكمها أو خطها، إذ هي في كلتا حالتها منسوخة... وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابن نفيل، حدثنا محمد بن الزبير الحراني، عن الحجاج يعني الجزري عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: كان مما ينزل على النبي «صلى الله عليه وسلم» الوحي بالليل وينساه بالنهار، فأنزل الله «عز وجل»: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا﴾^(٣).

١. البقرة: ١٠٦.

٢. النحل: ١٠١.

٣. ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج ١، ص ١٥٤-١٥٥.

إلا أنّ اعتبار الآية من الأدلة على وقوع النسخ في كتاب الله عموماً، أو نسخ التلاوة على وجه التحديد يواجه بآراء معارضة، حيث ذكرت عدة احتمالات لبيان المراد من الآية الشريفة، وهي كالتالي:

١. نسخ الحكم فقط، لأنّ المراد من ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾ ليس نسيان تلاوة الآية بحيث يؤدي إلى نسخها، بل من الإنشاء، أي التأجيل في إنزال الآية وما فيها من حكم إلى وقت لاحق: (قال أبو العالية: ﴿مَا نَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ﴾ ننسأها، نوخرها عندنا. وقال ابن أبي حاتم: أخبرنا عبيد الله بن إسماعيل البغدادي أخبرنا خلف أخبرنا الخفاف عن إسماعيل يعني ابن أسلم عن حبيب بن أبي ثابت عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: خطبنا عمر «رضي الله عنه» فقال: يقول الله «عز وجل»: ﴿مَا نَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ﴾ ننسأها، أي نوخرها^(١).

٢. نسخ الحكم فقط، لأن (النسيان وارد هنا على سبيل الكناية في ما يريد الله أن يزيله من التشريع بشكل غير مباشر، في مقابل ما يريد إزالته بشكل مباشر، وهو إبلاغ النبي بذلك عن طريق الوحي، ولهذا فإنّ إنشاء الله إيّاه، ليس فيه محذور حتى على رأي من يرى عصمة النبي عن السهو والنسيان، لأنه يعتقد ذلك في الموارد التي تدخل في نطاق الشريعة والحياة العامة الطبيعية، لا في ما يدخل في نطاق الإرادة الإلهية التي تتدخل في نسخ الحكم بهذه الطريقة، مما يعدّ جزءاً من حركة الرسالة وطريقتها في إبلاغ الشريعة سلباً أو إيجاباً^(٢)).

١. ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج ١، ص ١٥٥.

٢. فضل الله: من وحي القرآن، ج ١، ص ٢٨٤.

٣. نسخ ما جاء من أحكام في الشرائع السابقة وإنسائها وتبديلها، ولربما القرآن بصدد الردّ على شبهة أهل الكتاب -ولربما المشركين من قبلهم- القائلين باستحالة النسخ في التشريعات الإلهية، لأنّ تبديل الأحكام وإلغائها لا يناسب المشرّع الحكيم العليم، بل هو من تصرّفات الإنسان الذي لا يملك علماً كاملاً بالأمور فتتبدّل آراؤه وقراراته... فكيف يأتي محمد «صلى الله عليه وآله» بتشريعات مخالفة لما في التوراة مثلاً، والمفترض أن المصدر واحد؟ ولربما إلى هذا تشير الآية بقولها: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾.

فجاء القرآن ليؤكد على أن هذا لا ينافي شيئاً من صفات الله «عز وجل»، بل إن تبدل أحوال الناس وتطوّر الحياة والظروف الاجتماعية وغيرها تستدعي مثل هذا النسخ والتبديل الذي يأتي بحكمة إلهية كما أن التشريع السابق كان وفق حكمة إلهية، وأن كل التشريعات الإلهية تتضمن حكمة وفائدة، ولذا قال: ﴿نَأْتِي بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾.

٣. الآية لا علاقة لها بالأحكام التشريعية، فالمراد من كلة (آية) في هذا الموضوع، هو الآية التكوينية مما يدخل في عداد الظواهر الكونية. قال «تعالى»: ﴿وَكَايْنِ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾^(١) ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ﴾^(٢). الشمس آية والنهار آية وكذلك النجوم والبرق والرعد والجبال والشجر وخلق الدواب وخلق الإنسان، فكل هذه آيات. ومثل هذا التأويل أوفق بما جاء من ذكر لقدرة الله في ختام الآية... وعلى

١. يوسف: ١٠٥.

٢. الإسراء: ١٢.

ضوء هذا، يكون مدلول الآية هو أنَّ الله قادر على أن يزيل الآيات التي يخلقها، ويأتي بخير منها أو مثلها في الكون، وبذلك تكون بعيدة عن جوِّ النسخ بمعناه المصطلح، ولكن كلمة «نُسها» قد لا تتناسب كثيراً مع هذا التفسير إلاَّ ببعض الوجوه البعيدة^(١).

٤. الآية لا علاقة لها بالأحكام التشريعية، فالمراد من كلة (آية) في هذا الموضوع، هو ما يُصطلح عليه عنوان (المعاجز الإلهية) التي يرسل بها الأنبياء. وهذا في كتاب الله في عشرات المواضع، ومنها قوله «تعالى»: ﴿وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذُرُّوْهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا﴾^(٢)، وقوله «تعالى» على لسان عيسى: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾^(٣).

فإذا أيد الله نبياً من الأنبياء بآية (معجزة)، ثم أنزل أخرى مختلفة نوعاً على نبي آخر، فإنَّ هذا تبديل ونسخ، وإذا مرَّ زمن طويل على ذلك ونسي الناس تلك الآية فهذا إنساء لها.

ومثل هذا التأويل أوفق بما جاء من ذكر لقدرة الله في ختام الآية. وعلى ضوء هذا، يكون مدلول الآية هو أنَّ الله قادر على أن يزيل الآيات يُرسل بها

١. فضل الله: من وحي القرآن، ج ١، ص ٣٨٢.

٢. هود: ٦٤.

٣. آل عمران: ٤٩.

رسوله ويأتي بخير منها أو مثلها على يد الرسل؛ وبذلك تكون بعيدة عن جوّ النسخ بمعناه المصطلح^(١).

وللسيد الخوئي في كتابه (البيان في تفسير القرآن) بحث حول النسخ، ذكر فيه أن نسخ الحكم الثابت في القرآن يمكن أن يكون على أقسام، وهي كالتالي:

١. نسخه بالسنة المتواترة، أو بالإجماع القطعي الكاشف عن صدور النسخ عن المعصوم «عليه السلام».

واعتبر السيد الخوئي أن لا إشكال في هذا القسم عقلاً ونقلًا، فإن ثبت في مورد فهو المتبع، وإلا فلا يلتزم بالنسخ. ثم أكد السيد الخوئي على أن النسخ لا يثبت بخبر الواحد.

ولابد أن نلتفت هنا إلى عدم وجود أي خبر متواتر نسخ أي حكم قرآني، وما ذكره السيد الخوئي مجرد افتراض، بل إن رأيي أن هذا القسم غير صحيح عقلاً ونقلًا حتى على مستوى الافتراض، فالقرآن هو الثقل الأكبر، وهو المرجع الأول والمعيار الذي من خلاله نصّح الروايات كما جاء في عدة روايات مرّت بنا، فكيف يجعل عرضة لنسخ بعض أحكامه بكلام النبي «صلى الله عليه وآله» أو الإمام «عليه السلام»؟ ألا يسقط هذا اعتبارية كتاب الله ومعياريته وكونه القيم على ما سواه؟

٢. نسخه بأية أخرى نازرة إلى الحكم المنسوخ، ومبيّنة لرفعه. ومثل السيد الخوئي لذلك بأية النجوى التي مرّت معنا من قبل. واعتبر أن هذا القسم أيضاً لا إشكال فيه.

١. فضل الله: من وحي القرآن، ج ١، ص ٣٨٢.

٣. نسخه بآية أخرى غير ناظرة إلى الحكم السابق، ولا مبينة لرفعه، وإنما يلتزم بالنسخ لمجرد التنافي بينهما، فيلتزم بأن الآية المتأخرة ناسخة لحكم الآية المتقدمة.

وذكر السيد الخوئي أن هذا القسم من النسخ غير واقع في القرآن لأنه سيتعارض مع قوله «عز وجل»: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾^(١)، فالله «عز وجل» يخبرنا فيها وبشكل واضح أن لا وقوع للتعارض في القرآن، بينما لازم القسم الثالث من النسخ خلاف ذلك.

ولو كان ثمة تعارض أو تناقض بين الآيات من هذا القبيل، لاحتجّ المشركون والمعادون من أهل الكتاب والمنافقون على النبي، إذ كيف يكون القرآن كتاباً من عند الله والتناقض قائم بين آياته وأحكامه، وبعضه يعارض بعضاً، فمثل ذلك لا يكون إلا بفعل البشر، حيث أن الإنسان ينسى ويغفل وتتغير أفكاره وقناعاته، أما الله «عز وجل» فلا يقع منه ذلك. ولو كان التعارض والتناقض قائماً في القرآن، لما تحدّاهم وقال لهم بلسان المتحدّي: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾.

واعتبر السيد الخوئي أن كثيراً من المفسرين توهّموا وقوع التنافي بين كثير من الآيات، ولذا ادّعوا أن المتأخرة ناسخة للمتقدمة، بينما الحقيقة أن الآية المتقدمة عامّة والمتأخرة مخصّصة لها، أو أن الآية المتقدمة مطلقة، والمتأخرة مُقيّدة لها، مثاله: ﴿وَكُتِبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ

وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ^(١)، حيث قيل أنها منسوخة بقوله «تعالى»: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرُّ بِالْحَرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى﴾^(٢) أي أنه ادَّعوا أن الحكم في البدء كان بإنزال حكم القصاص بقتل القاتل بغض النظر عن أي خصوصية، ثم نُسخ الحكم بأنه إذا كان القاتل حراً والمقتول عبداً، فإنَّ القاتل لا يُقتل به، بل يدفع ديته.

والواقع أن الآية الثانية لم تنسخ الأولى، بل بينت تقييد الحكم المطلق فيها، وهو ما نجده مثيلاً له في المواد والمذكرات التفسيرية للدساتير مثلاً، حيث لا يُقال أنها لاغية للمادة الدستورية، بل إنها مبينة لها بشكل تفصيلي. واعتبر السيد الخوئي أن منشأ هذا الخلط عندهم بين النسخ والتقييد أو التخصيص أو غير ذلك هو قلة التدبر، أو التسامح في إطلاق لفظ النسخ، بحيث أنهم لم يقصدوا النسخ بالمعنى (الاصطلاحي)، أي المعنى العلمي الخاص، بل بمعناه (اللغوي) الذي يشمل مثل هذه الحالات^(٣).

بل أضيف إلى ذلك وقوعهم في خطأ تصوّر وحدة الموضوع، بينما موضوع الآية الأولى شيء، والثانية شيء آخر.

وقد قدّم السيد الخوئي أمثلة عديدة اعتُبرت من النسخ، بل ادّعى على بعضها بالإجماع - ولم يأبه بذلك - وقدّم الدليل على بطلان دعوى النسخ فيها لاعتبارات مختلفة.

١. المائدة: ٤٥.

٢. البقرة: ١٧٨.

٣. الخوئي: البيان في تفسير القرآن، ص ٢٨٥-٢٨٧.

مثال (١): قوله «عز وجل»: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾^(١).

فقد نُسب إلى جماعة منهم ابن عباس، وأبو العالية، والحسن، وعطاء، وعكرمة، وقتادة، والسدي، وزيد بن أسلم أن الآية منسوخة، واختلف في ناسخها، بين قوله «عز وجل»: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ الواردة في قوله: ﴿وَمَنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَآتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾^(٢)... أو قوله: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ ضمن الآية السابقة.

وقد ذكروا في وجه النسخ أن النبي «صلى الله عليه وآله» وجميع المسلمين كانوا مخيرين في الصلاة إلى أية جهة شاءوا، وإن كان رسول الله قد اختار من الجهات جهة بيت المقدس، فنسخ ذلك بالأمر بالتوجه إلى خصوص بيت الله الحرام.

ردّ السيد الخوئي ببطلان ادّعاء النسخ وتوجيهه بقوله: (ولا يخفى ما في هذا القول من الوهن والسقوط، فإن قوله «تعالى»: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ﴾^(٣) صريح في

١. البقرة: ١١٥.

٢. البقرة: ١٥٠.

٣. البقرة: ١٤٣.

أن توجَّهه إلى بيت المقدس كان بأمر من الله «تعالى» لمصلحة كانت تقتضي ذلك، ولم يكن لاختيار النبي «صلى الله عليه وآله» في ذلك دخل أصلاً).

وأضاف السيد الخوئي: (والصحيح أن يقال في الآية الكريمة إنها دالة على عدم اختصاص جهة خاصة بالله «تعالى»، فإنه لا يحيط به مكان، فأينما توجَّه الإنسان في صلاته ودعائه وجميع عباداته فقد توجه إلى الله «تعالى»).

وبعد أن بين أوجه بطلان دعوى النسخ قال: (وعلى ذلك فدعوى النسخ في الآية باطلة جزمًا)^(١).

مثال (٢): قوله «عز وجل»: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾^(٢).

فقد قيل أن الآية منسوخة، واختلفوا في النسخ بين كونه ما جاء في آية المواريث، أي قوله «عز وجل»: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾^(٣)، أو حديث ذكره الشافعي قال: (أخبرنا ابن عيينة عن سليمان الأحول عن مجاهد أن

١. الخوئي: البيان في تفسير القرآن، ص ٢٩١-٢٩٢.

٢. البقرة: ١٨٠.

٣. الشافعي: الأم، ج ٤، ص ٢٧.

رسول الله «صلى الله عليه وسلم» قال: لا وصية لوارث^(١)، أو الإجماع، بينما قال السيد الخوئي: (والحق: أن الآية ليست منسوخة)^(٢)، وشرع في بيان أدلة بطلان دعوى النسخ.

وقد سبق السيد الخوئي إلى هذا القول كل من الحسن وقتادة وطاووس والعلاء بن يزيد ومسلم بن يسار والعتاقي.

مثال (٣): قوله «عز وجل»: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِّنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ أَرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذَا لَمْنَا لِالْأَثْمِينِ﴾^(٣).

قيل أن قوله: ﴿أَوْ آخَرَانِ مِّنْ غَيْرِكُمْ﴾ منسوخ بقوله: ﴿وَأَشْهَدُوا ذَوِي عَدْلٍ مِّنْكُمْ﴾ الواردة في قوله: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهَدُوا ذَوِي عَدْلٍ مِّنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكَ يُوَعِّظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾^(٤).

قال السيد الخوئي: (ذهبت الشيعة الإمامية إلى أن الآية محكمة، فتجوز شهادة أهل الكتاب على المسلمين في السفر إذا كانت الشهادة على الوصية، وإليه ذهب جمع من الصحابة والتابعين، منهم: عبد الله بن قيس، وابن

١. النساء: ١١.

٢. الخوئي: البيان في تفسير القرآن، ص ٢٩٨-٢٩٩.

٣. المائدة: ١٠٦.

٤. الطلاق: ٢.

عباس، وشريح، وسعيد بن المسيب وسعيد بن جبير، وعبيدة، ومحمد بن سيرين، والشعبي، ويحيى بن يعمر، والسدي وقال به من الفقهاء: سفيان الثوري ومال إليه أبو عبيد لكثرة من قال به... والتحقيق بطلان القول بالنسخ في الآية المباركة) ثم ذكر أدلته على ذلك^(١).

مثال (٤): قوله «عز وجل»: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِمْ مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرِ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^(٢).

قيل أنها منسوخة بما جاء في قوله «عز وجل»: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾^(٣)، وكذلك بقوله «عز وجل»: ﴿وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمْنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ﴾^(٤)، ويؤكد هذا النسخ - عند السنة والشيعة - وجود الإجماع والروايات. ولم يوافق السيد الخوئي على ادعاء النسخ هنا أيضاً، واعتبر أن الروايات القائلة بنسخها ضعيفة، ولا وجه للقول بالنسخ.

وقد ذكر الشيخ (محمد هادي معرفة) في لقاء معه أجرته مجلة نصوص معاصرة تحت عنوان (الإبداع والآراء الجديدة) معلومات توضّح الأمر أكثر، وإن خالف في رأيه السيد الخوئي في جزئية ضعف الروايات، حيث اعتبر الشيخ

١. الخوئي: البيان في تفسير القرآن، ص ٣٤٣.

٢. البقرة: ٢٤٠.

٣. البقرة: ٢٣٤.

٤. النساء: ١٢.

معرفة بأن معنى النسخ في تلك الروايات ليس المعنى الذي نتحدث عنه، أي رفع الحكم.

قال: (إن ما ورد في الروايات من الناسخ والمنسوخ إنما يراد به التخصيص والتقيد، حيث يجب على الفقيه أن يحمل عليها الآيات المطلقة. ليس هناك آية قد فقدت جدوائيتها ومفعولها، من قبيل: قوله «تعالى»: ﴿وَالْمُطَلَّاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ (البقرة: ٢٢٨)، فهي مطلقة، ولكنها تختص بالمطلقات رجعيًا. من هنا عليك أن تأتي بآية فاقدة للفائدة والتأثير.

وعندما كنا نناقش أستاذنا السيد الخوئي كنا نذكر له الآية التي تقول: ﴿وَالَّذِينَ يَتُوفَوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرِ إِخْرَاجٍ﴾ (البقرة: ٢٤٠)، التي ساعد إجماع الفقهاء على إثبات نسخها من خلال مجموعة من الآيات. وهذا يعني عدم وجود دليل قوي على أنها قد نسخت بآية أخرى. إن الفقهاء يقولون: إن هذه الآية قد نزلت بشأن النساء اللاتي يتوفى عنهن أزواجهن. لقد كانت عدة الوفاة في عصر الجاهلية تقدر بسنة كاملة، يطلق عليها حالياً مصطلح الحداد، بمعنى أن على المرأة المتوفى عنها زوجها أن لا تضع الحلي ولا تشارك في الأعراس لمدة سنة كاملة. ولا يزال هذا التقليد قائماً بين العرب. كان الفقهاء يقولون: إن هذه الآية تشير إلى حداد الجاهلية، ثم نسخت بقوله «تعالى»: ﴿وَلَهُنَّ الرُّبْعُ﴾ (النساء: ١٢)، حيث تحدد مقدار الميراث لها، ومدة العدة بـ ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ (البقرة: ٢٣٤).

كان السيد الخوئي يقول: إن آيات العدة والميراث لا تتنافى مع هذه الآية؛ إذ إن شرط النسخ أن يكون هناك تهافت وتناف بين الناسخ والمنسوخ. بل إن

السبب الرئيس لمخالفة السيد الخوئي للنسخ هو أن القرآن بنفسه ينفي وجود الاختلاف بين آياته، وعليه كان يقول: كيف تريدون الوصول إلى وجود النسخ من خلال إثبات وجود هذا الاختلاف؟!

قلتُ لسماحته: كيف يكون الشأن بالروايتين الموجودتين في تفسير العياشي، والتي ترى الآية مرتبطةً بالحداد؟
فقال سماحته: لا سند لهما.

وبطبيعة الحال: إن تفسير العياشي تفسيرٌ جيّد. ثمّ قلتُ له: ماذا تقول بشأن إجماع الفقهاء، حيث لم يذهب فقيهٌ طوال تاريخ الفقه إلى القول بحقّين للمرأة؟

فقال سماحته: أنا أقول بذلك، وأقول باستحباب عدم إخراج المرأة المتوفّى عنها زوجها من البيت لسنة كاملة. وهذا لا يتنافى مع دفع ميراثها لها. وقد ذكر سماحته شاهداً، وقال: لو أن الآية كانت مرتبطةً بالحداد والعدة لما قالت: ﴿فَإِنْ خَرَجْنَ﴾. وعليه يتّضح أن هذا التكليف إنما كان من باب الرفق، دون التكليف والإلزام.

وبعد أن فكّرنا في المسألة لاحقاً بشكل أدقّ توصلنا إلى أن الآية ترتبط بالأشخاص الذين يتزوّجون مجدّداً بعد أن يتقدّم بهم السنّ، حيث ينذر أن يكون لهذه النساء أولاد؛ إذ لو كان لهنّ أولاد لم يكن لأحد حقّ في إخراجهنّ. إن هذه الآية توصي بعدم إخراج هذه النساء من البيت إلّا إذا أردن ذلك بأنفسهنّ. وهكذا أصبح مفهوم الآية واضحاً جدّاً، وعلمنا أن الحقّ كان مع سماحة الأستاذ^(١).

1. <http://nosos.net/الإبداع-والآراء-الجديدة/>

ومن هنا يتبين أن ما ذكره السيد مير محمدي زرندي من أن السيد الخوئي كان يرى صحة نسخ الآية غير صحيح. قال زرندي: (ولعل ثبوته ووضوحه) أي النسخ (هو الموجب لعدم ذكر الإمام الخوئي لهذه الآية في جملة المنسوخات، وذلك لأنه قال في أول البحث: نحن نذكر الآيات التي كان في معرفة وقوع النسخ فيه وعدم وقوعه غموض في الجملة)^(١).

وهذا اشتباه من الباحث الكريم، وعدم ذكره لها لأن السيد الخوئي لا يعتبرها من المنسوخات، والمورد الوحيد الذي اعتبره منسوخاً هو آية النجوى، وكلام الشيخ معرفة يبين لماذا لم يذكر السيد الخوئي هذا المورد.

والطريف أن الآية الناسخة قد جاءت في ترتيب آيات السورة قبل الآية المنسوخة، لأن الناسخة برقم ٢٣٤، والمنسوخة ٢٤٠ من نفس السورة.

وممن كان قد قال بعدم نسخها الإمام الشافعي على ما في تفسير الجلالين، وقال السيوطي فيه: السكني ثابتة عند الشافعي ولم تنسخ^(٢).

نكتفي بهذا القدر من أمثلة النسخ وردّها، ولو لم نحسن الظن ببعض المفسرين وغيرهم ممن وسّعوا دائرة النسخ، فقد نقول بأنّ من المحتمل أيضاً أن يكون وراء ذلك بعض الدوافع السياسية، من قبيل تبرير سلوكيات بعض الحكّام في التوسع في شن الحروب واضطهاد فئات من المجتمع وغير ذلك، والمصلحية، من قبيل ادّعاء العلم والتميّز على الأقران.

وما نحن فيه من البحث حول آيات القتال وتوظيفها في شرعنة بعض

١. زرندي: بحوث في تاريخ القرآن وعلومه، ص ٢١٥.

2. <https://www.hodaalquran.com/rbook.php?id=3256&mn=1>

الفتوحات الإسلامية هو من هذا الباب، حيث ادّعي أن عشرات الآيات الداعية إلى:

- عدم العدوان على الآخرين
 - وأن القتال لا بد أن يأتي كردّة فعل على الاعتداء الحاصل من الطرف الآخر
 - والحث على الدعوة بالحسنى
 - والجنوح إلى السلم والصلح والعفو
- هي آيات وأحكام منسوخة بآيات تأمر بالقتال، والواقع أنها (مطلقة)، أو آيات نزلت في ظرف خاص وتعالج مسألة محدّدة ! ولنأخذ الأمثلة التالية:
- ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْضُوا وَاصْضُفُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(١).
- ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾^(٢).
- ﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْغِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾^(٣).
- ﴿فَاصْغِ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾^(٤)، وأمثالها هي آيات منسوخة بآية واحدة، هي آية السيف، أي قوله «تعالى»: ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ

١. البقرة: ١٠٩.

٢. الأنفال: ٦١.

٣. الحجر: ٨٥.

٤. الزخرف: ٨٩.

فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْصُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١﴾!!

وهكذا قالوا بأن قوله «تعالى»: ﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ (٢) منسوخ بقوله «تعالى»: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ (٣).

وهكذا قالوا بأن قوله «تعالى»: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ (٤) منسوخ بقوله «تعالى»: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ (٥).

وهكذا قالوا بأن قوله «تعالى»: ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاؤُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتِلُوكُمْ فَإِنْ اعْتَرَفُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ (٦) منسوخ بقوله «تعالى»: ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٧).

١. التوبة: ٥.

٢. البقرة: ١٩١.

٣. التوبة: ٣٦.

٤. البقرة: ٢٥٦.

٥. التوبة: ٧٢.

٦. النساء: ٩٠.

٧. التوبة: ١.

وقد نسب (القاسم بن سلام الهروي البغدادي - ت ٢٢٤هـ) في كتابه (الناسخ والمنسوخ في القرآن العزيز وما فيه من الفرائض والسنن) لابن عباس أن الآيات التالية:

﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾^(١).

﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾^(٢).

﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ﴾^(٣).

﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾^(٤).

منسوخة كلها بقوله «تعالى»: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾^(٥)، وبقوله «تعالى»: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾^(٦).

واعتبر (هبة الله بن سلامة - ت ٤١٠هـ) في كتابه (الناسخ والمنسوخ) أن: (كل ما في القرآن من مثل: ﴿فَاعْرِضْ عَنْهُمْ﴾) وهي خمسة آيات^(٧) (و ﴿تَوَلَّ عَنْهُمْ﴾^(٨)) وهي لا علاقة لها بالمسألة نهائياً لأنها خطاب من النبي سليمان

١. الغاشية: ٢٢.

٢. ق: ٤٥.

٣. المائدة: ١٣.

٤. الجاثية: ١٤.

٥. التوبة: ٥.

٦. التوبة: ٢٩.

٧. النساء: ٦١ - النساء: ٨١ - الأنعام: ٦٨ - السجدة: ٣٠ - النجم: ٢٩.

٨. النمل: ٢٨.

أصالة الحرب أم السلم؟

للهدهد (و ﴿فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾^(١)) وما شاكل ذلك فناسخه آية السيف). بل ادّعى أن آية السيف ناسخة حتى لقوله «تعالى»: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾^(٢)! أما القاضي محمد بن عبد الله المعافري المعروف بابن العربي (ت ٥٤٣هـ) فقد ادّعى^(٣) أن آية السيف، وهي: (﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾^(٤)) نسخ بها مائة وأربعة عشر موضعاً في اثنتين وخمسين سورة، ثم نسخ الله «عز وجل» بعض حكم آية السيف بقوله «تعالى»: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ ونسخ أيضاً عمومها في آخرها بقوله «تعالى»: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾^(٥) أي أن آخر الآية نسخ أولها!!!

مآل الادعاءات السابقة وغيرها ليس إلا الدعوة إلى العنف المستمر مع الآخر المختلف دينياً، ويجعل الأصل والأساس في الموقف منهم هو العدوان عليهم وقتالهم والقضاء عليهم ما أمكن ذلك، ولو في الأشهر الحرم، أو الأرض الحرام، مع إمكانية نقض المواثيق معهم، إذ لا حرمة لهم، ولا موقع للقيم الأخلاقية كالعفو والصفح والاحترام وإن لم يكونوا من المحاربين المعادين للإسلام أو أمته.

وخلاصة الكلام، أن ادعاء وجود النسخ في القرآن الكريم بحيث تنسخ

١. التوبة: ٥.

٢. البقرة: ٨٣.

٣. ابن العربي: ناسخ القرآن العزيز ومنسوخه، ج ١، ص ٢٢.

٤. التوبة: ٥.

٥. التوبة: ٦.

الآية آية أخرى من دون أن تكون نازرة إلى الحكم السابق فيها، ولا مبيّنة لرفعه، ادّعاء باطل، ولا وجود له في كتاب الله الكريم، وعلى ذلك بعض أعلام أهل السنّة كأبي مسلم الأصفهاني المعتزلي (ت ٣٢٢هـ)، ومحمد عبده (ت ١٣٢٣هـ)، ومحمد الغزالي (ت ١٤١٦هـ)، وبعض أعلام الشيعة كالسيد أبي القاسم الخوئي (ت ١٤١٢هـ) والسيد مرتضى العسكري (ت ١٤٢٨هـ). بل وقد سمعت من السيد مرتضى العسكري مباشرة قوله بعدم وجود أيّ مورد لنسخ آية لآية أخرى في القرآن الكريم، سوى آية النجوى فقط.

مع العلم بأنّ آيات تغيير القبلة ليست من هذا الباب، لأنه لم ترد من قبل آية بلزوم استقبال المسجد الأقصى أصلاً، بل كان حكماً من ضمن سنن النبي «صلى الله عليه وآله». وعليه أيضاً فإنّ مقولة أن آيات العفو والصفح والجنوح إلى السلم وعدم العدوان وأمثالها منسوخة بآيات القتال مقولة باطلة ولا تقوم على أساس صحيح، والحكم مختلف باختلاف الموارد والظروف، وليس الأصل في الموقف من الآخر الديني هو القتال والحرب والعداء.

• مشروعية الجهاد الابتدائي:

بعد أن عرفنا أن آيات العفو والسلم والصفح وحفظ المواثيق والعهود والعقود القائمة مع الآخر الديني باقية على حالها وليست منسوخة، وأن الحرب والقتال تفرضه بعض الظروف من قبيل وقوع الاعتداء العسكري من الطرف الآخر، أو الخيانة بإعانة الأعداء المحاربين على مستوى المعلومات وكشف الأسرار، أو نقض المواثيق، وأمثال ذلك، يبرز السؤال التالي: ما مدى مشروعية ما يُعرف بعنوان (الجهاد الابتدائي)؟ أي البدء بقتال الآخر الديني ولو لم يصدر عنه

أي نوع من العدوان أو الخيانة وما أشبه ذلك، بحيث يكون الاختلاف في الدين في حد ذاته مبرراً لقتاله.. لا سيّما ونحن نبحث في الفتوحات الإسلامية التي يبدو بنظرة أولية أنها من هذا النوع من القتال و(الجهاد).

ولو قلنا بعدم مشروعية هذا النوع من الجهاد والقتال، فسيلزمنّا أن نبحت عن مبرر آخر لتصحيح الفتوحات الإسلامية وشرعنتها، من قبيل أنها جاءت ردّاً على عدوان سابق، وإلا صار لزاماً أن نقول بأنها كانت حروباً غير شرعية ومخالفة للحكم الإلهي، ولخطأنا موقف بعض كبار شيعة علي «عليه السلام» من الصحابة والتابعين ممّن شاركوا فيها، بل وكان بعضهم من قياداتها، كما صار بعضهم ولايةً على أراضٍ ومدنٍ فتحت ضمن أحداثها، أو بحثنا لهم عن عُذر، أو لربّما لجأنا إلى تكذيب تلك الأخبار واعتبرناها من الموضوعات، كما كان لزاماً علينا أن نبحت عن عُذر لعلي «عليه السلام» لسكوته عن هذا (العدوان)، والبحث عن سبب عدم وجود نصٍّ مروّيٍّ عنه بالخصوص تعريضاً بها، أو منعاً لشيعة من المشاركة فيها، بل وتعاونه مع الخلافة بشأنها، وترتيبه الآثار عليها، من قبيل الاستفادة من الغنائم وأمثال ذلك مما سيأتي معنا بعض تفصيلاته.

• تعريف الجهاد الابتدائي:

يراد من (الجهاد الابتدائي) ابتداء المسلمين للكافرين بالحرب بهدف واحد، هو الدعوة إلى الإسلام أو التسليم للمسلمين، أي لجعلهم مسلمين أو خاضعين للمسلمين. ومن هنا يُطلق عليه أيضاً عنوان (جهاد الدعوة) أو (جهاد التحرير) لأنه يُحرّر النفوس من الكفر.

وعند التمكن منهم من خلال هذا الجهاد، فإنَّ كان الكفار مشركين أو مطلق غير أهل الكتاب، كالمُلاحدين، وُضعوا أمام خيارين:

○ القتل

○ أو الإسلام

وإنَّ كانوا من أهل الكتاب وُضعوا أمام خيارات ثلاثة:

○ إما أن يُسلموا

○ وإما أن يخضعوا ويصبحوا من أهل الذمَّة فيدفعون الجزية

○ وإما أن يُقتلوا.

وكلمات بعض الفقهاء تشير إلى أن (الجهاد الابتدائي) هو المراد الأصلي من (الجهاد) في الإسلام، بل كان يُعبَّر عنه في كلمات الفقهاء -وإلى عهد قريب- بهذا العنوان المطلق (الجهاد)، بما يبيِّن أن (الجهاد الدفاعي) مُلحَق به وليس هو الأصل. قال الشيخ محمد حسن النجفي (ت ١٢٦٦هـ) في موسوعته الفقهية (جواهر الكلام): (لا ريب في أنَّ الأصليَّ منه: قتال الكفار ابتداءً على الإسلام... ويُلحَق به قتال من دَهم المسلمين منهم)^(١).

وإذا أضفنا إلى ذلك أن مشهور فقهاء أهل السنة وبعض متأخري فقهاء الإمامية كالسيد الخوئي (ت ١٤١٢هـ) والشيخ المنتظري (ت ١٤٣١هـ) والسيد فضل الله (ت ١٤٣١هـ) يقولون بأنَّ وجوب (الجهاد الابتدائي) غير مشروط بحضور (المعصوم)، بل وقيل باشتراطه كلَّ عام مرَّة، للزم ذلك القول

١. النجفي: جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام، ج ٢١، ص ٤.

بأصالة الحرب في الإسلام ضد غير المسلمين، وأن السلم يحتاج إلى عنوان طارئ هو المعاهدة أو الذمة وما أشبه ذلك، ولن يكون -بالتالي- أمرٌ شرعنة الفتوحات الإسلامية بعسير، بل سيكون ضمن السياق الطبيعي للأحكام الإسلامية الخاصة بالعلاقة مع الآخر الديني.

هذا، ومن الضروري أن نلاحظ هنا أن مفهوم الجهاد الابتدائي الذي قدّمناه في البداية قد طرأ عليه شيء من التغيّر والتوسّع من قبل بعض الفقهاء والمفكرين المتأخّرين، وإن شئت فقل أن شيئاً من التطوير قد لحقه، أو لربّما (إعادة) صياغة لمفهومه بما يتناغم مع تطوّر المفاهيم والمصطلحات والقضايا المعاصرة، أو لردّ بعض الإشكالات المثارة بخصوصه، وذلك من قبيل قولهم أن الجهاد الابتدائي هو الجهاد حال منع الدولة الكافرة من نشر الإسلام فيها، فيكون جهاداً لتحقيق الحرية أو دفاعاً عن حقوق الإنسان في المعتقد، أو دفاعاً عن التوحيد، أو تحريراً للإنسان من عبودية غير الله، أو ممارسة للأبوة المشفقة على الناس لهدايتهم... وهو بالتالي نوع من (التدخل الإنساني) بحسب عُرف الدراسات القانونية الدولية.

ثم إن مشروعية (الجهاد الابتدائي) بل ووجوبه أيضاً من الأمور شبه المفروغ منها في الفقه الإسلامي، ولولا وجود بعض الآراء المخالفة لذلك لقليل أنهما من المسلّمات الفقهية، حتى أنّ الفقهاء لم يبذلوا جهداً كبيراً ومركّزاً للبرهنة عليه، وكأنّهم اتفقوا على أن النصوص عندما تحدّثت عن الجهاد والقتال إنما قصدت هذا النوع منه^(١).

١. حب الله: قواعد فقه العلاقة مع الآخر الديني، ص ٢٢٧-٢٢٨.

قال الشوكاني (ت ١٢٥٠هـ) وهو من علماء أهل السنة: (أمّا غزو الكفار ومناجزة أهل الكفر وحملهم على الإسلام أو تسليم الجزية أو القتل فهو معلوم من الضرورة الدينية، ولأجله بعث الله رسّله) (١).

وللسيد الشهيد محمد باقر الصدر (ت ١٤٠٠هـ) توجيهاً لمشروعية الجهاد الابتدائي مقارنةً بالحروب التي تخوضها بعض القوى العظمى في هذا الزمان بدعوى تخليص المجتمعات من الدكتاتورية أو التخلف وما شابه، وهي في الواقع تقوم بفعل استعماري يخدم مصالحها وبما يتوافق مع أيديولوجياتها، وقد جاء كلامه في معرض إجابته العفوية على سؤال طُرح عليه في جلسة من الجلسات، وكان السؤال كالتالي:

سيّدي، ما هو الفارق بين الإسلام والاستعمار في فتحهما للبلاد الأخرى؟ مع العلم أنّ دعوى الإسلام بأنّه يفتح هذه البلاد لنشر الدين الإسلامي، ودعوى الاستعمار أنّه يفتح هذه البلاد للتصاعد بها فكرياً وحضارياً واقتصادياً.

وجاء جواب السيد الصدر على قسمين، على مستوى النظرية وعلى مستوى التطبيق، وسأكتفي بعرض القسم الأول من الإجابة فقط.

قال (مع بعض الاختصار): الحديث عن الفارق على مستوى النظرية بين الإسلام وهو يدّعي شرعية التوسّع بالقوّة، والحضارة الغربية القائمة اليوم وهي تدّعي شرعية التوسّع بالقوّة، يكون كما يلي: الفارق النظري بين الموقفين هو في الواقع مرتبط بطبيعة القاعدة الفكرية التي يقوم عليها الإسلام، والقاعدة الفكرية التي تقوم على أساسها الحضارة الغربية.

١. الشوكاني: السيل الجرار المتفق على حدائق الأزهار، ج ٤، ص ٤٨٨.

الحضارة الغربية تقول: أنا أفتح وأتوسّع وأسيطر بالقوّة على الشعوب المتخلّفة في سبيل أن أنشر العلم وأن أوسّع من آفاق المعرفة في هذه الشعوب وأصعدها إلى مستوى القرن العشرين أو التاسع عشر أو الثامن عشر. هكذا تقول. والإسلام يقول: أنا أوسّع نطاق سيادتي وسلطاني في سبيل أن أنشر كلمة لا إله إلا الله.

الإسلام حينما يقول هذا فهو منسجم مع قاعدته الفكرية، أمّا الحضارة الغربية حينما تقول هذا فهي متناقضة مع قاعدتها الفكرية.

الإسلام يقول هذا لأنّ الإسلام يعبر عن رسالة (من وجهة رأي الإسلام طبعاً نتكلّم كما أنّنا نتكلّم هناك من وجهة نظر الحضارة الغربية).

الإسلام من وجهة رأيه وتصوّره لموقفه، يعبر عن رسالة، وهذه الرسالة ليست نابعة من إنسان معيّن، أو كيان إنساني معيّن، وإنّما هي نازلة من السماء، من الله «تعالى»، فهذه الرسالة بطبيعة انتسابها إلى الله «تعالى» بإمكانها نظرياً أن تدّعي القيمومة على الحياة البشرية.

تبقى فكرة القيمومة طبعاً صعبة بمقدار صعوبة الإيمان بالله، بمقدار ما يصعب على الإنسان أن يؤمن بالله. إذا كان في هذا صعوبة على إنسان، فمن الصعب عليه أن يؤمن بقيمومة رسالة ناشئة من الله «سبحانه وتعالى»، ولكنّ هذه الفكرة كتمّم طبيعي لفكرة الله «تعالى»، أي: إذا كنّا قد فرضنا في الرسالة الإسلامية أنّها رسالة من الله «تعالى»، ففكرة القيمومة متممة لفكرة الله بالذات؛ لأنّ الله «تبارك وتعالى» التعبير العملي عنه هو القيمومة، فقيمومة الله على الإنسان هذه مستبطنة في فكرة الله بالذات، وحيث إنّها

مستبطنة في فكرة الله بالذات فأَيُّ رسالة تفترض فكرة الله بالذات هي تفترض قيمومة الله أيضاً باعتبارها مستبطنة فيها.

فالإسلام يعبر عن رسالة، هذه الرسالة تدعي أن هناك خالقاً مدبراً قيماً، وأن هذه الرسالة هي مظهر قيمومة الله تعالى على الإنسان، وهذا الإنسان الذي يحمل هذه الرسالة ليس بحسب منطق هذه الرسالة إلا أداة تنفيذ، وفي هذه اللحظة التي تقتضي هذه الرسالة أن يحملها شخص آخر غير هذا، أو أن يتبادل مع شخص آخر دخل في الإسلام على يده فلا بد أن يحصل تبادل المراكز في حمل هذه الرسالة. فالقيمومة هنا في الواقع ليست قيمومة إنسان على إنسان، وإنما هي قيمومة الرسالة النازلة من السماء، هي: قيمومة الله «تعالى». والإنسان هو أداة لتنفيذ هذه القيمومة، هو مظهر لتنفيذ هذه القيمومة، وبإمكان هذه الرسالة أن تصطنع دائماً مظهراً آخر جديداً، إن اقتضت مصلحتها ذلك. ونحن لا نتوقع من غير المسلمين أن يؤمنوا بهذا التصور. لكننا نريد أن نشرح وجهة النظر الإسلامية. يعني: نريد أن نبين انسجام الإسلام مع قاعدته الفكرية حينما اتخذ موقفه من الشعوب الأخرى. النقاش مع القاعدة الفكرية معقول، وهنا باب النقاش مفتوح، هل أن فكرة الله صحيحة أو خاطئة؟ هل إن فكرة القيمومة صحيحة؟ هذا نقاش مفتوح على مصراعيه، ولكننا لسنا الآن بصدد ذلك، وإنما بصدد شرح وجهة نظر الإسلام في المشكلة المطروحة.

الإسلام بحسب موقفه منسجم مع قاعدته الفكرية التي يؤمن بصحتها، سواء آمنت بصحتها أو ناقشتها، هو مؤمن بهذه القاعدة الفكرية، وهذه

أصالة الحرب أم السلم؟

القاعدة الفكرية تبرّر تبريراً كاملاً لهذا الموقف؛ لأنّ القيمومة تكون قيمومة الرسالة، والرسالة تمثل إرادة الله، وإرادة الله قيّمة على الإنسان؛ لأنّ قيمومة الله مستبطنة في فكرة الله بالذات.

وأما أية حضارة أخرى تتبع من واقع الإنسان، فهذه الحضارة مهما كانت متفوّقة مرحلياً على شعب معيّن أو على أشخاص معيّنين. هذا التفوّق المرحلي لا يبرّر القيمومة بالقوّة أي: لا يبرّر انتزاع إرادة هذا الإنسان والسيطرة عليه بالقوّة في سبيل تطويره، صحيح أنّ وجهة نظر هذا القيم، هذه الحضارة المتفوّقة تنظر إليها على أنّها الأصحّ والأكمل. ولكنّ هذه وجهة نظر محدّدة في حدود التجربة التي عاشتها هذه الحضارة، في حدود أبعاد الزمان والمكان والملابسات والشروط الموضوعيّة والشروط الاقتصاديّة والسياسيّة التي تمخّضت عنها وجهة النظر هذه.

من قال لك أيّتها الحضارة إنّ ذاك الشعب المتخلف إذا تركته دون أن تسيطر عليه بالقوّة، إذا تركته وأعفيتّه من سلطانك بالقوّة، وبدأ يتحرّك ذاتياً وينشأ ذاتياً، وبدأ يتحسن ذاتياً ويتحرّك وينشط ذاتياً، ويقع في محاولات الخطأ والصواب ذاتياً، يسقط مرّة ويقف مرّة.. من قال لك إنّ سوف لن يكشف حقيقة حضاريّة أكبر من الحقيقة التي اكتشفيتها؟

خلال شوطك الاجتماعي، أنتِ اكتشفت حقيقة خلال تاريخ معيّن، وضمن ملابس معيّنة، أمّا أنّ هذه الحقيقة تمثّل الحقيقة المطلقة؟ طبعاً لا توجد هناك حضارة بشريّة تدّعي هذا.

فمن قال لهذه الحضارة أنّ شعباً آخر لو اعتمد على طاقاته الذاتيّة، لو أنّه

أعفي من فرض مراسيم بالقوّة وتحديدها بخطّ مرسوم كما يقال للطفل: امش في هذا الخطّ، لو أعفي هذا الشعب من هذا، من قال إنّهُ سوف لن يكشف جانباً أكبر من هذه الحقيقة؟ الحقيقة ليست ملك شعب دون شعب أو عقل دون عقل.

والحقيقة قد تكتشفت جوانبها بالتفاعل والتساند بين كلّ الشعوب. حينئذ أنت فرضت مسبقاً أنّ الحقيقة المطلقة هذه، بينما أنت نظرياً لا يمكنك أن تدّعي أنّ الحقيقة المطلقة هذه، ومع هذا طلبت بالقوّة من الشعوب المختلفة في العالم بأن تنهج نفس الخطّ وأن تسير نفس الطريق. بينما لو فسح المجال لكلّ شعب أن يمارس تجربته الذاتية وتفاعل في التجارب الذاتية ضمن زمن وشروط مختلفة موضوعيّة ومع ملابسات مختلفة اقتصادياً وسياسياً وفكرياً وروحياً، كان بالإمكان أن تُرى التجربة البشريّة كلّ بدرجة أكبر ممّا أن تعرض نتائج تجربة معيّنة لشعب معيّن على كلّ شعوب الأسرة البشريّة.

فمن غير المنطقي أنّ حضارة تقول بأّ نني اكتشفت الحقيقة من زاويتي وضمن شروط وملابسات، لكنّ هذه الحقيقة التي اكتشفتها من زاويتي وشروطي وملابساتي أريد أن أفرضها على شعوب العالم. بينما هذه الشعوب بالإمكان أن تكشف حقيقة من جوانب وزوايا أخرى، وقد تكون هذه الكشف الأخرى في التجربة التاريخيّة للبشر، قد تكون نافعة في سبيل تصعيد الحياة الإنسانيّة كلّ فيبقى هنا نوع من التناقض، التناقض العقلي في موقفهم، صحيح أنّ هناك احتمالاً آخر، وهو أنّه بالإمكان أنّ هذا الشعب الآخر لو ترك فسوف يضيع وسوف يستمرّ في الضياع، ولكنّ هذا مجرد احتمال.

طبعاً الاحتمال موجود، ولكن الاحتمال الآخر هو الأقوى؛ لأنه هو الذي يساعد عليه التاريخ. والذي ينظر إلى تاريخ شعوب العالم، وإلى حركة التاريخ يرى بأن الحقيقة لن تتكشف من قبل شعب واحد، ولم تكن الحقيقة في وقت من الأوقات محتكرة لشعب واحد، أو مكتشفة من قبل شعب واحد، جميع شعوب العالم تقريباً ساهمت في الحقيقة التاريخية ككل، كل شعب خلال حضارته وخلال وجوده ودخوله على مسرح التاريخ أعطى جانباً من الحقيقة، وكوّن جزءاً من التاريخ الذي هو الأساس لحياة الإنسان اليوم.

فالشيء الأقرب احتمالاً سوف يكون مانعاً عن فرض القيمة لشعب على شعب بالقوة. ولو جمّدنا المواهب والعطايا والطاقات الخام الموجودة في هذه الشعوب وفرضنا عليهم بالقوة أن يعملوا عملنا، ويعيشوا اقتصادياً وسياسياً كما نعيش سياسياً واقتصادياً، فإننا سوف نجمّد حركة هذه الشعوب.

وكذلك يمكن أن تكتشف هذه الشعوب أخطاءنا، وبالتالي نصبح متخلفين عنها حضارياً، فهل نقبل قيمة هذه الشعوب بالقوة؟

.... المؤاخذه التي ذكرناها للحضارة الغربية لا تكون بالنسبة للحضارة الإسلامية؛ لأنّ الفارق النظري بين الحضارة الغربية والحضارة الإسلامية كبير جداً، والاستعمار مهما يحمل من شعارات، كأن يقول أحمل العلم وأحمل الحقيقة إلى الشعوب المتخلفة، فإنّه في الواقع يحمل وجهة نظره عن الحقيقة ويفرضها على الآخرين، وهذا خطأ كبير وفادح بالنسبة للحضارة البشرية. هذا على المستوى النظري^(١).

• أدلة الجهاد الابتدائي:

واستدل على مشروعية ووجوب الجهاد الابتدائي بنصوص قرآنية ومن السنة الشريفة، ومن بينها ما يلي:

١. ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾^(١). فالآية لسانها لسان التشديد، وهي تأمر بقتال هذه الفئة -بغض النظر عن المراد بها تحديداً- وتبين أن لا توقف عن الحرب والقتال معهم إلا إذا استسلموا وخضعوا للمسلمين وأعطوا الجزية بالصورة المذكورة في الآية، وإلا تواصلت الحرب معهم، سواء أ كانوا من المعتدين سلفاً على المسلمين أم لم يكونوا.

ولأن الآية مطلقة، لذا فقد استدلل بعض الفقهاء بها على جواز قتل الضعفاء والشيخوخ منهم والعجزة حتى لو لم يكن لهم رأي ولم يُقاتلوا المسلمين! بل إن بعضهم احتمل أن الآية تُرشد إلى أن إيقاف الحرب معهم والكف عن قتلهم ليس إلزامياً فيما لو استسلموا واستعدوا لتقديم الجزية عن يدٍ وهم صاغرون، بل يمكن الاستمرار فيها إلى إفنائهم^(٢)!

٢. ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ

١. التوبة : ٢٩.

٢. المنتظري : دراسات في ولاية الفقيه، ج ٣، ص ٣٦٦-٣٦٧، المرديني: الجوهر النقي، ج ٩،

ص ١٨٤.

أصالة الحرب أم السلم؟

وَأَتُوا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ^(١). وهذه الآية صريحة في أن المشركين يُقاتلون وبشدة حتى تتحقق منهم التوبة، بحيث تنعكس من خلال إقامتهم للصلاة وإتيانهم الزكاة... وبمعنى آخر التزامهم بالإسلام.

ونفهم من الآية أيضاً أنهم إن لم يُسلموا فلا يُتركون بل يُقاتلون ويُعتقلون ويُترصد لهم حيثما ولّوا. ولإطلاق الآية، فإن ما سبق هو حكمهم، سواء أقاتلوا من قبل أم يُقاتلوا.

٣. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾^(٢). الآية صريحة في أن الحرب هنا ليست لردّ عدوان أو إعلان الحرب من قبل المشركين على المؤمنين، بل لفتح البلاد، الأقرب فالأقرب بدليل قوله «عز وجل»: ﴿الَّذِينَ يَلُونَكُمْ﴾ ولذا -بحسب القرطبي- بدأ النبي «صلى الله عليه وآله» بالعرب في الجزيرة العربية، فلما استقامت له الأمور، بدأ بالروم والفرس، وهكذا^(٣).

والملاحظ هنا أن هذه الآيات من أواخر ما نزل في القرآن الكريم بشأن الجهاد وقتال أهل الكتاب والمشركين، فكلاهما في سورة التوبة النازلة في السنة التاسعة للهجرة، أي قبل وفاة النبي «صلى الله عليه وآله» بسنة وعدة أشهر. ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾^(٤). فحيث أن المراد من الفتنة هو الشرك بحسب

١. التوبة: ٥.

٢. التوبة: ١٢٣.

٣. القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج ٢، ص ٣٥٠.

٤. الأنفال: ٣٩.

بعض المفسرين والفقهاء، لذا فالآية تدلّ على وجوب القتال كي يزول الشرك، ولا يزول الشرك إلا بزوال المشركين، أي أنّ قتالهم ليس مرتبطاً بالعدوان الصادر عنهم، بل بلحاظ شركهم، إذ لا بد من زوال الشرك وتمكين التوحيد في الأرض.

• ضرورة القراءة الشمولية :

وهناك ملاحظات عديدة يمكن تسجيلها على الاستدلال بالآيات السابقة، وحيث أن هذا خارج عن هدف البحث لذا فسأكتفي بالإشارة إلى أنه لا يصح أن نقرأ آيات الجهاد بشكل مجزء، كل آية على حدة، ولعل أوضح مثال على ذلك الآيات الواردة في سورة التوبة، فإنّ من يتلوها سيجد أنها تشتمل على عدة استثناءات، وأنها تأتي على وقع ظروف خاصة، وأنها تعالج أحداثاً ووقائع فيها تداخلات وتراكبات لأحداث لا يمكن الحكم عليها من خلال مقطع تاريخي جزئي ومنفصل عمّا سبقه. ولذا لا بد في دراسة آيات الجهاد من قراءتها ككل لاستخلاص التوجّه العام للقرآن الكريم حول أصالة الحرب أو السلم مع الآخر الديني، لاسيّما بلحاظ وجود مجموعة معتدّ بها من الآيات هي متعلّقة بالجهاد الدفاعي وردّ العدوان فكيف لنا أن نحكم بأن الإطلاقات في سائر الآيات غير ناظرة إلى ما سبقها من آيات أسست لعدم العدوان وعدم البدء بإعلان الحرب حتى مع المشركين؟ بل إن الآيات المانعة عن العدوان حاكمة ومقيّدة لسائر الآيات، خصوصاً وقد نفينا من قبل ادّعاء النسخ التي لجأ إليها فقهاء ومفسّرون للتمسك بالإطلاق ومشروعية الجهاد الابتدائي.

فعندما نقرأ قوله «تعالى»: ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ

حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ^(١) سيبدو لنا ادعاء مشروعية بل وجوب الجهاد الابتدائي معقولاً ومتوافقاً مع هذه الدعوة العنيفة للقتل فضلاً عن القتال، والفرق بينهما أن القتال يكون من طرفين، بينما القتل قد يتم من طرف واحد، أي المبادرة من قبل المسلمين لقتل المشركين وإن لم يكن ذلك في أجواء الحرب... كل هذا إذا قرأنا الآية لوحدها، بينما لو رجعنا خطوة واحدة فقط، وهي الآية التي سبقتها مباشرة سنجدتها تقدّم لنا الضابطة الحاكمة في التعامل مع المشركين، وهي: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾^(٢) فهل هناك أوضح من هذا التعبير في رفض البدء بإعلان الحرب عليهم ومنع الاعتداء وأنه أمر لا يُحبّه الله ولا يريدّه وأنه منهي عنه؟

وهل يصح أن يكون (العدوان) أمراً غير محبوب لله في بدايات العهد المدني، ثم يصبح محبوباً له في نهايات ذلك العهد.

هل يحتاج الأمر إلى مزيد من التوضيح أن قتال المشركين إنما يكون بعد أن بدأ المشركون بالقتال بعد قوله «تعالى»: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾، علماً بأن هذه القاعدة تأسست في بدايات عهد ما بعد الهجرة بلحاظ أن الآية من سورة البقرة، وهي من أوائل السور المدنية، وعليها تم تأسيس عقيدة القتال عند المسلمين حتى وفاة النبي الأكرم «صلى الله عليه وآله»، وكل حروبه وغزواته كانت خاضعة لهذه القاعدة، وما يُطرح خلاف ذلك

١. البقرة: ١٩١.

٢. البقرة: ١٩٠.

غير صحيح، حيث لم يعتد النبي «صلى الله عليه وآله» على أحد، بما في ذلك قريش، ولم تكن حروبه إلا دفاعية، أو ردّاً لعدوان سابق، سواء أ كان عدواناً بقتال، أو بخيانة، أو بنقض للمواثيق، أو بالسعي للقتل والاغتيال والتحريض على القتل والتهجير بالعنف والمؤامرات والسجن والحصار والتعذيب وأمثال ذلك، وهو ما مارسه قريش في العهد المكي، كما صدر بعضه عن اليهود ممن قاتلهم النبي، وعن بعض الأعراب والغساسنة والروم وغيرهم.

وهذا ما يفهم من مضمون آية القتل نفسها إذ تذكر التهجير والسعي لردّ المؤمنين عن دينهم بالعنف وغير ذلك، وهو ما تفيد كلفة (الفتنة) الواردة فيها: ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَأُفْتِنَتْ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ كما نجد التأكيد على عدم الاعتداء وضرورة الالتزام بالتشريعات الإلهية الخاصة بالقتال على الرغم من المشاعر السلبية الشديدة تجاه المشركين بسبب منع المؤمنين من أداء مناسك العمرة، مع التهديد والوعيد لمن يخالف ذلك: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَبْتَغُونَ فَضلاً مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَاناً وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبَرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾^(١).

بل إننا نجد في الآية اللاحقة لآية الأمر بالقتل في سورة البقرة أنّ المواجهة العنيفة بالقتال والقتل تستمر ما لم ينتهوا ويتوقفوا عن تلك الممارسات: ﴿فَإِنِ

انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ^(١). ثم تعود الآيات لتتقدم تبرير القتال مجدداً بأنه لردع المشركين عن فتنة المؤمنين بإخراجهم من الدين، وكي يحافظ المؤمنون على دينهم: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ وتكرر مجدداً أن المشركين إذا توقّفوا عن ذلك وارتدعوا فسيكون الموقف منهم مختلفاً: ﴿فَإِنْ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾^(٢).

وتعود الآيات لتؤكد منع الاعتداء والبدء بالحرب والقتل، وأن يكون ذلك محكوماً بالمقابلة بالمثل فقط: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾^(٣)، وعلى المؤمنين الالتزام بذلك انطلاقاً من التزامهم بالتقوى ومخافة مخالفة الأوامر والنواهي الإلهية، وعليهم أن يدركوا أن التزامهم بذلك هو الذي سيمدّهم بالنصر الإلهي، لا أنه سيكون مدعاةً لضعفهم وفشلهم: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾.

نعم، يمكن القول أن استمرار المشركين من قريش وغيرها في نقض المواثيق والتآمر وانتهاز الفرص للانقضاض على النبي وعلى المؤمنين وتحالفهم مع منافقي المدينة وخارجها على الرغم من العفو عنهم في فتح مكة وما بعد ذلك من أحداث، وعلى الرغم من السعي لتأليف قلوبهم بالمال من خلال إشراكهم مع المسلمين في غزوة حُنين والطائف وتفضيل قياداتهم في الغنيمة الحربية، كل ذلك قد غيّر الموقف منهم، بحيث جاء الأمر الإلهي بالاستمرار

١. البقرة: ١٩٢.

٢. البقرة: ١٩٣.

٣. البقرة: ١٩٤.

في قتالهم إلى أن يُسلموا أو يُقضى عليهم بعد إعطائهم الفرصة لأربعة أشهر وبعد انسلاخ الأشهر الحُرْم، مع استثناء الفئات التي لم تنقض المواثيق، وهو ما بيّنته سورة التوبة في آيات عديدة متسلسلة تتضمن الاستثناءات وتقدم المبررات القاضية لإصدار هذه الأوامر الحاسمة.

قال «عز وجل»: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرْمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَخْصِرُوهُمْ وَأَقْعِدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ... كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ، كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ... لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ، فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ، وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَتِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ، أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدُّوْكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ اتَّخَشَوْهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ....»^(١) إلخ الآيات.

• دوافع الفتوحات:

كل ما سبق يؤكد أن موقف القرآن الكريم من القتال هو الموقف الدفاعي، وأن الأصل هو السلم واللاحرب والدعوة بالحسنى وبالكلمة الطيبة وبالْحِجَّة

والجدال بالتي هي أحسن، وأن لا بدء بالقتال لحرمة العدوان على الغير، ولو كان الغير من المشركين فضلاً عن أهل الكتاب، ومن خلال ذلك نقرأ كل السرايا والغزوات التي جرت في العهد المدني، بما في ذلك غزوة بدر التي قال بعض المستشرقين والطاعنين في الإسلام بأنها كانت بسبب ممارسة المسلمين لقطع الطريق والاعتداء على القوافل التجارية لقريش، والواقع أنها كانت ردّاً على عدوان قريش نفسها وحلفائها خلال العهد المكي والذي انتهى باضطراب المسلمين إلى الهجرة هرباً من الاضطهاد ومؤامرات القتل والاغتيال ومصادرة الأموال وحرية المعتقد بالعنف والقهر، وما لاقوه من صنوف التعذيب والحصار والتجويع وما إلى ذلك.

بل إن القرآن الكريم صريح في أن المشركين هم الذين بدأوا المؤمنين بالقتال:

﴿أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾^(١)،

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾^(٢).

﴿أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَوُكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(٣).

وهكذا فإن انطلاقة حركة الفتوحات الإسلامية التي جرت بعد وفاة النبي «صلى الله عليه وآله» كانت استمراراً لمواجهة العدوان والمؤامرات والتحالفات

١. الحج: ٣٩.

٢. البقرة: ١٩٠.

٣. التوبة: ١٢.

الشيطنانية التي قامت على يد الروم وحلفائهم، والفرس وحلفائهم، وجمع من اليهود والنصارى والمشرّكين في الجزيرة العربية،

وكانت بعض حالات التمرّد التي شهدتها الجزيرة العربية بعد وفاة النبي «صلى الله عليه وآله» والتي عُرفت بعنوان (الرّدّة) جزءاً منها وبتحريض من الفرس والروم كما ستمرّ بنا الشواهد على ذلك.

كل ذلك استدعى أن تنطلق جيوش المسلمين لردع تلك المؤمرات والقضاء عليها وعلى مَنْ هم وراءها، لا سيّما بلحاظ صدور أمر النبي «صلى الله عليه وآله» وهو في أيامه الأخيرة بضرورة إنفاذ جيش أسامة بن زيد، لا لإخلاء الساحة لعلي «عليه السلام» فحسب فيما لو توفّي النبي «صلى الله عليه وآله»، كما يتصوّر البعض، بل لأن هذه الانطلاقة العسكرية الضخمة كانت ضرورية لردّ عدوان الروم وحلفائهم.

وبمعنى آخر، يمكننا القول بمشروعية الفتوحات الإسلامية التي جرت في (العهد الراشدي)، دون الحاجة للقول بمشروعية (الجهاد الابتدائي) والبرهنة عليه، ودون الحاجة للجوء للأسلوب الملتوي بادّعاء نسخ آيات العفو والصفح والسلم وعدم العدوان، وفي نفس الوقت، لن نكون في موقف الدفاع أمام هجمات الملحدين والمستشرقين وغيرهم ممن يطعنون في تلك الحروب بذريعة أن وسيلة نشر الإسلام كانت بالسيف.

وسيتبيّن معنا عند عرض أحداث (الفتوحات) وتفاصيلها وما سأذكره حول أسباب الإقبال على الإسلام من قبل الأمم (المفتوحة/المغزّوة) أنّ أهل تلك النواحي التي طالتها الحروب لم يُجبروا على الدخول في الإسلام، ومن أسلم

منهم فقد أسلم عن اختيار منه، ولو كان انتشار الإسلام بالسيف حقيقة، لكان أولى الناس بالتحوّل إلى الإسلام هم أهل تلك النواحي المفتوحة.

كما أن مشروعية (الفتوحات) يستتبعها تفهّمنا لمشاركة جمع من كبار (شيعة علي) فيها، وفي تسلّم بعض المهام القيادية العسكرية والإدارية، حتى أننا نجد أنّ مالكاً الأشرير ردّ على والي الكوفة سعيد بن العاص القائل: (إنّما هذا السواد^(١) بستان قريش) بقوله: (أتزعم أنّ السواد الذي أفاءه الله علينا بأسياقنا بستان لك ولقومك؟)^(٢)، وفي تفهّم موقف أمير المؤمنين «عليه السلام» وعدم ورود أية كلمات عنه ولا عن الحسنين «عليهما السلام» في ذم هذه (الفتوحات) أو نقدها، بل سجد من علي «عليه السلام» النصّح والمشورة، بالإضافة إلى ترتيب الأثر عليها.

١. أرض السواد عنوان يُطلق على جنوب العراق، بسبب كثرة النخل والزرع، والأخضر الغامق يسمى عندهم أسود.

٢. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ٢، ص ٢.

موقف الأئمة من الفتوحات

موقف الأئمة من الفتوحات

من القضايا التي يهتم بها الوسط الشيعي عند الحديث عن الفتوحات الإسلامية عموماً، وفي العهد الراشدي الذي عاصره الإمام أمير المؤمنين علي «عليه السلام» خصوصاً، هي مسألة موقف الأئمة ورأيهم فيها، ومدى وطبيعة تفاعلهم معها، الأمر الذي سيؤثر - شئنا أم أبينا - على نظرتنا حول مدى مشروعية هذه الفتوحات وتفاعلنا الإيجابي عند الحديث عنها. ولنبدأ أولاً في استعراض موقف أمير المؤمنين «عليه السلام» منها، ومن ثم نُعرج على دعوى مشاركة الحسن والحسين «عليهما السلام» في بعضها، ونتوقف أخيراً في استعراض الروايات الواردة حول تصريحات ومواقف الأئمة «عليهم السلام» من بعد الحسين والمتعلقة بها.

• موقف الإمام علي من الفتوحات:

وقعت الفتوحات الإسلامية في (العهد الراشدي) على مرأى ومسمع الإمام علي «عليه السلام» والحسن والحسين «عليهما السلام»، ولم يبلغنا انتقاد موجّه منهم نحو هذه الحروب وتسيير القوّات، خلافاً لتلك التي وقعت في العهدين الأموي والعباسي حيث أبدى بعض الأئمة «عليه السلام» مواقف

سلبية منها كما سيأتي معنا. بل وبين أيدينا بعض النصوص التي تتضمن كلمات المشورة والنصيحة الصادرة عن علي «عليه السلام» للخليفة عمر بن الخطاب بهذا الخصوص، ومن المحتمل -كما سندرس لاحقاً- أن الحسنين «عليهما السلام» شاركا في بعض الفتوحات، وقد تبنى بعض علمائنا من الباحثين في التاريخ وسيرة الأئمة «عليهم السلام» هذا القول، ونجد أن عدداً ملحوظاً من المحسوبين على أمير المؤمنين «عليه السلام» ومن شيعته المقربين قد شاركوا في بعض تلك الفتوحات بمرأى ومسمع من الإمام نفسه، وبعضهم كان في موقع القيادة فيها، إضافة إلى ترتيب الأثر عليها من قبل الأئمة وأصحابهم، وسأذكر مجموعة من الشواهد على ذلك.

ويمكن أن يُستدل بما سبق على مشروعية وإيجابية تلك (الفتوحات) من حيث المبدأ بغض النظر عن بعض الأحداث التفصيلية التي قد لا تتوافق مع ذلك، وهذا أمر طبيعي لا يחדش في أصل المشروعية، وقد عاب القرآن الكريم على بعض المسلمين بعض المواقف التي لا تتناغم مع الموقف الشرعي في أثناء الحرب كقوله «تعالى»: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمٌ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾^(١)، وكما رفض النبي «صلى الله عليه وآله» وتبرأ من تصرف خالد بن الوليد مع بني جذيمة كما سيأتي معنا في نهاية هذا الفصل. فيبقى إذاً أن فتوحات (العهد الراشدي) كانت متوافقة مع الشريعة، وتخدم

الإسلام، وفي الاتجاه الصحيح، وأنها استدامة لحركة النبي في اتجاه مواجهة الأعداء الذين كادوا دولة الإسلام الفتية - واستمرّوا في كيدهم - وأرادوا القضاء عليها بالمؤامرات والمكائد وتحريك بعض الأطراف وتشجيعها وعقد التحالفات الشيطانية، بل وبالمواجهات المباشرة أحياناً.

بل اعتبر البعض - كما ذكرت في الفصل السابق ولستُ مؤيداً لقولهم - أن هذه الفتوحات كانت ضرورية لفتح المجال أمام الشعوب غير المسلمة في العراق والشام وأفريقيا وفارس وخراسان وغيرها للاستماع إلى كلام الله وهدايتهم أو إقامة الحجّة عليهم، وهذا ما كان ليتم لولا الفتوحات، إذ أن القائمين على تلك الأمم كانوا من أشدّ أعداء الإسلام، فمن المنطقي - بحسبهم - أن يقوم المسلمون بالجهاد الابتدائي أملاً في استكمال نشر دعوة رسول الله «صلى الله عليه وآله» إلى الناس كافة. وقد ناقشت في الفصل السابق هذه الجزئية - فقهياً من منطلق قرآني - حول علاقة الفتوحات بنشر دين الله، ومدى مشروعية استعمال السيف والقوة في الدعوة، وحول الجهاد الابتدائي عموماً، سواء تحت راية النبي أو الإمام، أو من دون ذلك ما دامت الغاية مُخلصة لوجه الله «تعالى».

• الإمام علي يُخبر عن دوره في الفتوحات :

الرواية الأولى التي يُمكن الاستدلال بها على الموقف والتفاعل الإيجابي من قبل الإمام علي «عليه السلام» بشأن الفتوحات في العهد الراشدي أو بعضه، رواية طويلة جداً رواها الشيخ الصدوق في كتابه (الخصال)، وهي في صورة حوار دار بين أمير المؤمنين «عليه السلام» وبين كبير اليهود في الكوفة بعد

حرب النهروان، وهذا يعني -على فرض صحة وقوعها- قد جرت في عهد حكمه وخلافته.

فقد روى الشيخ الصدوق بالسند عن جابر الجعفي، عن أبي جعفر -الباقر عليه السلام- قال: (أتى رأس اليهود علي بن أبي طالب «عليه السلام» عند منصرفه عن وقعة النهروان وهو جالس في مسجد الكوفة فقال: يا أمير المؤمنين، إني أريد أن أسألك عن أشياء لا يعلمها إلا نبي أو وصي نبي قال: سل عما بدا لك يا أبا اليهود.....) وبدأ يسأل والإمام يجيب إلى أن قال «عليه السلام»: (فإن القائم بعد صاحبه) أي الخليفة عمر بعد الخليفة أبي بكر (كان يشاورني في موارد الأمور، فيصدرها عن أمري، ويناظرني في غوامضها فيمضيها عن رأيي، لا أعلم أحداً -ولا يعلمه أصحابي- يناظره في ذلك غيري، ولا يطمع في الأمر بعده سواي) وكأن الإمام يقول أن اعتماد الخليفة عمر عليه وحده دون سائر الناس كان مؤشراً على أنه سيقوم بالإعلان عن خلافته من بعده مباشرة (فلما أن أتته منيته على فجأة بلا مرض كان قبله، ولا أمر كان أمضاه، في صحة من بدنه، لم أشك أني قد استرجعت حقي في عافية بالمنزلة التي كنت أطلبها، والعاقبة التي كنت ألتمسها، وإن الله سيأتي بذلك على أحسن ما رجوت، وأفضل ما أملت، وكان من فعله أن ختم أمره بأن سمى قوماً أنا سادسهم، ولم يستوني بواحد منهم^(١)، ولا ذكر لي حالاً في وراثته الرسول ولا قرابة ولا صهر ولا نسب، ولا لواحد منهم مثل سابقة من سوابقي ولا أثر من آثاري، وصيرها شوري بيننا، وصير ابنه فيها حاكماً

علينا وأمره أن يضرب أعناق النفر الستة الذين صير الامر فيهم إن لم ينفذوا أمره، وكفى بالصبر على هذا -يا أخا اليهود- صبراً....^(١).

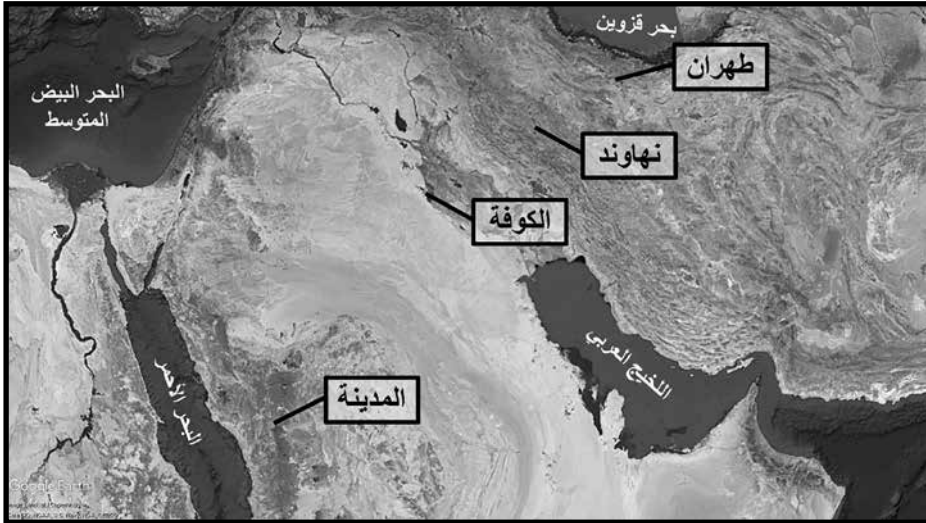
فالرواية -إن صحّت وهي بالمناسبة ضعيفة السند- تدلّ على كمال المشورة في مهمّات الأمور بين الخليفة عمر وبين الإمام علي «عليه السلام»، وأنّ التنسيق كان قائماً بينهما، ولاشك أنّ منها مسألة الفتوحات، فقد كانت من أهمّ مشاغل الحكم آنذاك وعلى رأس أولويّاتها، لسعتها وكثرتها وامتداد آثارها المختلفة على الأمة الإسلامية.

ولكن بالإضافة إلى ضعفها من ناحية السند بعدة لحاظات، هناك إشكالات كثيرة على التفاصيل العديدة المذكورة فيها على لسان الإمام علي «عليه السلام»، مع تساؤل مشروع حول مدى الحكمة في أن يقدّم الإمام لرجل من اليهود كل هذه التفاصيل الخطيرة وفتح الملفات الحساسة حول قضايا الحكم والخلافات بين المسلمين وغير ذلك، ولو كان طمعاً في إسلامه ودفعه نحو التشييع له على سبيل المثال.

من هنا لا نستطيع أن نتمسك بهذه الرواية للتدليل على الموقف الإيجابي من قبل الإمام «عليه السلام» تجاه الفتوحات، وننتقل إلى روايات أخرى لعلها تسعفنا في هذا الباب.

ففي نهج البلاغة نصّان وموقفان يتضمّنان استشارة من الخليفة عمر بخصوص بعض المعارك، ونجد من أمير المؤمنين «عليه السلام» تجاوباً

١. يبدو أن هذه الكلمة غير صحيحة، وفي كتاب الاختصاص (ولم يساوني) ولعلها أصح، وذلك بلحاظ جعل الإمام آخر القائمة.



موقع بلدة نهاوند في إيران حيث جرت المعركة

إيجابياً معها، ولم يدخر النصيحة في توجيه الخليفة لاتخاذ الموقف الصحيح الذي يعود على الإسلام بالخير، وفيه ثناء على جيش المسلمين أيضاً، وأن الله معهم ويسدّدهم ويخذل أعداءهم.

• الموقف الأول:

أما الموقف الأول فيخصّ رغبة الخليفة عمر بن الخطاب في الخروج بنفسه لقتال الفرس في معركة (نهاوند) والتي تُعتبر من المعارك الفاصلة في حركة الفتوحات الإسلامية ضمن حدود الدولة الساسانية.

وقد اختلف المؤرخون في تحديد سنة وقوع هذه المعركة، وإن اتفقوا على أنها كانت في خلافة عمر بن الخطاب، قرب بلدة نهاوند في إيران، وقد أرت إلى الاختلاف في تحديد ذلك في فصل مصادر أخبار الفتوحات، وفي هذه

المعركة انتصر المسلمون انتصاراً كبيراً بقيادة النعمان بن مقرن^(١) على الفرس الساسانيين، إلا أن النعمان استشهد في المعركة وقادها جرير بن عبد الله البجلي من بعده بحسب الترتيب المحدد للقيادة من قبل. وبانتصار المسلمين فيها، انتهى - عملياً - حكم الدولة الساسانية في إيران، بعد أن دام ٤١٦ عاماً، وإن استمر وجود من اعتبروا أنفسهم حكاماً للدولة الساسانية من بعد ذلك كما سيأتي معنا في الفصل الخاص بتقييم أوضاع دولة الفرس، ولكن مقومات الدولة انهارت على الأرض.

ونصّ كلام أمير المؤمنين ضمن هذا الموقف جاء تحت رقم ١٤٦ أو ١٤٤ - على اختلاف النسخ - من قسم الخطب والكلمات من نهج البلاغة: (ومن كلام له «عليه السلام» وقد استشاره عمر بن الخطاب في الشخوص لقتال الفرس بنفسه: إنَّ هذا الأمر لم يكن نصره ولا خذلانه بكثرة ولا قلة. وهو دين الله الذي أظهره، وجنده الذي أعدّه وأمدّه، حتى بلغ ما بلغ وطلع حيث طلع. ونحن على موعود من الله. والله منجز وعده وناصر جنده. ومكان القيم بالأمر^(٢) مكان النظام من الخرز^(٣)، فإن انقطع النظام تفرّق وذهب، ثم لم

١. النعمان بن مقرن المزني، صحابي، أمير قبيلة مزينة. قدم على النبي مع قومه ومعه الهدايا معلناً إسلامهم جميعاً، ويروى أنه المسلمين فرحوا بهذا الخبر، إذ لم يسبق لبیت من بيوت العرب أن أسلم منه أحد عشر أخاً من أب واحد ومعهم أربع مائة فارس. شارك في بعض حروب النبي، وحمل لواء مزينة في فتح مكة. عينه الخليفة عمر والياً على مدينة كسكر في العراق.

٢. المقصود به هنا: الخليفة.

٣. النظام: السلك ينظم فيه الخرز.

يجتمع بحذافيره أبداً. والعرب اليوم^(١) وإن كانوا قليلاً، فهم كثيرون بالإسلام، وعزيزون بالاجتماع. فكن قُطباً، واستدر الرّحى بالعرب، وأصلهم دونك نار الحرب، فإنك إن شخصت من هذه الأرض، انتقضت عليك العرب^(٢) من أطرافها وأقطارها، حتى يكون ما تدع وراءك من العورات أهم إليك مما بين يديك. إن الأعاجم إن ينظروا إليك غداً يقولوا هذا أصل العرب، فإذا قطعتموه استرحتم، فيكون ذلك أشدّ لقلبهم^(٣) عليك، وطمعهم فيك. فأما ما ذكرت من مسير القوم إلى قتال المسلمين، فإن الله «سبحانه» هو أكره لمسيرهم منك، وهو أقدر على تغيير ما يكره. وأما ما ذكرت من عددهم فإننا لم نكن نقاتل فيما مضى بالكثرة، وإنما كنّا نقاتل بالنصر والمعونة^(٤).

وهذه الرواية إن تمت نسبتها للإمام وصحّ صدورها عنه «عليه السلام»، فستكون لها دلالة قوية على تأييد الإمام علي للفتوحات، وذلك بلحاظ ما يلي:

١. تقديم المشورة الإيجابية للخليفة.
٢. عدم انتقاد الفتوحات، ولا المطالبة بوقفها.
٣. نسبة الكراهية لله بخصوص مسير الأعداء، بقوله: (فإن الله «سبحانه» هو أكره لمسيرهم منك، وهو أقدر على تغيير ما يكره).
٤. عبارة (نقاتل) الواردة في آخرها، بما يدلّ على أنّ الإمام «عليه السلام» كان يعتبرها ممثلةً لتوجّهه وموقفه.

١. وهم يشكّلون آنذاك قوام وعماد وغالبية أفراد الجيش الإسلامي.

٢. من المنافقين وغير المسلمين المرتدّين وأصحاب الأطماع والمتحالفين مع الأعداء.

٣. قلبهم: تكالبهم وتجمّعهم وتضافرهم.

٤. الرضي: نهج البلاغة، الخطبة ١٤٦.

• رواية ابن أعثم:

الكلام السابق المروي في نهج البلاغة مذكور أيضاً في مصادر أخرى، مع بعض اختلاف، وتقديم وتأخير في العبارات، ومن بينها ما جاء في كتاب (الفتوح) لابن أعثم الكوفي، وفيه تفصيل سبب المشورة، وما جرى بعدها. والخبر فيه أن مجاميع كبيرة من الفُرس اتفقوا: (فتعاقدوا على أمرهم وتعاهدوا وعزموا على جهاد المسلمين، وبلغ ذلك أهل الكوفة، فاجتمعوا إلى أميرهم عمار بن ياسر فقالوا: أيها الأمير! هل بلغك ما كان من جموع هؤلاء الأعاجم بأرض نهاوند؟ قال عمار: قد بلغني ذلك، فهاتوا ما عندكم من الرأي. فقالوا: الرأي في ذلك أن نكتب إلى أمير المؤمنين^(١) ونُعلمه بذلك قبل أن يسير عدوُّنا إلى ما قبلنا، قال عمار: أفعل ذلك إن شاء الله «تعالى».

وكتب عمار رسالته للخليفة عمر وكانت كالتالي: (بسم الله الرحمن الرحيم، لعبد الله عمر أمير المؤمنين من عمار بن ياسر، سلام عليك! أما بعد، فإنّ ذا السطوات والنقمات المنتقم من أعدائه المنعم على أوليائه هو الناصر لأهل طاعته على أهل الإنكار والجحود من أهل عداوته، ومما حدث يا أمير المؤمنين أن أهل الري وسمنان وساوه وهمذان ونهاوند وأصفهان وقم وقاشان وراوند واسفندهان^(٢) وفارس وكرمان وضواحي أذربيجان قد اجتمعوا بأرض نهاوند في خمسين ومائة ألف من فارس وراجل من الكفار^(٣)، وقد كانوا أمروا

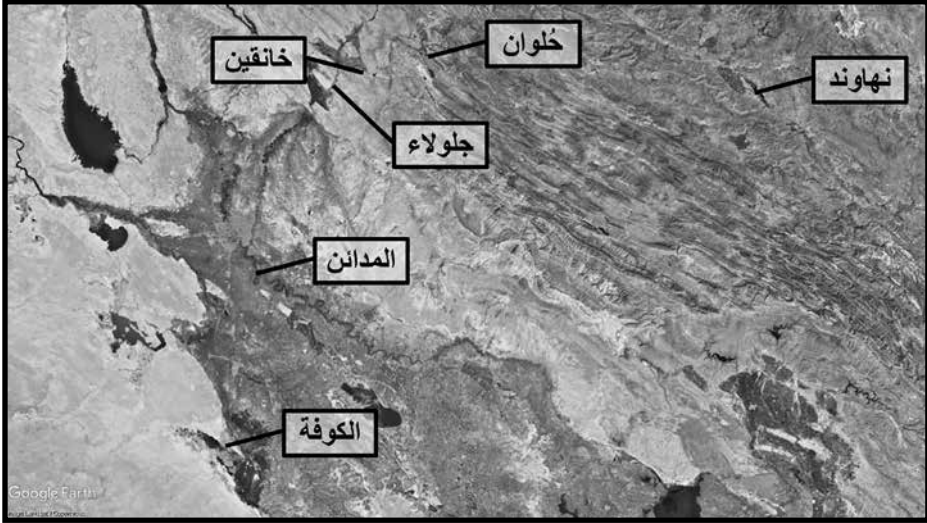
١. أي الخليفة عمر.

٢. في معجم البلدان لياقوت الحموي أن اسفيدبان، من قرى أصفهان.

٣. لاحظ هنا وفيما سيأتي أيضاً أن الأسلوب أشبه بالأسلوب القصصي من الأسلوب الواقعي، مما يشير إلى وجود تلاعب بالنص بما يخدم الهدف القصصي للراوي، والله أعلم.

عليهم أربعة من ملوك الأعاجم، منهم ذو الحاجب خرزاد بن هرمز، وسنفاد بن حشروا وخهانيل بن فيروز وشروميان بن اسفنديار، وأنهم قد تعاهدوا وتعاهدوا وتحالفوا وتكاتبوا وتواصوا وتواثقوا على أنهم يُخرجوننا من أرضنا ويأتونكم من بعدنا، وهم جمع عتيد، وبأس شديد، ودواب فره، وسلاح شاك، ويد الله فوق أيديهم، فإني أخبرك يا أمير المؤمنين أنهم قد قتلوا كلَّ مَنْ كان منّا في مدنهم، وقد تقاربوا مما كنّا فتحناه من أرضهم، وقد عزموا أن يقصدوا المدائن ويصيروا منها إلى الكوفة، وقد -والله- هالنا ذلك وما أتانا من أمرهم وخبرهم، وكتبْتُ هذا الكتاب إلى أمير المؤمنين ليكون هو الذي يرشدنا، وعلى الأمور يدلُّنا، والله الموفق الصانع بحول وقوته، وهو حسبنا ونعم الوكيل، فرأى أمير المؤمنين أسعده الله فيما كتبتَه والسلام.

قال: فلما ورد الكتاب على عمر بن الخطاب «رضي الله عنه» وقرأه وفهم ما فيه، وقعت عليه الرعدة والنفضة حتى سمع المسلمون أطيطن أضراسه، ثم قام عن موضعه حتى دخل المسجد وجعل ينادي: أين المهاجرون والأنصار؟ ألا، فاجتمعوا رحمكم الله وأعينوني أعانكم الله. قال: فأقبل إليه الناس من كل جانب، حتى إذا علم أن الناس قد اجتمعوا وتكاملوا في المسجد وثب إلى منبر رسول الله «صلى الله عليه وآله» فاستوى عليه قائماً، وإنه ليرعد من شدة غضبه على الفُرس، فحمد الله «عز وجل» وأثنى عليه وصلى على نبيه محمد «صلى الله عليه وآله» ثم قال: أيها الناس! هذا يوم غم وحزن، فاستمعوا ما وردَ عليّ من العراق، فقالوا: وما ذاك يا أمير المؤمنين؟ فقال: إنَّ الفُرس أُمم مختلفة أسماؤها وملوكها وأهواؤها، وقد نفخهم الشيطان نفخة،



مواقع كل من خُلوان وخانقين وجلولاء

فتحرّبوّا علينا وقتلوا مَن في أرضهم من رجالنا، وهذا كتاب عمار بن ياسر من الكوفة يخبرني بأنهم قد اجتمعوا بأرض نهاوند في خمسين ومائة ألف، وقد سرّبوا عسكريهم إلى خُلوان^(١) وخانقين وجلولاء، وليست لهم همّة إلا المدائن والكوفة، ولئن وصلوا إلى ذلك فإنها بلية على الإسلام وثلمة لا تُسدّ أبداً، وهذا يوم له ما بعده من الأيام، فالله الله يا معشر المسلمين! أشيروا عليّ رحمكم الله، فإني قد رأيت رأياً، غير أنّي أحبّ أن لا أقدم عليه إلا بمشورة منكم، لأنكم شركائي في المحبوب والمكروه).

١. خُلوان، مدينة تاريخية كانت تقع في إيران الحالية، وعلى أنقاضها أقيمت مدينة (سريل ذهاب) الواقعة في محافظة كرمنشاه، وليست حلوان المصرية.

وخانقين، مدينة تقع ضمن محافظة ديالى في العراق بالقرب من الحدود مع إيران.

وجلولاء، مدينة عراقية تابعة لقضاء خانقين ضمن محافظة ديالى، كانت تسمى (كول لاله) باللغتين الكردية والفارسية وتعني الورود الحمراء أو (شقائك النعمان).

وذكر ابن أعثم ما قاله طلحة بن عبيدالله، ثم الزبير بن العوام، ثم عبد الرحمن بن عوف، وقد طلبوا منه أن يعمل برأيه، وأنهم مجيبوه إلى ما يقول. ثم تحدّث عثمان بن عفان، واقترح على عمر أن يخرج إليهم بنفسه، فلم يُعجبه ذلك وقال: (وكيف أسير أنا بنفسي إلى عدوّي وليس بالمدينة خيل ولا رجل؟ فإنما هم متفرّقون في جميع الأمصار، فقال عثمان: صدقت يا أمير المؤمنين! ولكنّي أرى أن تكتب إلى أهل الشام فيُقبلوا عليك من شامهم، وإلى أهل اليمن فيُقبلوا إليك من يمنهم، ثم تسير بأهل الحرمين مكة والمدينة إلى أهل المصريين البصرة والكوفة، فتكون في جمع كثير وجيش كبير، فتلقى عدوّك بالحدّ والحديد والخيل والجنود. قال فقال عمر: هذا أيضاً رأي ليس يأخذ بالقلب، أريد غير هذا الرأي، قال: فسكت الناس والتفت عمر «رضي الله عنه» إلى علي «رضي الله عنه» فقال: يا أبا الحسن! لم لا تشير بشيء كما أشار غيرك؟^(١).

• مشورة الإمام علي:

أكمل ابن أعثم روايته بذكر كلام الإمام كالتالي: (قال: فقال علي: يا أمير المؤمنين! إنك قد علمت أن الله «تبارك وتعالى» بعث نبيه محمداً «صلى الله عليه وآله» وليس معه ثان، ولا له في الأرض من ناصر، ولا له من عدوّه مانع، ثم لطف «تبارك وتعالى» بحوله وقوّته وطوّله فجعل له أعواناً أعزّ بهم دينه، وشدّ أزره، وشيّد بهم أمره، وقصم بهم كلّ جبار عنيد وشيطان مريد، وأرى موازريه وناصريه من الفتوح والظهور على الأعداء ما دام به

١. ابن أعثم: الفتوح، ج ٢، ص ٢٩٠-٢٩٣.

سرورهم، وقرّت به أعينهم، وقد تكفل الله «تبارك وتعالى» لأهل هذا الدين بالنصر والظفر والإعزاز، والذي نصرهم مع نبيهم وهم قليلون هو الذي ينصرهم اليوم إذ هم كثيرون، وبعد فإنّك أفضل أصحابك رأياً وأيمنهم نقيبة، وقد حملك الله «عز وجل» أمر رعيتك، فهو الذي يوفّقك للصواب ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، فأبشّر بنصر الله «عز وجل» الذي وعدك، وكن على ثقة من ربك فإنه لا يخلف الميعاد، وبعد فقد رأيت قوماً أشاروا عليك بمشورة بعد مشورة، فلم تقبل ذلك منهم ولم يأخذ بقلبك شيء مما أشاروا به عليك، لأنّ كلّ مشير إنما يُشير بما يدركه عقله، وأعلمك يا أمير المؤمنين إنّ كتبت إلى الشام أن يقبلوا إليك من شامهم لم تأمن من أن يأتي هرقل في جميع النصرانية فيغيّر على بلادهم، ويهدم مساجدهم ويقتل رجالهم ويأخذ أموالهم ويسبي نساءهم وذريتهم، وإن كتبت إلى أهل اليمن أن يقبلوا من يمنهم أغارت الحبشة أيضاً على ديارهم ونسائهم وأموالهم وأولادهم، وإن سرت بنفسك مع أهل مكة والمدينة إلى أهل البصرة والكوفة ثم قصدت بهم قصد عدوك، انتقضت عليك الأرض من أقطارها وأطرافها، حتى إنك تريد بأن يكون من خلفته وراءك أهم إليك مما تريد أن تقتصده، ولا يكون للمسلمين كائفة تكنفهم، ولا كهف يلجؤون إليه، وليس بعدك مرجع ولا موئل إذ كنت أنت الغاية والمفرع والملجأ، فأقم بالمدينة ولا تبرحها، فإنه أهيب لك في عدوك وأرعب لقلوبهم، فإنّك متى غزوت الأعاجم بنفسك يقول بعضهم لبعض: إن ملك العرب قد غزانا بنفسه لقلّة أتباعه وأنصاره، فيكون ذلك أشدّ لقلبهم عليك وعلى المسلمين، فأقم بمكانك الذي أنت فيه وابعث من

يكفيك هذا الأمر والسلام. قال: فقال عمر «رضي الله عنه»: يا أبا الحسن، فما الحيلة في ذلك وقد اجتمعت الأعاجم عن بكرة أبيها بنهاوند في خمسين ومائة ألف يريدون استئصال المسلمين؟).

فأجابه الإمام كالتالي: (الحيلة أن تبعث إليهم رجلاً مجرباً قد عرفته بالبأس والشدة، فإنك أبصر بجندك وأعرف برجالك، واستعن بالله وتوكل عليه واستنصره للمسلمين، فإن استنصره لهم خيرٌ من فئة عظيمة تمدهم بها، فإن أظفر الله المسلمين فذلك الذي تحب وتريد، وإن يكن الأخرى، وأعوذ بالله من ذلك أن تكون رداءً للمسلمين وكهفاً يلجؤون إليه وفئة ينحازون إليها. قال: فقال له عمر: نعم ما قلت يا أبا الحسن، ولكنني أحببت أن يكون أهل البصرة وأهل الكوفة هم الذين يتولون حرب هؤلاء الأعاجم، فإنهم قد ذاقوا حربهم وجربوهم ومارسوهم في غير موطن).

ثم ذكر ابن أعثم رد الإمام: (قال: فقال له علي «رضي الله عنه»: إن أحببت ذلك فاكتب إلى أهل البصرة أن يفترقوا على ثلاث فرق: فرقة تقيم في ديارهم فيكونوا حرساً لهم يدفعون عن حريمهم، والفرقة الثانية يقيمون في المساجد يعمرونها بالأذان والصلاة لكيلا يعطل الصلاة ويأخذون الجزية من أهل العهد لكيلا ينتقضوا عليك، والفرقة الثالثة يسيرون إلى إخوانهم من أهل الكوفة، ويصنع أهل الكوفة أيضاً كصنع أهل البصرة، ثم يجتمعون ويسيطرون إلى عدوهم فإن الله «عز وجل» ناصرهم عليهم ومظفرهم بهم، فتق بالله ولا تياس من روح الله إنه لا يياس من روح الله إلا القوم الكافرون. قال: فلما سمع عمر مقالة علي «كرم الله وجهه» ومشورته أقبل على الناس وقال: ويحكم!

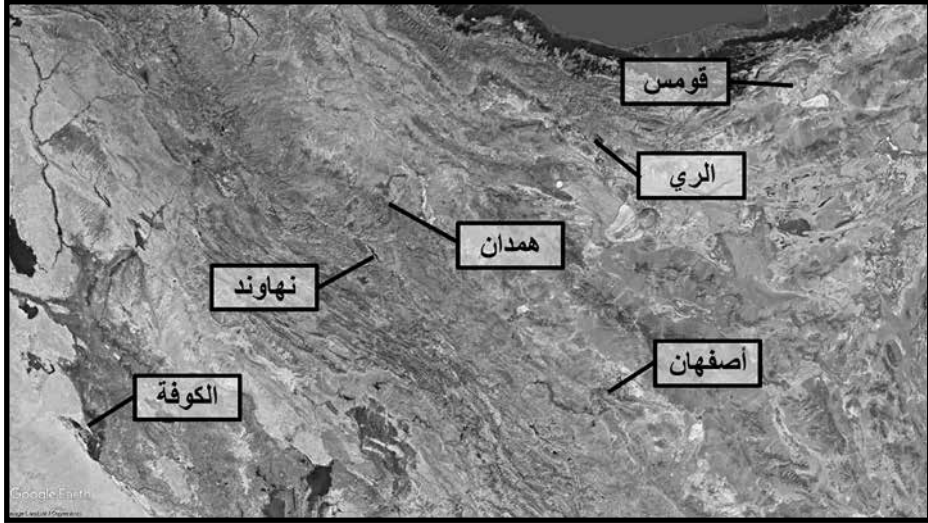
عجزتم كلُّكم عن آخركم أن تقولوا كما قال أبو الحسن، والله! لقد كان رأيه رأيي الذي رأيته في نفسي، ثم أقبل عليه عمر بن الخطاب «رضي الله عنه» فقال: يا أبا الحسن، فأشِر عليّ الآن برجل ترتضيه ويرتضيه المسلمون أجعله أميراً وأستكفيه من هؤلاء الفرس، فقال علي «رضي الله عنه»: قد أصبته، قال عمر: ومن هو؟ قال: النعمان بن مقرن المزني، فقال عمر وجميع المسلمين: أصبت يا أبا الحسن! وما لها من سواه^(١).

ومن غير المستبعد أن تكون يد القصّاص قد طالت هذه الحادثة من خلال إضافة بعض -ولربما الكثير- من التفاصيل والتعابير المزوّقة الواردة فيها، دون أن يعني ذلك أن الخبر من أصله باطل، وأنّ ما فيه من الرأي الصادر عن علي «عليه السلام» مكذوب حتماً، فهو غير بعيد عنه «عليه السلام» وهو الحريص على الإسلام وأهله والقائل: (فخشيت إن لم أنصر الإسلام وأهله أن أرى فيه ثلماً أو هدماً تكون المصيبة به عليّ أعظم من فوت ولايتكم التي إنما هي متاع أيام قلائل، يزول منها ما كان كما يزول السراب، أو كما يتقشّع السحاب)^(٢)، ووجود مثل هذه الإضافات والتزيينات الكلامية أمر دارج في أسلوب القصّاصين، ولكن تأكيد أصل الموقف يحتاج بالطبع إلى فحص ومراجعة أكثر للمصادر ومقارنة نصوصها والتحقيق فيها كي نصدر حكماً نهائياً في الموضوع.

ولو صحّت الرواية بكل مضامينها، فإنها ستكون أقوى دلالة من رواية

١. ابن أعثم: الفتوح، ج ٢، ص ٢٩٣-٢٩٥.

٢. الرضي: نهج البلاغة، الكتاب ٦٢.



موقع مدينة قوس (دامغان) وهمدان وغيرها

الشريف الرضي في نهج البلاغة، وذلك بلحاظ التفاصيل الكثيرة التي ذكرها الإمام بما يعكس موقفه القوي تأييداً للفتوحات.

وللطبري (ت ٣١٠هـ) رواية أخرى عن هذا المشهد، وهي قريبة من مضمون ما جاء في الفتوح لابن أعثم (ت ٣١٤هـ)، وكذلك في (الأخبار الطوال) للدينوري (ت ٢٨٢هـ)، وحيث أنّ ابن أعثم والدينوري لا يذكران مصدرهما ورواة أخبارهما، فمن المحتمل اتّحاد مصدرهما مع مصدر رواية الطبري، أو التقاؤهم جميعاً في مصدر واحد في نهاية سلسلة سند الرواية، وهي بحسب الطبري عن الوضّاع سيف بن عمر الضبيّ التميمي^(١).

فهل مصدر الخبر -وبالتالي كلمة أمير المؤمنين- هو سيف الوضّاع فقط،

١. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٥٢٤ - الدينوري: الأخبار الطوال، ص ١٣٤.

بما يجعلنا نستبعد صدور ما جاء عن الإمام «عليه السلام» في نهج البلاغة، وفي الفتوح لابن أعثم، وفي الطبري، لما نعرفه من أسلوب سيف في خلط الأوراق والدس والوضع والتحريف، بما يعني أننا سنخسر الدليل الثاني أيضاً الدال على الموقف الإيجابي من الإمام علي تجاه الفتوحات؟

بعد البحث والتحقيق، يبدو لي أن الأمر ليس كذلك، فقد ورد ما يُشبه مضمون هذا الخبر في كتاب (الإرشاد) للشيخ المفيد (ت ٤٦٠هـ)، وجاء كالتالي: (ومما جاء عنه عليه السلام في معنى القضاء وصواب الرأي، وإرشاد القوم إلى مصالحهم وتدارك ما كاد يفسد بهم، لولا تنبيهه على وجه الرأي فيه، ما حدث به شبابة بن سوار) المتوفى سنة ٢٠٦هـ وكان ممدوحاً في نفسه (عن أبي بكر الهذلي) المتوفى سنة ١٥٩هـ، وهذا يجعلنا نقول أن مصدر الرواية ليس سيف بن عمر، فهو معاصر لشبابة، ومتأخر عن أبي بكر الهذلي، ولكن يبقى أن الهذلي لم يُخبرنا عمّن أخذ الخبر لأنه: (قال: سمعت رجلاً من علمائنا يقولون: تكاثبت الأعاجم من أهل همذان وأهل الري وأهل أصفهان وقومس ونهاوند، وأرسل بعضهم إلى بعض: أن ملك العرب الذي جاء بدينهم وأخرج كتابهم قد هلك -يعنون النبي «صلى الله عليه وآله»- وأنه ملكهم من بعده رجل ملكاً يسيراً ثم هلك -يعنون أبا بكر- وقام بعده آخر قد طال عمره حتى تناولكم في بلادكم وأغزاكم جنوده -يعنون عمر بن الخطاب- وأنه غير منته عنكم حتى تخرجوا من في بلادكم من جنوده، وتخرجوا إليه فتغزوه في بلاده، فتعاقدوا على هذا وتعاهدوا عليه.) إلخ الخبر الشبيه بما عرضناه من قبل ويتضمّن كلام الإمام علي «عليه السلام» وفي آخره: (فقال عمر:

أجل هذا الرأي، وقد كنتُ أحبُّ أن أتابع عليه. وجعل يكرّر قول أمير المؤمنين «عليه السلام» وينسقه، إعجاباً به واختياراً له).

ثم علّق الشيخ المفيد قائلاً: (فانظروا - أيّدكم الله - إلى هذا الموقف الذي يُنبئ بفضل الرأي إذ تنازعه أولو الألباب والعلم، وتأمّلوا التوفيق الذي قرن الله به أمير المؤمنين «عليه السلام» في الأحوال كلّها، وفزع القوم إليه في المُضِلّ من الأمور)^(١).

وهذا يعني أن للخبر ولكلمة الإمام علي - بحسب الظاهر - مصدراً آخر غير سيف التميمي، وعند الرجوع إلى كتاب (مصادر نهج البلاغة وأسانيده) للسيد عبد الزهراء الخطيب، نجده يُرجعنا إلى (الفتوح) لابن أعثم، والأخبار الطوال للدينوري، وتاريخ الطبري، ثم الإرشاد للشيخ المفيد، فحسب، وهي المصادر التي أشرنا إليها سلفاً^(٢).

وهكذا عندما نعود إلى كتاب (تمام نهج البلاغة) للسيد صادق الموسوي^(٣)، فإنه يحيلنا بالنسبة إلى المقطع الخاص بمشورة علي لعمر بعدم الخروج إلى نفس المصادر السابقة، بالإضافة إلى (تجارب الأمم) أحمد بن محمد بن يعقوب مسكويه الرازي (ت ٤٢٠هـ) مرسلًا بلا سند، و(مناقب آل أبي طالب) لابن شهر آشوب (ت ٥٨٨هـ) نقلاً عن تاريخ الطبري، و(الكامل في التاريخ) لابن الأثير (ت ٦٣٠هـ) والرواية مرسلة، وهو يأخذ عن المصادر الأقدم عهداً

١. المفيد: الإرشاد، ج ١، ص ٢٠٩-٢١٠.

٢. الخطيب: مصادر نهج البلاغة وأسانيده، ج ٢، ص ٣٢٥-٣٢٨.

٣. الموسوي: تمام نهج البلاغة، ج ٥، ص ٣٠٤-٣٠٦.

منه كتاريخ الطبري والفتوح لابن أعثم، و(مستدرك نهج البلاغة) لهادي كاشف الغطاء (ت ١٣٤٨هـ).

إلى هنا، ما زال من الصعب الحكم بصحة صدور هذه الكلمة عن الإمام «عليه السلام»، ولكن الكلمات التالية لابن أبي الحديد معلقاً عليها في شرحه لنهج البلاغة يجعلنا نتجه أكثر نحو التصديق بصورها إجمالاً، قال: (واعلم أن هذا الكلام قد اختلف في الحال التي قاله فيها لعمر، فقيل: قاله له في غزاة القادسية، وقيل في غزاة نهاوند. وإلى هذا القول الأخير ذهب محمد بن جرير الطبري في «التاريخ الكبير»^(١) وإلى القول الأول ذهب المدائني^(٢) في كتاب «الفتوح»^(٣)).

وهذا يعني أن للخبر وكلمة الإمام في كتاب المدائني مصدراً آخر مختلف من حيث المضمون والسند، لأن رواية سيف في كتابه تقول أن الأمر جرى في أجواء معركة نهاوند، بينما ذكر المدائني أن الأمر جرى في أجواء معركة القادسية التي وقعت سنة ١٤هـ، أي قبل معركة نهاوند بسنوات، وهذا يعني وجود ثلاثة طرق مختلفة على الأقل تنسب هذه الكلمات إلى الإمام علي بن أبي طالب «عليه السلام»، الأمر الذي يجعلنا نزداد اتجاهاً نحو القول بصحة صدور الكلمة على نحو الإجمال، بغض النظر عن ظروف صدورها وتاريخ ذلك.

١. أي تاريخ الأمم والملوك والمعروف باسم تاريخ الطبري.
٢. أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الله بن أبي سيف المدائني (ت ٢٢٥هـ)، أصله من البصرة، سكن المدائن فنسب إليها، وقد ولد في أوائل العصر العباسي سنة ١٢٥هـ، كان أحد المتكلمين، ولكنه اشتهر بالأدب والتاريخ. قال الذهبي: «العلامة الحافظ الصادق ... وكان عجباً في معرفة السير والمغازي والأنساب وأيام العرب، مصداقاً فيما ينقله، عالي الإسناد».
٣. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ٩، ص ٩٦-٩٧.

وجاء في تاريخ خليفة بن خياط (ت ٢٤٠هـ) جزء بسيط من الخبر، وليس فيه أن علياً أشار على الخليفة عمر بن الخطاب بعدم الخروج، بل أشار عليه بكيفية تجهيز الجيش، وليس في السند سيف بن عمر.

ونص الخبر أنه في: (سنة إحدى وعشرين فيها وقعة نهاوند حدثنا الأنصاري قال: نا^(١) النهاس بن فهم عن القاسم بن عوف عن أبيه عن رجل عن السائب بن الأقرع قال: زحف للمسلمين زحف لم يزحف لهم بمثله قط، زحف لهم أهل ماه وأهل أصبهان وأهل همذان وأهل الري وأهل قومس وأهل أذربيجان وأهل نهاوند، فبلغ عمر الخبر فشاور المسلمين فاختلفوا، ثم قال علي: يا أمير المؤمنين ابعث إلى أهل الكوفة فليسر ثلثاهم، وتدع ثلثهم فيحفظ ذراريهم، وتبعث إلى أهل البصرة. فقال: أشيروا عليّ من استعمل عليهم؟ فقالوا: يا أمير المؤمنين أنت أفضلنا رأياً وأعلمنا بأهلك، فقال: لأستعملن عليهم رجلاً يكون لأول أسنة يلقاها، يا سائب، اذهب بكتابي هذا إلى النعمان بن مقرن، فليسر بثلاثي أهل الكوفة وليبعث إلى أهل البصرة، وأنت على ما أصابوا من غنيمة، ولا ترفع إليّ باطلاً، ولا تحبس عن أحد خطأً هو له، فإن قُتل النعمان فحذيفة فإن قُتل حذيفة فجرير، فإن قُتل ذلك الجيش فلا أراك^(٢)).

وقد أشار السيد صادق الموسوي في (تمام نهج البلاغة)^(٣) إلى أن هذا المقطع الصغير مروي في عدة كتب، وهي بالإضافة إلى المصادر السابقة كلها: كتاب (الأموال) للقاسم بن سلام الهروي (ت ٢٢٤ هـ) بسند مشترك

١. نا: اختصار حدثنا.

٢. ابن خياط: التاريخ، ج ١، ص ١٠٤-١٠٥.

٣. الموسوي: تمام نهج البلاغة، ج ٥، ص ٣٠٧.

في بعضه مع سند رواية خليفة بن خياط، وليس فيه سيف بن عمر، وكتاب (الأموال) لحميد بن مخلد الأزدي المعروف بابن زنجويه (ت ٢٥١هـ)، بسند مشترك في بعضه مع سند رواية خليفة بن خياط، وليس فيه سيف بن عمر، وكتاب (طبقات المحدثين بإصبهان) لعبد الله بن محمد الأنصاري المعروف بأبي الشيخ الأصبهاني (ت ٣٦٩هـ) بسند يشترك في بعضه مع ما جاء في تاريخ خليفة بن خياط، وليس فيه سيف بن عمر، وفي كتاب (الاستيعاب في معرفة الأصحاب) لابن عبد البر (ت ٤٦٣هـ) بلا سند، و(تهذيب الكمال في أسماء الرجال) ليوسف بن عبد الرحمن البزّي (ت ٧٤٢هـ)، بلا سند، وفي كتاب (البداية والنهاية) لابن كثير الدمشقي (ت ٧٧٤هـ) بلا سند، وخلق هذا المقطع من إشارة الإمام علي للخليفة عمر بعدم الخروج بنفسه لا يفيد بحثنا حول هذه النقطة بالتحديد، ولذا يبقى كتابا المدائني والإرشاد هما الكتابان اللذان يمكن الاعتماد عليهما في القول بوجود مصدر للخبر مختلف عن رواية سيف بن عمر، بل من المحتمل أن الشيخ المفيد نفسه قد أخذ عن المدائني، فيتحد المصدر في نهاية المطاف.

• مفاجأة روايتي البلاذري والمسعودي:

ولكن عند الرجوع إلى (فتوح البلدان) للبلاذري سنجد مفاجأة تجعلنا نتوقف عن حسم المسألة لصالح صدورهما بهذا الشكل، إذ جاء المصنّف برواية تُبيّن أن موقف الإمام كان عكس ذلك كلّ، وإن اتفق مع رواية المدائني في أنها الأمر جرى في أجواء معركة القادسية.

فقد قال البلاذري في أحداث يوم القادسية: (قالوا: كتب المسلمون إلى عمر

بن الخطاب «رضي الله عنه» يُعلمونه كثرة مَنْ تجمّع لهم من أهل فارس، ويسألونه المدد، فأراد أن يغزو بنفسه وعسكر لذلك، فأشار عليه العباس بن عبد المطلب وجماعة من مشايخ أصحاب رسول الله «صلى الله عليه وآله» بالمقام وتوجيه الجيوش والبعوث ففعل ذلك، وأشار عليه علي بن أبي طالب بالمسير، فقال له: إني قد عزمت على المقام، وعرض على علي «رضي الله عنه» الشخوص، فأباه، فأراد عمر توجيه سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل العدوي، ثم بدا له ^(١) فوجّه سعد بن أبي وقاص ^(٢)؛

واتَّفَق المسعودي في كتابه (مروج الذهب) مع البلاذري أنّ الأمر جرى في أجواء معركة القادسية، وأنّ رأي علي «عليه السلام» تمثّل في خروج الخليفة عمر وقيادته المعركة بنفسه، لا البقاء في المدينة، وأنّ عمر قد عسكر مع قوّات المدد التي أراد إرسالها إلى هناك، وأنه استشار علياً «عليه السلام» وهو في المعسكر، قال: (لما قُتِل أبو عبيد الثقفي بالجرّ شق ذلك على عمرو وعلى المسلمين، فخطب عمر الناس وحثهم على الجهاد، وأمرهم بالتأهب لأرض العراق، وعسكر عمر بصرار ^(٣) وهو يريد الشخوص، وقد استعمل على مقدّمته طلحة بن عبيد الله، وعلى ميمنته الزبير بن العوام، وعلى ميسرته عبد الرحمن بن عوف، ودعا الناس، فاستشارهم فأشاروا عليه بالمسير.

ثم قال لعلي: ما ترى يا أبا الحسن، أسير أم أبعث؟ قال: سر بنفسك فإنه أهيب للعدوّ وأرهب له. فخرج من عنده، فدعا العباس في جلة من مشيخة

١. بدا له: أي غير رأيه.

٢. البلاذري: فتوح البلدان، ص ٢٥١.

٣. موضع على ثلاثة أميال من المدينة على طريق العراق، أي قرابة ٥ كم.

قريش وشاورهم، فقالوا: أقم وابعث غيرك ليكون للمسلمين إن انهزموا فئة، وخرجوا، فدخل إليه عبد الرحمن بن عوف، فاستشاره، فقال عبد الرحمن: فُديت بأبي وأمي، أقم وابعث؛ فإنه إن انهزم جيشك فليس ذلك كهزيمتك، وإنك إن تهزم أو تُقتل يكفر المسلمون ولا يشهدوا أن لا إله إلا الله أبداً، قال: أشر عليّ من أبعث؟ قال: قلت: سعد بن أبي وقاص..^(١). وهذه الرواية في مروج الذهب وفتوح البلدان تنسف كلّ المشهد السابق، وهي وإن اتفقت مع رواية المدائني أن الأمر يخصّ معركة القادسية، ولكنها تذكر أن علياً «عليه السلام» شجّع الخليفة على الشخوص بنفسه.. فأَيُّ الروایتين نصدّق؟

وعلى كل حال، سواء أصدّقنا هذه الرواية أو التي في نهج البلاغة، ستكون النتيجة واحدة، وهي أن علياً «عليه السلام» تجاوب مع استشارة الخليفة عمر، وأبدى نصيحته في هذا المجال، ولم ينتقد أصل الفتوحات، ولا هذه المعركة، بل قدّم رأيه بما يتحقق من خلاله انتصار جيش المسلمين على الفرس، وهذا هو ما يهمنّا من الأمر برمّته.

• الموقف الثاني:

ثم إن في نهج البلاغة كلمة أخرى منسوبة للإمام «عليه السلام» أيضاً قالها للخليفة عمر، وهي شبيهة من حيث المضمون بالكلمة السابقة التي أشار فيها عليه بالبقاء وعدم الخروج خوفاً من قتله وترك الفراغ في المدينة، وارتدادات ذلك على المشهد ككل، وإطماع الأعداء في الإغارة على المدينة.. إلا أن المقولة الثانية في نهج البلاغة تخصّ فتوح الشام، لا العراق وفارس.

١. المسعودي: مروج الذهب، ج ١، ص ٢٩٤.

ففي الخطبة برقم ١٣٤ أو ١٣٢ - بحسب اختلاف النسخ - من نهج البلاغة بعنوان (ومن كلام له «عليه السلام» وقد شاوره عمر بن الخطاب في الخروج إلى غزو الروم): (وقد توكل الله لأهل هذا الدين بإعزاز الحوزة وستر العورة والذي نصرهم وهم قليل لا ينتصرون، ومنعهم وهم قليل لا يمتنعون، حي لا يموت. إنك متى تسر إلى هذا العدو بنفسك فتلقهم فتتكب، لا تكن للمسلمين كائنةً دون أقصى بلادهم، ليس بعدك مرجع يرجعون إليه، فابعث إليهم رجلاً محارباً^(١)، وأحفز معه أهل البلاء والنصيحة، فإن أظهر الله فذاك ما تحب، وإن تكن الأخرى كنت رداءً للناس ومثابة للمسلمين)^(٢).

وقد ذكر السيد عبدالزهراء الخطيب في بيان مصادر نهج البلاغة أن ما توصل إليه من مصادر هذه الكلمة، أو جزء منها، عبارة عن:

١. كتاب (النهاية في غريب الحديث والأثر) لابن الأثير (ت ٦٠٦هـ).

٢. كتاب (الأموال) لأبي عبيد القاسم بن سلام الهروي.

وبمراجعتي للكتاب الأول لم أجد فيه سوى هذه العبارة فقط: (ومنه حديث علي: لا تكن للمسلمين كائنة) دون ذكر للمصدر أو السند أو المناسبة.

وفي المصدر الثاني فيما له علاقة بوقعة نهاوند: (زحف للمسلمين زحف لم يزحف لهم مثله، فجاء الخبر إلى عمر، فجمع المسلمين فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: تكلموا وأجزوا ولا تطنبوا، فتفش^(٣) بنا الأمور فلا ندري بأيها نأخذ،

١. محارباً: صاحب حرب. وفي نسخة (محارباً).

٢. الرضي: نهج البلاغة، الخطبوة ١٣٤.

٣. تفشَّح الأمر: انتشر وشاع وتشعب.

ثم أخبرهم به. ثم قام طلحة فتكلم ثم قام الزبير فتكلم، ثم قام عثمان فذكر كلامه في حديث طويل. ثم قام علي فقال: يا أمير المؤمنين إن القوم إنما جاءوا بعبادة الأوثان وإن الله أشدّ تغييراً لما أنكروا، وإنني أرى أن تكتب إلى أهل الكوفة فيسير ثلثاهم ويبقى ثلث في ذرايعهم وحفظ جزيتهم وتبعث إلى أهل البصرة فيوروا ببعث، فقال: أشيروا علي من أستمعل عليهم؟ فقالوا: يا أمير المؤمنين أنت أفضل منا رأياً وأعلمنا بأهلك فقال: لاستعملن عليهم رجلاً يكون لأول أسنة يلقاها، اذهب بكتابي هذا يا سائب بن الأقرع إلى النعمان بن مقرن^(١).

وكما هو واضح، فإنه ليس في هذا النص إشارة من الإمام للخليفة عمر بعدم الخروج، كما أنه مرتبط بفتوحات فارس لا الشام، ويبدو أن الأمر قد اختلط على السيد الخطيب، ولذا عدّ السيد صادق الموسوي هذا المرجع ضمن مراجع الموقف الأول لا الثاني، ويضاف إليه ما جاء في كتاب الأموال لابن زنجويه، وكذلك أضيف عليهما كتاب (كنز العمال) للمتقي الهندي (ت ٩٧٥هـ).

هذا، وقد أشار السيد الخطيب إلى تعليق ابن أبي الحديد على الرواية والذي استنتج من خلاله السيد وجود مصادر أخرى للكلمة غير نهج البلاغة^(٢).

قال ابن أبي الحديد: (واعلم أن هذه الغزاة هي غزاة فلسطين، التي فتح فيها بيت المقدس، وقد ذكرها أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في التاريخ، وقال: إن علياً «عليه السلام» هو كان المستخلف على المدينة لما شخص عمر

١. الهروي: الأموال، ص ٢٦٦.

٢. الخطيب: مصادر نهج البلاغة وأسانيده، ج ٢، ص ٣٠٢.

إلى الشام، وإن علياً «عليه السلام» قال له: لا تخرج بنفسك، إنك تريد عدواً كلباً، فقال عمر....^(١) إلخ الخبر.

ومصدر الخبر مجدداً هو الطبري فسيف، وليس في روايته إلا هذه العبارة أعلاه، ولم أجد في كلام ابن أبي الحديد ما يدل على تعدد المصادر، على خلاف كلام السيد الخطيب!

كما أنني بحثت كثيراً عن مصدر لكل الكلمة غير نهج البلاغة، فلم أتوصل إلى شيء، والمصادر التي أرجع إليها السيد صادق الموسوي في (تمام نهج البلاغة) لبعض هذا النص عبارة عن كتاب الفتوح لابن أعثم، وكتاب (النهاية في غريب الحديث والأثر) لابن الأثير فقط لا غير، مع ملاحظة أن في فتوح ابن أعثم روايتين مرسلتين، إحداهما تخص الحرب مع الفرس -والتي ذكرتها ضمن الموقف الأول- وفيها يشير الإمام على عمر بعدم الخروج، بينما الرواية الثانية التي تخص الحرب مع الروم وفتح القدس فإن فيها إشارة الإمام علي على الخليفة عمر بالخروج بنفسه، أي بخلاف ما جاء في نهج البلاغة تماماً.

• رواية معارضة:

والرواية في كتاب (الفتوح) لابن أعثم وفيها يشجع الإمام الخليفة على الشخصوس لقتال الروم، جاءت بعد ذكر رسالة أبي عبيدة بن الجراح حول ما وصلت إليه أحداث الفتوحات في الشام: (فإنني أخبرك يا أمير المؤمنين أنني صرت إلى أهل إيلياء في جماعة من المسلمين حتى نزلت بهم وحللت

١. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ٨، ص ٢٩٨.

بساحتهم، ثم واقفناهم وقائع كثيرة كانت عليهم لا لهم، وطاولناهم فلم يجدوا في مطالولتهم إيانا فرجاً، ولم يزددهم الله «تعالى» بذلك إلا ضعفاً ونقصاً وذلاً وهولاً، فلما طال بهم ذلك واشتد عليهم الحصار سألوا الصلح وطلبوا الأمان على أن يقدم عليهم أمير المؤمنين فيكون هو الموثوق به عندهم والكاتب لهم كتاباً بأمانهم، ثم إننا خشينا أن يقدم أمير المؤمنين فيغدروا بعد ذلك ويرجعوا، فأخذنا عليهم العهود والمواثيق والأيمان المغلطة أنهم لا يغدروا ولا ينكثون، وأنهم يؤدّون الجزية ويدخلون فيما دخل فيه أهل الذمة، فأقروا لنا بذلك، فإن رأيت يا أمير المؤمنين أن تقدم علينا فافعل، فإن في قدومك من الأجر والثواب ما لا يخفى عليك، آتاك الله رشدك ويسر أمرك، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته).

ثم يذكر ابن أعثم مشاورة الخليفة لبعض الصحابة، وكلام عثمان، ثم كلام الإمام علي «عليه السلام» كالتالي: (فقال عمر: هل عند أحد منكم غير هذا الرأي؟ فقال علي بن أبي طالب «عليه السلام»: نعم عندي من الرأي، إن القوم قد سألوك المنزلة التي لهم فيها الذل والصغار، ونزولهم على حكمك عز لك وفتح للمسلمين، ولك في ذلك الأجر العظيم في كل ظمأ ومخمصة، وفي قطع كل واد وبقعة حتى تقدم على أصحابك وجندك، فإذا قدمت عليهم كان الأمر والعافية والصلح والفتح إن شاء الله، وأخرى فإني لست آمن الروم إن هم أيسوا من قولك الصلح وقدومك عليهم أن يتمسكوا بحصنهم ويلتئم إليهم إخوانهم من أهل دينهم فتشتد شوكتهم ويدخل على المسلمين من ذلك البلاء ويطول أمرهم وحربهم ويصيبهم الجهد والجوع، ولعل المسلمين أن

يقتربوا من الحصن فيرشقونهم بالنشاب أو يقذفونهم بالحجارة، فإن أصيب بعض المسلمين تمنيت أن تكون قد افتديت قتل رجل مسلم من المسلمين بكل مشرك إلى منقطع التراب، فهذا ما عندي والسلام.

فقال عمر «رضي الله عنه»: أما أنت يا أبا عمرو! فقد أحسنت النظر في مكيدة العدو، وأما أنت يا أبا الحسن! فقد أحسنت النظر لأهل الاسلام، وأنا سائر إلى الشام إن شاء الله ولا قوة إلا بالله^(١).

ووجدت في كتاب (ثمرات الأوراق) لابن حجة الحموي (ت ٨٣٧هـ) ما يوافق رواية ابن أعثم أيضاً، وأنه: (كتب أبو عبيدة إلى الإمام عمر «رضي الله عنه» يُعلمه بالخبر على يد ميسرة بن مسروق، فلما وصل الكتاب إلى عمر «رضي الله عنه» فرح وقرأه على المسلمين وقال: ما ترون رحمكم الله فيما كتب إلينا أمين الأمة؟ فكان أول من تكلم عثمان بن عفان «رضي الله تعالى عنه» فقال: يا أمير المؤمنين، إن الله قد أذل الروم، فإن أنت أقيمت ولم تسر إليهم علموا أنك بأمرهم مستخف فلا يثبتون إلا يسيراً. فلما سمع عمر ذلك من عثمان جزاه خيراً وقال: هل عند أحدهم منك رأي غير هذا؟ فقال علي بن أبي طالب «كرم الله وجهه»: نعم عندي غير هذا الرأي، وأنا أبدية إليك رحمك الله. فقال له عمر: وما هو أبا الحسن؟ قال: إن القوم قد سألوكم، وفي سؤالهم ذل، وهو على المسلمين فتح، وقد أصابهم جهد عظيم من البرد والقتال وطول المقام، وإن سرت إليهم فتح الله على يدك هذه المدينة، وكان لك في مسيرك الأجر العظيم، ولست آمن منهم إنهم إذا آيسوا منك

١. ابن أعثم: الفتوح، ج ١، ص ٢٢٣-٢٢٥.

أن يأتيهم المدد من طاغيتهم، فيحصل للمسلمين بذلك الضرر، والصواب أن تسير إليهم. ففرح عمر بمشورة علي وقال: لقد أحسن عثمان النظر في المكيدة للعدو، وعلي أحسن النظر للمسلمين، جزاهما الله خيراً، ولست آخذ إلا بمشورة علي، فما عرفناه إلا محمود المشورة ميمون الطلعة. ثم إن عمر أمر الناس أن يأخذوا الأهبة للمسير معه، واستخلف على المدينة علي بن أبي طالب، وخرج من المدينة^(١).

ولذا فقد أخطأ السيد صادق الموسوي بالإحالة إلى كتاب الفتوح لابن أعثم، كما أن إحالة السيد الخطيب إلى كتاب (النهاية) غير مفيدة لأنه لم يذكر إلا عبارة قصيرة فقط من الخبر، وليس فيها دلالة على شيء، وكذلك إحالته لكتاب (الأموال) للهروي، لأنَّ الحادثة تخصَّ فتوحات فارس لا الشام.

وعليه فإنَّ النص الثاني في نهج البلاغة أضعف من الأول من حيث المصادر، ومُعَارَض بنصِّي ابن أعثم وابن حجة، وعليه، يصعب تصحيح صدور إشارة من الإمام للخليفة بالبقاء ضمن أحداث فتح بلاد الشام. ولكنَّ ما يهَمُّنا هنا أيضاً، أنَّ الإمام -بصورة أو بأخرى- وعلى فرض صحة حدوث المشورة قد تفاعل مع الخليفة في خصوص هذا الأمر، سواء قلنا بأنَّه شجَّعه على الخروج أو ثبَّطه عن ذلك، وهذا المقدار هو المهمُّ بالنسبة إلينا في تحديد موقف الإمام «عليه السلام» من الفتوحات.

• رواية ابن أبي الحديد:

روى ابن أبي الحديد كلمة أخرى للإمام علي «عليه السلام» يُفهم منها انعدام

١. الحموي: ثمرات الأوراق، ص ١، ج ٩٦.

الدور المباشر للإمام في الفتوحات على عهد مَنْ سبقوه، بما يُعارض الروايات الأخرى، وفيها كلام قاسي جداً. ولكنَّ الإمام - في نفس الوقت - ينسب الفضل إلى الله «عز وجل» في نجاحها والانتصارات المتحققة من خلالها، مما يعني - لو صحَّت الرواية - أنه كان ينظر إليها نظرة إيجابية.

قال ابن أبي الحديد: (قال له قائل: يا أمير المؤمنين، أرايت لو كان رسول الله «صلى الله عليه وآله» ترك ولداً ذكراً قد بلغ الحلم، وآنس منه الرشد، أكانت العرب تسلم إليه أمرها؟ قال: لا، بل كانت تقتله إن لم يفعل ما فعلت^(١)، ولولا أن قريشاً جعلت اسمه^(٢) ذريعة إلى الرياسة، وسلماً إلى العز والإمرة، لما عبَدَت الله بعد موته يوماً واحداً، ولا رتدت في حافرتها^(٣) وعاد قارحها جذعاً^(٤)) وبازلها بكراً^(٥) ثم فتح الله عليها الفتوح، فأثرت بعد الفاقة، وتمولت بعد الجهد والمخمصة، فحسُن في عيونها من الإسلام ما كان سمجاً، وثبت في قلوب كثير منها من الدين ما كان مضطرباً، وقالت: لولا أنه حق لما كان كذا، ثم نسبت تلك الفتوح إلى آراء ولاتها وحسن تدبير الأمراء القائمين بها^(٦)،

١. المسألة والبيعة، كما هي دلالة كلمته التي مرّت معنا من قبل: (ووالله لأسلمن ما سلمت أمور المسلمين ولم يكن فيها جور إلا عليّ خاصة).

٢. اسم النبي استغلاً لا لانتسابه إليها.

٣. حافرتها: أي الخلقة الأولى، أي سابق عهدها وهو الشرك.

٤. القارح من ذي الحافر: ما أتمَّ السَّنة الخامسة من عمره، وقد نبت نابيه إلى جانب رِباعيته. والجذع ما استكمل عامين ودخل في العام الثالث، كناية عن التقهقر.

٥. البازل: البعير إذا أتمَّ الثامنة من عمره ودخل في التاسعة، واليكر: الفتى، كناية عن التقهقر.

٦. وكأنه «عليه السلام» يُعرّض بهم لنسيانهم الدور الإلهي حيث قال قبل ذلك (ثم فتح الله عليها الفتوح) ونسبوا الفضل للولاة والقادة الميدانيين.

فتأكد عند الناس نباهة قوم وخمول آخرين، فكنا نحن ممن خُمِلَ ذِكْرُهُ، وَخَبَّتْ نَارُهُ، وانقطع صوته وصيته، حتى أكل الدهر علينا وشرب^(١)، ومضت السنون والأحقاب بما فيها، ومات كثير ممن يعرف، ونشأ كثير ممن لا يعرف. وما عسى أن يكون الولد لو كان؟^(٢)

إن رسول الله «صلى الله عليه وآله» لم يقربني بما تعلمونه من القرب للنسب واللحمة، بل للجهاد والنصيحة، أفتراه لو كان له ولد كان يفعل ما فعلت، وكذلك لم يكن يقرب ما قربت، ثم لم يكن عند قريش والعرب سبباً للحظوة والمنزلة، بل للحرمان والجفوة^(٣).

اللهم إنك تعلم أنني لم أرد الإمرة، ولا علو الملك والرياسة، وإنما أردت القيام بحدودك، والأداء لشرعك، ووضع الأمور في مواضعها، وتوفير الحقوق على أهلها، والمضي على منهاج نبيك، وإرشاد الضال إلى أنوار هدايتك^(٤).

• كراهية الخروج بنفسه :

جاء في رواية مروج الذهب للمسعودي التي مرّت بنا من قبل ما يبيّن امتناع الإمام علي عن الخروج لقيادة الجيش الإسلامي في مواجهة الفرس، وهي المعركة التي ستعرف بالقادسية، فبعد إشارة الإمام علي على عمر بالخروج

١. لأن اهتمام الناس انصبّ على مَنْ حقق الانتصارات في الحروب وجلب الغنائم، وعليّ ليس منهم.

٢. أي لو كان للنبي ولد هل كان سيبلغ ما بلغته لمجرد أنه ابنه؟

٣. أي حتى لو كان موقف الولد مختلفاً عن موقعي لكان موقف قريش منه هو الحرمان والجفوة كما هو موقفهم مني.

٤. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ٢٠، ص ٢٩٨.

بنفسه للعراق، واستقرار رأي عمر على عدم الخروج والبحث عن قائد يقوم بهذا الدور، نجد الحوار التالي: (... فقال عثمان: أقم يا أمير المؤمنين وابعث بالجيوش، فإنه لا آمن إن أتى عليك آت أن ترجع العرب عن الإسلام، ولكن ابعث الجيوش وداركها بعضها على بعض، وأبعث رجلاً له تجربة بالحرب وبصر بها، قال عمر: ومن هو؟ قال: علي بن أبي طالب، قال: فالفقه وكلمه وذاكره ذلك، فهل تراه مسرعاً إليه أو لا، فخرج عثمان فلقى علياً فذاكره ذلك، فأبى عليٌّ ذلك وكرهه، فعاد عثمان إلى عمر فأخبره، فقال له عمر: ومن ترى؟ قال: سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل: قال: ليس بصاحب ذلك، قال عثمان: طلحة بن عبيد الله، قال له عمر: أين أنت من رجل شجاع ضروب بالسيف رام بالنبل، ولكني أخشى أن لا يكون له معرفة بتدبير الحرب؟ قال: ومن هو يا أمير المؤمنين؟ قال: سعد بن أبي وقاص....^(١).

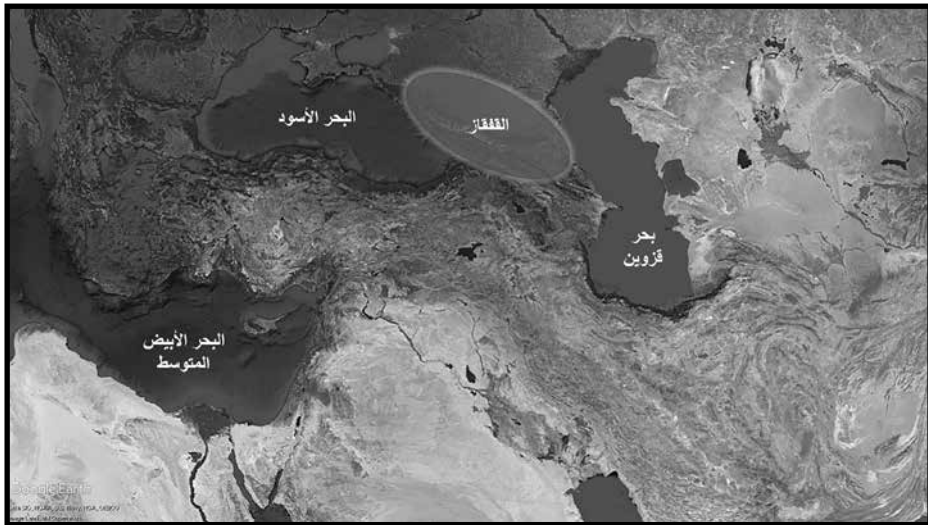
بالطبع، فإنّ هذا لا يعني -إن صحّت الرواية- أن الإمام «عليه السلام» كان لا يرى مشروعية الفتوحات بنحو مجمل وبغض النظر عن بعض التفاصيل، كيف وقد اعتبرها في نفس الروايات السابقة أنها نجحت في تحقيق أهدافها بتأييد من الله، وقد تفاعل في المشورة إيجابياً مبيناً ما يحقق المصلحة العامة، وغير ذلك من الدلائل والمؤيّدات على أنه كان يرى مشروعيتها.

وأما عدم قيادته لإحدى أهم المعارك، فقد يكون لعدم رغبته في الكون تحت إمرة الخليفة في الوقت الذي يرى فيه أنه الأحق بالحكم منه، أي أنّ الإمام «عليه السلام» كان يتفاعل مع الخلافة بمقدار ما يُحقّق من خلال

١. المسعودي: مروج الذهب، ج ١، ص ٢٩٤.



خراسان في حدودها القديمة



القفقاز - القوقاز

ذلك المصلحة العامة، أما مع وجود بديل يؤدّي المطلوب - كقيادة الجيش مثلاً - فلم تكن هناك ضرورة لأنّ يقوم بذلك بنفسه. ولربما كان يرى أن دوره في توجيه الخليفة في القرارات العسكرية والإدارية والشرعية والقضائية أولى وأهم من قيادة معركة حربية في أرض بعيدة.

• استخلاص الموقف:

بعد عرض ومناقشة الروايات الواردة حول تفاعل الإمام علي «عليه السلام» مع مسألة الفتوحات في العهد الراشدي، وسواء صحّت تلك الروايات أم لم تصح، إلا أنه يمكننا القول أن موضوعاً بخطورة الفتوحات وأهميتها، لو لم يكن مرضياً عنه من قبله «عليه السلام» لوجدناه ينتقده أو يشير إليه بصورة سلبية، وهكذا الأمر بالنسبة إلى الحسن والحسين والأئمة من بعدهما «عليه السلام».

لا سيما أنه رويت عن الإمام علي انتقادات عديدة لمسلّك من سبقه من الخلفاء في قضايا مختلفة، ولا نجد مسألة الفتوحات من بينها، بل إن جمعاً من الشيعة اعتنوا بجمع روايات وأخبار وأحداث حول قضايا مختلفة ينتقدون من خلالها الخلفاء، ولا نجد من بينها ما له علاقة بالفتوحات، وهو ما يشير أن الأمر - في نفسه - كان مقبولاً عندهم.

ثم إن السكوت يمثّل إمضاءً ويضفي شرعيّة... وأما ادّعاء سكوته عن ذلك تقيّةً فيخالف ما هو معروف عن جرأته في قول الحق، ولم تكن تأخذه في الله لومة لائم.

• الإمام الحسين وابنة يزددجرد:

إضافةً إلى ما سبق، علينا أن نضع في الحسبان أنّ الأئمة «عليه السلام» قد تعاملوا مع نتائج تلك الحروب بإيجابية، ومن ذلك أخذ بعض سبایا الفتوحات. فبحسب الروایات عند السنة والشيعة فإنّ أمّ الإمام زين العابدين «عليه السلام» منهن، وأنها كانت ابنة كسرى، وإنّ وقع الخلاف في قصتها، وفي اسمها، بل وشككت بعض الكتابات الصادرة مؤخراً عن السنة والشيعة في المسألة ككل، لاسيما وأن عدداً من المؤرخين ذكروا لها أسماء أخرى، ولم ينسبوها لكسرى، وقيل أنها كانت أمة من السند وغير ذلك، وقد أحصى أحد الباحثين الأسماء المحتملة لها فبلغت أحد عشر اسماً!

ولنستعرض فيما يلي بعض الروایات التي ذكرت أنها كانت ابنة كسرى، بغضّ النظر عن اسمه واسمها، مع ملاحظة أن الروایات تختلف في زمن وقوع الحادثة وتفاصيلها المختلفة كما سيأتي معنا:

○ قال الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ) في كتابه (ربيع الأبرار): (إن قريشاً لم تكن ترغب في أمهات الأولاد حتى ولدن ثلاثاً هم خير أهل زمانهم: علي بن الحسين، والقاسم بن محمد^(١) وسالم بن عبد الله^(٢)، وذلك أن عمر «رضي الله عنه» أتى بنات يزددجرد بن شهريار بن كسرى^(٣) سبيات، فأراد بيعهن، فقال له علي: إنّ بنات الملوك لا يُبَعْنَ، ولكن قوّموهن، فأعطاه أثمانهن، فقسمهن بين

١. محمد بن أبي بكر، وأمه أسماء بنت عميس.

٢. عبد الله بن عمر بن الخطاب، وأمه زينب بنت مظعون أخت عثمان بن مظعون.

٣. يزددجرد الثالث (٦٣١-٦٥١) اسمه يزددجرد بن شهريار بن برويز بن أنوشروان، وهو آخر ملوك الدولة الساسانية، وحفيد الملك (كسرى الثاني) المعاصر لعهد النبي.

الحسين بن علي، ومحمد بن أبي بكر الصديق، وعبد الله بن عمر، فولدن الثلاثة^(١).

ومعنى قوله: (إن قريشاً لم تكن ترغب في أمهات الأولاد) أي أنهم كانوا ينظرون إلى مواليد الإماء (أمهات الولد) نظرة دونية، ويفضّلون الولد من الحرّة على الود من الأئمة، وهذا الأمر عاد من جديد على يد الأمويين، فعن عبد الأعلى بن عبد الله الشامي قال: (لما قدم زيد بن علي إلى الشام كان حسن الخلق حلو اللسان، فبلغ ذلك هشام بن عبد الملك، فاشتدّ عليه، فشكا ذلك إلى مولى له فقال له: ائذن للناس إذناً عاماً واحجب زيدا، ثم ائذن له في آخر الناس، فإذا دخل عليك فسلم فلا تردّ عليه، ولا تأمره بالجلوس، فإذا رأى أهل الشام هذا سقط من أعينهم. ففعل. فأذن للناس إذناً عاماً وحجب زيدا وأذن له في آخر الناس، فدخل فقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين. فلم يرد عليه. فقال: السلام عليك يا أحول. إذ لم تر نفسك أهلاً لهذا الاسم) أي للقب أمير المؤمنين على اعتبار أن الأحول كان لقبه الآخر الدارج بين الناس (فقال له هشام: أنت الطامع في الخلافة وأمك أمة؟ فقال: إن لكلامك جواباً. فإن شئت أجبت. قال: وما جوابك؟ قال: لو كان في أم الولد تقصير لما بعث الله إسماعيل نبياً وأمه هاجر، فالخلافة أعظم أم النبوة؟ فأفحم هشام. لما خرج قال لجلسائه: أنتم القائلون إن رجالات بني هاشم هلكت؟ والله ما هلك قوم هذا منهم...) ^(٢).

○ وفي كتاب (عيون أخبار الرضا) للشيخ الصدوق أن الأمر كان في خلافة

١. الزمخشري: ربيع الأبرار، ج ٣، ص ٣٥٠.

٢. ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، ج ١٩، ص ٤٧٠-٤٧١.

عثمان بن عفان: (عن سهل بن القاسم النوشجاني^(١))، قال: قال لي الرضا بخراسان: إن بيننا وبينكم نسب. قلت: وما هو أيها الأمير؟ قال: إن عبد الله بن عامر بن كريز لما فتح خراسان أصاب ابنتين ليزدجرد بن شهریار ملك الأعاجم، فبعث بهما إلى عثمان بن عفان، فوهب إحداهما للحسن والأخرى للحسين «عليه السلام»، فماتتا عندهما نفساوين، فصاحبة الحسين «عليه السلام» نفست بعلي بن الحسين «عليه السلام»، فكفل علياً بعض أمهات ولد أبيه، فنشأ وهو لا يعرف أمّاً غيرها، ثم علم أنها مولاته، وكان الناس يسمونها أمّه^(٢).

هذه الرواية تذكر أن الأمر تم على عهد الخليفة عثمان لا عمر، وأن عدد البنات اثنتان وليس ثلاثة، وأن الخليفة أهداهما للحسين، ولم يستخلصهما الإمام علي بتقويمهما ودفع قيمتهما لبیت المال، كما لا ارتباط لمحمد بن أبي بكر وعبد الله بن عمر بالقضية.

ولكن هل يُعقل أنها أهديت لمحمد بن أبي بكر - كما جاء في رواية الزمخشري - وعمره ١٣ سنة على أبعد تقدير، حيث أنه وُلد سنة ١٠ هـ، وتوفي عمر سنة ٢٣ هـ؟ نعم، بحسب الرواية التالية للشيخ المفيد، سيكون ذلك مقبولاً، حيث يذكر أن الأمر تمّ على عهد الإمام علي، وعُمر محمد بن أبي بكر حينذاك خمس وعشرون سنة على أقل تقدير. وهو الأوفق أيضاً بلحاظ أن ابنها الإمام زين العابدين «عليه السلام» قد وُلد سنة ٣٨ هـ، أي في أيام حكم الإمام علي

١. نسبة إلى مدينة نوشجان في أوزبكستان.

٢. الصدوق: عيون أخبار الرضا، ج ٢، ص ١٨٢.

«عليه السلام»، فمن البعيد أن تُهدى للحسين سنة ٢٣ هـ على أبعد تقدير، ولا تلد له علياً زين العابدين إلا بعد خمس عشرة سنة، وإن كان ذلك ممكناً، ولكنه خلاف الوضع الطبيعي.

○ ففي (الإرشاد) للمفيد في حديثه عن الإمام زين العابدين أن الأمر تم في زمن خلافة الإمام علي: (وأمة شاه زنان بنت يزدجرد بن شهریار بن كسرى، ويقال إن اسمها شهربانو، وكان أمير المؤمنين «عليه السلام» ولّى حُرَيْث بن جابر جانباً من الشرق، فبعث إليه بنتي يزدجرد بن شهریار، فنحل ابنه الحسين «عليه السلام» شاه زنان منهما، فأولدها زين العابدين «عليه السلام» ونحل الأخرى محمد بن أبي بكر، فولدت له القاسم)^(١).

قد يقول قائل أنه مع فرض حدوث ذلك في زمن الإمام علي «عليه السلام»، فإننا لا نستطيع اعتبار هذا الحدث دليلاً من أدلة مشروعية الفتوحات في العهد الراشدي السابق لحكم الإمام علي «عليه السلام»... ولكن لو صحّ ذلك، أليس ما بُني على باطل فهو باطل؟

أي لو كانت الفتوحات السابقة في بلاد الفرس والحروب القائمة معهم غير مشروعة، فإن ما تبع ذلك في عهد الإمام علي من مواجهات ونتائج ستكون باطلة أيضاً وغير مشروعة، ومن بينها هذا السبي والتزويج وما إلى ذلك.

• أم حبيب الصهباء:

كما أن البلاذري في فتوحه يذكر الخبر التالي ضمن حركة خالد بن الوليد

١. المفيد: الإرشاد، ص ٢٦٩.

من العراق إلى الشام: (وبلغ خالداً أن جمعاً لبني تغلب بن وائل^(١) بالمُضَيِّح والحَصِيد^(٢) مرتدّين، عليهم ربيعة بن بجير. فأتاهم، فقاتلوه فهزمهم وسبى وغنم، وبعث بالسبي إلى أبي بكر. فكانت منهم أم حبيب الصهباء بنت حبيب بن بجير، وهي أم عمر بن علي بن أبي طالب^(٣)).

وهذا يعني قبول الإمام علي «عليه السلام» نتيجة هذه المعركة، حيث قبل السبي، وأولد الصهباء ابنه عمر الأطراف في شهر جمادى الأولى من عام ١٣ هـ في المدينة المنورة توأماً مع رقية الكبرى.

قال الذهبي في سير أعلام النبلاء: (ومولده في أيام عمر، فعُمر سَمّاًه باسمه، ونحله غلاماً اسمه مورك)^(٤).

وروى ابن شبة النميري في سبب التسمية بعمر: (حدثنا عيسى بن عبد الله بن محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب قال، حدثني أبي، عن أبيه، عن علي بن أبي طالب «رضي الله عنه» قال: «وُلد لي غلام يوم قام عمر «رضي الله عنه»، فغدوت عليه فقلت له: «وُلد لي غلام هذه الليلة، فقال: ممّن؟ قلت: من التغلبية، قال: فهب لي اسمه، قلت: نعم، قال: فقد سمّيته باسمي ونحلته غلاماً موركاً - قال، وكان نوبياً - قال: فأعتقه عمر بن علي بعد ذلك، فوُلدَ اليوم مواليه»^(٥)).

١. وكانوا من النصارى القاطنين في نواح من العراق والمتعاضدين مع الفرس ضد المسلمين.

٢. موضع في أطراف العراق من جهة الجزيرة.

٣. البلاذري: فتوح البلدان، ج ١، ص ١١٣.

٤. الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ٤، ص ١٣٤.

٥. ابن شبة النميري: تاريخ المدينة، ج ٢، ص ٧٥٥.

• فتوحات عهد الإمام علي:

بالإضافة إلى كل النصوص السابقة، وترتيب الإمام علي الأثر على الفتوحات، نجده «عليه السلام» زمن خلافته يرسل قوّاتاً -وقد يكون أحياناً بأمس الحاجة إليها حيث أن خصومَه شغلوه بثلاثة حروب داخلية- إلى المناطق التي كانت تشهد حركة فتوحات، وذلك بحسب الظروف التي كانت تستدعي ذلك. ولو كان الأمر في نفسه غير مشروع ابتداءً لما قام بإرسالها، فما بُني على باطل فهو باطل، وهذا الأمر برمته مما يخفى على كثير من الناس.

فقد فتح وحارب ولاته «عليه السلام» مناطق في آسيا، فأرسل ابن أخته جعدة بن هبيرة المخزومي لإكمال فتح خراسان^(١) كما سيأتي معنا، وأرسل من لم يرغب في حرب معاوية إلى ثغور الري والقفقاز^(٢)، وأرسل جيشاً من البحرين لفتح مناطق في الهند.

قال اليعقوبي في تاريخه: (ولما فرغ من حرب أصحاب الجمل، وجّه جعدة بن هبيرة بن أبي وهب المخزومي إلى خراسان)^(٣).

وقال الطبري في أحداث سنة ٣٧ للهجرة: (وفي هذه السنة بعث عليّ جعدة بن هبيرة فيما قيل إلى خراسان. ذكر الخبر عن ذلك ذكر علي بن محمد قال أخبرنا عبد الله بن ميمون عن عمرو بن شجيرة عن جابر عن الشعبي قال:

١. خراسان الكبرى إقليم قديم كان يشمل إيران وأفغانستان وبعض مناطق آسيا الوسطى من قبيل تركمنستان وأوزبكستان.

٢. القوقاز منطقة تقع عند حدود أوروبا وآسيا، وهي موطن جبال القوقاز بين البحر الأسود وبحر قزوين. وتوجد فيها آذربايجان وأرمينيا وجورجيا وأجزاء من جنوب روسيا.

٣. اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ١٨٣.

بعث علي بعد ما رجع من صفين جعدة بن هبيرة المخزومي إلى خراسان، فانتهى إلى أبرشهر^(١) وقد كفروا وامتنعوا، فقدم على علي، فبعث خلود بن قرة اليربوعي فحاصر أهل نيسابور حتى صالحوه وصالحه أهل مرو، وأصاب جاريتين من أبناء الملوك نزلتا بأمان، فبعث بهما إلى علي فعرض عليهما الإسلام وأن يزوجهما، قالتا: زوجنا ابنك، فأبى، فقال له بعض الدهاقين: ادفعهما إلي، فإنه كرامة تكرمني بها، فدفعهما إليه، فكانتا عنده يفرش لهما الديباج ويطعمهما في آنية الذهب، ثم رجعتا إلى خراسان^(٢).

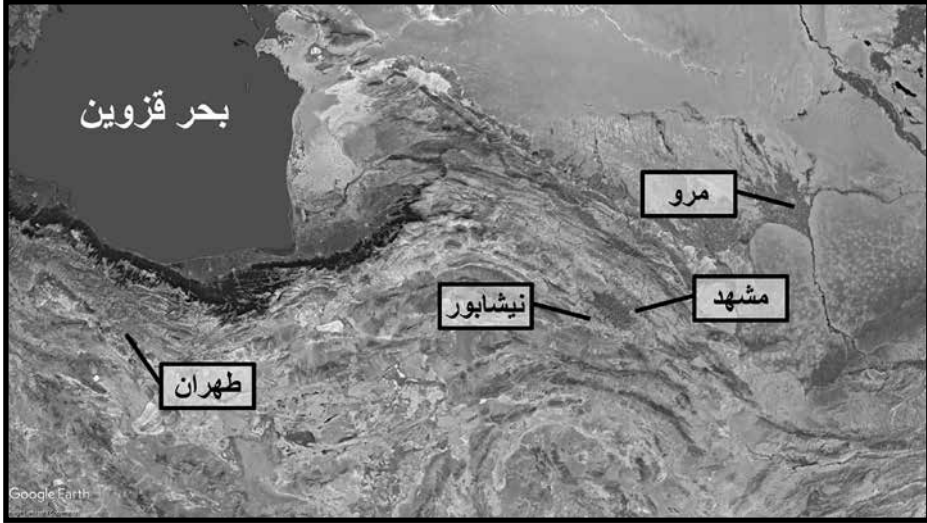
ويتبادر إلى الذهن سؤال، هل هما المذكورتان في خبر الشيخ المفيد أن الإمام وهب إحدهما للحسين والأخرى لمحمد بن أبي بكر، ليصدق كلام المشككين في كون أم الإمام زين العابدين هي ابنة الملك الساساني، وأنها رواية وضعها بعض الفرس تعصباً ورغبة في إبقاء ذرية الأكاسرة حية في مسيرة التاريخ ولو من خلال نسل رسول الله «صلى الله عليه وآله»، لاسيما بلحاظ ما كان للإمامين الحسين وزين العابدين من منزلة في قلوب عموم الناس؟ الأمر يحتاج إلى وقفة، ولكن هذا خارج عن بحثنا.

وجاء في تاريخ خليفة بن خياط العصفري (ت ٢٤٠هـ) في حوادث سنة ٣٦: (وفيهما ندب الحارث بن مرة العبدي الناس إلى غزو الهند، فجاوز مكران^(٣))

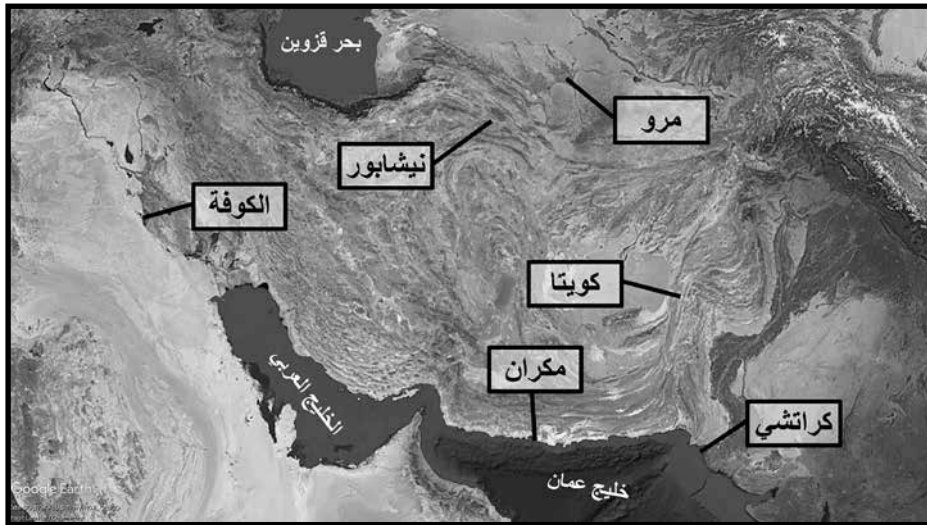
١. أبرشهر قيل هو الاسم القديم لمدينة نيسابور ولعل الأصح أنه اسم المنطقة (الكورة) التي كانت تقع فيها نيسابور.

٢. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٤، ص ٤٦.

٣. بلوشستان.



مواقع مدن عدة في خراسان وغيرها



مواقع مكران وكويتا وكراشي وغيرها

إلى بلاد قنڊايل^(١) ووغل في جبال القيقان^(٢) (٣).

وروى البلاذري في (فتوح البلدان): (فلما كان آخر سنة ثمان وثلاثين، وأول سنة تسع وثلاثين في خلافة علي بن أبي طالب «رضي الله عنه»، توجه إلى ذلك الثغر الحارث بن مرة العبدي متطوعاً بإذن علي، فظفر وأصاب مغنماً وسبياً، وقسم في يوم واحد ألف رأس)^(٤).

وفي كتاب (صفين) لنصر بن مزاحم: (فأجاب علياً «عليه السلام» إلى السير والجهادي^(٥) جلُّ الناس، إلا أن أصحاب عبد الله بن مسعود أتوه، وفيهم عبيدة السلماني^(٦) وأصحابه، فقالوا له: إنا نخرج معكم ولا ننزل عسكركم، ونعسكر على حدة حتى ننظر في أمركم وأمر أهل الشام، فمن رأيناه أراد ما لا يحل له، أو بدا منه بغي كُنّا عليه.

فقال علي: مرحباً وأهلاً، هذا هو الفقه في الدين والعلم بالسنة. من لم يرض بهذا فهو جائر خائن. وأتاه آخرون من أصحاب عبد الله بن مسعود، فيهم ربيع بن خثيم، وهم يومئذ أربع مائة رجل فقالوا: يا أمير المؤمنين، إنا

١. مدينة في السند، والسند في جنوب باكستان حيث تقع كراتشي وحيدر آباد.

٢. حيث مدينة (كويتا) عاصمة إقليم بلوشستان الباكستانية بالقرب من الحدود الأفغانية.

٣. ابن خياط: التاريخ، ص ١٤٣،

٤. البلاذري: فتوح البلدان، ج ٣، ص ٥٣١.

٥. لقتال معاوية.

٦. عبيدة بن عمرو السلماني المرادي الكوفي أحد فقهاء التابعين بالكوفة. أسلم عبيدة في عام فتح مكة بأرض اليمن ولا صحبة له، وأخذ عن علي بن أبي طالب وابن مسعود وغيرهما، وبرع في الفقه وكان ثباتاً في الحديث. روى عنه إبراهيم بن يزيد النخعي والشعبي ومحمد بن سيرين. ومن خلال هذا الموقف يمكن القول أن الرجل لم يكن من الموالين للإمام علي.

شككنا في هذا القتال على معرفتنا بفضلك، ولا غناء بنا ولا بك ولا المسلمين عمّن يقاتل العدو، فولّنا بعض الثغور^(١) نكون به، ثم نقاتل عن أهله. فوجّهه علي على ثغر الري، فكان أول لواء عقده بالكوفة لواء ربيع بن خثيم^(٢).

وقبل الاستمرار في عرض الشواهد أجد أنّ من الضروري التنبيه على أن تكرار اسم الصحابي عبد الله بن مسعود في الرواية السابقة على اعتبار أنه كان مقرئ أهل الكوفة، وقد أسّس فيها مدرسة قرآنية، تخرّج منها عدد كبير ممن استقرّ فيها من أهل اليمن والعراق والبحرين ومناطق أخرى من الجزيرة العربية وغيرها، وللأسف فقد كان لأسلوب ومنهج هذه المدرسة في التعامل مع القرآن الكريم حفظاً دون وعي لمفاهيمه ودون الرجوع إلى ما أوصى به رسول الله «صلى الله عليه وآله» بالتمسك بالثقلين من بعده، وليس بثقل واحد فقط وهو القرآن الكريم، الأثر السلبي في ظهور أمثال السلمي وربيعة ثم الخوارج من بعد ذلك.

ومن بين المتأثرين بهذه المدرسة أبو يزيد الربيع بن خثيم بن عبد الله بن موهبة الثوري، من بني ثور بن عبد مناة، تابعي، ويعد من كبار تلاميذ الصحابي عبد الله بن مسعود بعد انتقاله إلى الكوفة. له ضريح كبير في مدينة مشهد الإيرانية، ويُعرف باسم خواجه ربيع. كان يُعدّ أحد الزهّاد المشهورين في زمانه، وموقف المذكور في الرواية السابقة موقف سلبي، فهو خذلان لإمام زمانه، مهما قيل في ذلك من تبريرات. ويبدو أن المقام استقرّ به حيث مات

١. أي المناطق الحدودية المواجهة للدول وللجيوب المعادية للدولة الإسلامية والمناطق التي تتعرض للهجمات من قبلها.

٢. نصر بن مزاحم: صفين، ص ١١٥.

وُدُفنَ لاحقاً. وفي بعض المصادر أنه كان يجتنب ذكر يزيد بسوء حينما بلغه مقتل الإمام الحسين، وقال: (إلى الله إياهم وعلى الله حسابهم)^(١).

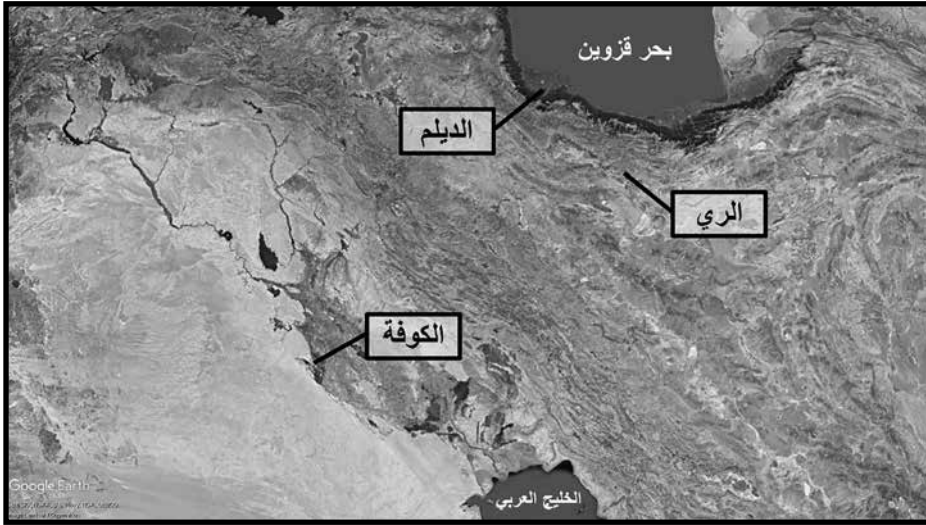
السيد المرتضى بن الداعي الحسني من أكابر علمائنا في كتابة تبصرة العوام في المجلد الأول منه المسمى (نزهة الكرام وبستان العوام) بالفارسية فعدّ من الذين تخلّفوا عن بيعة أمير المؤمنين ع أو لم يبايعوه أصلاً من التابعين ثلاثة أحدهم الربيع بن خثيم.

وقال السيد محسن الأمين معلّقاً على موقفه الربيع وأصحابه: (ولا يخفي أن في تشكيك أصحاب ابن مسعود في أن معاوية باغ وأن علياً مبغياً عليه قلة فقه منهم، فيكون قول علي «عليه السلام» لهم هذا هو الفقه في الدين إلخ يراد به مجرد استصلاحهم ودفع غائلتهم، وإلا فالفقه يقتضي خلافة، ولم يخالف أمير المؤمنين «عليه السلام» الواقع في قوله: هذا هو الفقه، توريةً، أي أن مضمونه هو الفقه لو صادف محلّه، كما أنّ شكّ الربيع وأصحابه في قتال معاوية جمود منهم وقصور معرفة، فأرسلهم إلى الري تخلصاً مما يمكن أن يحدث منهم من غائلة وفساد في عسكره، وإلا فهو أحوج إلى قتالهم معه من إرسالهم لحفظ الثغور)^(٢).

ونقل السيد محسن الأمين عن الميرزا حسين النوري: (لا تغرّنك الأعمال البدنية والعبادات العادية والإعراض عن الدنيا وزهرتها والتبسّك في طول الليالي وظلمتها دون أن تنظر إلى الاعتقاد الصحيح، فإنّ الربيع بن خثيم

١. الخوئي: معجم رجال الحديث، ج ٨، ص ١٧٥.

٢. الأمين: أعيان الشيعة، ج ٦، ص ٤٥٥.



الديلم حيث تقع مدينة رشت في محافظة جيلان الإيرانية

وهو من الزهاد الثمانية وكان من أصحاب أمير المؤمنين «عليه السلام» بلغ في الزهد والعبادة غاية لم يبلغها أحد، فقد رُوي أنه لم يتكلم بشيء من أمور الدنيا عشرين سنة، فقال يوماً لبعض أصحابه: هل لكم مسجد في قريبتكم؟ فقال: نعم، أبوك حيٌّ أم لا؟ ثم ندم على كلامه وخاطب نفسه قائلاً: يا ربيع، سَوَدَّتْ صحيفتك. ثم لم يتكلم بعدُ بشيء من أمور الدنيا إلى أن قُتل أبو عبد الله الحسين بن علي فقال له رجل: قُتل ابن رسول الله! فلم يتكلم بشيء، ثم جاءه ناع آخر وأخبره بذلك، فلم يقل شيئاً، فلما أخبره الثالث، بكى وقال: اللهم فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون^(١).

ثم علّق السيد الأمين على كلام الميرزا النوري قائلاً: (عدم تكلمه من

١. الأمين: أعيان الشيعة، ج ٦، ص ٤٥٥.

أمر الدنيا عشرين سنة وندمه على سؤاله بعض أصحابه عن وجود مسجد في قريتهم وحياة أبيه وعدم تكلمه بشيء حين نعي إليه الحسين «عليه السلام» مرتين وبكاؤه في الثالثة وقراءته الآية دليل واضح على جموده المتناهي، فالتقي الورع من يزن كلامه ولا يتكلم بما يخط الله، لا من يترك الكلام كله، فالمؤمن لا بد له من الكلام في المباح ولو لأجل تدبير معاشه. وقد كان النبي «صلى الله عليه وآله» وأمير المؤمنين «عليه السلام» وباقي الأئمة «عليهم السلام» والصلحاء يتكلمون في أمور الدنيا ويمزحون، وقد ورد ذم من تخلى عن الدنيا وتفرغ للعبادة وهجر الناس من النبي «صلى الله عليه وآله» ومن أمير المؤمنين «عليه السلام»، وسمي عدي نفسه. ولا شك أن الكلام خير من السكوت إذا سلم الكلام من الآفة، فالمهم بذل الجهد في سلامته منها لا أن يترك الكلام خوفاً من عروض الآفة، فقد يسوقه ترك الكلام إلى ترك واجب أو مستحب أو فعل محرم فيقع فيما فر منه^(١).

نعود من جديد إلى رواية نصر بن مزاحم حول إرسال الإمام لبعض القوّات نحو الثغور وغيرها، حيث ذكر أن علياً بعث آخرين إلى ثغر الديلم لأنهم لم يوافقوه على الخروج لقتال معاوية: (عن ليث بن سليم قال: دعا عليّ باهلة^(٢) فقال: يا معشر باهلة، أشهد الله أنكم تبغضوني وأبغضكم، فخذوا عطاءكم واخرجوا إلى الديلم. وكانوا قد كرهوا أن يخرجوا معه إلى صفين)^(٣).

ما سبق يردّ شبهة أيضاً تثار ومفادها أن علياً «عليه السلام» أوقف الفتوحات،

١. الأئمة: أعيان الشيعة، ج ٦، ص ٤٥٥.

٢. قبيلة عربية من مضر.

٣. نصر بن مزاحم: صفين، ص ١١٥-١١٦.

وأن معاوية بن أبي سفيان لم يوقفها، وهو كلام غير دقيق، بل إن معاوية أوقفها في فترة صراعه مع علي «عليه السلام»، على خلاف موقف الإمام في تلك الفترة. قال ابن الأَعمش في الفتوح: (فنادى عليٌّ في الناس فجمعهم، ثم خطبهم خطبة بليغة وقال: أيها الناس: إن معاوية بن أبي سفيان قد وادع ملك الروم، وسار إلى صفين في أهل الشام عازماً على حربكم، فإن غلبتموهم استعانوا عليكم بالروم)^(١).

وقال المسعودي في (مروج الذهب): (وامتنع المسلمون عن الغزو في البحر والبر لشغلهم بالحروب)^(٢)، وقد كان معاوية صالح ملك الروم على مال يحمله إليه لشغله بعلي «عليه السلام»^(٣).

ثم هل كان الإمام هو الراغب في خوض الحروب مع خصومه ومُشعلها كي يتحمل مسؤولية إيقاف حركة الفتوحات الإسلامية أم أن القوم كانوا بين ناكث وقاسط ومارق؟

عن أبي سعيد التميمي، عن علي «عليه السلام» قال: (عَهْدَ إِلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ «صلى الله عليه وآله» أَنْ أَقَاتِلَ النَّاكِثِينَ وَالْقَاسِطِينَ وَالْمَارِقِينَ، فَقِيلَ لَهُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، مَنْ النَّاكِثُونَ؟ قَالَ: النَّاكِثُونَ أَصْحَابُ الْجَمَلِ، وَالْمَارِقُونَ الْخَوَارِجُ، وَالْقَاسِطُونَ أَهْلُ الشَّامِ)^(٤).

وفي شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد أن النبي «صلى الله عليه وآله» لم

١. ابن أعمش: الفتوح، ج ٢، ص ٥٣٩.

٢. أي الحروب الداخلية فيما بينهم.

٣. المسعودي: مروج الذهب، ج ٢، ص ٣٧٧.

٤. الخوازمي: المناقب، ص ٦.

يذكر العناوين الثلاثة بل هي من مصاديق ما أمر به علياً، والخبر كالتالي:
(قال الحسن ابنه: يا أمير المؤمنين، أكان رسول الله «صلى الله عليه وآله»
تقدّم إليك في أمر هؤلاء بشي؟ فقال: لا، ولكن رسول الله «صلى الله عليه وآله»
أمرني بكل حق، ومن الحق أن أقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين)^(١).

• فرضية ثانية :

إلى هنا، يمكننا أن نخرج من مجمل ما سبق بنتيجة مفادها أن موقف
الإمام علي «عليه السلام» من الفتوحات كان -إجمالاً- موقفاً إيجابياً، ويقابل
هذا الرأي قول آخر يذهب إلى سلبية موقفه «عليه السلام» منها بدليل عدم
مشاركته فيها، ولأن موقفه الإيجابي -لو افترضناه- سيعني إضفاء المشروعية
على الحكم القائم.

ولكن برأيي أنّ مواقف الإمام «عليه السلام» كما سجّلنا ذلك من قبل كان
يوظفها لمصلحة الإسلام، ولو على حساب حقوقه ومصالحته الشخصية، وأنه
كان يتنازل ويصبر ويتجاوز خدمة للصالح العام، كما لا يمكننا تجاوز الأخبار
المختلفة الدالة على تفاعله الإيجابي بصور مختلفة وترتيبه الآثار على تلك
الفتوحات ونتائجها. ثم إن الإمام «عليه السلام» قد بايع أبابكر في نهاية
المطاف، ثم بايع عمر بن الخطاب، ولو أراد أحد أن يغمز من قناة إضفاء
المشروعية، فستواجهه هذه الحقيقة التاريخية ذات الدلالة الأوضح.

• فرضية ثالثة :

في مقابل القولين المتعارضين حول موقف الإمام علي «عليه السلام» من

١. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ٦، ص ١٢٠.

الفتوحات، هناك قول ثالث يذهب إلى أن الفضل في الفتوحات في العهد الراشدي يجب أن يُنسب لـعلي «عليه السلام» لا للخلفاء الذين سبقوه، معتبرين أن من ظلمات قريش لأمير المؤمنين «عليه السلام» أنهم نسبوا الفتوحات لأبي بكر وعمر وعثمان، وأخفوا دوره ودور تلاميذه وشيعته الفرسان من القادة الميدانيين الذين قامت الفتوحات على قيادتهم وجهودهم وبطولاتهم، من قبيل عمار بن ياسر، وهاشم المرقال، ومالك الأشتر، وحذيفة بن اليمان، وغيرهم كثير.

والتصور الذي يقدمه أصحاب هذه المقولة يتلخص في أن المسلمين انهزموا في معركة الجسر في أوائل فتح العراق، وأرسل حذيفة إلى عمر أن الفرس جمعوا مئة وخمسين ألف جندي وهم قاصدون إلى المدينة فخاف عمر، فنهض علي «عليه السلام» وطمأنه، فأطلق عمر يده في إدارة الفتوحات إلى حدٍّ، فأخذ يُرسل القادة ويوجههم، حتى أزال الأخطار وحقق الانتصارات، لكن قريشاً كانت تنسب الفتوح إلى عمر وعثمان والمقربين إليهم!

وأيضاً، فإن الروم لما جمعت أكثر من مائة ألف مقاتل لمعركة فاصلة مع المسلمين في الشام، كان القادة الفرسان الذين حققوا النصر للمسلمين عليهم -والكلام لأصحاب هذا الرأي- هم أصحاب الإمام علي «عليه السلام» وشيعته مثل خالد بن سعيد، ومالك الأشتر، وهاشم المرقال.. إلخ.

واستشهد أصحاب هذا الرأي بمقولة الإمام علي التي ذكرها ابن أبي الحديد -وذكرتها مسبقاً - والتي سُئل فيها الإمام هل كانت الأمور ستختلف عما هي عليه فيما لو كان للنبي «صلى الله عليه وآله» ولد، معتبرين أن إجابة

الإمام تتضمن إشارة إلى دوره المنسي في الفتوحات، والمنسوب إلى الغير.

كما أن مشاركة شيعة علي «عليه السلام» من الصحابة وغيرهم كقادة ومقاتلين ضمن جيوش الفتوحات المختلفة خلال العهد الراشدي دليل آخر على أن هذه الفتوحات كانت تحت إمرة علي «عليه السلام»، حيث نجد بينهم: حذيفة بن اليمان، وسلمان الفارسي، وعمار بن ياسر، وخالد بن سعيد بن العاص الأموي وأخويه أبان وعمرو، وهاشم بن أبي وقاص الأموي المعروف بالمرقال وأولاده، خاصة عبد الله وعتبة. وبريدة الأسلمي، وعبادة بن الصامت، وأبا أيوب الأنصاري، وعثمان بن حنيف وإخوته، وعبد الرحمن بن سهل الأنصاري، ومالك بن الحارث الأشتر وإخوته، وعدداً من القادة النخعيين معه، وصعصعة بن صوحان العبدي وإخوته، والأحنف بن قيس، وحجر بن عدي الكندي، وعمرو بن الحمق الخزاعي، وأبي الهيثم بن التيهان، وجعدة بن هبيرة، والنعمان بن مقرن، وبديل بن ورقاء الخزاعي، وجريير بن عبد الله البجلي، ومحمد بن أبي حذيفة الأنصاري، وأبي رافع وأولاده، والمقداد بن عمرو، ووائل بن الأسقع الكناني، والبراء بن عازب، وعبد الله بن خليفة البجلي، وعدي بن حاتم الطائي، وأبا عبيد بن مسعود الثقفي، وأبا الدرداء، وجارية بن قدامة السعدي، وأبا الأسود الدؤلي، ومحمد بن أبي بكر، والمهاجر بن خالد بن الوليد، وغيرهم.

إن هذه الأسماء اللامعة من شيعة علي «عليه السلام» ما كانت لتخرج لولا أن هذه الفتوحات كانت تحت إمرة علي «عليه السلام» وقيادته^(١).

١. العاملي: جواهر التاريخ، ج ١، ص ٢٤٨.

• الترجيح بين الآراء:

برأيي أن القراءة العلمية لروايات الفتوحات الإسلامية بمعية سائر الروايات الخاصة بذلك العهد، وجمعها مع ما جاء في كتب الشيعة من روايات، ستقودنا إلى القول بأن موقف علي «عليه السلام» كان إيجابياً تجاه فتوحات العهد الراشدي إجمالاً، وأن القول بعدم مشروعية تلك الفتوحات وادّعاء الموقف السلبي تجاهها بعيد عن الصواب، ولا تساعد عليه المعطيات التاريخية.

بالطبع فإنّ هذا لا يعني تصحيح ما ذهب إليه أصحاب القول الثالث بأنّ علياً «عليه السلام» كان هو القائد والمحرك الحقيقي لها، بلحاذ ما ذكره من مؤيّدات لا ترقى إلى كونها أدلّة، ولا تصمد أمام نقد عشرات الشواهد التي تخالفها، وهي لا تعدو أن تكون مبالغة في قراءة الموقف لعدة أسباب:

١. القراءة المتأنّية للنص المستشهد به من قبلهم لا تدلّ على ذلك، وهو تحميل للنص ما لا يحتمل.

٢. هذا التحليل مخالف لكل التفاصيل التاريخية الواردة في كتب التاريخ والحديث، ويصعب تجاوز كل ذلك في مقابل تحليل مبني على رواية أو روايتين تحتملان تفسيراً مختلفاً.

٣. لو كان القائد الفعلي هو علي «عليه السلام» لوجدنا في كلماته أو كلمات أولاده ما يدلّ على فضله في هذا الباب، أو على ظلامته بنسبة ما تمّ لغيره، فما أنجز على مستوى الفتوحات في ذلك العهد كان شيئاً عظيماً بالمقاييس العسكرية والدعوية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها.

• مشاركة الحسنيين في بعض الفتوحات:

ننتقل الآن لبحث مقولة اشتراك الحسنيين «عليهما السلام» في بعض تلك الفتوحات، في العهد الراشدي... فما مدى صحة هذه المقولة، وما هي أدلة القائلين بها؟ فلنستعرض أولاً بعض الكلمات الواردة بهذا الشأن من المؤلفين المعاصرين، ثم نتناول الأدلة التي تمسّكوا بها بالعرض والتحليل.

قال الشيخ باقر شريف القرشي^(١) في كتابه (حياة الإمام الحسن): (نستقبل الحسن «عليه السلام» في عهد عثمان وهو في شرح الشباب وعنفوانه فقد كان عمره ينيف على عشرين عاماً، وهو دور يسمح لصاحبه أن يخوض معترك الحياة، وأن يعطي رأياً في الناحية الاجتماعية، فدخل الإمام «عليه السلام» في دوره هذا - على ما قيل -^(٢) ميدان الجهاد «والجهاد باب من أبواب الجنة» فانضمّ إلى المجاهدين حيث اتّجهت ألويتهم الفاتحة الى احتلال افريقية سنة ست وعشرين من الهجرة، وتذكّر المجاهدون في حفيد الرسول «صلى الله عليه وآله» شخصية جده، فأبلوا بلاءً حسناً حتى فتح الله على أيديهم، وبعد ما وضعت الحرب أوزارها اتّجه الحسن «عليه السلام» إلى عاصمة جده «صلى الله عليه وآله» والنصر حليفه، وقلبه مفعم إلى احتلال طبرستان، فانضم الحسن «عليه السلام» إليها، وببركته فتح الله

١. الشيخ باقر بن شريف بن مهدي بن ناصر القرشي (ت ١٤٣٢ هـ). عالم دين شيعي ومؤرخ عراقي، وهو مؤسس (مكتبة الإمام الحسن العامة). له مؤلفات كثيرة من بينها سلسلة حياة الرسول الأعظم «صلى الله عليه وآله» والأئمة «عليه السلام» وفاطمة الزهراء «عليه السلام»، و(العمل وحقوق العامل في الإسلام) الذي ترجم إلى اثنتي عشر لغة.

٢. في تعبيره هذا دلالة على عدم تأكيده للرواية.

على أيديهم، ورفّ لواء الاسلام عليها، ففي سبيل المصلحة العامة وخدمة الدين اللذين هما فوق سائر الاعتبارات دخل الامام الحسن «عليه السلام» في ميدان الجهاد والكفاح، وألقى الستار على ما يكنّه في نفسه من الاستياء على ضياع حق أبيه، وهو درس رائع يجب أن تستفيد منه الأحزاب السياسية القائمة في البلاد من أن عنعنات الحزبية يجب أن تُغنى أمام صالح البلاد والمجتمع^(١).

وهكذا فعل السيد هاشم معروف الحسني^(٢) الذي قال في كتابه (سيرة الأئمة الإثني عشر): (وانضمّ الحسنُ إلى جنود المسلمين الذين اتجهوا إلى أفريقيا بقيادة عبد الله بن نافع وأخيه عقبة في جيش بلغ تعداده عشرة آلاف مجاهد - كما في العبر لابن خلدون - وتطلّع المسلمون إلى النصر والفتح متفائلين بوجود حفيد الرسول وحببيه يجاهد معهم، وكانت الغزوة ناجحة وموفقة - كما يصفها المؤرخون - وعاد الحسن منها إلى مدينة جدّه، وقلبه مفعّم بالسرور، وعلامة الارتياح بادية على وجهه الكريم لانتشار الإسلام في تلك البقعة من الأرض... وفي تاريخ الأمم والملوك إن سعيد بن العاص غزا خراسان... ومضى سعيدٌ ومعه الحسنُ والحسينُ إلى جرجان فصالحوهم على مئتي ألف، ثم هاجم طميسة على البحر فقاتلهم أهلها قتالاً شديداً، وصلى المسلمون صلاة الخوف، وأخيراً انتصر المسلمون في تلك المناطق، كما

١. القرشي: حياة الإمام الحسن، ج ١، ص ٢٠١-٢٠٢.

٢. السيد هاشم بن السيد معروف الحسني، (ت ١٩٨٤م) عالم دين وباحث ومؤرخ لبناني. له مؤلفات كثيرة تتسم بالنظرة البحثية الحديثة، والبعيدة عن التعصب. من أشهر مؤلفاته (سيرة المصطفى) و (سيرة الأئمة الاثني عشر).

نصَّ على ذلك ابنُ خلدون.... وتؤكدُ أكثرُ الرواياتُ أن الحسنَ والحسينَ قد اشتركا في كثيرٍ من الفتوحاتِ الإسلامية، وكان لهما دورٌ بارزٌ في سيرِ تلك المعاركِ التي كانت تدورُ رحاها بين المسلمين وغيرهم، وليس بغريبٍ على عليِّ بنِ أبي طالبٍ وبنيه أن يجنّدوا كلَّ طاقاتهم وإمكاناتهم في سبيل نشر الإسلام وإعلاء كلمته^(١).

• قراءة أولية تحليلية:

من حيث المبدأ، وبعد أن استنتجنا مما سبق موقف أمير المؤمنين علي «عليه السلام» الإيجابي من الفتوحات، وترتيب الأثر عليها، ومشاركة كبار الشخصيات والقادة من شيعته فيها، لا مانع من أن نؤيد القائلين بمشاركة الإمامين الحسن والحسين «عليه السلام» في بعض حركة الفتوحات، فهما من جهة بحاجة إلى ممارسة عملية للقتال واكتساب الخبرة في هذا المجال، وأيّ مجال - ميدانياً - أفضل من حركة الفتوحات التي كان يواجه فيها المسلمون - أحياناً - جيوشاً نظامية ذات خبرات عسكرية واسعة، كما كانوا يواجهون أحياناً أخرى مقاومةً شعبية ومقاتلين غير نظاميين يستعلمون تكتياتهم الخاصة لمواجهة جيوش المسلمين ضمن إمكاناتهم المحدودة.

كما أنها تمثل فرصة ذهبية لهما للاطلاع على العالم الخارجي بثقافته وعاداته وأديانه بعيداً عن الأجواء الإيمانية والثقافية والاجتماعية الخاصة المحيطة بهما في المدينة المنورة، وهو ما سيكسبهما اطلاعاً على تلك الأمم عن قرب، ولا شك بأن هذا النوع من المعرفة ذو أثر أعمق من المعرفة النظرية.

١. الحسنی: سيرة الأئمة الاثني عشر، ص ٥٣٥-٥٣٧.

ولا ننسى أيضاً الأثر الروحي العملي الذي تتركه المشاركة في ميادين الجهاد على مدى طويل، والذكريات المفعمة بالتحديات الروحية والأخلاقية بالإضافة إلى تلك المرتبطة بالقوى البدنية، وهي بمجموعها ذات أثر كبير على تكون الشخصية وصلتها بحسب الطبيعة البشرية، بغض النظر عن مسألة الإمامة المعصومة.

ولكن هذه الفرضيات تحتاج إلى ما يدعمها من خلال النصوص الروائية الموثوقة في كتب التاريخ بعيداً عن التحليل القائم على الاحتمالات، فهل تنهض هذه النصوص للدلالة على ذلك بما يُطمأن من خلاله للقول بشكل حسم بمشاركتها «عليه السلام» في حركة الفتوحات، أو واحدة منها على الأقل؟

وأود التنبيه هنا إلى أن عدداً من الكتّاب والخطباء الشيعة المعاصرين قد انبروا لتفنيد هذه المقولة، ومن بينهم الشيخ عبد الأمير الطاملي الذي صنّف رسالة بهذا الخصوص بعنوان (الإمام الحسن «عليه السلام» والفتوحات الإسلامية) ضمّن فيها هذه المسألة واستعرض بعض الأقوال من كتب الشيعة والسنة، وردّ على الأدلة المقدّمة التي اعتمد عليها القائلون بذلك.

• فتح إفريقية :

ولنستعرض بدءاً الروايات التي ذكرت هذه المشاركة، وأولها رواية ابن خلدون حول أحداث سنة ٢٦هـ/٦٤٦م، حيث قال: (ثم إن عبد الله بن أبي سرح كان أمره عثمان بغزو إفريقية سنة خمس وعشرين وقال له: إن فتح الله عليك فلك خمس الخمس من الغنائم، وأمر عقبة بن نافع بن عبد القيس على

جند، وعبد الله بن نافع بن الحرث على آخر، وسرحهما فخرجوا إلى إفريقية في عشرة آلاف وصالحهم أهلها على مال يؤدونه ولم يقدرُوا على التوغل فيها لكثرة أهلها، ثم إن عبد الله بن أبي سرح استأذن عثمان في ذلك واستمدّه فاستشار عثمان الصحابة فأشاروا به، فجهّز العساكر من المدينة وفيهم جماعة من الصحابة منهم ابن عباس وابن عمر وابن عمرو بن العاصي وابن جعفر والحسن والحسين وابن الزبير، وساروا مع عبد الله بن أبي سرح سنة ست وعشرين، ولقيهم عقبة بن نافع فيمن معه من المسلمين ببرقة، ثم ساروا إلى طرابلس، فنهبوا الروم عندها، ثم ساروا إلى إفريقية وبثوا السرايا في كل ناحية... (١).

وحيث أن ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ) لا يذكر مصادر أخباره وسندها وهو الذي عاش في وقت متأخر جداً عن الأحداث، لذا يمتنع علينا تقييم الخبر من هذا المنحى، ويبقى لدينا المنحى الآخر وهو التقييم من حيث المضمون، والذي يلاحظ عليه:

١. معارضته لروايات أخرى ذكرها المؤرخون حول نفس الحادثة ولم يذكروا فيها انضمام الحسن والحسين «عليه السلام» للقوات، ولو كانا فعلاً ضمن هذه الحملة لأشير إلى ذلك، لأنهما -على الأقل- علّمان بارزان، ولحساسية موضوع مشاركتهما بلحاظ موقف الإمام علي «عليه السلام» من مسألة الحكم، مما يجعل انضمامهما للجيش -إن صح- أمراً لافتاً وسيحرص المؤرخون على ذكره، وهو ما لم يفعلوه بخلاف ابن خلدون.

١. ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج ٢، ص ١٢٨-١٢٩.

٢. كانت لعبدالله بن سعد بن أبي سرح سمعة سيئة من حيث أنه ارتدّ عن الإسلام وأساء إلى النبي «صلى الله عليه وآله» بعد ردّته وهرب إلى مكة، وصدرت منه مواقف معادية ومنها ما روي أنه كان يسعى للتلاعب في النص القرآني على اعتبار أنه أحد من اعتمد عليهم النبي «صلى الله عليه وآله» في كتابة القرآن، ولذا أمر النبي بقتله ولو كان متعلقاً بأستار الكعبة، ثم سكت عنه عندما توسّط لديه أخوه بالرضاعة عثمان بن عفان في حادثة معروفة.

وحتى عندما سكت النبي، تساءل بعض الحاضرين عن سكوته مع أنه «صلى الله عليه وآله» أمر بقتله، فبيّن لهم النبي أنهم سمعوا منه الأمر بقتله من قبل، وكان يُفترض بهم القيام بذلك وعدم انتظار أمر آخر، ولما قيل له أنه كان بإمكانه أن يغمز بذلك، بيّن لهم أن هذا التصرف لا يناسب مقام النبوة. وهذا يكشف أن النبي «صلى الله عليه وآله» عندما سكت عنه لم يغيّر رأيه فيه. ولذا يصعب قبول رواية مشاركة الحسنين «عليه السلام» في قوة عسكرية بقيادته، ويكون أميراً عليهما.

• فتح طبرستان:

الرواية الأخرى رواية الطبري في تاريخه في بداية أحداث سنة ٣٠ هـ/ ٦٥٠ م، حيث قال: (حدّثني عمر بن شبة، قال: حدّثني علي بن محمد عن علي بن مجاهد عن حنش^(١) بن مالك قال: غزا سعيد بن العاص^(٢) من الكوفة سنة

١. وفي طبعة أخرى حبش ويبدو أن الأولى أصحّ.

٢. سعيد بن العاص بن سعيد بن أمية (ت ٥٩ هـ)، ولي الكوفة في عهد عثمان بن عفان ما يقارب من خمس سنين، وكان معاوية يقدّمه من بين رجالات قريش، وولاه المدينة المنورة سنة ٤٢ هـ لأكثر من مرة مناوبة مع مروان بن الحكم.

ثلاثين يريد خراسان، ومعه حذيفة بن اليمان وناس من أصحاب رسول الله «صلى الله عليه وآله» ومعه الحسن والحسين وعبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عمرو بن العاص وعبد الله بن الزبير....»^(١).

الملاحظة الأولى التي يمكن تسجيلها هنا، أنّ الطبري بعد أن روى رواية أخرى عاد ليروي رواية ابن شبة وفيها: (حدثنا علي بن محمد قال أخبرني علي بن مجاهد عن حنش بن مالك التغلبي قال غزا سعيد سنة ثلاثين فأتى جرجان وطبرستان معه عبد الله بن العباس وعبد الله بن عمر وابن الزبير وعبد الله بن عمرو بن العاص، فحدثني علق كان يخدمهم...) ^(٢).

وليس فيها ذكر للحسن ولا للحسين «عليه السلام» مع أنها من نفس المصدر ونفس السند، وذكر فيها ابن عمر وابن عباس وابن عمرو وابن الزبير وابن العاص، ولا ذكر للحسن والحسين.

الملاحظة الثانية هي أن الرواية الأولى تذكر خروج سعيد بن العاص الأموي من الكوفة، ولم يُعهد أن الحسن والحسين «عليه السلام» انتقلا إليها إلا عندما خرج علي «عليه السلام» إلى العراق بعد خلافته واستقراره في الكوفة.

الملاحظة الثالثة أن الراوي (حنش بن مالك التغلبي) لا وجود له في كتب الرجال، حتى لو استبدلنا النون بالباء ليصبح (حبش).

نعم، هناك شخصية بهذا الاسم ذكرها مثلاً (علي بن محمد بن المطهر العدوي المعروف بالشمشاطي (ت ٣٧٧هـ) في كتابه (الأنوار ومحاسن الأشعار)،

١. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٣، ص ٢٢٣.

٢. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٣، ص ٢٢٤.

وحنش المذكور هنا عاش قبل البعثة النبوية بكثير. فقد ذكر الشمشاطي ضمن أحداث إحدى معارك العرب المشهورة وتُعرف بعنوان (يوم الكلاب الثاني) وجرت سنة ٥٧ ق.هـ، أن حنش بن مالك التغلبي الشاعر الجاهلي كان في زيارة للملك شرحبيل بن الحارث الكندي: (وابنه معبد بن حنش قائم على رأسه، بيده قوس له عربية، فرفع معبد قوسه فضرب بها هامة الملك فطيّرها عن رأسه، وسقط الملك مغشياً عليه...) (١).

إلا أن المعروف أن شرحبيل الملك كان على عهد (يوم الكلاب الأول) والتي لا يُعرف تاريخها بالتحديد، وهي ما بين ١٣٠ ق.هـ إلى ٨٠ ق.هـ، وأن الذي قتل هذا الملك هو (أبو حنش) واسمه (عصم بن النعمان بن مالك التغلبي). وسواء أصحّ هذا أم ذاك، فالرجل كان يعيش في العهد الجاهلي. وإن كان تشابهاً في الأسماء، فأين ترجمة المتأخر منهما في كتب الرجال؟

الملاحظة الرابعة أنه لم يرد على لسان الحسن أو الحسين «عليه السلام» أي ذكر لمشاركتهم في هذه الغزوة، لا من قريب ولا من بعيد، ولم ينقل عنها أيّ مشهد، وهذا الأمر وإن لم يكن دليلاً في حدّ ذاته، ولكنه مؤيدٌ لمنكري هذه الرواية.

الملاحظة الخامسة التي سجّلها البعض هنا، أن من سبق الطبري من المؤرّخين كاليقوبي ومحمد بن سعد، أو من عاصره كابن أعثم في فتوحه والمسعودي في مروجه لم يذكروا الحسن والحسين «عليه السلام» فيمن شارك في هذا الفتح. ومن ذكر ذلك من المؤرّخين كابن خلدون إنما نقل الخبر عن الطبري. فقد

١. الشمشاطي: الأنوار ومحاسن الأشعار، ج ١، ص ٣٧.

كرر ابن خلدون في تاريخه مثلاً ما ذكره الطبري، بعبارة مشابهة لها، قال: (وفي هذه السنة غزا سعيد بن العاص طبرستان ولم يغزها أحد قبله، وقد تقدّم أن الأصبهيد^(١) صالح سويد بن مقرن عنها أيام عمر على مال، فغزاها سعيد في هذه السنة ومعه ناس من أصحاب رسول الله «صلى الله عليه وآله» منهم الحسن والحسين وابن عباس وابن عمر وابن عمرو وابن الزبير وحذيفة بن اليمان في غيرهم...) (٢).

ولكن الحق أن ابن كثير الدمشقي (ت ٧٧٤هـ) في (البداية والنهاية) روى نفس الخبر ولكن عن علي بن محمد المدائني (ت ٢٢٥هـ) أي أنه متوفى قبل وفاة الطبري بأكثر من ثمانية عقود حيث توفى الطبري (ت ٣١٠هـ). قال ابن كثير: (فذكر المدائني: أن سعيد بن العاص ركب في جيش فيه الحسن والحسين، والعبادلة الأربعة^(٣) وحذيفة بن اليمان، في خلق من الصحابة، فسار بهم، فمرّ على بلدان شتّى يصلحونه على أموال جزیلة، حتى انتهى إلى بلد معاملة جرجان، فقاتلوه حتى احتاجوا إلى صلاة الخوف...) (٤).

فهل أخطأ ابن كثير في مصدر الرواية لاسيما بلحاظ تشابهها مع رواية حنش بن مالك التي أخذها الطبري عن طريق ابن شبة؟ لا نستطيع أن نجزم بذلك لاسيما وأن كتاب الفتوح للمدائني مفقود. وعليه فلا نستطيع القول أن

١. الأصبهيد كلمة فارسية معربة، و (اسبهيد) بالفارسية تعني: قائد العسكر. وهو مركب من (سپه) أي عسكر، ومن (بُد)، أي صاحب، وكان هذا اللقب يُطلق على حاكم إحدى الولايات (الممالك) المكونة للإمبراطورية الساسانية.

٢. ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج ٢، ص ١٣٥.

٣. أي: عبد الله بن العباس وابن عمر وابن عمرو بن العاص وابن الزبير.

٤. ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٧، ص ١٤٧.

أحداً من المؤرخين قبل الطبري لم يذكر مشاركة الحسنين «عليه السلام» في هذه الغزوة.

هذا، وقد ساق بعض الباحثين ما اعتبروه (أدلة) أخرى على نفي مشاركتهم «عليه السلام» في الفتوحات، وهي برأبي ليست بذلك القوة والإحكام، وهي في مجملها تحليلية، وبعضها غير دقيق من حيث المضمون. ولذا أكتفي بما تم عرضه هنا.

• الرأي في المسألة :

مما سبق يتبين لنا أن الأدلة المعارضة للخبرين أكثر وأقوى من تلك المؤيدة لهما، وإن كنتُ -من حيث المبدأ- لا أرى بأساً في القول بمشاركتهم «عليه السلام» في الفتوحات، لما في ذلك من مردود إيجابي على مستوى التجربة الشخصية، ولكن الفرض شيء والإثبات شيء آخر.

• موقف الأئمة من بعد الحسين :

نتنقل الآن لنبحث فيما روي من مواقف أئمة أهل البيت «عليه السلام» من بعد استشهاد الإمام الحسين «عليه السلام» بكربلاء، فيما له علاقة بالفتوحات والمرابطة والحروب الدفاعية وأمثال ذلك، وبمشاركتهم بأنفسهم ومشاركة شيعتهم فيها، وذلك في خصوص العهدين الأموي والعباسي.

وهذه الروايات في غالبية دالاتها تعكس عدّة مواقف سلبية مسجلة من قبلهم، ومسببة في بيان خلفيات الموقف السلبي، وهي تدلّ -بشكل غير مباشر- على الفارق بين تلك الفتوحات التي وقعت في العهد الراشدي وبين

الأخرى التي جرت في العهدين الأموي والعباسي، حيث ابتعدت في دوافعها وأحداثها عن الكثير من المبادئ الإسلامية كما سيتبين معنا.

• الإمام زين العابدين:

في (الكافي) للكليني بالسند: (عن سماعة، عن أبي عبد الله «عليه السلام» قال: لقي عباد البصري^(١) علي بن الحسين «عليه السلام» في طريق مكة، فقال له: يا علي بن الحسين تركت الجهاد وصعوبته، وأقبلت على الحج ولينه، إن الله «عز وجل» يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾^(٢) الآية. فقال علي بن الحسين «صلوات الله عليه»: أتم الآية، فقال: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ﴾ الآية^(٣). فقال علي بن الحسين «عليه السلام»: إذا رأينا هؤلاء الذين هذه صفتهم، فالجهاد معهم أفضل من الحج^(٤).

ويعتبر (دعاء الثغور) المروي عن الإمام زين العابدين «عليه السلام» في الصحيفة السجادية تحت عنوان (وكان من دعائه «عليه السلام» لأهل الثغور) وثيقة ذات طابع روحي يبين من خلالها الإمام تمييزه ما بين:

١. الدور الذي يقوم به المدافعون عن حدود الدولة الإسلامية ضد هجمات الأعداء، ويخوضون المواجهات العسكرية ضد عدوان الأمم الأخرى.

١. لعله عباد بن كثير الثقفي عاش في مكة وكان ضعيفاً متهماً بالوضع متروك الحديث .

٢. التوبة: ١١١.

٣. وتتمتها: ﴿الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ التوبة: ١١٢.

٤. الكليني: الكافي، ج ٥، ص ٢٢.

٢. الموقف المتعلق بخوض الحروب التوسعية التي انطلق فيها الأمويون دون التزام بالمعايير الشرعية المطلوبة كتلك التي أشار إليها في الرواية السابقة.

٣. المجاهدون المخلصون الذين تنتزّه منطلقاتهم عن القضايا المادية ويتطلعون لخدمة الدين والملتزمون بأحكام الشريعة المتعلقة بالحرب وما إلى ذلك.

٤. المساهمون في إيواء المجاهدين وأهلهم، والمساهمة في تحقيق حياة كريمة لهم.

والدعاء جاء كالتالي: (اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَحَصِّنْ ثُغُورَ الْمُسْلِمِينَ بِعِزَّتِكَ، وَأَيِّدْ حُمَاتَهَا بِقُوَّتِكَ، وَأَسْبِغْ عَطَايَاهُمْ مِنْ جِدَّتِكَ. اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَكَثِّرْ عِدَّتَهُمْ، وَاشْحَذْ أَسْلِحَتَهُمْ، وَاحْرُسْ حَوَزَتَهُمْ، وَأَمْنَعْ حَوَمَتَهُمْ، وَأَلْفَ جَمْعَهُمْ، وَدَبِّرْ أَمْرَهُمْ، وَوَاتِرْ بَيْنَ مِيرِهِمْ، وَتَوَحَّدْ بِكِفَايَةِ مُؤْنِهِمْ، وَاعْضُدَّهُمْ بِالنَّصْرِ، وَأَعْنِهِمْ بِالصَّبْرِ، وَالْطَّفْ لَهُمْ فِي الْمَكْرِ. اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَعَرِّفَهُمْ مَا يَجْهَلُونَ، وَعَلِّمَهُمْ مَا لَا يَعْلَمُونَ، وَبَصِّرْهُمْ مَا لَا يَبْصُرُونَ. اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَانْسِهِمْ عِنْدَ لِقَائِهِمُ الْعَدُوَّ ذَكَرَ دُنْيَاهُمْ الْخَدَاعَةَ الْغُرُورَ، وَامْحَ عَنْ قُلُوبِهِمْ خَطَرَاتِ الْمَالِ الْفُتُونِ، وَاجْعَلِ الْجَنَّةَ نَصَبَ أَعْيُنِهِمْ، وَلَوْحَ مِنْهَا لِأَبْصَارِهِمْ مَا أَعَدَدْتَ فِيهَا مِنْ مَسَاكِنِ الْخُلْدِ وَمَنَازِلِ الْكَرَامَةِ وَالْحُورِ الْحَسَنَاتِ وَالْأَنْهَارِ الْمُطْرَدَةِ بِأَنْوَاعِ الْأَشْرَبَةِ وَالْأَشْجَارِ الْمُتَدَلِّيَةِ بِصُنُوفِ الثَّمَرِ حَتَّى لَا يَهُمَّ أَحَدٌ مِنْهُمْ بِالْإِدْبَارِ، وَلَا يُحَدِّثُ نَفْسَهُ عَنْ قَرْنِهِ بِفِرَارٍ. اللَّهُمَّ أَفْلَلْ بِذَلِكَ عَدُوَّهُمْ، وَأَقْلَمْ عَنْهُمْ أَظْفَارَهُمْ، وَفَرِّقْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَسْلِحَتِهِمْ، وَاخْلَعْ وَثَاقَ أَفْئِدَتِهِمْ، وَبَاعِدْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ

أَزَوَدْتَهُمْ، وَحَيَّرَهُمْ فِي سُبُلِهِمْ، وَضَلَلَهُمْ عَنْ وَجْهِهِمْ، وَاقْطَعْ عَنْهُمْ الْمَدَدَ،
وَأَنْقُصْ مِنْهُمْ الْعَدَدَ، وَأَمْلَأْ أَفْئِدَتَهُمُ الرُّعْبَ، وَأَقْبِضْ أَيْدِيَهُمْ عَنِ الْبَسْطِ،
وَاخْزِمِ أَلْسِنَتَهُمْ عَنِ النُّطْقِ، وَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ وَنَكِّلْ بِهِمْ مَنْ وَرَاءَهُمْ،
وَاقْطَعْ بِخَزَائِهِمْ أَطْمَاعَ مَنْ بَعْدَهُمْ. اللَّهُمَّ عَقِّمِ أَرْحَامَ نِسَائِهِمْ، وَبَيِّسْ أَصْلَابَ
رِجَالِهِمْ، وَاقْطَعْ نَسْلَ دَوَابِّهِمْ وَانْعَامِهِمْ، لَا تَأْذِنْ لِسَمَائِهِمْ فِي قَطْرِ، وَلَا
لَأَرْضِهِمْ فِي نَبَات. اللَّهُمَّ وَقُودِ ذَلِكَ مَحَالِ أَهْلِ الْإِسْلَامِ، وَخَصِّنْ بِهِ دِيَارَهُمْ،
وَتَمَرِّ بِهِ أَمْوَالَهُمْ، وَفَرِّغْهُمْ عَنْ مُحَارَبَتِهِمْ لِعِبَادَتِكَ، وَ عَنْ مُنَابَذَتِهِمْ لِلْخُلُوةِ
بِكَ، حَتَّى لَا يُعْبَدَ فِي بَقَاعِ الْأَرْضِ غَيْرُكَ، وَلَا تُعَفَّرَ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ جَبْهَةٌ دُونَكَ.
اللَّهُمَّ اغْزِ بِكُلِّ نَاحِيَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى مَنْ بَارَأْتَهُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، وَأَمَدِّدْهُمْ
بِمَلَائِكَتِكَ مِنْ عِنْدِكَ مُرْدَفِينَ، حَتَّى يَكْشِفُوهُمْ إِلَى مُنْقَطَعِ التُّرَابِ قِتْلًا فِي
أَرْضِكَ وَأَسْرًا، أَوْ يَقْرِؤُوا بِأَنَّكَ أَنْتَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ وَحْدَكَ لَا شَرِيكَ
لَكَ. اللَّهُمَّ وَاعْمَمْ بِذَلِكَ أَعْدَاءَكَ فِي أَقْطَارِ الْبِلَادِ مِنَ الْهِنْدِ وَالرُّومِ وَالتُّرْكِ
وَالْخَزَرِ وَالْحَبَشِ وَالنُّوبَةِ وَالزَّنْجِ وَالسَّقَالِبَةِ وَالدِّيَالِمَةِ وَسَائِرِ أُمَمِ الشُّرْكِ،
الَّذِينَ تَخْفَى أَسْمَاؤُهُمْ وَصِفَاتُهُمْ، وَقَدْ أَحْصَيْتَهُمْ بِمَعْرِفَتِكَ، وَأَشْرَفْتَ
عَلَيْهِمْ بِقُدْرَتِكَ. اللَّهُمَّ اشْغَلِ الْمُشْرِكِينَ بِالْمُشْرِكِينَ عَنْ تَنَاوُلِ أَطْرَافِ الْمُسْلِمِينَ،
وَخُذْهُمْ بِالنَّقْصِ عَنْ تَنْقُصِهِمْ، وَتَبْطِطْهُمْ بِالْفُرْقَةِ عَنِ الْإِحْتِشَادِ عَلَيْهِمْ. اللَّهُمَّ
أَخْلِ قُلُوبَهُمْ مِنَ الْأَمْنَةِ، وَأَبْدَانَهُمْ مِنَ الْقُوَّةِ، وَأَذْهِلْ قُلُوبَهُمْ عَنِ الْإِحْتِيَالِ،
وَأَوْهِنْ أَرْكَانَهُمْ عَنْ مُنَازَلَةِ الرِّجَالِ، وَجَبِّنْهُمْ عَنْ مُقَارَعَةِ الْأَبْطَالِ، وَابْعَثْ
عَلَيْهِمْ جُنْدًا مِنْ مَلَائِكَتِكَ بِيَاسٍ مِنْ بَأْسِكَ كَفَعْلِكَ يَوْمَ بَدْرٍ، تَقْطَعُ بِهِ دَابِرَهُمْ
وَتَحْصُدُ بِهِ شَوْكَتَهُمْ، وَتَفَرِّقُ بِهِ عَدَدَهُمْ. اللَّهُمَّ وَامْزِجْ مِيَاهَهُمْ بِالْوَبَاءِ، وَ

أَطْعَمْتَهُم بِالْأَدْوَاءِ، وَارْمِ بِلَادَهُمْ بِالْخُسُوفِ، وَالْحِ عَالِيَهَا بِالْقُدُوفِ، وَافْرَعَهَا بِالْمَحُولِ، وَاجْعَلْ مِيرَهُمْ فِي أَحْصَ أَرْضِكَ وَأَبْعَدَهَا عَنْهُمْ، وَامْنَعْ حُصُونَهَا مِنْهُمْ، أَصِبْهُمْ بِالْجُوعِ الْمُقِيمِ وَالسُّقْمِ الْأَلِيمِ. اللَّهُمَّ وَ أَيُّمَا غَارَ غَزَاهُمْ مِنْ أَهْلِ مِلَّتِكَ، أَوْ مُجَاهِدِ جَاهِدَهُمْ مِنْ أَتْبَاعِ سُنَّتِكَ لِيَكُونَ دِينُكَ الْأَعْلَى وَحِزْبُكَ الْأَقْوَى وَحِزْبُكَ الْأَوْفَى فَلَقَهُ الْيُسْرَ، وَهَيَّئْ لَهُ الْأَمْرَ، وَتَوَلَّهِ بِالنُّجْحِ، وَتَخَيَّرْ لَهُ الْأَصْحَابَ، وَاسْتَقْوِلْهُ الظَّهَرَ، وَاسْبِغْ عَلَيْهِ فِي النَّفَقَةِ، وَمَتَّعْهُ بِالنَّشَاطِ، وَأَطْفِ عَنْهُ حَرَارَةَ الشَّقِيقِ، وَأَجِرْهُ مِنْ غَمِّ الْوَحْشَةِ، وَأَنْسِهِ ذِكْرَ الْأَهْلِ وَالْوَلَدِ. وَ أَثَرُ لَهُ حُسْنِ النِّيَّةِ، وَتَوَلَّهِ بِالْعَافِيَةِ، وَأَصْحَبْهُ السَّلَامَةَ، وَاعْفُ عَنْهُ مِنَ الْجِبَنِ، وَ أَلْهَمْهُ الْجُرْأَةَ، وَارْزُقْهُ الشَّدَّةَ، وَ أَيْدِهِ بِالنُّصْرَةِ، وَ عَلِّمَهُ السَّيْرَ وَ السُّنَنَ، وَسَدِّدْهُ فِي الْحُكْمِ، وَاعْزِلْ عَنْهُ الرِّيَاءَ، وَ خَلِّصْهُ مِنَ السُّمْعَةِ، وَاجْعَلْ فِكْرَهُ وَذِكْرَهُ وَظَعْنَهُ وَإِقَامَتَهُ، فِيكَ وَ لَكَ. فَإِذَا صَافَ عَدُوَّكَ وَعَدُوَّهُ فَقُلِّلْهُمْ فِي عَيْنِهِ، وَصَغِّرْ شَأْنَهُمْ فِي قَلْبِهِ، وَ أَدِلْ لَهُ مِنْهُمْ، وَ لَا تُدِلَّهُمْ مِنْهُ، فَإِنْ خَتَمْتَ لَهُ بِالسَّعَادَةِ، وَقَضَيْتَ لَهُ بِالشَّهَادَةِ فَبَعْدَ أَنْ يَجْتَاحَ عَدُوَّكَ بِالْقَتْلِ، وَبَعْدَ أَنْ يَجْهَدَ بِهِمُ الْأَسْرَ، وَبَعْدَ أَنْ تَأْمَنَ أَطْرَافُ الْمُسْلِمِينَ، وَبَعْدَ أَنْ يُؤَلِّيَ عَدُوَّكَ مُدْبِرِينَ. اللَّهُمَّ وَ أَيُّمَا مُسْلِمٍ خَلَفَ غَازِيًا أَوْ مُرَاطِبًا فِي دَارِهِ، أَوْ تَعَهَّدَ خَالِفِيهِ فِي غَيْبَتِهِ، أَوْ أَعَانَهُ بِطَائِفَةٍ مِنْ مَالِهِ، أَوْ أَمَدَّهُ بِعِتَادٍ، أَوْ شَحَذَهُ عَلَى جِهَادٍ، أَوْ أَتْبَعَهُ فِي وَجْهِهِ دَعْوَةً، أَوْ رَعَى لَهُ مِنْ وَرَائِهِ حُرْمَةً، فَاجِرْ لَهُ مِثْلَ أَجْرِهِ وَزَنَا بَوْرَنَ وَمِثْلًا بِمِثْلٍ، وَ عَوِضْهُ مِنْ فِعْلِهِ عَوِضًا حَاضِرًا يَتَعَجَّلُ بِهِ نَفْعَ مَا قَدَّمَ وَ سُرُورَ مَا أَتَى بِهِ، إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ بِهِ الْوَقْتُ إِلَى مَا أَجَرَيْتَ لَهُ مِنْ فَضْلِكَ، وَ أَعَدَدْتَ لَهُ مِنْ كَرَامَتِكَ. اللَّهُمَّ وَ أَيُّمَا مُسْلِمٍ أَهَمَّهُ أَمْرُ الْإِسْلَامِ، وَ أَحْزَنَهُ تَحْزُبُ أَهْلِ الشَّرِكِ

عَلَيْهِمْ فَتَوَى غَزَوًا، أَوْ هَمَّ بِجِهَادٍ فَقَعَدَ بِهِ ضَعْفٌ، أَوْ أَبْطَأَتْ بِهِ فَاقَّةٌ، أَوْ آخَرُهُ عَنْهُ حَادِثٌ، أَوْ عَرَضَ لَهُ دُونُ إِرَادَتِهِ مَانِعٌ فَكَتَبَ اسْمَهُ فِي الْعَابِدِينَ، وَأَوْجَبَ لَهُ ثَوَابَ الْمُجَاهِدِينَ، وَاجْعَلُهُ فِي نِظَامِ الشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ. اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ عَبْدِكَ وَرَسُولِكَ وَآلِ مُحَمَّدٍ، صَلَاةً عَالِيَةً عَلَى الصَّلَوَاتِ، مُشْرِفَةً فَوْقَ التَّحِيَّاتِ، صَلَاةً لَا يَنْتَهِي أَمْدُهَا، وَلَا يَنْقَطِعُ عَدَدُهَا كَأَتَمِّ مَا مَضَى مِنْ صَلَوَاتِكَ عَلَى أَحَدٍ مِنْ أَوْلِيَائِكَ، إِنَّكَ الْمَنَّانُ الْحَمِيدُ الْمُبْدِيُّ الْمُعِيدُ الْفَعَّالُ لِمَا تُرِيدُ^(١).

وصدور هذا الدعاء في حد ذاته من إمام من أئمة أهل البيت «عليهم السلام» وعلى الرغم مما تعرّضوا له من مضايقات وإرهاب وعدوان من بعض الحكّام، هو بمثابة الدرس الكبير على ضرورة تحلي الإنسان بالمؤمن بروحية عالية بحيث يجعل مواقفه مبنية على حسابات المصلحة العامة ولو كان ذلك على حسابه الشخصي، وأن يُبعد تأثير المزاج والحسابات الشخصية عن علاقاته وأوضاعه، وأن يختار في مواقفه ما هو رضى لله ومصلحة الدين وأهله، مهما كانت التحديات والتنازلات والعقبات والتضحيات. فعندما يكون الإسلام والمسلمون في خطر، فلا بدّ من التكاتف والتضامن والتوحد وتناسي الأحقاد والخلافات، ولا بد من الوقوف وراء الحقّ ونصرته بالكلمة والموقف والفعل. هذه هي الأخلاق الرسالية والإيمان الرفيع بالله والإخلاص منقطع النظير له إذ يندفع الإمام للدعاء بنصرة المرابطين بالكلمة والدعاء النابع من إحساسه بالمسؤولية حيال حماية الإسلام، ومن قلب ملؤه المحبة والعطف والرحمة.

• الإمام محمد الباقر:

سأقسّم الرواية التالية إلى مقاطع للتعليق عليها، لأهمية تلك التعليقات في توضيح الصورة أكثر. ففي (الكافي) للكليني بالسند: (عن الحسن بن محبوب، عن بعض أصحابه^(١)) قال: كتب أبو جعفر «عليه السلام» في رسالة إلى بعض خلفاء بني أمية: ومن ذلك ما ضيّع الجهاد الذي فضّله الله «عز وجل» على الأعمال، وفضّل عامله على العَمّال، تفضيلاً في الدرجات والمغفرة والرحمة).

التعليق: مثل قوله «تعالى»: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا، دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾^(٢).

(لأنه ظهر به الدين، وبه يُدفع عن الدين، وبه اشترى الله من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بالجنة بيعاً مفلحاً منجهاً).

التعليق: قال «تعالى»: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾^(٣).

١. لعل عدم ذكر اسمه خوفاً من السلطة لحساسية مضمون الرسالة .

٢. النساء: ٩٥-٩٦.

٣. التوبة: ١١١.

(اشترط عليهم فيه حفظ الحدود).

التعليق: هذا تعريض بالأمويين الذين لم يُراعوا حدود الله فيحركة الفتوحات وأحكامها. وجاء الإمام بعد ذلك ببعض الأمثلة على تجاوز حدود الله وتشريعاته.

(وأوّل ذلك الدعاء إلى طاعة الله «عز وجل» من طاعة العباد، وإلى عبادة الله من عبادة العباد، وإلى ولاية الله من ولاية العباد، فمن دُعي إلى الجزية فأبى^(١) قُتل وسُبي أهله، وليس الدعاء من طاعة عبدٍ إلى طاعة عبدٍ مثله).

التعليق: وهذا تعريض آخر بالأمويين الذين كانوا يرسلون الجيوش لمصالحهم الدنيوية حيث كانوا يشنّون الحروب من أجل بسط سلطتهم والحصول على المزيد من الثروات لا في سبيل الله، ولا لتخليص المستضعفين من نير السلطات الجائرة التي كانت تحكمهم وتظلمهم وتفرض عليهم الضرائب الباهضة التي كانت تُجهدهم وتُبقيهم في حالة حاجة وفقر وانقياد لأصحاب المطامع الدنيوية من المرابين والإقطاعيين وأمثالهم.

(ومَن أقرّ بالجزية لم يُتعدّ عليه، ولم تُخفّر ذمّته، وكُلّف دون طاقته، وكان الفيء للمسلمين عامة غير خاصة، وإن كان قتال وسبي سِيرَ في ذلك بسيرته، وعُمل في ذلك بسنّته من الدين. ثم كُلف^(٢) الأعمى والأعرج الذين لا يجدون ما يُنفقون على الجهاد بعد عذر الله «عز وجل» إياهم، ويكُلّف الذين يطيقون ما لا يطيقون. وإنما كانوا أهل مصر يقاتلون مَنْ يليه، يعدل بينهم في البعوث).

١. فصار محارباً.

٢. من قبل الدولة الأموية وعلى خلاف حكم الله.

التعليق: بحيث تكون فرصة لهم لتعديل أوضاعهم الاقتصادية من خلال غنائم الحرب التي يشاركون فيها، بينما كان الأمويون يكلفون البعض دون البعض ولا يساوون بين المسلمين في ذلك.

(ذلك كله حتى عاد الناس رجلين، أجير مؤتجر بعد بيع الله، ومستأجرٌ صاحبُه غارم وبعد عذر الله، وذهب الحج فضيَّع، واقتقر الناس. فمن أعوج ممن عوّج هذا؟ ومن أقوم ممن أقام هذا، فردّ الجهاد على العباد وزاد الجهاد على العباد، إن ذلك خطأ عظيم)^(١).

• الإمام جعفر الصادق:

في (علل الشرائع) للصدوق بالسند: (عن أبي بصير، عن أبي عبد الله، عن آبائه «عليه السلام» قال: قال أمير المؤمنين «عليه السلام»: لا يخرج المسلم في الجهاد مع من لا يؤمن على الحكم، ولا يُنفذ في الفيء أمر الله «عز وجل»، فإنه إن مات في ذلك المكان كان معيناً لعدونا في حبس حقنا والإشاعة بدمائنا وميته ميته جاهلية)^(٢). ولا يخفى الدور الذي مارسته السلطة العباسية على عهد الإمام الصادق «عليه السلام» في قتل آل علي وشيعتهم وملاحقتهم والتضييق عليهم وغير ذلك مما هو مسطر في كتب التاريخ، وقد امتلأ كتاب (مقاتل الطالبيين) للأصفهاني على سبيل المثال بموارد من هذا القبيل.

ولذا فإنّ تعبير الإمام «عليه السلام» عنهم بالأعداء والمساهمة في حبس حقهم «عليه السلام» والمشاركة في سفك دمائهم بما يؤدي إلى أن تكون ميته

١. الكليني: الكافي، ج ٥، ص ٢.

٢. الصدوق: علل الشرائع، ص ٤٦٤.

المشارك في حروبهم مية جاهلية أمرٌ منطقي ومفهوم. كما أن هذه الرواية تبين بوضوح أن من موانع المشاركة في تلك الحروب هو عدم الائتمان على تنفيذهم الأحكام الشرعية المرتبطة بذلك، من قبيل سفك الدماء، وعدم الالتزام بالمواثيق، وكيفية التعامل مع الفبيء فيما لو لم يقع قتال، والجزية والخراج والسبي وغير ذلك من الأحكام الشرعية.

وفي (الكافي) للكليني بالسند: (عن عبد الملك بن عمرو قال: قال لي أبو عبد الله «عليه السلام»: يا عبد الملك، مالي لا أراك تخرج إلى هذه المواضع التي يخرج إليها أهل بلادك؟ قال: قلت: وأين؟ قال: جدة وعبادان والمصيصة وقزوين، فقلت: انتظاراً لأمركم والافتداء بكم، فقال: إي والله، لو كان خيراً ما سبقونا إليه^(١) قال: قلت: له: فإن الزيدية يقولون ليس بيننا وبين جعفر خلاف إلا أنه لا يرى الجهاد، فقال: أنا لا أراه؟ بل الله إنني لأراه، ولكني أكره أن أدع علمي إلى جهلهم)^(٢).

أي أن الإمام «عليه السلام» كان يعلم ما يدور في أجواء الحروب القائمة آنذاك، حيث لا يلتزم فيها بالضوابط الشرعية والمبادئ الأخلاقية، ابتداءً واستدامةً، ولأنها تنطلق لا لدوافع إيمانية، بل لمصالح الحكام أو لمجرد الغنيمة، وما شاكل، ولذا فإنه يعزف عنها، لا لعدم اقتناعه بأصل الجهاد، وإذا كان الذين يتهمونه لا يفقهون، فإنه ليس على استعداد لأن يدع علمه بالحقيقة ويعمل وفق جهلهم.

١. أي لو كان خيراً لخرج الإمام بنفسه لمثل هذه المواضع للقتال أو الحماية .

٢. الكليني: الكافي، ج ٥، ص ١٩ .

وفي (التهذيب) للطوسي بالسند: (عن محمد بن عبد الله السمندي قال: قلت لأبي عبد الله «عليه السلام» إني أكون بالباب -يعنى باب الأبواب-^(١) فينادون السلاح^(٢) فأخرج معهم؟ قال: فقال لي: رأيته إن خرجت فأسرت رجلاً فأعطيته الأمان، وجعلت له من العقد ما جعله رسول الله «صلى الله عليه وآله» للمشركين، أكان يفون لك به؟^(٣) قال: قلت: لا والله جعلت فداك، ما كانوا يفون لي به، قال: فلا تخرج، قال: ثم قال لي: أما إن هناك السيف^(٤)).

فهم لا يريدون إلا القتال والغنائم والتوسع الجغرافي لمصالح دنيوية، لا الدعوة إلى الله (سبحانه) والفتح من أجل هداية الناس، لذا سيقتلون هذا الأسير بلا مبالاة منهم للحكم الشرعي والوعد المقدم للأسير.

• الإمام علي الرضا:

في (التهذيب) للطوسي بالسند: (عن يونس قال: سأل أبا الحسن «عليه السلام» رجلاً وأنا حاضر، فقال له: جعلت فداك إن رجلاً من مواليك بلغه أن رجلاً يُعطي سيفاً وقوساً في سبيل الله، فأتاه فأخذهما منه، ثم لقيه أصحابه فأخبروه أن السبيل مع هؤلاء^(٥) لا يجوز، وأمره بردّهما؟ قال:

١. المراد البوابة الرئيسة لسور ومدخل المدينة.

٢. أي يدعون إلى الحرب.

٣. أي هل سيفي قادة الحرب والمسئولون عليك بهذا الأمان المنعقد وفق سنة النبي «صلى الله عليه وآله» وبمعنى آخر هل هم من الملتزمين بأحكام الله وسنة نبيه في الحرب؟

٤. الطوسي: التهذيب، ج ٦، ص ١٢٥.

٥. أي العباسيين في حروبهم.

فليفعل^(١). قال: قد طلب الرجل فلم يجده وقيل له: قد قضى الرجل^(٢) قال: فليرابط ولا يُقاتل. قال: مثل قزوين وعسقلان والديلم وما أشبه هذه الثغور؟ فقال: نعم، قال: فإن جاء العدو إلى الموضع الذي هوفيه مرابط، كيف يصنع؟ قال: يقاتل عن بيضة الإسلام^(٣). قال: يجاهد؟^(٤) قال لا، إلا أن يخاف على ذراري^(٥) المسلمين. قلت: رأيك لو أن الروم دخلوا على المسلمين لم ينبغ^(٦) لهم أن يمنعوهم؟ قال: يرابط ولا يقاتل^(٧)، وإن خاف على بيضة الإسلام والمسلمين قاتل، فيكون قتاله لنفسه لا للسلطان، لأن في دروس^(٨) الإسلام دروس ذكر محمد «صلى الله عليه وآله»^(٩).

• الإمام محمد الجواد:

في (التهذيب) للطوسي بالسند: (عن علي بن مهزيار قال: كتب رجل من بني هاشم إلى أبي جعفر الثاني «عليه السلام» إني كنت نذرت نذراً منذ سنين أن أخرج إلى ساحل من سواحل البحر إلى ناحيتنا مما يرابط فيه المتطوعة نحو مرابطتهم بجدة وغيرها من سواحل البحر، أفترى جعلت فداك أنه يلزمني

١. أي فليُرجعهما للرجل.

٢. أي مات.

٣. وفي رواية الصدوق في العلل بعدها: (لا عن هؤلاء).

٤. أي هل يبادر بالغزو؟

٥. وفي نسخة: كلمة (دار) بدل كلمة (ذراري).

٦. وفي نسخة: كلمة (يسع) بدل كلمة (ينبغ).

٧. أي فيما لو كان سيقاتل من أجل العباسيين.

٨. أي: اندراس.

٩. الطوسي: التهذيب، ج ٦، ص ١٢٥، والصدوق: علل الشرائع، ص ٦٠٣.

الوفاء به، أو لا يلزمني، أو أفتردي الخروج إلى ذلك بشئ من أبواب البر لأصير إليه إن شاء الله؟ فكتب إليه بخطه، وقرأته: إن كان سمع منك نذكرك أحد من المخالفين فالوفاء به إن كنت تخاف شنّعه (أي لا من باب الوفاء بالندى الذي لم ينعقد شرعاً، لأن متعلق النذر يجب أن يكون راجحاً، بل حفاظاً على النفس أو لعدم هتك حرمة وسمعه كمتدين يلتزم بنذره (والأفاصر ما نويت من ذلك في أبواب البر، وفقنا الله وإياك لما يحب ويرضى)^(١).

• النتيجة:

من مجموع ما سبق، وهناك روايات أخرى في البين يمكن مراجعتها في الجزء الخامس عشر من كتاب (الجهاد) من موسوعة (وسائل الشيعة) للحر العاملي، يتبين بوضوح الموقف السلبي -إجمالاً- لأئمة أهل البيت «عليهم السلام» ابتداء من الإمام علي بن الحسين زين العابدين «عليه السلام» من (الفتوحات) في العهدين الأموي والعباسي، والسبب في ذلك:

١. الدوافع غير المخلصة والمنطلقة من مصالح دنيوية بحتة، بعيدة عن غايات الجهاد في سبيل الله «عز وجل»، وعلى رأسها الدعوة إلى دين الله.
٢. تقوية الدولة الظالمة التي كانت تعمل على اضطهاد أئمة أهل البيت «عليهم السلام» وشيعتهم وغيرهم.

٣. عدم الالتزام بأحكام الشريعة فيما يخصّ مسائل الجهاد والصلح والمعاهدة والأسر والسبي والغنائم وما إلى ذلك. بينما كان الالتزام بهذه

١. الطوسي: التهذيب، ج ٦، ص ١٢٥.

الأحكام في العهد الراشدي كبيراً، وعلى ذلك شواهد عديدة، ومن بينها الشواهد التالية:

١. روى البلاذري في فتوح البلدان في أعقاب معركة القادسية: (قالوا: فأسلم جميل بن بصبهرى دهقان الفلاليج والنهرين، وبسطام ابن نرسى دهقان بابل وخطرنية، والرفيل دهقان العال، وفيروز دهقان نهر الملك وكوثى، وغيرهم من الدهاقين، فلم يعرض لهم عمر بن الخطاب، ولم يُخرج الأرض من أيديهم وأزال الجزية عن رقابهم)^(١).

٢. الخبر التالي في تاريخ اليعقوبي يبين أن علياً «عليه السلام» كان يتدخل في هذه المسائل ويوجه الخليفة عمر نحو القرار الأصوب، قال: (وشاور عمر أصحاب رسول الله في سواد الكوفة، فقال له بعضهم: تقسمها بيننا، فشاور علياً فقال: إن قسمتها اليوم لم يكن لمن يجئ بعدنا شيء، ولكن تقرّها في أيديهم يعملونها، فتكون لنا ولمن بعدنا. فقال: وفّقك الله! هذا الرأي)^(٢).

وأكد ابن حجر في شرحه لصحيح البخاري هذا المضمون حيث قال: (روى أبو عبيد في كتاب الأموال من طريق ابن إسحاق، عن حارثة بن مضرب، عن عمر أنه أراد أن يقسم السواد، فشاور في ذلك فقال له علي: دعهم يكونوا مادة للمسلمين فتركهم)^(٣).

٣. ومن هنا ندرك أن ما رواه البلاذري حول قرار الخليفة عمر كان بمشورة

١. البلاذري: فتوح البلدان، ج ٢، ص ٢٢٥.

٢. اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ١٥١.

٣. ابن حجر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج ٦، ص ١٥٧.

وتوجيه من الإمام علي، قال: (عن يزيد بن أبي حبيب قال: كتب عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص حين فتح السواد: أما بعد، فقد بلغني كتابك تذكر أن الناس سألوكم أن تقسم بينهم ما أفاء الله عليهم. فإذا أتاك كتابي فانظر ما أجب عليه أهل العسكر بخيلهم وركابهم، من مال أو كراع فاقسمه بينهم بعد الخمس، واترك الأرض والأنهار لعمالها، ليكون ذلك في أعطيات المسلمين، فإنك إن قسمتها بين من حضر لم يكن لمن يبقى بعدهم شيء)^(١).

٤. وقد حاول الأموي عبد الملك بن مروان خلال فترة حكمه تغيير هذا الحكم للاستئثار بأرض السواد، ولكنه نهي عن ذلك فامتنع، فقد روى البلاذري عن (سليمان بن يسار قال: أقرَّ عمر بن الخطاب السواد لمن في أصلاب الرجال وأرحام النساء، وجعلهم ذمة تؤخذ منهم الجزية ومن أرضهم الخراج، وهم ذمة لا رق عليهم)^(٢) قال سليمان: وكان الوليد بن عبد الملك أراد أن يجعل أهل السواد فيئاً^(٣)، فأخبرته بما كان من عمر في ذلك فورعه الله عنه)^(٤) أي غير رأيه وتراجع عن قراره.

٥. روى البلاذري عن إمام المالكية عن الإمام جعفر الصادق «عليه السلام» عن أبيه الباقر «عليه السلام» ما يدل على أن القرارات الشرعية التي كانت تتخذ بخصوص المناطق المفتوحة إنما تمت بالمشورة، حيث اتخذ الخليفة

١. البلاذري: فتوح البلدان، ج ٢، ص ٣٢٥.

٢. ما داموا غير مسلمين.

٣. وهي الأموال الواصلة من المحاربين بغير قتال ولا إيجاف خيل ولا ركاب، بحيث يكون كله له، كحاكم.

٤. البلاذري: فتوح البلدان، ج ٢، ص ٣٢٧.

عمر مجلساً بهذا الخصوص، والرواية كالتالي: (حدثنا مالك، عن جعفر بن محمد، عن أبيه قال: كان للمهاجرين مجلس في المسجد. فكان عمر يجلس معهم فيه ويحدثهم عن ما ينتهي إليه من أمر الآفاق. فقال يوماً: ما أدرى كيف أصنع بالمجوس؟ فوثب عبد الرحمن بن عوف فقال: اشهد على رسول الله «صلى الله عليه وآله» أنه قال: سُنُّوا بهم سنة أهل الكتاب»^(١).

٦. وكان المسؤولون عن تنفيذ القرارات المرتبطة بنتائج الفتوحات يُراجعون الخليفة لأخذ الموافقة النهائية، وبملاحظة ما جاء في الروايات السابقة نستنتج أن القرارات كانت تُمضى بعد المشورة. روى البلاذري (عن أبي مجلز لاحق بن حميد أن عمر بن الخطاب بعث عمار بن ياسر على صلاة أهل الكوفة وجيوشهم، وعبد الله بن مسعود على قضائهم وبيئتهم، وعثمان بن حنيف على مساحة الأرض. وفرض لهم كل يوم شاة بينهم، شطرها وسواقطها^(٢)) لعمّار، والشطر الآخر بين هذين. فمسح عثمان بن حنيف الأرض، فجعل على جريب النخل عشرة دراهم، وعلى جريب الكرّم عشرة دراهم، وعلى جريب القصب ستة دراهم، وعلى جريب البر أربعة دراهم، وعلى جريب الشعير درهمين. وكتب بذلك إلى عمر «رحمه الله» فأجازه^(٣).

وفي رواية أخرى أنه بعث حذيفة بن اليمان على ما وراء دجلة، وبعث الصحابي عثمان بن حنيف الأنصاري على ما دون دجلة.

١. البلاذري: فتوح البلدان، ج ٢، ص ٢٢٧.

٢. أي: أحشاؤها.

٣. البلاذري: فتوح البلدان، ج ٢، ص ٢٣٠.

وعلى كل حال، فإنّ الشواهد في هذا الباب عديدة ومصادرها كثيرة، وهذه واحدة من الفروقات الرئيسية بين فتوحات العهد الراشدي والعهد الأموي والعباسي، وهو ما نبّه عليه الأئمة «عليه السلام» كما مرّ معنا.

على أن الأمر في العهدين الأموي والعباسي لو استدعى حمل السلاح للدفاع عن الإسلام والحفاظ عليه وعلى المقدسات، ومثله الدفاع عن الأنفس والأعراض والأموال، فسيكون الحكم مختلفاً، شريطة أن يكون دافع المقاتل واحدة من هذه العناوين، لا إعانة الظالم ودولته، وهو ما تبين معنا سابقاً من خلال بعض ما روي عنهم «عليه السلام».

وخلاصة القول أن موقف أهل البيت «عليه السلام» من (الفتوحات) التي تلت العهد الراشدي كان سلبياً، حيث ضاعت فيها تدريجياً المنطلقات المخلصة، والمعايير السليمة للتعامل مع مسألة الحرب والسلام، ومع نتائج الحروب وغير ذلك، ولذا لم يشاركوا فيها، كما صدر عنهم النهي عن مشاركة شيعتهم فيها مع بيان الأسباب وتبرير الموقف من قبلهم «عليه السلام».

بينما شارك شيعة الإمام علي «عليه السلام» في فتوحات العهد الراشدي بمرأى منه ومسمع، وتم تعيينهم في مهام عديدة مرتبطة بإدارة الأرض والأموال وغير ذلك من الشؤون الدينية والسياسية والاقتصادية، فكان سلمان الفارسي على سبيل المثال والياً على المدائن وفيها مدفنه، وعمار بن ياسر والياً على الكوفة.. إلخ.

ويجب أن نتنبه إلى أن حضور شيعة علي «عليه السلام» في هذه الفتوحات في البعد العسكري والإداري والدعوي كان في حدّ ذاته ضرورياً لمراقبة وتقويم

وضبط سلوكيات بعض القادة أو العسكريين المشاركين في الفتوحات، وذلك لتنسجم مع التشريعات والتوجيهات والمعايير التي تفرضها الشريعة والأخلاق القويمة، وخوفاً من الوقوع في بعض الأخطاء التي قد تكون كارثية، لاسيما بلحاظ مشاركة عدد كبير من حديثي العهد بالإسلام من أبناء القبائل العربية وغيرهم ضمن الجيوش الإسلامية، وتقادياً لمثل ما جرى من قبل على يد خالد بن الوليد من مخالفات على عهد رسول الله «صلى الله عليه وآله» أثناء قيادته لإحدى السرايا، حيث قتل من بني جذيمة مَن قتل دون وجه حق، وتبرأ رسول الله «صلى الله عليه وآله» من فعلته، ودفع الفدية لذوي القتلى.

ففي صحيح البخاري عن عبد الله بن عمر أنه: (بعث النبي «صلى الله عليه وسلم» خالد بن الوليد إلى بني جذيمة فدعاهم إلى الإسلام فلم يُحسنوا أن يقولوا أسلمنا، فجعلوا يقولون: صباناً صباناً. فجعل خالد يقتل منهم ويأسر، ودفع إلى كل رجل منا أسيره، حتى إذا كان يوم أمر خالد أن يقتل كل رجل منا أسيرَه فقلت: والله لا أقتل أسيري، ولا يقتل رجل من أصحابي أسيره. حتى قدمنا على النبي «صلى الله عليه وسلم» فذكرناه، فرفع النبي «صلى الله عليه وسلم» يده فقال: اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد مرتين^(١)).

قال ابن حجر العسقلاني في (فتح الباري شرح صحيح البخاري) معلقاً على الخبر السابق أن بني جذيمة هؤلاء هم بني جذيمة بن عامر بن عبد مناة بن كنانة، وقال: (وهذا البعث كان عقب فتح مكة في شوال قبل الخروج إلى حنين عند جميع أهل المغازي وكانوا بأسفل مكة من ناحية يللم قال بن سعد بعث

١. البخاري: الجامع الصحيح، ح ٧١٨٩.

النبي «صلى الله عليه وآله» إليهم خالد بن الوليد في ثلاثمائة وخمسين من المهاجرين والأنصار داعياً إلى الإسلام، لا مقاتلاً).

ثم قال: (هذا من ابن عمر راوي الحديث يدل على أنه فهم أنهم أرادوا الإسلام حقيقة، ويؤيد فهمه أن قريشاً كانوا يقولون لكل من أسلم صباحاً، حتى اشتهرت هذه اللفظة، وصاروا يطلقونها في مقام الذم).

ثم استشهد ابن حجر بقصة ثُمَامَة بن أثال الحنفي الذي كان سيّداً من سادات أهل اليمامة، وقد روي أنه أُسر، فقال له النبي «صلى الله عليه وآله»: ما عندك يا ثُمَامَة؟ قال: إن تقتل تقتل ذا دم، وإن تَمُنْ تَمُنْ على شاكر، وإن تُرد المال تُعْطَ ما شئت، قال: فغدا عليه يوماً فقال له مثل ذلك، فأبدى رغبته في الإسلام، فأمره النبي «صلى الله عليه وآله» أن يغتسل، ففعل وتشهد الشهادتين، وقال: يا رسول الله، إنَّ خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة، فمُر من يسيرني إلى الطريق. فأمر من يسيره، فخرج حتى إذا قدم مكة فلما سمع به المشركون جاؤوه فقالوا: يا ثُمَامَة، صبوت -أو صبأت- وتركت دين آبائك؟ قال: لا أدري ما تقولون، إلا أنني أقسمت برب هذه البيعة لا يصل إليكم من اليمامة شئ مما تنتفعون به حتى تتبّعوا محمداً من آخركم. وكانت ميرة قريش ومنافعهم من اليمامة، ثم خرج فحبس عنهم ما كان يأتيهم منها من ميرتهم ومنافعهم فلما أضرّ بهم كتبوا إلى رسول الله «صلى الله عليه وآله» أنَّ عهدنا بك وأنت تأمر بصلة الرحم وتحضّ عليها، وإن ثُمَامَة قد قطع عنا ميرتنا وأضرّ بنا، فإن رأيت أن تكتب إليه أن يخلي بيننا وبين ميرتنا فافعل. فكتب إليه رسول الله «صلى الله عليه وآله» أن خلّ بين قومي وبين ميرتهم.

وكان ثمامة حين أسلم قال: يا رسول الله، والله لقد قدمت عليك وما على الأرض وجه أبغض إليّ من وجهك، ولا دين أبغض إليّ من دينك، ولا بلد أبغض إليّ من بلدك، وما أصبح على الأرض وجه أحب إليّ من وجهك، ولا دين أحب إليّ من دينك ولا بلد أحب إليّ من بلدك.

وقال محمد بن إسحاق: ارتدّ أهل اليمامة عن الإسلام غير ثمامة بن أثال ومن اتبعه من قومه، فكان مقيماً باليمامة ينهاهم عن اتباع مسيلمة وتصديقه ويقول: إياكم وأمرًا مظلماً لا نور فيه، وإنه لشقاء كتبه الله «عز وجل» على من أخذ به منكم، وبلاء على من لم يأخذ به منكم، يا بني حنيفة. فلما عصوه ورأى أنهم قد أصفقوا على اتباع مسيلمة عزم على مفارقتهم، ثم مدّ المسلمين بالمقاتلين ضد قومه^(١).

قال ابن حجر بعد الاستشهاد بقصة ثمامة: (فلما اشتهرت هذه اللفظة بينهم في موضع أسلمت استعملها هؤلاء. وأما خالد فحمل هذه اللفظة على ظاهرها، لأن صباناً أي خرجنا من دين إلى دين. ولم يكتف خالد بذلك حتى يصرحوا بالإسلام. وقال الخطابي: يُحتمل أن يكون خالد نقم عليهم العدول عن لفظ الإسلام، لأنه فهم عنهم أن ذلك وقع منهم على سبيل الأنفة، ولم ينقادوا إلى الدين، فقتلهم متأولاً.... وفي رواية الباقر: فقال لهم خالد: ضعوا السلاح، فإنّ الناس قد أسلموا. فوضعوا السلاح، فأمر بهم، فكُتِّفوا، ثم عرَضهم على السيف^(٢).... وعند أبي سعد: فلما كان السحر، نادى خالد: مَنْ

١. ابن عبد البر: الاستيعاب، ج ١، ص ٢١٤.

٢. أي قتلهم.

كان معه أسير فليضرب عنقه..... وزاد الباقر في روايته: ثم دعا رسول الله «صلى الله عليه وآله» علياً فقال: اخرج إلى هؤلاء القوم واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك، فخرج حتى جاءهم ومعه مال، فلم يبق لهم أحد إلا وداه).

وأضاف ابن حجر بعد ذلك قصة أحد المقتولين الذي قال: (إني لست منهم)^(١) إني عشقت امرأة منهم، فدعوني أنظر إليها نظرة... فضربوا عنقه، فجاءت المرأة فوقعت عليه فشهقت شهقة أو شهقتين ثم ماتت، فذكروا ذلك للنبي «صلى الله عليه وآله» فقال: أما كان فيكم رجل رحيم؟^(٢).

وهذا يعني وجود سابقة من خالد بن الوليد، وثناها مع مالك بن نويرة على عهد الخليفة أبي بكر، وهو في حركة الفتوحات في العراق والشام قائد عام، لذا كان بحاجة إلى من يراقب ويقوم قراراته وتصرفاته التي قد تخالف الموقف الشرعي، وهو ما يجعل من وجود أصحاب علي «عليه السلام» من أهل الصلاح والدراية بالأحكام ضرورياً ضمن حركة الفتوحات هذه.

١. أي لم يكن من بني جذيمة .

٢. ابن حجر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج ٩، ص ٤٩.

٥

بحث أسامة

بَعَثَ أَسَامَةَ

قبل عرض أخبار الفتوحات الإسلامية في العهد الراشدي، لابد أن نرجع إلى ما قبل وفاة رسول الله «صلى الله عليه وآله» بقليل.

فقد جهّز النبي «صلى الله عليه وآله» قبيل وفاته جيشاً من أصحابه استتماماً لما بدأ به من قبل ضمن سعيه لمواجهة تحرّكات الروم وحلفائها، وتحركاتهم المختلفة، والتي كانت تستهدف القضاء على دولة الإسلام الفتية، حيث وجّه إلى نواحي الأردن في السنة السابعة من الهجرة قوة عسكرية بقيادة جعفر بن أبي طالب أوزيد بن حارثة -على اختلاف الروايات- وانتهت المواجهة (غزوة مؤتة) باستشهاد القادة الثلاث المتعاقبين، جعفر وزيد وابن رواحة، وعودة الجيش إلى المدينة، وهو ما دفع بالنبي للخروج بنفسه بعد سنتين، وذلك في غزوة تبوك.

إلا أنه لم تقع مواجهة في هذه الغزوة، وذلك بسبب مبادرة حلفاء الروم للانسحاب من الحدود الشمالية للجزيرة العربية، واستفاد النبي «صلى الله عليه وآله» من هذا الوضع الجديد لإقامة تحالفات ومعاهدات مع بعض المدن والملوك الذين كانوا ينتشرون جنوب الأردن وشمال الجزيرة العربية كما تبين لنا ذلك في أثناء شرح أحداث غزوة تبوك، وعُرض في كتاب (السيرة العسكرية لسيد المرسلين محمد «صلى الله عليه وآله»).

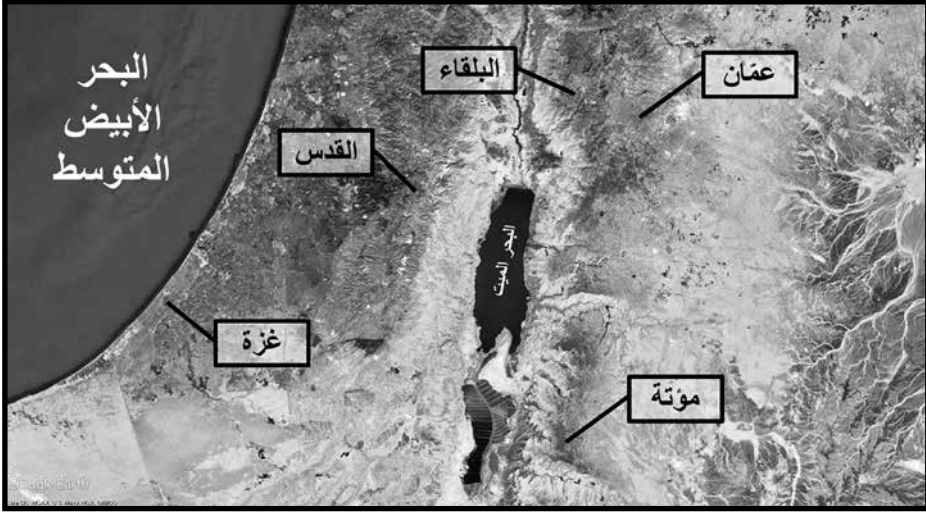
بَعث أسامة

وكما هو مُثبت في كتب السيرة والتاريخ والحديث، فإنَّ رسول الله لم يغادر هذه الدنيا إلا وقد أَمَرَ بتهيئة قوَّة عسكرية كبيرة بقيادة أسامة بن زيد بن حارثة، لتتَّجه نحو البلقاء، وهذا الاسم يُطلق حالياً على محافظة واقعة شمال عمَّان عاصمة الأردن، وفي رواية أخرى أن يذهب إلى مؤتة، وهي تقع إلى الجنوب من محافظة البلقاء، وذلك استكمالاً للمواجهات السابقة مع الروم وحلفائها من الغساسنة وغيرهم.

فعلى حدود بلاد الشام، كان البيزنطيون قد أقاموا سلالة حاكمة قوية يعرفها التاريخ باسم الغساسنة، ومنحوا زعماء الغساسنة لقب (فيلارخ) الإداري اليوناني، وكان يتم دفع إتاوات مالية لهم لكي يحتفظوا بالعلاقات الودية مع بدو شبه الجزيرة العربية. ومن خلال المزج بين دفع الأموال والدبلوماسية وعلاقات القربى والتحالفات، حافظ الغساسنة على الحدود الصحراوية، وعملوا باعتبارهم منطقة فاصلة بين الحكومة البيزنطية والبدو.

كما أنهم تحوَّلوا إلى المسيحية ولكنهم كانوا على مذهب الطبيعة الواحدة (المونوفيزيتي) الذي كانت القسطنطينية تعتبره مذهباً مبتدعاً (هرطقة). وقد عاش زعماء الغساسنة أسلوب حياة شبه بدوي، ففي الربيع عندما تكون أطراف الصحراء قد اكتست باللون الأخضر الحي، مع نمو العشب الجديد، كانوا يضربون خيامهم في الجابية بمرتفعات الجولان، وكان زعماء القبائل يفدون لزيارتهم ولإسداء الاحترام إليهم، ولتلقّي عطاياهم المالية.

وفي أوقات أخرى قد يعقدون محكمة في الرصافة شمالي بادية الشام. بالقرب من الضريح الكبير للمحارب (سان سيرجيوس/القديس سركيس) الذي



البلقاء وموتة ومدن أخرى في الأردن وفلسطين

يُعدّ من قبل الكنيسة الكاثوليكية وبعض الكنائس الأرثوذكسية من الشهداء القديسين، وكان في الأصل ضابطاً عسكرياً رومانياً عاش في القرن الثالث الميلادي، واعتنق المسيحية سراً في فترة الاضطهادات الرومانية للمسيحيين، فاعتُقل عندما اكتُشف أمره، وعُذِّب بشدّة، ولكنه صمد إلى أن مات تحت وطأة التعذيب. ولم يكن الغساسنة يستقرون في البلدة الرومانية، ولكنهم بنوا قاعة حجرية على بُعد حوالي ميلاً شمالاً، وكانوا يضربون خيامهم حول هذه القاعة، وكان العرب يفدون لزيارة الضريح وزيارة الفيلاخ الغساني.

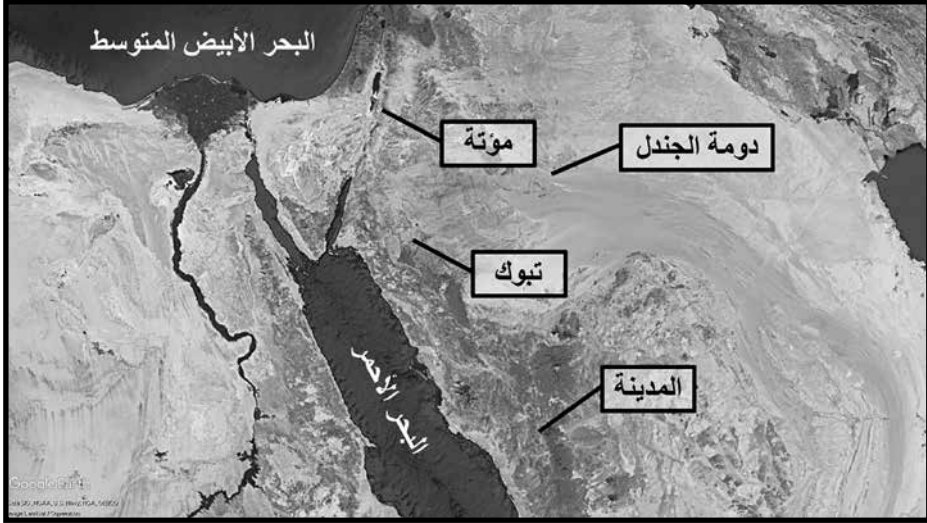
• نماذج من التحرشات والاعتداءات:

من أمثلة التحرشات والاعتداءات الموجهة بحق المسلمين ما كان يجري -مثلاً- في دومة الجندل -الواقعة شمال الجزيرة العربية عند مدينة سكاكا الحالية وبالقرب من نقطة عرعر الحدودية بين السعودية والأردن- وبالقرب

منها، حيث كان يقطنها فرع من قبيلة بني كلب، وتحوّلت إلى مركز من مراكز التحرّش والاعتداء، ولعلّ وراء ذلك العداء بعض الدوافع؛ منها تبعيَّتها للدولة البيزنطيَّة ولأهـ وديانة؛ فقد كان عامَّة أهل تلك المنطقة يدينون بالنصرانية.

وتذكر كتب السيرة أنه جاءت إلى رسول الله «صلى الله عليه وآله» الأخبار بأنَّ القبائل حول دومة الجندل تقطع الطريق هناك، وتنهب ما يمرُّ بها، وأنها قد حشدت جمعاً كبيراً تُريد أن تهاجم المدينة، فاستعمل رسول الله «صلى الله عليه وآله» على المدينة سباع بن عرفطة الغفاري، وخرج في ألف من المسلمين لخمس ليال بقين من ربيع الأول من السنة الخامسة من الهجرة، ففرَّ أهل دومة الجندل في كل وجه، فلمَّا نزل المسلمون بساحتهم لم يجدوا أحداً، وأقام رسول الله «صلى الله عليه وآله» أياماً، وبثَّ السرايا في اتجاهات متعدّدة، فلم يُصب منهم أحداً، ثم رجع إلى المدينة، وحيث استمرَّ الموقف العدائي قائماً، أرسل النبي «صلى الله عليه وآله» في السنة اللاحقة، عبد الرحمن بن عوف على رأس سرّيَّة إلى دُومة الجندل؛ ليدعوهم إلى الإسلام، وأوصاه قائلاً: (اغز باسم الله وفي سبيل الله، فقاتل مَنْ كفر بالله، لا تُغلّ ولا تُغدر ولا تَقْتل وليداً)^(١). وبعد حصار دام ثلاثة أيام، أسلم ملكهم الأصبغ بن عمرو الكلبي مع خَلْقٍ كثير من قومه، وبقيت طائفة منهم على النصرانيَّة مع الرضا بالجزية، كما تزوّج عبد الرحمن بن عوف تماضر ابنة الملك، إما بوصية من النبي، لتكون هذه المصاهرة ضماناً لبقاء حالة السلم بين الطرفين، أو بطلب من ابن عوف نفسه على اختلاف الروايات.

١. الواقدي: المغازي، ج ١، ص ٢٢٣.



موقع دومة الجندل وتُعدّ حالياً إحدى محافظات منطقة الجوف

• الاعتداء على مبعوث النبي:

ويضاف إلى ما سبق، فإن النبي «صلى الله عليه وآله» بعد أن أمّن المنطقة الجنوبية الممتدة من المدينة المنورة إلى مكة المكرمة، علاوة على المنطقة الشمالية إلى حيث خيبر وما يجاورها، عمّد إلى مراسلة عدد من الملوك والأمراء لدعوتهم إلى الإسلام، ومن بينها رسائل باتجاه الشام.

عن عمر بن الحكم، قال: (بعث رسول الله «صلى الله عليه وآله» الحارث بن عمير الأزدي إلى ملك بصرى بكتابه، فلما نزل مؤتة عرض له شرحبيل بن عمرو الغساني، فقال: أين تريد؟ قال: الشام، قال: لعلك من رسل محمد؟ قال: نعم، أنا رسول رسول الله «صلى الله عليه وآله»، فأمر به فأوثق رباطاً، ثم قدّمه، فضرب عنقه صبراً، ولم يُقتل لرسول الله «صلى الله عليه وآله» رسول

بَعَثَ أَسَامَةَ

غيره، وبلغ رسول الله «صلى الله عليه وآله» الخبر، فاشتد عليه^(١).

ويضاف إلى هذه الجريمة جريمة أخرى تُظهر تخوّف الروم من انتشار الإسلام في الشام، حيث أقدموا على إعدام أحد المسؤولين العرب المعيّنين من قبلهم، واسمه (فروة الجذامي)، فقد نقل ابن كثير عن ابن إسحاق: (وبعث فروة بن عمرو النافرة الجذامي ثم النفائي إلى رسول الله «صلى الله عليه وآله» رسولاً بإسلامه، وأهدى له بغلة بيضاء، وكان فروة عاملاً للروم على من يليهم من العرب وكان منزله معان وما حولها من أرض الشام، فلما بلغ الروم ذلك من إسلامه طلبوه حتى أخذوه فحبسوه عندهم.... وزعم الزُّهري أنهم لما قدّموه ليقتلوه قال:

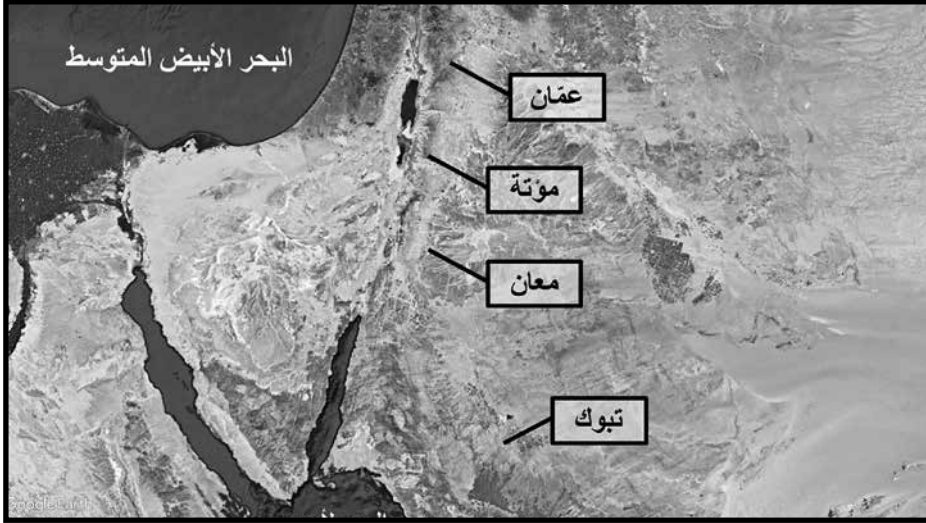
بَلِّغْ سُرَاةَ الْمُسْلِمِينَ بِأَنْتِي سَلِمَ لِرَبِّي أَعْظَمِي وَمَقَامِي

قال: ثم ضربوا عنقه وصلبوه على ذلك الماء، رحمه الله، ورضي عنه وأرضاه، وجعل الجنة مثواه^(٢).

بمجيء خبر مقتل الحارث الأزدي، أعلن رسول الله النفير للخروج للقتال، فالأمر بمثابة إعلان حرب من الطرف الآخر، ولا بد من الردّ على هذه الإساءة التي قد يتجرأ من خلالها العدو للإقبال على المزيد من صور العدوان المحتملة، ولربما تصل إلى حد التفكير في غزو الحجاز أو بعض المناطق الخاضعة لنفوذ دولة الإسلام بقيادة رسول الله «صلى الله عليه وآله» حيث غدت متاخمة لحدود دولة الروم ومناطق نفوذ وسيطرة الفساسنة.

١. ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج ٤، ص ٣٤٣.

٢. ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٥، ص ١٠١.



معان في الأردن

وقد روى المؤرخون، ومنهم الواقدي في (المغازي)^(١) أن النبيّ بعد سماعه بمقتل الحارث: (ندب الناس وأخبرهم بمقتل الحارث ومَن قتله، فأسرع الناس وخرجوا فعسكروا بالجُرف)^(٢). وأضاف ابن سعد في (الطبقات الكبرى): (فكان ذلك سبب خروجهم إلى غزوة مؤتة)^(٣).

• المماثلة في الخروج:

وبعد غزوتي مؤتة وتبوك، وقبل وفاته «صلى الله عليه وآله» بأيام، أمر النبي

١. الواقدي: المغازي، ج ١، ص ٣٠٧.

٢. الجُرف، موضع يقع في شمال غرب المدينة المنورة، ويبعد عن المسجد النبوي ٩ كم تقريباً بالخط المستقيم، يمرّ به وادي العقيق، وهو الآن حي من أحياء المدينة، كانت أرضاً منبسطة فيها مجموعة من البساتين فيها بعض الآبار.

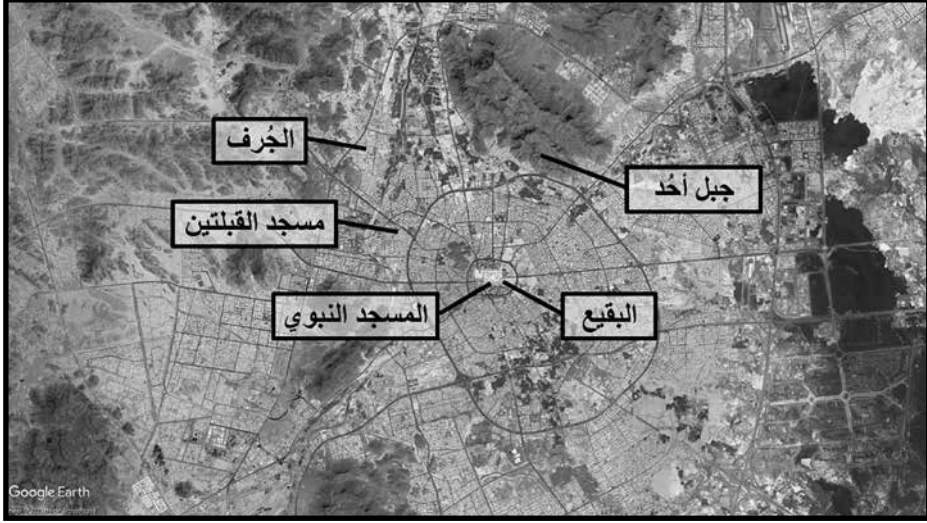
٣. ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج ٤، ص ٣٤٣.

بَعثُ أُسَامَةَ

«صلى الله عليه وآله» بإنفاذ قوة عسكرية كبيرة بقيادة أسامة بن زيد بن حارثة الشهيد بمؤتة، للتوجه نحو التخوم الشمالية للجزيرة العربية، ومن ثم إلى الشام، إلا أن أمر النبي «صلى الله عليه وآله» لم يُنفذ كما أراد، حيث ماطل عدد ملحوظ وبينهم أسماء بارزة ممن شملهم الأمر في الخروج أكثر من مرة كما تشير إلى ذلك الروايات، حتى خرج رسول الله «صلى الله عليه وآله» بنفسه وهو في مرض الموت ليؤكد عليهم ضرورة الخروج وتنفيذ الأمر، وهو الأعم بمصلحة الأمة، وأن خروجهم لا يتعارض مع مرضه الذي قد يؤدي إلى وفاته... ومع هذا وقع التردد والتلكؤ من جديد، حتى من قبل أمير الجيش الذي تكرّر منه الخروج إلى المعسكر، ثم العودة إلى المدينة المنورة من جديد، وفي كل مرة يأمره النبي ويأمر الآخرين بالخروج وإنفاذ الجيش، واستمر الأمر هكذا إلى أن توفي النبي «صلى الله عليه وآله»، فعاد أسامة ومن معه إلى المدينة، ولم يخرجوا مرة أخرى إلا في بداية شهر ربيع الآخر، أي بعد وفاة النبي «صلى الله عليه وآله» بشهر تقريباً، وبعد أن تمرد بعض أهل الجزيرة العربية أو ارتدّوا.

وحينئذ، لم يخرج أبوبكر مع أسامة ولا عمر، وإن كانا ضمن جيشه على عهد رسول الله «صلى الله عليه وآله»، أما أبوبكر فقد أصبح الحاكم، بينما لعدم خروج عمر قصة ستأتي معنا لاحقاً.

وسأستعرض فيما يلي أحداث بعث أسامة ضمن عدة روايات ومن مصادر مختلفة، ثم أقارن معها قصة سيف بن عمر التميمي الذي حرّفها وتلاعب بأحداثها وتفصيلها كما شاء.



موقع الجُرف من المدينة المنورة

جاء في السيرة النبوية لابن هشام وتحت عنوان (بعث أسامة بن زيد إلى أرض فلسطين) وذلك بعد الحديث عن حجة الوداع: (قال ابن إسحاق: ثم قفل رسول الله «صلى الله عليه وآله»، فأقام بالمدينة بقية ذي الحجة والمحرم وصفر، وضرب على الناس بَعَثاً إلى الشام، وأمر عليهم أسامة بن زيد بن حارثة مولاه، وأمره أن يوطيء الخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين، فتجهّز الناس، وأوعب مع أسامة بن زيد المهاجرون الأوّلون)^(١).

وقد جاء في معجم البلدان لياقوت الحموي^(٢): (داروما إحدى مدن قوم لوط بفلسطين ولعلها الداروم المذكورة بعد هذه) ثم ذكر الداروم كالتالي: (الداروم قلعة بعد غزة للقاصد إلى مصر الواقف فيها يرى البحر إلا أن بينها

١. ابن هشام: السيرة النبوية، ج ٢، ص ٦٠٦.

٢. الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٤٢٤.

وبين البحر مقدار فرسخ)، فإذا قلنا أن المقصد هو البلقاء حيث المحافظة اليوم، فسيكون المراد هو داروما، لأنها القريبة من موقع قوم النبي لوط «عليه السلام» كما بيّنت ذلك في كتابي (أبو الأنبياء)، وإن كان المقصد مؤتة، فداروم الواقعة بعد غزة باتجاه مصر هي المقصودة.

ثم عاد ابن هشام بعد ذكر جملة من الغزوات والبعوث فقال تحت عنوان: (بعث أسامة بن زيد إلى أرض فلسطين، وهو آخر البعث): (قال ابن إسحاق: وبعث رسول الله «صلى الله عليه وآله» أسامة بن زيد بن حارثة إلى الشام، وأمره أن يوطئ الخيل تخوم البلقاء والداروم، من أرض فلسطين، فتجهّز الناس، وأوعب مع أسامة المهاجرون الأوّلون. قال ابن هشام: وهو آخر بعث بعثه رسول الله «صلى الله عليه وآله»^(١)).

ولا يخفى ما في قوله: (وأوعب مع أسامة المهاجرون الأوّلون) من دلالة على تدبير نبوي يتوافق مع ما يُذكر من أن ذلك جاء منه لإخلاء الجوّ للإمام علي «عليه السلام» في المدينة المنورة بعد وفاته، كي تستقيم له الأمور دون منافسه له من المهاجرين الأوّلين ممن قد يكون لهم طموح في أن يستلموا زمام الأمور في تلك المرحلة الحساسة والمفصليّة.

ولعلّ هذا بحدّ ذاته يبيّن لنا شدّة حساسيّة النبي «صلى الله عليه وآله» في توجيهاته وأمره المتكرر بإنفاذ جيش أسامة وعدم انتظار ما سيصير إليه أمر المرض الذي ألمّ به في أيّامه الأخيرة «صلى الله عليه وآله»، وعدم استجابة البعض لتلك التوجيهات والأوامر، والمماطلة إلى أن توفي رسول الله.

١. ابن هشام: السيرة النبوية، ج٢، ص ٦٤١-٦٤٢.

ثم ذكر ابن هشام بعد ذلك تحت عنوان (ابتداء شكوى رسول الله «صلى الله عليه وآله»، بدء الشكوى): (قال ابن إسحاق: فبينما الناس على ذلك، ابتدئ رسول الله «صلى الله عليه وآله» بشكواه الذي قبضه الله فيه، إلى ما أراد به من كرامته ورحمته، في ليال بقين من صفر، أو في أول شهر ربيع الأول، فكان أول ما ابتدئ به من ذلك، فيما ذكر لي، أنه خرج إلى بقيع الغرقد، من جوف الليل، فاستغفر لهم، ثم رجع إلى أهله، فلما أصبح ابتدئ بوجعه من يومه ذلك.

قال ابن إسحاق: وحدثني عبد الله بن عمر، عن عبيد بن جبير، مولى الحكم بن أبي العاص، عن عبد الله بن عمرو بن العاص، عن أبي مويهبة^(١)، مولى رسول الله «صلى الله عليه وآله» قال: بعثني رسول الله «صلى الله عليه وآله» من جوف الليل، فقال: يا أبا مويهبة، إني قد أمرت أن أستغفر لأهل هذا البقيع، فانطلق معي، فانطلقت معه، فلما وقف بين أظهرهم، قال: السلام عليكم يا أهل المقابر، ليهنئ لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم، يتبع آخرها أولها، الآخرة شر من الأولى، ثم أقبل عليّ، فقال: يا أبا مويهبة، إني قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها، ثم الجنة، فخيرت بين ذلك وبين لقاء ربي والجنة. قال: فقلت: بأبي أنت وأمي، فخذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها، ثم الجنة. قال: لا والله يا أبا

١. أبو مويهبة، اشتراه النبي «صلى الله عليه وآله» ثم أعتقه، وكان على عهد النبي يقود بغير أم المؤمنين عائشة، ووصفته بأنه كان رجلاً صالحاً. وقال البلاذري أنه كان من مؤيدي مزيّنة، وشهد غزوه المريسيع. وكانت قبيلة مزيّنة تتخذ منازلها قريباً من المدينة على الطريق الممتدة بينها وبين مكة المكرمة.

مويهبة، لقد اخترت لقاء ربي والجنة. ثم استغفر لأهل البقيع، ثم انصرف، فبدأ برسول الله «صلى الله عليه وآله» وجعه الذي قبضه الله فيه^(١).

ثم تحدث ابن هشام عن انتقال النبي «صلى الله عليه وآله» لبيت أم المؤمنين عائشة في مرضه، وتناول في عدة صفحات أسماء وأحوال أزواجه، ثم عاد لتتمة وصف الأحداث، فقال تحت عنوان (تمريض رسول الله في بيت عائشة. مجيئه إلى بيت عائشة): (قال ابن إسحاق: حدثني يعقوب بن عتبة، عن محمد بن مسلم الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، عن عائشة زوج النبي «صلى الله عليه وآله» قالت: فخرج رسول الله «صلى الله عليه وآله» يمشي بين رجلين من أهله: أحدهما الفضل بن العباس، ورجل آخر، عاصباً رأسه، تخط قدماه، حتى دخل بيتي. قال عبيد الله، فحدثت هذا الحديث عبد الله بن العباس، فقال: هل تدري من الرجل الآخر؟ قال: قلت: لا؟ قال: علي بن أبي طالب^(٢)).

ثم قال تحت عنوان (شدة المرض وصب الماء عليه): (ثم غمر^(٣) رسول الله «صلى الله عليه وآله» واشتد به وجعه، فقال: أهريقوا عليّ سبع قرب من آبار شتى، حتى أخرج إلى الناس فأعهد إليهم. قالت: فأقعدها في مخضب^(٤) لحفصة بنت عمر، ثم صببنا عليه الماء حتى طفق يقول: حسبكم حسبكم^(٥)).

١. ابن هشام: السيرة النبوية، ج ٢، ص ٦٤٢.

٢. ابن هشام: السيرة النبوية، ج ٢، ص ٦٤٩.

٣. اشتد به المرض والألم.

٤. الإجانة تغسل فيها الثياب.

٥. ابن هشام: السيرة النبوية، ج ٢، ص ٦٤٩.

ثم انتقل لاحقاً لعنوان (أمر الرسول بإنفاذ بعث أسامة) فقال: (وقال ابن إسحاق: وحدثني محمد بن جعفر بن الزبير، عن عروة بن الزبير وغيره من العلماء، أن رسول الله «صلى الله عليه وآله» استبطناً الناس في بعث أسامة بن زيد، وهو في وجعه، فخرج عاصباً رأسه حتى جلس على المنبر، وقد كان الناس قالوا في إمرة أسامة: أمر غلاماً حدثاً على جلة المهاجرين والأنصار) دلالة هذه الكلمات تتناغم مع مخاوف النبي التي عبر عنها من قبل وهو في بقيع الغرقد حيث قال: «ليهنئ لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم، يتبع آخرها أولها، الآخرة شر من الأولى» (فحمد الله وأثنى عليه بما هو له أهل، ثم قال: أيها الناس، أنفذوا بعث أسامة، فلعمري لئن قلتم في إمارته لقد قلتم في إمارة أبيه من قبله، وإنه لخليق للإمارة، وإن كان أبوه لخليقاً لها. قال: ثم نزل رسول الله «صلى الله عليه وآله»، وانكمش الناس في جهازهم^(١) واستعز^(٢) برسول الله «صلى الله عليه وآله» وجعه، فخرج أسامة، وخرج جيشه معه حتى نزلوا الجرف، من المدينة على فرسخ^(٣) فضرب به عسكره، وتنام إليه الناس، وثقل رسول الله «صلى الله عليه وآله»، فأقام أسامة والناس لينظروا ما الله قاض في رسول الله «صلى الله عليه وآله»^(٤).

وبعد الحديث عن بعض أحوال النبي ومعالجته في تلك الظروف ذكر ابن هشام تحت عنوان: (دعاء الرسول لأسامة بالإشارة) قائلاً: (قال ابن إسحاق:

١. أي أسرعوا فيه.

٢. أي اشتد.

٣. قرابة ٥, ٥ كم.

٤. ابن هشام: السيرة النبوية، ج ٢، ص ٦٥٠.

بَعَثَ أُسَامَةُ

وحدَّثني سعيد بن عبيد بن السباق، عن محمد بن أسامة، عن أبيه أسامة بن زيد، قال: لما ثقل رسول الله «صلى الله عليه وآله» هبطت وهبط الناس معي إلى المدينة، فدخلت على رسول الله «صلى الله عليه وآله»، وقد أصمت فلا يتكلم، فجعل يرفع يده إلى السماء ثم يضعها عليّ، فأعرف أنه يدعولي^(١).

ثم توفي رسول الله «صلى الله عليه وآله» بعد ذلك، في يوم الإثنين، ولم يتحرك الجيش باتجاه البلقاء، بل إنَّ مَن كان يُفترض به أن يكون في المعسكر في الجُرف قد تخلّف عنه. قال الطبري في تاريخه^(٢): (توفي رسول الله «صلى الله عليه وآله» وأبو بكر في السُّنح، وعمر حاضر) أي في المدينة.

والسُّنح موضع بحيّ العوالي، جنوب شرق المدينة المنورة على بُعد ٣ كم من المسجد النبوي الشريف تقريباً، فإذا أضفنا ٩ كم إلى الشمال حيث الجُرف فهذا يعني أن الخليفة أبا بكر كان على بعد ١٢ كم من حيث يجب أن يكون مع سائر المقاتلين.

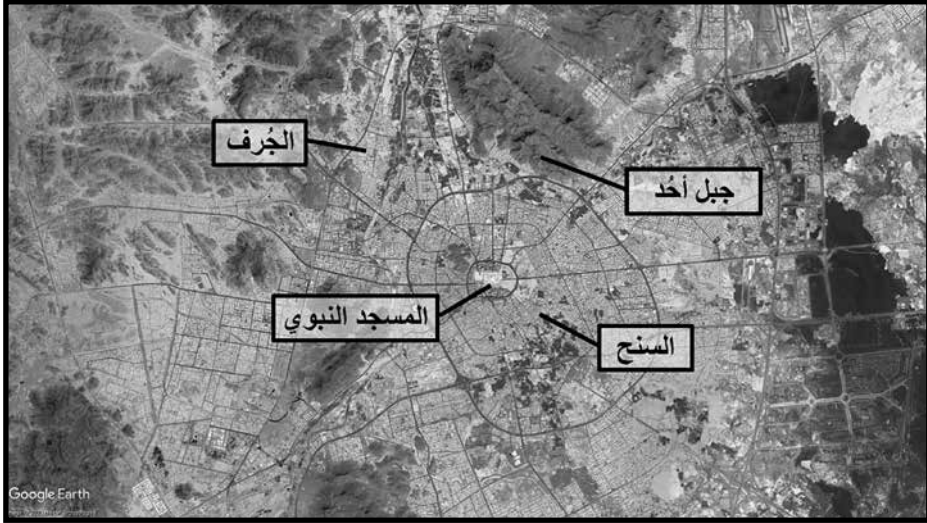
وفي صحيح البخاري (باب بعث النبي «صلى الله عليه وآله» أسامة بن زيد في مرضه الذي توفي فيه): (عن سالم، عن أبيه^(٣)): استعمل النبي «صلى الله عليه وسلم» أسامة، فقالوا فيه. فقال النبي «صلى الله عليه وسلم»: قد بلغني أنكم قلتم في أسامة، وإنه أحب الناس إلي^(٤). وعلّق ابن حجر في (فتح الباري شرح صحيح البخاري) على الحديث السابق بقوله: (إنما

١. ابن هشام: السيرة النبوية، ج ٢، ص ٦٥٢.

٢. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٢٣٢.

٣. أي عبد الله بن عمر بن الخطاب.

٤. البخاري: صحيح البخاري، ح ٤٤٦٨.



موقع المنح مقارنةً بالجُرف من المدينة المنورة

أخّر المصنف هذه الترجمة لما جاء أنه كان تجهيز أسامة يوم السبت قبل موت النبي «صلى الله عليه وآله» بيومين، وكان ابتداء ذلك قبل مرض النبي «صلى الله عليه وآله»، فتدب الناس لغزو الروم في آخر صفر، ودعا أسامة فقال: سر إلى موضع مقتل أبيك، فأوطئهم الخيل، فقد وليتك هذا الجيش، وأغر صباحاً على أبنى وحرّق عليهم^(١) وأسرع المسير تسبق الخبر^(٢) فإن ظفرك الله بهم، فأقلّ اللبث فيهم. فبدأ برسول الله «صلى الله عليه وآله» وجعه في اليوم الثالث، فعقد لأسامة لواءً بيده، فأخذ أسامة فدفعه إلى بريدة، وعسكر بالجُرف، وكان ممن انتدب مع أسامة كبار المهاجرين والأنصار، منهم

١. لا يتناسب هذا حتماً مع تعاليم النبي «صلى الله عليه وآله».

٢. أي فلتكن عودتك بحيث أنك تصل قبل أن يصل مبعوثك بخبر الغزوة، وهو تعبير كنائي عن سرعة العودة خوفاً من لحاق جيش الروم بهم.

بَعَثَ أُسَامَةَ

أبو بكر وعمر وأبو عبيدة وسعد^(١) وسعيد^(٢) وقتادة بن النعمان^(٣) وسلمة بن أسلم^(٤)، فتكلم في ذلك قومٌ، منهم عياش بن أبي ربيعة المخزومي^(٥)، فردّ عليه عمر، وأخبر النبي «صلى الله عليه وآله»، فخطب بما ذكر في هذا الحديث، ثم اشتدّ برسول الله «صلى الله عليه وآله» وجعه، فقال: أنفذوا بعث أسامة. فجّهزه أبو بكر بعد أن استخلف، فسار عشرين ليلة إلى الجهة التي أمر بها وقتل قاتل أبيه، ورجع بالجيش سالماً، وقد غنموا. وعند الواقدي أيضاً أن عدّة ذلك الجيش كانت ثلاثة آلاف، فيهم سبعمئة من قريش، وفيه عن أبي هريرة كانت عدّة الجيش سبعمئة^(٦).

١. سعد بن أبي وقاص.

٢. سعيد بن زيد القرشي العدوي (ت ٥١ هـ) من السابقين الأولين إلى الإسلام، كان أبوه زيد من الأحناف في الجاهلية؛ وهو ابن عم عمر بن الخطاب، وأخته عاتكة بنت زيد زوجة عمر، وزوجته فاطمة بنت الخطاب هي أخت عمر.

٣. قتادة بن النعمان الأوسي (ت ٢٣ هـ) هو أخو أبي سعيد الخدري لأمه. بايع بيعة العقبة الثانية، وشهد معه المشاهد كلها، وكان فيها من الرماة، ويوم فتح مكة، كانت راية بني ظفر الأوسيين معه.

٤. سلمة بن أسلم بن حريش من بني حارثة بن الحارث من الأوس (ت ١٤ هـ)، شهد مع النبي المشاهد كلها. شارك في الفتح الإسلامي للعراق، واستشهد في معركة الجسر.

٥. عياش بن أبي ربيعة المخزومي، هو أخو أبي جهل لأمه، أسلم قديماً، هاجر إلى الحبشة كما هاجر إلى المدينة مع عمر بن الخطاب. وروي أنه خرج أبو جهل والحارث بن هشام إلى عياش بن أبي ربيعة وكان ابن عمهما وأخاهما لأمهاتهما حتى قدما علينا المدينة ورسول الله بمكة، فكلماه وقالوا: إن أمك قد نذرت أن لا يمس رأسها مشط حتى تراك، ولا تستظل من شمس حتى تراك. فرق لها، فخرج معهما، فلما استووا بالأرض عدوا عليه فأوثقاه وربطاه ثم دخلا به مكة. وفي رواية أن النبي قتلت شهراً يدعو للمستضعفين بمكة، ويسمّي منهم الوليد بن الوليد، وسلمة بن هشام، وعياش بن أبي ربيعة. ثم أفلت عياش بعد ذلك فقدم المدينة.

٦. ابن حجر: فتح الباري، ج ٨، ص ١٥٢.

جاء في معجم البلدان تحت عنوان (أُبنَى): (موضع بالشام من جهة البلقاء، جاء ذكره في قول النبي «صلى الله عليه وآله» لأسامة ابن زيد حيث أمره بالمسير إلى الشام وشن الغارة على أُبنَى. وفي كتاب نصر: أُبنَى قرية بمؤتة)^(١). وعلى هذا فإن مقصد جيش أسامة لم يكن شمال البحر الميت وعمّان حيث محافظة البلقاء حالياً، بل إلى الجنوب من ذلك.

قال محمد بن سعد في موسوعته (الطبقات الكبرى) حول بعث أسامة: (قالوا لما كان يوم الاثنين لأربع ليال بقين من صفر سنة إحدى عشرة من مهاجر رسول الله «صلى الله عليه وآله» أمر رسول الله «صلى الله عليه وآله» الناس بالتهيؤ لغزو الروم، فلما كان من الغد دعا أسامة بن زيد فقال: سر إلى موضع مقتل أبيك فأوطئهم الخيل، فقد وليتكم هذا الجيش، فأغر صباحاً على أهل أُبنَى، وحرّق عليهم، وأسرع السير تسبق الأخبار، فإن ظفرك الله فأقلل اللبث فيهم، وخذ معك الأدلاء وقدم العيون والطلائع أمامك. فلما كان يوم الأربعاء بُدِيَ برسول الله «صلى الله عليه وآله» فحُمَّ وصدّع، فلما أصبح يوم الخميس عقد لأسامة لواءً بيده^(٢) ثم قال: اغزُ بسم الله في سبيل الله فقاتل من كفر بالله. فخرج بلوائه معقوداً، فدفعه إلى بريدة بن الحصيبي الأسلمي، وعسكر بالجرف، فلم يبق أحد من وجوه المهاجرين الأولين والأنصار إلا انتدب في تلك الغزوة، فيهم أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح وسعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد وقتادة بن النعمان وسلمة بن أسلم بن حريش، فتكلم قوم وقالوا: يستعمل هذا الغلام على المهاجرين الأولين؟ فغضب رسول

١. الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٧٩.

٢. بحسب ابن حجر كان ذلك يوم السبت.

بَعَثَ أُسَامَةَ

اللَّهُ «صلى الله عليه وآله» غضباً شديداً، فخرج وقد عصَّب على رأسه عصابة وعليه قطيفة، فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد أيها الناس، فما مقالة بلغتني عن بعضكم في تأميري أسامة؟ ولئن طعنتم في إمارتي أسامة لقد طعنتم في إمارتي أباه من قبله، وأيم الله إن كان للإمارة لخليقاً، وإنَّ ابنه من بعده لخليق للإمارة، وإن كان لمن أحبَّ الناس إليَّ، وإنهما لمخيلان لكل خير^(١) واستوصوا به خيراً، فإنه من خياركم. ثم نزل فدخل بيته وذلك يوم السبت لعشر خلون من ربيع الأول. وجاء المسلمون الذين يخرجون مع أسامة يودِّعون رسول الله «صلى الله عليه وآله» إلى المعسكر بالجُرف، وثقل رسول الله «صلى الله عليه وآله» فجعل يقول: أنفذوا بعث أسامة.

فلما كان يوم الأحد، اشتدَّ برسول الله «صلى الله عليه وآله» وجعه فدخل أسامة من معسكره والنبي مغمور^(٢) وهو اليوم الذي لدَّوه فيه، فطأطأ أسامة فقبَّله ورسول الله «صلى الله عليه وآله» لا يتكلَّم، فجعل يرفع يديه إلى السماء ثم يضعهما على أسامة. قال: فعرفت أنه يدعولي.

ورجع أسامة إلى معسكره ثم دخل يوم الإثنين وأصبح رسول الله «صلى الله عليه وآله» مفيقاً صلوات الله عليه وبركاته، فقال له: اغدُ على بركة الله، فودَّعه أسامة وخرج إلى معسكره^(٣) فأمر الناس بالرحيل، فبينما هو يريد الركوب إذا رسول أمِّه أمَّ أيمن قد جاءه يقول: إن رسول الله يموت.

١. أي: يُتوسَّم الخير فيهما.

٢. أي: مُغمى عليه.

٣. هنا يوجد تهافت بين هذه العبارة وبين سابقتها التي تدلُّ على أن أسامة رجع إلى المعسكر في اليوم السابق، فما الذي عاد به من جديد إلى النبي؟

فَأَقْبَلَ وَأَقْبَلَ مَعَهُ عُمَرُ وَأَبُو عُبَيْدَةَ فَانْتَهَوْا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ «صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ» وَهُوَ يَمُوتُ فَتَوَيْفٍ «صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَاةً يُحِبُّهَا وَيَرْضَاهَا» حِينَ زَاغَتِ الشَّمْسُ يَوْمَ الْإِثْنَيْنِ لِاثْنَتَيْ عَشْرَةَ لَيْلَةً خَلَّتْ مِنْ شَهْرِ رَبِيعِ الْأَوَّلِ^(١) وَدَخَلَ الْمُسْلِمُونَ الَّذِينَ عَسَكُرُوا بِالْجُرْفِ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَدَخَلَ بَرِيدَةُ بْنُ الْحَصِيبِ بِلَوَاءِ أَسَامَةِ مَعْقُوداً حَتَّى أَتَى بِهِ بَابَ رَسُولِ اللَّهِ «صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ» فَغَرَزَهُ عِنْدَهُ.

فَلَمَّا بَوَّعَ لِأَبِي بَكْرٍ أَمْرَ بَرِيدَةَ بْنُ الْحَصِيبِ بِاللَّوَاءِ إِلَى بَيْتِ أَسَامَةِ لِيَمْضِيَ لَوَجْهَهُ، فَمَضَى بِهِ بَرِيدَةُ إِلَى مَعَسِكَرِهِمُ الْأَوَّلِ، فَلَمَّا ارْتَدَّتِ الْعَرَبُ كُلُّمُ أَبُو بَكْرٍ فِي حَبْسِ أَسَامَةِ فَأَبَى، وَكَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ أَسَامَةَ فِي عُمَرُ أَنْ يَأْذِنَ لَهُ فِي التَّخَلُّفِ فَفَعَلَ، فَلَمَّا كَانَ هَالَالُ شَهْرِ رَبِيعِ الْآخِرِ سَنَةِ إِحْدَى عَشْرَةَ، خَرَجَ أَسَامَةُ فَسَارَ إِلَى أَهْلِ أُنْبَى عَشْرِينَ لَيْلَةً، فَشَنَّ عَلَيْهِمُ الْغَارَةَ، وَكَانَ شَعَارُهُمْ: يَا مَنْصُورُ أُمّت. فَقَتَلَ مَنْ أَشْرَفَ لَهُ، وَسَبَى مَنْ قَدَّرَ عَلَيْهِ، وَحَرَّقَ فِي طَوَائِفِهَا بِالنَّارِ، وَحَرَّقَ مَنَازِلَهُمْ وَحَرُوثَهُمْ وَنَخْلَهُمْ، فَصَارَتْ أَعَاصِيرُ مِنَ الدَّخَاخِينِ، وَأَجَالُ الْخَيْلِ فِي عَرَصَاتِهِمْ، وَأَقَامُوا يَوْمَهُمْ ذَلِكَ فِي تَعَبَةٍ مَا أَصَابُوا مِنَ الْغَنَائِمِ. وَكَانَ أَسَامَةُ عَلَى فَرَسٍ أَبِيهِ سُبْحَةَ، وَقَتَلَ قَاتِلَ أَبِيهِ فِي الْغَارَةِ، وَأَسْهَمَ لِلْفَرَسِ سَهْمَيْنِ، وَلصاحبه سهماً، وَأَخَذَ لِنَفْسِهِ مِثْلَ ذَلِكَ.

فَلَمَّا أَمْسَى أَمَرَ النَّاسَ بِالرَّحِيلِ، ثُمَّ أَغْذَّ السَّيْرَ فَوَرَدُوا وَادِيَ الْقَرْيَةِ فِي تِسْعِ لَيَالٍ، ثُمَّ بَعَثَ بِشِيراً إِلَى الْمَدِينَةِ يُخْبِرُ بِسَلَامَتِهِمْ. ثُمَّ قَصَدَ بَعْدُ فِي السَّيْرِ^(٢) فَسَارَ إِلَى الْمَدِينَةِ سَتاً، وَمَا أَصِيبَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَحَدٌ، وَخَرَجَ أَبُو بَكْرٍ فِي

١. وَهَذَا يُخَالِفُ رَوَايَاتٍ أُخْرَى تَذَكِّرُ أَنَّ الْوَفَاةَ كَانَتْ فِي نَهَايَةِ شَهْرِ صَفَرٍ .

٢. أَي: بِبَطْيَاءٍ .

بَعَثَ أَسَامَةَ

المهاجرين وأهل المدينة يتلقّونهم سروراً بسلامتهم، ودخل على فرس أبيه سُبحة، واللواء أمامه، يحمله بريدة بن الحصيْب، حتى انتهى إلى المسجد، فدخل فصلّى ركعتين، ثم انصرف إلى بيته. وبلغ هرقل وهو بحمص ما صنع أسامة، فبعث رابطة (قوة حراسة ثابتة) (يكونون بالبقاء، فلم تزل هناك حتى قدّمت البعوث إلى الشام في خلافة أبي بكر وعمر)^(١).

ولا نستطيع أن نقبل قوله: (فَقَتَلَ مَنْ أَشْرَفَ لَهُ، وَسَبَى مَنْ قَدَرَ عَلَيْهِ، وَحَرَّقَ فِي طَوَائِفِهَا بِالنَّارِ، وَحَرَّقَ مَنَازِلَهُمْ وَحُرُوثَهُمْ وَنَخْلَهُمْ، فَصَارَتْ أَعَاصِيرُ مِنَ الدَّخَاخِينَ، وَأَجَالُ الْخَيْلِ فِي عَرَصَاتِهِمْ، وَأَقَامُوا يَوْمَهُمْ ذَلِكَ فِي تَعَبَةٍ مَا أَصَابُوا مِنَ الْغَنَائِمِ) فهذه الصورة الوحشية لا تتناسب مع وصايا النبي «صلى الله عليه وآله» حين كان يُرسل المقاتلين في الأنحاء المختلفة.

عن علي «عليه السلام» أنه قال: (كان نبي الله «صلى الله عليه وآله» إذا بعث جيشاً من المسلمين إلى المشركين قال: انطلقوا باسم الله تقاتلون في سبيل الله من كفر بالله، لا تغدروا ولا تمثلوا ولا تغلوا، ولا تقتلوا وليداً طفلاً ولا امرأة ولا شيخاً كبيراً، ولا تغورن عيناً ولا تعقرن شجرة إلا شجراً يمنعكم قتالاً، أو يحجز بينكم وبين المشركين، ولا تمثلوا بأدمي ولا بهيمة، ولا تغدروا ولا تغلوا)^(٢). وفي هذا المعنى، في كتاب السنن الكبرى وغيره، روايات عديدة يعضد بعضها بعضاً، وقد التزم الخليفة أبو بكر بذلك، وطلب من أسامة تنفيذ تعليمات النبي «صلى الله عليه وآله» ولم يزد عليها شيئاً: (وقال الواقدي: فقال: انفذ يا

١. ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج ٢، ص ١٨٩.

٢. البيهقي: السنن الكبرى، ج ٩، ص ٩٠-٩١.

أبا محمد رحمك الله، واعمل بما كان رسول الله «صلى الله عليه وسلم» أمرك به. ولم يوصه بشيء»^(١).

كما أن أبا بكر حين ودّع بعض المقاتلين في إحدى الفتوحات أوصاهم بما يشبه ما كان يوصي به النبيُّ المقاتلين: (فقام في الجيوش فقال: أوصيكم بتقوى الله، لا تعصوا، ولا تغلوا، ولا تجتنوا، ولا تهدموا بيعة، ولا تعرقوا نخلاً، ولا تحرقوا زرعاً، ولا تحسروا بهيمة، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تقتلوا شيخاً كبيراً، ولا صبيّاً صغيراً..)^(٢).

وعلى العموم، فقد تلاعب سيف بن عمر بهذه القصة، ووضع على لسان الحسن البصري الذي لم يشهد الحدث رواية مفادها كما جاء في تاريخ الطبري ما يلي: (عن الحسن بن أبي الحسن البصري قال ضرب رسول الله «صلى الله عليه وسلم» قبل وفاته بعثاً على أهل المدينة ومن حولهم وفيهم عمر بن الخطاب، وأمر عليهم أسامة بن زيد، فلم يجاوز آخرهم الخندق^(٣) حتى قبض رسول الله «صلى الله عليه وسلم»، فوقف أسامة بالناس ثم قال لعمر: ارجع إلى خليفة رسول الله فاستأذنه يأذن لي أن أرجع بالناس، فإنّ معي وجوه الناس وحدهم، ولا آمن على خليفة رسول الله وثقل رسول الله وأثقال المسلمين^(٤) أن يتخطّفهم المشركون^(٥)) وقالت الأنصار: فإنّ أبا إلا أن نمضي

١. البلاذري: أنساب الأشراف، ج ١، ص ٤٧٥.

٢. ابن منظور: مختصر تاريخ دمشق، ج ٨، ص ٣٧.

٣. الخندق لا يبعد عن المسجد النبوي إلا ٥,٥ كم تقريباً.

٤. أي: أهلهم وذرايرهم.

٥. وكأنّ أبا بكر قد صار خليفة بصورة تلقائية بعد وفاة النبي مباشرة، أو علم ذلك قبل وقوعه، ولا وجود للسقيفة وأحداثها.

فأبلغه عَنَّا، واطلب إليه أن يُولِّي أمرنا رجلاً أقدم سنأ من أسامة. فخرج عمر بأمر أسامة، وأتى أبا بكر فأخبره بما قال أسامة، فقال أبو بكر: لو خطفتني الكلاب والذئاب لم أَرَدَّ قضاءً قضى به رسول الله «صلى الله عليه وآله». قال: فإنَّ الأنصار أمروني أن أبلغك وأنهم يطلبون إليك أن تولي أمرهم رجلاً أقدم سنأ من أسامة. فوثب أبو بكر وكان جالساً فأخذ بلحية عمر فقال له: ثكلتك أمك وعدمتك يا ابن الخطاب، استعمله رسول الله «صلى الله عليه وسلم» وتأمروني أن أنزعه؟ فخرج عمر إلى الناس فقالوا له: ما صنعت؟ فقال: امضوا ثكلتكم أمهاتكم، ما لقيت في سبيكم من خليفة رسول الله. ثم خرج أبو بكر حتى أتاهم فأشخصهم وشيَّعهم وهو ماش وأسامه راكب، وعبد الرحمن بن عوف يقود دابةً أبي بكر^(١).

ومفاد رواية سيف الموضوعة أنه لم يكن هناك تسويق ولا مماطلة من قبل المعسكرين في الجُرف، وأن أسامة ما أن بلغه نبأ وفاة النبي حتى وقف وأرسل إلى خليفة رسول الله يستأذنه الرجوع، كأنَّ خلافة أبي بكر للنبي كانت معلومة منذ عصر رسول الله «صلى الله عليه وآله»!

كما وأنه ذكر أن خصوص الأنصار هم من لم يرغبوا في قيادة أسامة للجيش، وطلبوا تبديله بغيره، بينما سائر الروايات لا تشير إليهم، بل إن ذكر المخزومي في إحداها يشير إلى أن الطاعنين فيه من قريش بحسب الظاهر، لاسيما بلحاظ ما جاء في رواية ابن سعد وغيره أنهم قالوا: (يستعمل هذا الغلام على المهاجرين الأولين؟) ولو كانوا من الأنصار لقالوا مثلاً: (يستعمل

١. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٤٦٢-٤٦٣.

هذا الغلام على من آوى ونصر؟). ونحن نعلم أن سيف بن عمر كان يسعى دائماً من خلال رواياته الموضوعية أن يقلب الأحداث، وأن يروي ما يُناسب الأمويين القرشيين ويخالف خصومهم من الأنصار، وهي العلاقة السلبية التي انعكست بصور مختلفة خلال تاريخ حكم الأمويين، ومن ذلك ما يعكسه الخبر التالي.

فقد روى الزبير بن بكار في كتابه أخبار الموفقيات عن عبدالرحمن بن يزيد قال: (قَدِمَ علينا سليمان بن عبد الملك حاجاً سنة اثنتين وثمانين، وهو ولي عهد، فمرَّ بالمدينة، فدخل عليه الناس، فسلموا عليه، وركب إلى مشاهد النبي «صلى الله عليه وسلم» التي صلى فيها، وحيث أصيب أصحابه بأحد، ومعه أبان بن عثمان، وعمرو بن عثمان وأبو بكر بن عبد الله بن أبي أحمد، فأتوا به قباء، ومسجد الفضيخ، ومَشْرَبَة أم إبراهيم، وأحد، وكل ذلك يسألهم، ويخبرونه عما كان، ثم أمر أبان بن عثمان أن يكتب له سير النبي «صلى الله عليه وسلم» ومغازيه، فقال أبان: هي عندي، قد أخذتها مصححة ممن أثق به، فأمر بنسخها وألقى فيها إلى عشرة من الكتاب، فكتبوها في رقٍّ، فلما صارت إليه نظر فإذا فيها ذكر الأنصار في العقبين، وذكر الأنصار في بدر، فقال: ما كنت أرى لهؤلاء القوم هذا الفضل، فإما أن يكون أهل بيتي غمصوا عليهم، وإما أن يكونوا ليس هكذا، فقال أبان بن عثمان: أيها الأمير، لا يمنعنا ما صنعوا بالشهيد المظلوم من خذلانه، إن القول بالحق: هم على ما وصفنا لك في كتابنا هذا، قال: ما حاجتي إلى أن انسخ ذاك حتى أذكره لأُمير المؤمنين، لعله يخالفه، فأمر بذلك الكتاب فحُرق، وقال: أسأل أمير المؤمنين

إذا رجعت، فإن يوافقه فما أيسر نسخه، فرجع سليمان بن عبد الملك فأخبر أباه بالذي كان من قول أبان، فقال عبد الملك: وما حاجتك أن تقدم بكتاب ليس لنا فيه فضل، تُعرِّف أهل الشام أموراً لا نريد أن يعرفوها، قال سليمان: فذلك يا أمير المؤمنين أمرتُ بتخريق ما كنت نسخته حتى استطلع رأي أمير المؤمنين. فصوّب رأيّه، وكان عبد الملك يثقل عليه ذلك، ثم إن سليمان جلس مع قبيصة بن ذؤيب، فأخبره خبر أبان بن عثمان، وما نسخ من تلك الكتب، وما خالف أمير المؤمنين فيها... فقال سليمان: يا أبا إسحاق، ألا تخبرني عن هذا البغض من أمير المؤمنين وأهل بيته لهذا الحي من الأنصار وحرمانهم إياهم لم كان؟ فقال: يا ابن أخي أول من أحدث ذلك معاوية بن أبي سفيان، ثم أحدثه أبو عبد الملك، ثم أحدثه أبوك، فقال: علام ذلك؟ قال: فوالله ما أريد به إلا لأعلمه وأعرفه؛ فقال: لأنهم قتلوا قوماً من قومهم، وما كان من خذلانهم عثمان «رضي الله عنه» فحقدوه عليهم، وحنقوه وتوارثوه....^(١).

١. عطوان: رواية الشاميين المغازي والسري في القرنين الأول والثاني الهجريين، ص ١٢-٢٥.

أوضاع دولة الروم

أوضاع دولة الروم

بعد بَعث أسامة والذي استغرق ٤٠ ليلة تقريباً، من بداية ربيع الثاني إلى جمادى الأولى سنة ١١ هـ، انشغل المسلمون في (حروب الردّة) التي وقعت في أنحاء متفرقة داخل الجزيرة العربية، مع التأكيد على تخطئة الصورة التهويلية والمضخّمة لهذه الحروب والتي جاءت بتأثير مباشر من روايات سيف بن عمر كما بيّنت في كتابي (حروب الردّة.. الحقيقة والأساطير).

ولا شك في أن بعض حالات التمرد والردّة التي وقعت خلال هذه الفترة جاءت بتحريض من القوّتين العظميين، فارس والروم، وعلى ذلك شواهد ستمّر معنا تدريجياً، وهو دأب القوى العظمى كما نعيشه في هذه الأيام، حيث تتجنّب التورّط المباشر في مواجهة خصومها، أو مَنْ تخاف شأنهم، وتدفع بحلفائها أو مَنْ تربطهم معها مصالح تجارية أو أمنية أو سياسية أو عسكرية، لكي يقوموا بهذا الدور بالنيابة عنها. وقد ذكر الكلاعي البلسني أنه: (لما ارتدّت العرب بعد وفاة رسول الله «صلى الله عليه وآله» قال صاحب المدائن^(١) مَنْ يكفيني أمر العرب، فقد مات صاحبهم، وهم الآن يختلفون بينهم)^(٢).

١. أي : الحاكم الفارسي الساساني .

٢. الكلاعي: الاكتفا، ص ١٤٨.

وذكر أيضاً أنه أرسل أحد أبناء النعمان بن المنذر^(١) ومعه تسعمائة رجل من بكر بن وائل، فقاتلهم العلاء الحضرمي وأصحابه، كما استُمدَّ مرزبان^(٢) الخط - الواقعة حالياً ضمن منطقة القطيف - فأمدّه بالأساورة والزط والسباجة.

والأساورة قوم من العجم أسكنوا في نواح من جنوب العراق بالقرب من البصرة ثم استقروا في البصرة بعد تأسيسها ووالوا بني تميم. والزط من قبائل السند بباكستان ويُقال لهم الجت، وهم الذين يُعرفون بالفجر، وقد جلبوا من قبل الفُرس إلى نواحي من فارس والعراق وشرق الجزيرة العربية. أما السباجة فتقوم من السند أسكنوا أيضاً في نواح من جنوب العراق بالقرب من البصرة ثم استقروا في البصرة بعد تأسيسها، وعملوا حرساً للسجن ولأداء بعض مهام الأمن الداخلي.

وروى البيهقي: (قال خريم بن أوس بن حارثة بن لام: لم يكن أحد أعدى للعرب من هرمز، فلما فرغنا من مسيلمة وأصحابه، أقبل إلى ناحية البصرة، فلقينا هرمز بكاظمة في جمع عظيم...) (٣).

١. النعمان بن المنذر بن المنذر بن امرئ القيس اللخمي، الملقب بأبي قابوس (٥٨٢-٦٠٩ م) كان مسيحياً نسطورياً، وكانت أمه يهودية من خيبر. تسلم مقاليد الحكم بعد أبيه، وهو من أشهر ملوك المناذرة قبل الإسلام.

٢. مرزبان كلمة فارسية الأصل مكوّنة من قسمين: مرز أي الحدود، وبان: أي حارس، وهو منصب كان يُطلق في الدولة الساسانية على أمراء المناطق التابعة لها أو تحت حمايتها خارج نطاق الدولة أو في المناطق الحدودية.

٣. البيهقي: السنن الكبرى، ح ١٢٥٧٠.

ولذا فقد أرادت هاتان الدولتان أن تُشغلا الدولة الإسلامية الفتية بشؤونها الداخلية الأمنية والسياسية والدينية وتضعفاها ولربما يتحقق لهما القضاء عليها من خلال ذلك، لاسيما بعد أن وصلتتهما من قبلُ رسائل النبي «صلى الله عليه وآله» التي تدعو كسرى وقيصر ومن يحالفهما إلى الإسلام، وهو ما يجرح كبرياءهما، كما وأنهما شاهدتا هذا النمو المتسارع للدولة جغرافياً داخل حدود شبه الجزيرة العربية وبأقل الخسائر، وفي فترة زمنية قياسية بالنسبة إلى الإمكانيات المادية والعسكرية التي تمّ توظيفها لتحقيق ذلك. بل إن هذه الدولة الفتية امتلكت من الجرأة شيئاً عظيماً بحيث أنها تُرسل قواتها العسكرية قليلة العدد إلى داخل حدود امبراطورية الروم البيزنطية - غزوة مؤتة - لتردّ اعتبارها ولتفرض هيبتها ولتكسر شوكة وجبروت جيش الروم وحلفائه، ولم يردّها عن مقصدها الهزيمة والخسارة التي لحقت بها في أولى تلك المواجهات في مؤتة، ليعود قائدها - النبي - فيقود بنفسه قوة عسكرية أكبر، ويفرض ويمدّد سلطانه وتحالفاته ومعاهداته على طول الحدود الشمالية لجزيرة العرب، بل وفي التخوم الجنوبية لإمبراطورية الروم.

ولم تكن هذه المرة الأولى التي تحاول فيها امبراطورية الروم البيزنطية إضعاف الدولة الإسلامية أو إسقاطها، فقد تحالفت من قبل مع مشركي قريش ومع يهود الجزيرة العربية ومع بعض المنافقين والقبائل العربية، واضطهدت بعض من دخل في الإسلام ممن طالتهم يدها، ولكن محاولاتها في تحقيق تلك الغايات باءت بالفشل، وجاءت على عكس ما تشتهي، والآن حيث توفى رسول

اللّه جاءت الفرصة الذهبية -بحسب تصوّرها- لتوجيه ضربتها من خلال أيادها في الجزيرة العربية.

كل هذا استدعى المواجهة والقتال ردّاً على العدوان، لتتوالى سلسلة المواجهات التي أدّت إلى سقوط دولة الفرس وانسحاب الروم من أراضي الشام وغيرها. كما أن جانباً من هذه الحروب كانت ردّاً على حالات من نقض الصلح القائم بين المسلمين وبين الأطراف الأخرى، وذلك من قبيل ما رواه قدامة بن جعفر في كتابه (الخراج وصناعة الكتابة) من أن مرزبان (مرو)، واسمه (ماهويه) قدم على أمير المؤمنين علي «عليه السلام» لما استُخلف وهو في الكوفة (فكتب له إلى الدهاقين والأساورة والدهشلارية^(١) أن يؤدّوا الجزية، ثم انتقضت خراسان، فلم تزل منتقضة حتى قُتل «رضوان الله عليه»^(٢)). وبقيت تنتقض من حين إلى آخر خلال العهد الأموي أيضاً.

كما أن بعض الأقاليم في أنحاء من فارس وأذربيجان وطبرستان وجدت في مقتل الخليفة عثمان ومجريات الأحداث التي أعقبت حكم الإمام علي «عليه السلام» الفرصة في الانتفاض والعصيان. وهذا يبيّن لنا مشروعية الفتوحات الإسلامية من حيث المبدأ وبغض النظر عن التفاصيل ومدى شمولية هذه المشروعية لكل الحروب التي خاضها المسلمون ضد الدول المختلفة في العهد اللاحق للعهد الراشدي، والتمدّد فيها بعنوان الفتوحات، وبغض النظر عن بعض الممارسات المخالفة التي كانت تقع أحياناً، فمثل هذه المخالفات لا

١. الدهشلارية، وفي الفارسية (دهسالاران) وهو لقب يُطلق على ملاك الأراضي الزراعية.

٢. البغدادى: الخراج وصناعة الكتابة، ص ٤٠٤.

تدفعنا إلى الحكم بعدم مشروعية الفتوحات ككل، وكل هذا يأتي دون الحاجة للبرهنة على مشروعية (الجهاد الابتدائي) وهو ما لم نجد عليه دليلاً قوياً من القرآن الكريم يمكن الركون إليه كما تبين من قبل، بل الدليل فيه قائم على خلافه، وإن قال به فقهاء وباحثون إسلاميون.

ولابد أن نأخذ بعين الاعتبار أن هذه الامبراطورية لم تكن في تلك الفترة بتلك القوة التي كانت عليها قبل عقود، فقد أنهكتها الحروب مع الفرس، والصراعات الداخلية، والمشكلات الاقتصادية والأمنية العديدة، ولذا فإنّ الدخول بنفسها في مواجهة مع الدولة الإسلامية قد يزيد من معاناتها، وقد يفتح ثغرة لخصومها التقليديين -الفرس- كي يوجّهوا ضربة يثأرون من خلالها لخسارتهم الأخيرة التي أشارت إليها سورة الروم حيث قال «تعالى»: ﴿الْم، غُلِبَتِ الرُّومُ، فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِّنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ، فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ، بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ، وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(١).

• حدود دولة الروم:

في القرن الرابع الميلادي، بدأ انقسام امبراطورية الروم إلى غربية وشرقية، ثم انهارت الإمبراطورية الرومانية الغربية حين قام الامبراطور الروماني الشرقي (زينون) والذي يتخذ من القسطنطينية عاصمة له بإلغائها رسمياً في ٤٨٠ م، ليكون المقصود بعد ذلك من الروم خصوص الامبراطورية

أوضاع دولة الروم

الشرقية البيزنطية، والتي انهارت نهائياً عندما سقطت القسطنطينية في أيدي العثمانيين بقيادة السلطان محمد الثاني عام ١٤٥٣.

وكانت أراضي بلاد الشام وفلسطين من ولايات الإمبراطورية البيزنطية التي تحكمها القسطنطينية، وفي سنة ١١هـ/٦٣٢م حيث توفي النبي، كان البيزنطيون يحكمون أيضاً الكثير من أراضي البلقان وجنوب إيطاليا وصقلية وشمال أفريقيا، وكان الروم الغربيون في البدء، ومن بعدهم البيزنطيون يحكمون الأراضي الواقعة شرق المتوسط (عموم الشام تقريباً ونواح من جنوب تركيا) على مدى ستمائة سنة دونما انقطاع.

وعندما انهارت الإمبراطورية الرومانية في الغرب وسقطت في خضم الفوضى خلال القرن الخامس الميلادي، استمر ازدهار الولايات الغنية على الشواطئ الشرقية والجنوبية للبحر المتوسط، واستمرت السلطات الإمبراطورية في القسطنطينية في جمع الضرائب والاحتفاظ بجيش نظامي وإرسال حكام ليحكموا الولايات. وبينما اضمحلت المدن في الغرب وصارت قرى، كانت مدن بلاد الشام لا تزال تتجمل بشوارع مستقيمة واسعة والأسواق والحمامات والكنائس. وفي كلٍّ من المدينة والريف، كان المشهد في بلاد الشام محكوماً بتراث ألف سنة من حكم النخب التي تتحدث اليونانية والتي تشرّبت التعليم والثقافة المستوردة. وبحلول القرن السادس الميلادي، على أية حال، كانت المسيحية ديانة الأغلبية في المدن والريف، وفي الجبال والصحراء، وكانت هناك جماعات يهودية لها حضورها الواضح، لاسيّما في فلسطين، كما بقيت أقاليم وبعض المناطق على الوثنية.



حدود امبراطورية الروم سنة ٦٠٠ م

• الدين والمذهب:

كذلك كانت المسيحية ديانة الامبراطورية الحاكمة، وكان هذا أمراً مهماً فيما يتعلق بشكل المجتمع، ولا بد أنه كان من المستحيل في القرن السادس لأي فرد غير مسيحي أن يتولّى منصباً حكومياً مهماً، بيد أن مسيحيي بلاد الشام لم يكونوا جماعة متجانسة إطلاقاً. ففي أثناء القرن السادس برزت اختلافات عميقة بين المجموعات المختلفة من النصارى، وكانت النقطة الأساسية في الموضوع ألوهية المسيح وتجسده: هل كان المسيح بشراً كاملاً وإلهاً تاماً في آن معاً، أم كانت له طبيعة إلهية واحدة فقط، وأن إنسانيته على الأرض تبدو فحسب مثل طبيعتنا البشرية؟ هذا النقاش اللاهوتي أثار عواطف وغضباً هائلاً لأنه عكس انقسامات أوسع في المجتمع. وعلى العموم

كانت النخب الحضرية الناطقة باليونانية تؤمن أن المسيح إله تام وإنسان تام، أي أنصار الطبعيتين Diophysits لأنه يؤمنون بطبعيتين للسيد المسيح، كما يُطلق عليهم اسم الخلقيدونيين نسبة إلى مجمع خلقيدونية الذي عُقد سنة ٤٥١م حيث تمّ تبني هذا المذهب للمرة الأولى، على حين كانت القرى المتحدثة بالآرامية وأديرة الريف ومضارب خيام المسيحيين العرب تؤمن بأن المسيح له طبيعة واحدة إلهية، ويُطلق عليهم المونوفيزيت Monophysites.

كذلك كانت هناك اختلافات مذهبية بين الأقاليم، فيبدو أن معظم المسيحيين في فلسطين كانوا من أتباع مذهب الطبعيتين، على حين يحتمل أنه كان هناك توازن بين الجماعتين في شمال الشام.

وحيث تعصّبت السلطات الإمبراطورية لمذهب الطبعيتين، فقد اعتبرت أنصار مذهب الطبيعة الواحدة مخالفين وهراطقة، واضطهدوهم بوحشية على فترات متقطّعة، وكان معنى هذا أن نسبة كبيرة ومهمّة من السكان المسيحيين في بلاد الشام كانوا مستبَعدين عن وظائف الحكومة الإمبراطورية أيضاً كصورة من صور الاضطهاد والتمييز، وهو ما دفع أهل الشام من المسيحيين -المنتمين للمذهب المضطهد- للتعاطف مع المسلمين في كثير من مشاهد الفتوحات، ومَرّت معنا شواهد عديدة على ذلك وستمرّ معنا مشاهد أخرى، وبعضها من مصادر سريانية معاصرة.

ومن أمثلة ذلك ما كتبه (مارمikhail السرياني الكبير/العظيم)، بطريرك أنطاكية اليعقوبي وأحد أهم بطاركة الكنيسة السريانية الأرثوذكسية في العصور الوسطى، والذي قادها في الفترة بين (١١٦٦ - ١١٩٩). اشتهر

خاصة بكتابه في التاريخ والذي يُعدّ أوسع سجل تاريخي باللغة السريانية مدوّن في القرن الثاني عشر الميلادي. في هذا الكتاب المدوّن باللغة السريانية يذكر ممارسات البيزنطيين التعسفية تجاه نصارى الشام اليعاقبة بسبب الخلاف المذهبي، إلى درجة اعتُبر فيها أن المسلمين جاءوا عقاباً ورحمة في آن واحد !

قال ما ترجمته إلى العربية: (فغضب هرقل وكتب الى كافة أنحاء المملكة يقول: كل مَنْ لا يقبل مجمع خلقدونية^(١) يُقطع أنفه وآذانه وينهب بيته. واستمرّ هذا الاضطهاد مدة غير يسيرة، فقبل العديد من الرهبان المجمع. وظهر غش رهبان جماعة مارون والمنبجيين^(٢) والحمصيين والمناطق الجنوبيّة. وهكذا قبل معظمهم المجمع واغتصبوا الكنائس والأديرة، ولم يسمح هرقل لأحد من الأرثوذكس بزيارته، ولم يقبل شكواهم بصدد اغتصاب كنائسهم. وإن الله إله النعمة الذي وحده له سلطان على كل شيء، وهو الذي يُغيّر الملك كما يشاء ويعطيه لمن يشاء، يُقيم عليه الضعفاء^(٣) إذ رأى خيانة الروم الذين كانوا ينهبون كنائسنا وأديرتنا كلما اشتدّ ساعدهم في الحكم، ويقاضوننا بلا رحمة، جاء من الجنوب بأبناء اسماعيل^(٤)، لكي يكون لنا الخلاص من أيدي الروم بواسطتهم. أما الكنائس التي كنا قد فقدناها باغتصاب الخلقدونيين إياها، فبقيت بيدهم، لأن العرب لدى دخولهم المدينة أبقوا لكل الطوائف ما

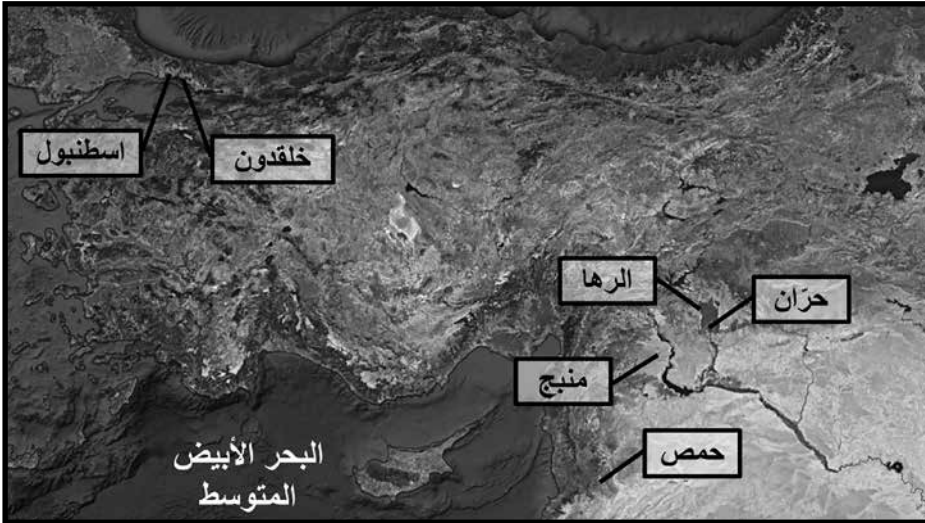
١. وهو الاجتماع الذي أشرت إليه قبل قليل وتم فيه اختيار مذهب نصراني واحد واعتبار

سائر المذاهب باطلة ومبتدعة ومرفوضة .

٢. نسبة إلى مدينة منبج في الشمال السوري.

٣. يقصد بهم المسلمون في بدايات ظهورهم .

٤. أي العرب المسلمون .



بعض المدن الوارد ذكرها في النص السابق

بحوزتها من الكنائس، وقد فقدنا كنيسة الرها وكنيسة حرّان، غير أن فائدتنا لم تكن يسيرة، حيث أننا تحرّرنا من خُبث الروم ومن شرّهم وبطشهم وحقدهم المرير علينا، وتمتّعنا بالطمأنينة^(١).

وذكر أيضاً أنه صدرت أوامر في هذه الفترة بوجوب إجبار جميع اليهود الذين في مملكته على التعميد المسيحي، وهو نوع من الغسل الارتماسي تطهيراً للجسد والروح وإعلاناً للدخول في المسيحية. فتنصّرت بذلك مجاميع من اليهود (وهرب قسم منهم من مناطق الروم. ولما ضيق عليهم الخناق، هربوا إلى فارس في حين أن كثيرين منهم اقتبلوا المعمودية وتنصّروا)^(٢).

١. مار ميخائيل: تاريخ مار ميخائيل السرياني الكبير، ج ٢، ص ١٤٦.

٢. مار ميخائيل: تاريخ مار ميخائيل السرياني الكبير، ج ٢، ص ٣٠٦.

وأضاف المؤرخ السرياني أن هرقل أطلق العنان لجيشه، فنهب وسلب القرى والمدن وكأنما هي منطقة الأعداء، فاغتصبوا ونهبوا كل ما وجدوه.

وبين أيدينا شاهد آخر توفي سنة ٦٦٧م، فهو بالتالي معاصر للأحداث، وهو (المار جبريل) مقدّم دير في (قرطمين) التي تقع في جبال جنوب شرق تركيا بالقرب من سهول الجزيرة، وكانت قرطمين معقل أولئك الذين رفضوا المسيحية البيزنطية، فقد اعتبر مار جبريل في ضمن كلامه أن قدوم الحكم الإسلامي فرصة وليس بمصيبة، إذ حكى كاتب سيرته ما يلي: (فضّل مار جبريل قدوم العرب على اضطهادات البيزنطيين، ولهذا قدّم لهم العون وساعدهم، وذهب فيما بعد إلى الجزيرة للقاء أميرهم الذي استقبله بكثير من الفرح وكرّمه كثيراً بسبب ما فعله لصالحهم، وقد أعطاه مرسوماً وقّعه بخطّ يده بأوامر لكل النقاط التي طلبها، وفي هذا المرسوم منح كافّة الأورثوذكس السريان حرية ممارسة عبادتهم وطقوسهم في كنائسهم، «السمانترا»^(١) واحتفالات المهرجان، ومواكب الجنازات وبناء الكنائس والأديرة، وأعطى من الجزية القساوسة والشمامسة والرهبان، وبينما ثبت قيمة الجزية بالنسبة للناس الآخرين عند أربعة دراهم «وهو مبلغ متواضع»، كما أنه أصدر تعليماته إلى العرب «الوثنيين»^(٢) !! بأن يهتموا كثيراً بالحفاظ على أرواح الأورثوذكس السريان)^(٣).

وعلق هيو كينيدي على هذا الكلام معتبراً أنه مؤشّر على أنّ المسيحيين

١. أي اللوح الخشبي الذي يُدقّ عليه في الكنائس الشرقية لجمع الناس إلى الصلاة.

٢. حيث لا يعترف بأن الإسلام دين توحيدي.

٣. كينيدي: الفتوح العربية الكبرى، ص ٤٨١.

الأورثوذكس السريان قد ساعدوا الفتح الإسلامي فعلاً، على عكس مَنْ وصفهم بأنهم مراقبون لا حول لهم ولا قوّة، وغير مرتبطين بأي جانب، وإن كان من غير الممكن معرفة مدى شيوع هذا الموقف.

وهكذا ندرك أن صور القسوة والاستغلال والعنف والدمار التي مارسها كل من الفرس والبيزنطيين ضد السكّان الأصليين كما أكّدها الرواية السريانية، جعلت المسلمين مخلصين من وطأة الاضطهاد البيزنطي، إلى درجة أن الرواية السريانية المعاصرة للأحداث ذكرت أنهم أطلقوا على الخليفة عمر بن الخطاب لقب (فاروق) أي المخلص بحسب لغتهم، في حين أنه أحد ألقاب السيد المسيح، وتعاملوا معه بوصفه لقباً يخصهم بغض النظر عن لقب (الفاروق) المعروف لدى المسلمين. وبحسب كتاب (الرواية السريانية للفتوحات الإسلامية) لتيسير خلف، والبطريرك (زكا الأول عيواص) فإنه قد وردت عبارات في متن النصوص السريانية التي تتحدث عن الفتوحات الإسلامية المبكرة تقول (نشكر الله الذي خلصنا من حكم البيزنطيين الظالمين وجعلنا تحت حكم العرب المسلمين العادلين)^(١). وأن الروايات السريانية أشارت بكثرة إلى عدالة المسلمين ورحمتهم.

وأضاف البطريرك عيواص في مقاله بعنوان (الإسلام والمسيحية: تكامل تاريخي في بناء الحضارة العربية) والمنشور في جريدة النهار اللبنانية بتاريخ (٢٠٠٥/٦/١٢) أنه (لم تنته اضطهادات المملكة البيزنطية للكنيسة السريانية إلا بظهور الإسلام حيث خرجت موجة من الذين دانوا به من الجزيرة العربية

1. <http://aramean-dem.org/Arabic/ArDO/3/32.htm>

وحرّرت بلاد المشرق من حكم البيزنطيين والفرس في النصف الأول من القرن السابع للميلاد، وكانت عوامل عديدة نفسية ودينية واجتماعية وقومية متوافرة لدى السريان سكان البلاد الأصليين لاستقبال أولئك العرب المسلمين الذين جاؤوا لتحرير البلاد من نير الحكم البيزنطي الظالم، ورحّب السريان بقدوم العرب المسلمين الفاتحين واستقبلوهم كمحررين للبلاد، خاصة وأن معظم القبائل العربية في العراق وسوريا كانت -دينياً- مسيحية على مذهب السريان، وأيدت هذه القبائل العرب المسلمين الذين يمتّون إليها بصلة الدم واللغة والتراث والحضارة، لذلك انضمت أغلبها إلى الجيش العربي المسلم تحت إمرة المثني بن حارثة الشيباني «ت ٦٣٥» وخاصة قبائل بني تغلب وعقيل وتنبوخ وربيعة الضاربة في شمال العراق وغربه، فحاربت جنباً إلى جنب مع العرب المسلمين، وتم القضاء أولاً على الدولة الفارسية سنة ٦٥١م حينما فر «يزدجرد» آخر ملوكهم إلى ما وراء حدود بلاده.... وبعد أن شارك المسيحيون إخوتهم المسلمين العرب في الحرب، مع المحافظة على دينهم، وحرّروا البلاد من المستعمرين، شاركهم أيضاً في توطيد أركان الدولة الجديدة. قال «الفيكونت فيليب دي طرازي» في كتابه «عصر السريان الذهبي» ما يأتي: «احتظى السريان بالثقة والاحترام عند الخلفاء الراشدين «٦٣٢ - ٦٦١م» والخلفاء الأمويين «٦٦٢ - ٧٤٦م» والعباسيين «٧٥٠ - ١٢٥٨م» وأول من نال القربى لديهم حين الفتح العربي هو منصور بن يوحنا السرياني الذي أصبح وزيراً للمالية في عهد الخلفاء الراشدين»^(١).

1. <http://aramean-dem.org/Arabic/ArDO/3/32.htm>

وروى الواقدي في (فتوح الشام) مشهداً آخر يعزّز ذات الصورة السابقة، ولكن هذه المرة في مدينة حماة، وقائد الجيش أبو عبيد بن الجراح، قال: (وسار إلى حماة، فخرج أهلها إليه ومعهم الإنجيل وقد رفعه الرهبان على أكفهم والقسس أمام القوم يطلبون منه الصلح والذمام، فلما رآهم أبو عبيدة «رضي الله عنه» وقف وقال لهم: ما الذي تريدون؟ فقالوا: أيها الأمير، نريد أن نكون في صلحكم وذمامكم، فأنتم أحب إلينا. قال الواقدي: فصالحهم أبو عبيدة، وكتب لهم كتاب الصلح والذمام، وخلف رجالاً من المؤمنين، وسار حتى نزل إلى شيزر، فاستقبلوه فصالحهم، وقال لهم: أسمعتم للطاغية هرقل خبراً؟ فقالوا ما سمعنا له خبراً، غير أنه اتصل بنا الخبر أن «بطريق قنّسرين»^(١) قد كتب إلى الملك هرقل يستنجد عليكم، وقد بعث بجبلّة بن الأيهم الغساني من بني غسان والعرب المنتصرة ومعه «بطريق عمورية»^(٢) في عشرة آلاف فارس، وقد نزلوا على جسر الحديد، فكن منهم على حذر أيها الأمير»^(٣).

• الأوضاع السياسية:

والكلام التالي للمؤرخ الأمريكي (ول ديورانت)^(٤) في موسوعته (قصة الحضارة) مهم جداً لبيان حجم المشاكل والظروف العصيبة التي كانت تمرّ

١. تقع قنّسرين جنوب غرب مدينة حلب السورية.

٢. عمورية مدينة تاريخية تقع جنوب غرب مدينة أنقرة بتركيا.

٣. الواقدي: فتوح الشام، ج ١، ص ١١٨.

٤. ويليام جيمس ديورانت William James Durant (ت ١٩٨١م) فيلسوف ومؤرخ وكاتب أمريكي. من أشهر مؤلفاته موسوعة (قصة الحضارة) والذي شاركته زوجته أريل ديورانت في تأليفه، وصدر باللغة العربية مترجماً في ٤٢ مجلداً، وتناول الحضارات عبر التاريخ.

بالروم في القرن الأخير قبل بعثة النبي الأكرم «صلى الله عليه وآله» سياسياً وأمنياً وعسكرياً واقتصادياً، وفيه عرض لتعاقب الأباطرة الروم والانقلابات الواقعة على بعضهم والجرائم التي كانت تُرتكب بحق أسرهم، وغير ذلك.

قال (ديورانت): (إذا حوّلنا الآن نظرنا من الجانب الشرقي للنزاع الدائم بين الشرق والغرب، شعرنا من فورنا بالعطف على دولة عظيمة تتناهبها محنتان في وقت واحد: تمزّقها الانقسامات في الداخل، ويهاجمها الأعداء من جميع الجهات في الخارج. فقد كان الآفار^(١) والصقالبة يعبرون نهر الدانوب^(٢) ويستولون على أراضي الامبراطورية وبلدانها، وكان الفرس يستعدّون لاجتياح آسية الغربية؛ وخسر القوط الغربيون أسبانيا، واستولى اللمبارد^(٣) بعد ثلاث سنين من موت جستنيان^(٤) على نصف إيطاليا «٥٦٨». وفشا الطاعون في جميع أنحاء الإمبراطورية في عام ٥٤٢، وعاد إليها مرة أخرى في عام ٥٦٦؛ وعمّتها المجاعة في عام ٥٦٩؛ وعطّلت الحروب، والهمجية، والفقر، وسائل الاتصال، ووقفت في سبيل التجارة، وقضت على الآداب والفنون. وكان خلفاء جستنيان أباطرة أولي قوة وكفاية، ولكن المشاكل التي واجهتهم لم يكن في

١. آفار أو أوار: شعب قوقازي يعيش الغالبية العظمى منهم (٨٥٪ من العدد الإجمالي) في وطنهم التاريخي داغستان. يطلق الأوار على أنفسهم (مَعَارْلَال) والذي يترجم من الأوارية كسكان الجبال أو الجبليون.

٢. نهر الدانوب أو نهر طونة هو ثاني أطول أنهار الاتحاد الأوروبي. يلعب بنهر العواصم لكونه يمر في فيينا وبراتيسلافا وبودابست وبلغراد، والنهر يعبر أو يحاذي ١٠ دول أوروبية.

٣. الأنكبردة أو اللومبارديون: قبيلة جرمانية من منشأ إسكندنا في حكمت إيطاليا بين عامي ٥٦٨-٧٧٤.

٤. الإمبراطور جستنيان الأول (فلافوس بتروس ساباتيوس يوستيانوس) كان إمبراطوراً رومانياً شرقياً (بيزنطياً)، حكم منذ أغسطس عام ٥٢٧ حتى وفاته في نوفمبر ٥٦٥.

وسع أحد أن يتغلب عليها إلا رجال من طراز نابليون يتلو بعضهم بعضاً مدى قرن كامل دون انقطاع. وقاتل «جستين الثاني: ٥٦٥ - ٥٧٨» الفرس الساعين إلى التوسع قتال الأبطال؛ ولم تكد الآلهة ترضى على «تيبيريوس الثاني» بكل ما لديها من الفضائل، ولكنها اختصرته بعد حكم عادل قصير. وهاجم «موريق»^(١) الآفار الغزاة بشجاعة ومهارة، ولكنه لم يلق من الأمة إلا قليلاً من التأييد، فقد كان آلاف من أبنائها يدخلون الأديرة فراراً من الخدمة العسكرية؛ ولما أن نهى الموريق الأديرة عن قبول أعضاء جدد فيها إلا بعد زوال الخطر عن الدولة نادى الرهبان بسقوطه. وتزعّم «فوقاس» الذي عمّر مائة عام ثورة قام بها الجيش والعامّة على الأشراف والحكومة «٦٠٢»، وذبح أبناء «موريق» الخمسة أمام عينيّه؛ وأبى الإمبراطور الشيخ على مربية أصغر أبنائه أن تُنجيه من القتل بأن تستبدل ابنها هي به؛ فلما قطع رأسه علّقت الرؤوس الستة لتتمتع بها أعين الشعب، وألقيت جثثهم في البحر. وذبحت الإمبراطورة «قسطنطينة»^(٢) وبناتها الثلاث، وكثير من الأشراف، وكان مقتلهم مصحوباً في العادة بضروب من التعذيب، بعد محاكمة أو بغير محاكمة، فسُملت أعينهم، واقتُلعت ألسنتهم من أفواههم، وبُترت أطرافهم، وارتُكبت الفضائع التي تكرّرت فيما بعد أثناء الثورة الفرنسية^(٣).

• انقلاب كسرى الثاني:

وقد كان الإمبراطور موريق قبل اغتياله ببضع سنوات قد أعطى حق اللجوء

١. ويلفظ أيضاً: موريق.

٢. زوجة موريق.

٣. ديورانت: قصة الحضارة، ج ١٤، ص ١٥٢-١٥٤.

للملك الشاب النشيط خسرو (كسرى) الثاني عندما أزيح عن عرشه في بلاد فارس، إلا أن خسرو الثاني بعد عودته المجددة إلى بلاده، استغل فرصة قتل الامبراطور موريس الذي أحسن إليه وما استتبع قتله من اضطرابات، فشن هجوماً مدمراً على الإمبراطورية البيزنطية.

كان الامبراطور آنذاك هو العجوز فوقاس، فاستغاث أشرف العاصمة البيزنطية بهرقل امبراطور أفريقية اليوناني، ودعوه لينقذ الإمبراطورية وينجي أملاكهم، لكنه اعتذر محتجاً بكبر سنه، وأرسل إليهم ابنه (هرقل الأصغر).

خَلَعَ هرقل الأصغر الامبراطور فوقاس، وعرض جثته المبتورة الأطراف على الملأ، ونودي به إمبراطوراً سنة ٦١٠م، وبدأ يُعيد تنظيم الدولة المحطمة. وقضى هرقل عشر سنين يعمل على:

إحياء روح الشعب المعنوية

وبناء قوة الجيش من جديد

وتنظيم موارد الخزنة

ونقل الجيش البيزنطي كله إلى آسيا

ومصالحة الفساسنة ليعينوهم في مواجهة الفُرس

كما عمل على تقديم الأراضي للمزارعين هبةً شريطة أن يؤدي أكبر أبناء الأسرة الخدمة العسكرية.

في هذه الأثناء كان الفرس قد أحرزوا عدداً من الانتصارات المدوية.

أوضاع دولة الروم

ففي سنة ٦١١م غزت الجيوش الفارسية بلاد الشام، وسقطت القدس في أيديهم سنة ٦١٤م، وهو ما أشارت إليه آية سورة الروم، قال «تعالى»: ﴿الْم، غُلِبَتِ الرُّومُ، فِي أَدْنَى الْأَرْضِ﴾^(١)، واستولى الفُرس على مقدسات مسيحية كالصليب المقدس، وهو المدعى أنَّ صلب المسيح تمَّ عليه، وعلى الحربة المقدسة، وهي المدعى أنها اسفنجة غُمست في خل أونيذ حامض وقُدِّمت للمسيح ليشرب منها خلال الصلب، كما أحرقوا عدداً من الكنائس بينها كنيسة القيامة، وكان ذلك كله أمراً كارثياً بالنسبة للبيزنطيين لاسيما بلحاظ تمثيلهم للعالم المسيحي والصراع الديني مع الفرس الزرادشتيين وفقدانهم بذلك مقوِّماً مهماً للحفاظ على مصداقيتهم الدينية وعلى حقانية الدين المسيحي، كما أحرقوا عدداً من الكنائس، بينها كنيسة القيامة (كنيسة القبر المقدس) التي داخل أسوار البلدة القديمة في القدس، وبنيت فوق مكان الصخرة التي يعتقد النصارى أن المسيح صلب عليها. وتعتبر أقدس الكنائس المسيحية والأكثر أهمية في العالم المسيحي وتحتوي أيضاً - وفق المعتقدات المسيحية - على المكان الذي دُفن فيه المسيح واسمه القبر المقدس، ومنه قام إلى الحياة.

كان ذلك كله أمراً كارثياً بالنسبة للبيزنطيين لاسيما بلحاظ تمثيلهم للعالم المسيحي والصراع الديني مع الفرس الزرادشتيين، وفقدانهم بذلك مقوِّماً مهماً للحفاظ على مصداقيتهم الدينية وعلى حقانية الدين المسيحي .

وفي سنة ٦١٥م وصل الفرس إلى سواحل البسفور قبالة القسطنطينية نفسها حيث وصلوا خلقيدون، ولم ينقذ عاصمة الدولة وأوربا إلاَّ الأسطول البيزنطي.

وفي سنة ٦١٩ م استولوا على الاسكندرية ووقعت مصر كلها في أيديهم!

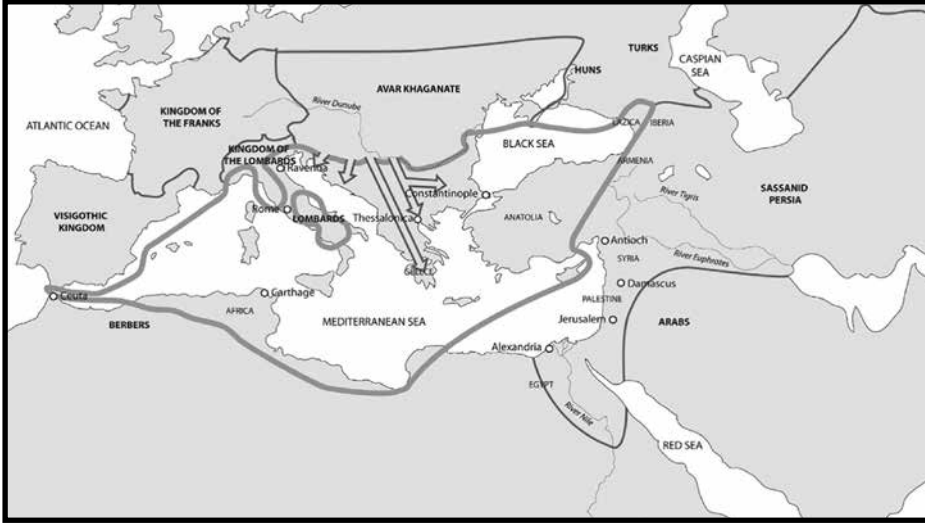
بموازاة هجوم الفرس على البيزنطيين، كان الآفار قد استولوا على جميع الأراضي الزراعية الواقعة خلف القسطنطينية إلا قليلاً منها، دون أن يلقوا مقاومة، وقبضوا على آلاف من اليونان واتخذوهم أرقاء.

وكانت نتيجة خسارة الأراضي الخصبة الواقعة خلف القسطنطينية مضافة إلى خسارة مصر أن انقطعت واردات الحبوب على المدينة، وأرغمت الحكومة على قطع إعانات الغذاء عن الناس سنة (٦١٨).

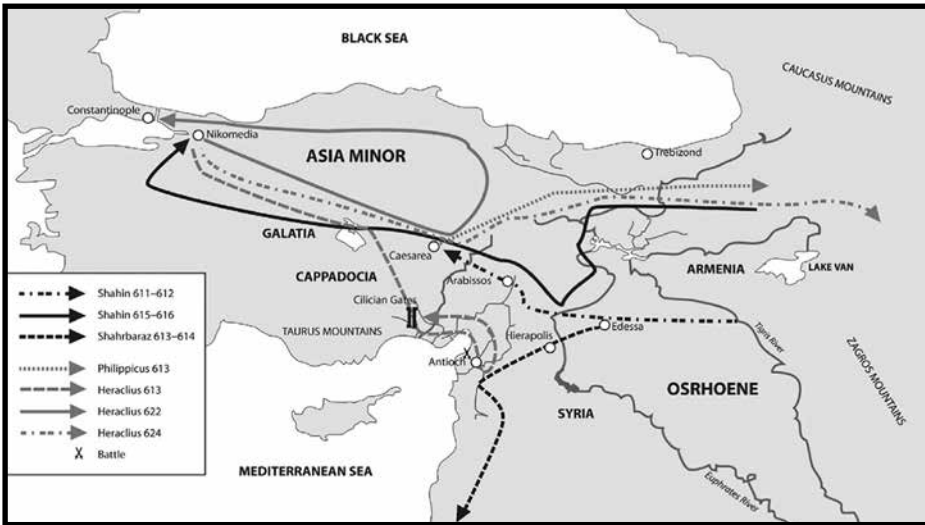
طلب هرقل من البطريق (سرجيوس) أن يقرضه ثروة الكنيسة اليونانية ليموّل بها حرباً مقدسة يستعيد بها القدس، فوافق على أن تكون بفائدة، وتصلح هرقل مع الآفار، ثم زحف لقتال الفرس.

ثم بدأ المد ينحسر في مارس سنة ٦٢٤ م/رمضان سنة ٢ هـ عندما أبحر الامبراطور هرقل إلى البحر الأسود وبدأ غزو أرمينيا وأذربيجان، وعندئذ تم الالتفاف حول الفرس وأجبروا على الانسحاب بجيشهم من الأناضول لمواجهة الامبراطور الذي كان يهاجم آنذاك من الشمال.

واصل هرقل الحرب على الفرس ست سنوات، هزم فيها كسرى عدة مرات، وفي سنة (٦٢٦)؛ حاصر جيش من الفرس وجحافل من الآفار والبلغار والصقالبة مدينة القسطنطينية في أثناء غياب هرقل، فسير هرقل جيشاً هزم الفرس في خلقيدون، ومزقت حامية العاصمة وعامتها - بتحريض البطريق - جحافل المهاجمين.



حدود دولة الروم بعد خسارة مصر وأنحاء من أوروبا ٦٢٦م



المعارك بين الروم والفرس ٦١١-٦٢٤م

وفي سنة ٦٢٧ م / ٥ هـ زحف عبر شمال غرب إيران قبل أن ينزل إلى سهول شمال العراق ويهزم الجيش الفارسي في نينوى في ١٢ ديسمبر ٦٢٧ م / ٢٥ رجب ٦ هـ، وكانت أعظم كارثة عسكرية عانت منها الإمبراطورية الساسانية على الإطلاق، وكان كسرى قد تراجع إلى العاصمة، أي المدائن / طيسفون^(١)، تاركاً قصره في (دستجرد) إلى الغرب من (قم) لكي ينهبها البيزنطيون.

طلبت فارس الصلح، وردّت كل ما كان كسرى قد استولى عليه من الإمبراطورية البيزنطية، وعاد هرقل ظافراً إلى القسطنطينية بعد أن غاب عنها سبع سنين.

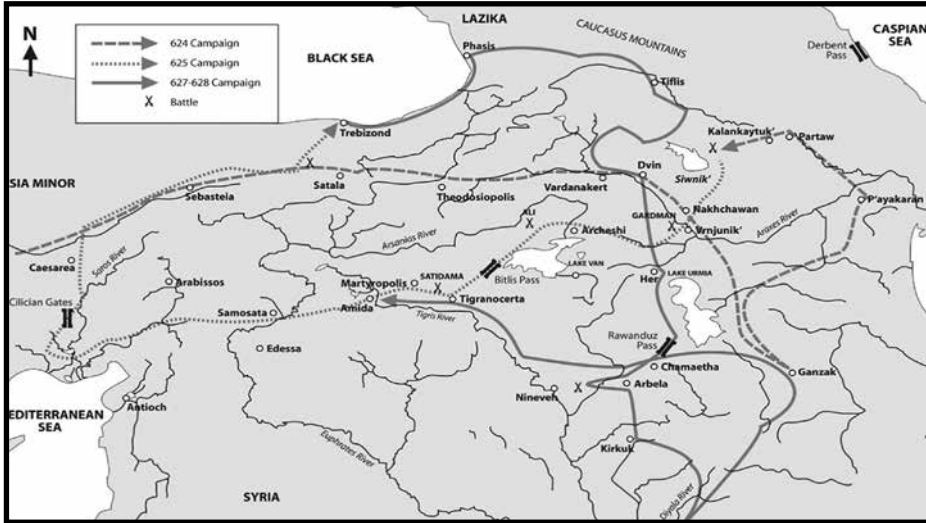
وهذا ما أشارت إليه سورة الروم المكية من أن الروم ستغلب الفرس في بضعة سنين، وهو ما تحقق خلال العهد المدني بعد ست سنين من الهجرة النبوية: ﴿الْم، غَلَبَتِ الرُّومُ، فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ، فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدِ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ، بَنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾^(٢).

وأما سبب فرح المؤمنين يومذاك فقد فُسِّر بعدة تفسيرات:

١. عن سعيد بن جبّير، عن ابن عباس، قال: (كان المسلمون يُحبون أن تغلب الروم أهل الكتاب، وكان المشركون يحبون أن يغلب أهل فارس؛ لأنهم أهل أوثان، قال: فذكروا ذلك لأبي بكر، فذكره أبو بكر للنبي «صلى الله عليه

١. تمثّل طيسفون جزءً من (المدائن) التي تُعرف اليوم باسم (سلمان باك) حيث مدفّن واليها الصحابي سلمان الفارسي. كانت عاصمة دولة الفرس على مدار ٦٠٠ سنة تقريباً، إلى سقوط دولتهم على يد المسلمين.

٢. الروم: ١-٥.



حملات هرقل ٦٢٤-٦٢٨م

وسلم» فقال: أَمَا إِنَّهُمْ سَيَهْزَمُونَ، قال: فذكر ذلك أبو بكر للمشركين، قال: فقالوا: أفنجعل بيننا وبينكم أجلا فإن غلبوا كان لك كذا وكذا، وإن غلبنا كان لنا كذا وكذا، وقال: فجعلوا بينهم وبينه أجلاً خمس سنين، قال: فمضت فلم يُغلبوا، قال: فذكر ذلك أبو بكر للنبي «صلى الله عليه وسلم»، فقال له: أَفَلَا جَعَلْتَهُ دُونَ الْعَشْرِ، قال سعيد: والبضع ما دون العشر، قال: فَغَلَبَ الرُّومَ^(١).

٢. فرح المؤمنون سيكون بسبب تحقق الإخبار المستقبلي الوارد في الآية من حيث الانتصار ومن حيث التحديد الزمني (في بضع سنين)، بما يؤكد سماوية القرآن الكريم، وأنه إخبار من عند الله «عز وجل» وحقانية رسوله «صلى الله عليه وآله» كمبعوث من عند الله.

٣. يوم يغلب الروم فارس يفرح المؤمنون بالله ورسوله بنصر الله إياهم على

١. الطبري: جامع البيان، ج٦، ص ٧٢.

المشركين، وهو نصرة المؤمنين على المشركين ببدر^(١). حيث تزامن الحدثان، ففرح المؤمنين لم يكن لنصر الروم، بل هو إخبار مُحَمَّل عن حدث سيقع، وسيفرح لأجله المؤمنون، وتحقق ذلك بنصرهم في بدر الكبرى سنة ٢هـ.

وعلى العموم، وعلى وقع الهزيمة النكراء، بدأ كسرى الثاني يبحث عن كبش فداء يلومه على الانقلاب الهائل في حظوظه، ويبدو أنه كان قد قرّر إعدام (شهربراز) أهم قادته العسكريين، ولكن قبل أن يتمكن من التصرف حدث انقلاب، وتم اغتيال كسرى الثاني في بواكير سنة ٦٢٨م/٦هـ، واعتلى ابنه العرش تحت لقب قباذ الثاني.

وفي الحال بدأ قباذ التفاوض مع هرقل على أن يتم إطلاق سراح الأسرى وتعود الحدود إلى ما كانت عليه قبل الحرب، وربما كان يمكن أن تسير الأمور على ما يرام لو لم يموت الملك الجديد في أثناء السنة نفسها، بسبب الوباء على ما يرجّح، وخلفه ابنه القاصر أردشير الثالث، ولكن القائد شهربراز رفض قبول هذا واستولى على العرش في يونيو سنة ٦٢٩م/صفر ٨هـ.

وكانت هذه المرة الأولى في مدى أربعة قرون التي يحاول فيها رجل لم يكن من أبناء الأسرة الساسانية الجلوس على العرش، وكانت هناك مقاومة كبيرة لهذا الأمر، وبعد شهرين بالضبط تم اغتياله هو أيضاً.. أو إعدامه، وتم تعيين ابن قاصر لكسرى الثاني قُتِل، وانتقل العرش إلى ابنة كسرى الثاني (بوران/ بوراندخت)، ولكنها ما لبثت بعد أقل من سنتين أن عُرِزَت، ثم تلى ذلك تتابع على العرش لحكام من ذوي العمر القصير، حتى اعتلى العرش في نهاية الأمر

١. الطبري: جامع البيان، ج٦، ص ٧٢.

يزدجرد الثالث، حفيد كسرى الثاني، وذلك في سنة ٦٣٢م/١١هـ ليستمر في الحكم ١٩ سنة.

تأثير هذه المكائد كان حاسماً، فقد تم تخريب الإمبراطورية الساسانية على يد البيزنطيين كما تم تدمير أية فكرة عن أنها لا تُقهر، ويوحى الدليل الأثري بأن أماكن الاستقرار في الجزء الأغنى من العراق بات مهجوراً من جراء الحرب. وفضلاً عن ذلك، فإن البيت الساساني الذي كان الدعامة الأساسية للدولة قد تمزق بسبب التنازع والاغتيالات والحروب.

• الاحتكاك بالمسلمين:

وبعد عام واحد فقط من الانتصار الكبير للروم على الفرس، بدأ الاحتكاك بينهم وبين المسلمين على عهد رسول الله «صلى الله عليه وآله» سنة ٦٢٩م/٧هـ. وكانت دولة الروم البيزنطية تعاني حينئذ الأمرين من حروبها ضد فارس، وما أشارنا إليه من قبل مما استعرضناه خلال الصفحات الماضية، علاوة على النزعة الانفصالية التي أخذت تقوى عند أقباط مصر والآراميين في سوريا والأرمن عند أطراف آسيا الصغرى، مما هدّد كيان الدولة ووحدتها تهديداً خطيراً.

وهذا ما قد يفسّر أكثر ردة الفعل غير المنطقية التي قام بها الروم وحلفاؤهم ضد الدعوة الإسلامية ورسالة النبي «صلى الله عليه وآله» كما بيّنا ذلك بالأمس، إذ يبدو أن خوفهم الشديد من انفتاح جبهة أخرى داخلية في الشام ستكلفهم الكثير، فارتأوا أن يجازفوا باتخاذ إجراءات عنيفة رغبة في سدّ هذا

الملف بشكل حاسم وحازم. ومهما يكن من أمر، فإن ردّة الفعل الخاطئة التي قام بها البيزنطيون وحلفاؤهم كلّفَتْهم ما كانوا يخافونه، فقد جاءتهم موجة الفتوحات الإسلامية بشكل كاسح عقب وفاة النبي «صلى الله عليه وآله»، وعلى شكل عدّة مجاميع قتالية، وبالتزامن مع إيفاد مجاميع أخرى باتجاه العراق حيث عاصمة الدولة الساسانية الفارسية، وذلك في سنة ١٣هـ/٦٣٤م.

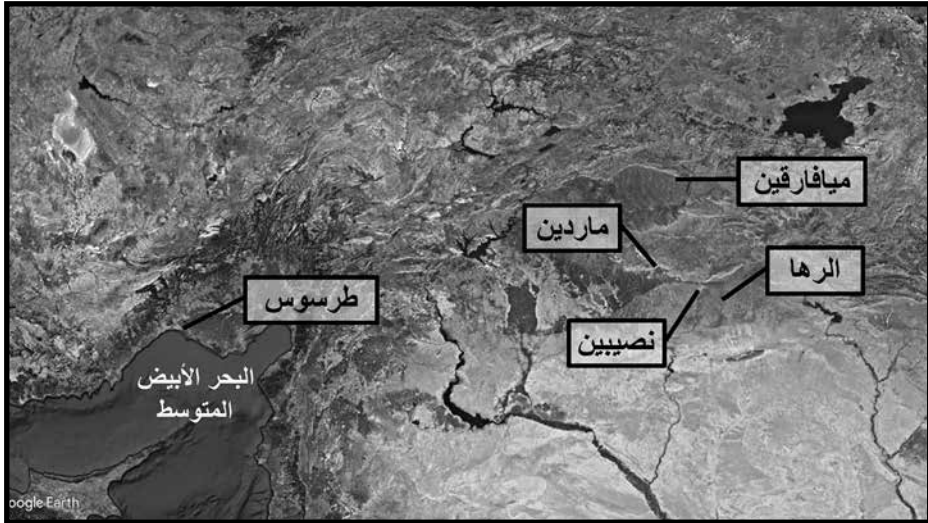
وقد حاول هرقل -قيصر الروم- إرسال قوة بقيادة أخيه (تيودور) لإنقاذ الموقف في الأردن وفلسطين، ولكنّ المسلمين أنزلوا بهم هزيمة مذلة وساحقة كما سنشرح ذلك لاحقاً، لتتسع دائرة الفتوحات في الشام وعلى حساب الدولة البيزنطية، لتسقط دمشق وحمص، وعندئذ ثار هرقل وحشد عشرات الآلاف من رجاله، ولكن قوّاته هُزمت من جديد عند نهر اليرموك في الأردن.

كتب د. سعيد عبدالفتاح عاشور^(١) في (تاريخ أوروبا في العصور الوسطى): (وإذا كان هرقل قد أمضى سنتي ٦٣٥، ٦٣٦^(٢) في جبهة الشام، إلا أنه سرعان ما أيقن صعوبة مقاومة العرب فترك بيت المقدس تقع في أيديهم «٦٣٧-٦٣٨»^(٣)... وقد بذل الامبراطور هرقل محاولة يائسة لإنقاذ شمال الشام والعراق من أيدي المسلمين، فأرسل بعض جيوشه لهذا الغرض، ولكنها

١. سعيد عبد الفتاح عاشور مؤرخ مصري وأكاديمي، له أكثر من عشرين كتاباً في تاريخ أوروبا العصور الوسطى والتاريخ العربي الإسلامي (ت٢٠٠٩م). ترأس عاشور وعمل أستاذاً لكرسي العصور الوسطى لعدة عقود في أقسام التاريخ بالجامعات العربية مثل جامعة القاهرة، وجامعة بيروت العربية، وجامعة الكويت وجامعة بغداد وجامعة الجزائر وجامعة السلطان قابوس وجامعة كمبودج وغيرها.

٢. أي: ١٤-١٥هـ.

٣. أي: ١٦-١٧هـ.



بعض المدن الوارد ذكرها في النص السابق

مُنيت بالهزيمة، واضطرت إلى الانسحاب، وبذلك سقطت المدن والمعازل المهمة الموجودة في شمال العراق والشام مثل ماردين والرها وميفارقين «٦٣٨-٦٣٩»^(١) وباستيلاء العرب على قيصرية سنة ٦٤٠^(٢) فقدت الدولة البيزنطية آخر معاقلها جنوبي طرسوس، وبذلك جاء دور مصر وشمال أفريقية، ذلك أن العرب فتحوا مصر سنة ٦٤١^(٣) أي قبل أن ينتهوا من فتح فارس. ويعتبر فتح مصر بالذات مثلاً واضحاً على عظم الخسارة التي مُنيت بها المسيحية، كما يُتخذ دليلاً قوياً على مدى ضعف الامبراطورية البيزنطية وانحلالها السياسي^(٤).

١. أي : ١٧ - ١٨ هـ .

٢. أي : ١٩ هـ .

٣. أي : ٢٠ هـ .

٤. عاشور: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص ٩٥-١٠٨ .

بالطبع نحن لا نوافق على وصف ما حدث بأنه خسارة للمسيحية، فالإسلام لم يكن في يوم ضد المسيحية أو غيرها من الرسالات السماوية، بل خسارة لكيانات سياسية لها مصالحها الدنيوية، وكانت تدين هي ومجتمعاتها بالمسيحية، فهو ليس بصراع إسلامي مسيحي كي يتم تصويره بهذه الصورة.

قال الله «تعالى»: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾^(١). وقال «تعالى»: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾^(٢). وقال الله «تعالى»: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾^(٣).

وقد خيّل لهرقل في مرحلة ما أن يتولّى قيادة الجيش البيزنطي بنفسه ضد المسلمين، ولكنه سرعان ما اكتشف أنه لم يعد يقوى على مثل هذا الجهد بعد أن جاوز الخمسين من عمره وأخذ المرض يدبّ في جسده.

وللمؤرخ (ديورانت) وصف معبر لما آلت إليه أوضاع هرقل صاحب البطولات العظيمة ضد الفرس، قال: (ولم يكن هرقل خليفاً بمصيره الذي جلّله العار في سن الشيخوخة. فبينما هو يبذل ما بقي لديه من نشاط في إصلاح شئون الإدارة بعد أن هدّ المرض قواه، إذ انقضّت قبائل العرب على بلاد الشام

١. النساء: ٤٧.

٢. المائدة: ٤٨.

٣. البقرة: ١٣٦.



قرطاج وبرقة

«٦٣٤»^(١) وهزمت جيشاً يونانياً منهوك القوى، واستولت على بيت المقدس «٦٣٨»^(٢) ثم استولت على مصر بينما كان الامبراطور يعاني سكرات الموت «٦٤١»^(٣) وكانت فارس وبيزنطية قد جرّت كلتاهما الخراب على الأخرى بحروبها العوان)^(٤).

وبعد أن فتح المسلمون (برقة) في ليبيا سنة ٢٢هـ/٦٤٣م، خفّت موجة الفتوحات بسبب الاضطرابات السياسية والأمنية والحروب التي نشبت داخل الدولة الإسلامية على عهد الإمام علي «عليه السلام»، ومهادنة معاوية للروم

١. أي: ١٣ هـ.

٢. أي: ١٧ هـ.

٣. أي: ٢٠ هـ.

٤. ديورانت: قصة الحضارة، ج ١٤، ص ١٥٢-١٥٥.

بمقابل مادي كبير، لتنتهي الأحداث الداخلية لاحقاً بقيام الخلافة الأموية في دمشق سنة ٤٠هـ/ ٦٦٠م، ومن ثم استأنف الأمويون إرسال الجيوش للمزيد من الفتوحات. وبدأوا يتوغلون غرباً باتجاه ولاية أفريقية (تونس) حيث أسس عقبة بن نافع مدينة القيروان لتخلف قرطاجة حاضرة للبلاد.

وقد كتب د. سعيد عاشور معلقاً على ذلك بقوله: (وكانت حروب المسلمين في شمال أفريقية طويلة وشاقة، لأنهم لم يصطدموا هناك بقوة الجيوش البيزنطية فحسب، بل كان عليهم أيضاً أن يتغلبوا على مقاومة البربر المعروفين بقوة المراس. ومهما يكن من أمر، فإن قرطاجة سقطت أخيراً في يد حسان بن النعمان سنة ٦٩٧^(١) وإن كان نفوذ الخلافة الإسلامية لم يستقر تماماً في شمال أفريقية قبل سنة ٧٠٨^(٢) بفضل جهود موسى بن نصير^(٣)).

١. أي : ٧٨ هـ .

٢. أي : ٨٩ هـ .

٣. عاشور: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص ٩٥-١٠٨.

أوضاع دولة الفرس

أوضاع دولة الفُرس

استعرضت في الفصل السابق الأوضاع الداخلية لدولة الروم البيزنطية، وكيف كانت هذه الأوضاع من العوامل المساعدة على انتصار المسلمين عليها وبشكل سريع مع فارق موازين القوى بين الطرفين لصالح الروم وبنسبة كبيرة جداً قد تصل إلى عشرة أضعاف في بعض الأحيان!

وما ذكرناه بخصوص الروم ينطبق على الأوضاع الداخلية للدولة الساسانية الفارسية التي خرجت مؤخراً منهزمة على يد الروم أنفسهم!

في كتابه (تاريخ أوروبا في العصور الوسطى) كتب الدكتور سعيد عبدالفتاح عاشور حول ذلك قائلاً: (كان الفرس في شغل شاغل بالنزاع والحروب المستمرة فيما بينهم عن الاهتمام بما كان يجري في شبه الجزيرة العربية من مولد الرسول محمد عليه الصلاة والسلام سنة ٥٧٠ هجرته إلى المدينة سنة ٦٢٢، ثم ما تبع ذلك من إنهاء حالة الفوضى والتفكك السياسي والنزاع القبلي التي عاش عليها عرب الشمال قروناً طويلة. وبعبارة أخرى، فإن انتصار رسالة خاتم النبيين أدت إلى جعل العرب أمة واحدة يخضعون لحكومة واحدة ويدينون بدين واحد شعاره لا إله إلا الله محمد رسول الله. على أن الرسالة المحمدية لم يقصد بها العرب وحدهم، لأن الله أرسل محمداً شاهداً ومبشراً

ونذيراً، ليهدي الناس كافةً إلى دين الحق، ومن ثمّ غدت مهمة الرسول بعد أن تمّ نشر الإسلام في بلاد العرب أن يدعو الأمم المجاورة لاعتناق ديانته والإيمان برسالته. ويبدو أن بعض الرسل الذين أوفدهم النبي إلى ملوك الدول المجاورة وحكامها صادفوا إعراضاً بل امتهاناً، مما جعل النبي يعدّ العدة للغزو والجهاد، وإن كانت موجة الفتوح العربية لم تشتدّ وتتسع إلا بعد وفاة النبي نفسه سنة ٦٣٢)^(١).

وأختلف مع الدكتور عاشور في هذه الجزئية، حيث كان إعلان الحرب من قبل النبي «صلى الله عليه وآله» ضدهم - كما بيّنت من قبل - نتيجة الممارسات العنيفة والمؤامرات التي قامت بها دولة الروم، بالإضافة إلى دولة الفرس، والتحريض من خلال بعض القبائل العربية، لا بغرض الدعوة وكرّة فعل على عدم تعاملهما الجاد مع رسائله.

وبعد حديثه عن فتوحات الشام، انتقل د. سعيد عاشور للحديث عن فتح العراق وبلاد فارس فقال: (ولم تكن انتصارات العرب على الفرس أقل سرعة وأثراً من انتصاراتهم على الروم، ففي سنة ٦٣٧)^(٢) كان العرب قد فتحوا العراق، وفي سنة ٦٤١)^(٣) أحرز العرب انتصاراً عظيماً على الفرس عند نهاوند، مما فتح أمامهم الطريق إلى قلب بلاد فارس. ولم تجد مقاومة الفرس العنيفة في وجه العرب الذين تمّ لهم القضاء على يزديجرد الثالث آخر

١. عاشور: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص ٩٥.

٢. أي: ١٦ هـ.

٣. أي: ٢٠ هـ.

ملوك بني ساسان سنة ٦٥٢^(١) وبذلك اختفت الملكية الفارسية من الوجود، وتم للعرب فتح فارس^(٢).

وفي كتب الحديث والسيرة والتاريخ أن فتح بلاد فارس -كما الروم- كان من ضمن البشارات التي أطلقها النبي «صلى الله عليه وآله» على مسامع أصحابه، سواء في أجواء بعض الحروب الصعبة التي كانوا يخوضونها وهم في قلة من حيث العدد وضعف في العدة وتكاثر عليهم من الأعداء، أو في غيرها من المناسبات، بحيث كان بعض الصحابة يتعجبون من إمكانية تحقق تلك البشارات.

وقد روي عن الصحابي عدي بن حاتم الطائي أنه قال: (بيننا أنا عند النبي «صلى الله عليه وسلم» إذ أتاه رجل فشكا إليه الفاقة، ثم أتاه آخر فشكا إليه قطع السبيل، فقال: يا عدي، هل رأيت الحيرة؟ قلت: لم أرها، وقد أنبتت عنها. قال: فإن طالت بك حياة لترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحداً إلا الله. قلت فيما بيني وبين نفسي: فأين دعار طيئ الذين قد سَعَرُوا البلاد؟! ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى. قلت: كسرى بن هرمز؟! قال: كسرى بن هرمز. ولئن طالت بك حياة لترين الرجل يخرج ملء كفه من ذهب أو فضة يطلب من يقبله منه فلا يجد أحداً يقبله منه.... قال عدي: فرأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلا الله، وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز...)^(٣).

١. أي: ٢١ هـ.

٢. عاشور: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص ٩٧.

٣. البخاري: صحيح البخاري، ح ٣٤٠٠.

وحيث كان المجتمع في بلاد فارس وما تحت أيديها من أرض العراق -عند بداية الفتوحات الإسلامية- في حالة تدهورٍ وانحطاط، لذا فإننا نجد أن المسلمين (الفاتحين/ الغزاة) احتضنوا -في عدة مناسبات- بأذرع مفتوحة من قبل أهالي تلك البلاد، لاسيما وأن أهل العراق وجدوا أن المسلمين العرب أقرب إليهم من الفُرس المحتلين الذين أذاقوهم الأمرين، وسخروهم لمصالحهم، ولأنَّ أهل فارس وجدوا أن المسلمين ما جاءوا ليقضوا على حضارتهم، بل تمَّ استيعابها في النظام الإسلامي الجديد.

ومن هنا أقدم الفُرس على اعتناق الإسلام تدريجياً، واستبدلوا أبجديتهم بالأبجدية العربية بعد أن استقرَّ الحكم الإسلامي في بلادهم، وإنَّ لم يتعربوا، عكس أهل العراق والشَّام ومصر، بل فضلوا الاحتفاظ بهويَّتهم القومية الخاصة، وفي وقتٍ لاحق، امتزجت الثقافة الفارسية بالثقافة الإسلامية العربية ونتاجت عنها ثقافةٌ جديدةٌ مُميَّزة انعكست بشكلٍ واضحٍ على أغلب أنحاء المشرق.

• الوضع الاجتماعي والديني:

كانت النسبة الغالبة من سكان الإمبراطورية البيزنطية يدينون بالمسيحية، على حين كانت ديانة الامبراطورية الساسانية هي الزرادشتية.

والعراق الذي كان أغنى أجزاء الامبراطورية وأكثرها سكاناً، كانت المسيحية فيه منتشرة وأغلب سكَّانه من المسيحيين، مع وجود عدد لا بأس به من اليهود أيضاً، وكان معظم المسيحيين من النساطرة، أي أتباع الكنيسة

السريانية الشرقية، الذين كانت السلطات البيزنطية تعتبرهم من الهراطقة، وتضطهدهم، وهذا الأمر كان يُريح الفُرس على اعتبار أنهم يضمنون بذلك عدم ولاء نصارى العراق للأعداء البيزنطيين، بل إن حلفاءهم من المناذرة كانوا بدورهم نصارى، وهو ما كان يدفع بالساسانيين لدعم الكنيسة النسطورية والسماح لها بالتمدد وتكوين مركز ديني وعلمي مهم في العراق.

والنسطورية نسبة إلى بطريك القسطنطينية (نسطور: ٣٨٦م - ٤٥١م)، الذي عارض تعليم مجمع أفسس سنة ٤٣١م حول لاهوت أمومة العذراء مريم، واستنكر تلقيبها بعنوان (أم الله) وفضّل دعوتها بـ (أم المسيح)، فصدر قرار كنسي بأنه مهرطق، وتم نفيه إلى البتراء في الأردن سنة ٤٣٦م. وبذا تكون المذهب النسطوري وتتبعه كنيسة المشرق، وقد تسمى كنيسة فارس أو الكنيسة النسطورية.

تبنى الفُرس الساسانيون نشر ودعم المذهب النسطوري بين مسيحيي البلاد الخاضعة لسلطانهم، وذلك نكايةً بالبيزنطيين أتباع الكنيسة الأورثوذكسية فازداد انتشارها ثم وصلت لاحقاً الهند ونواحي الصين. وقد وصلت النسطورية أوج امتدادها بين القرنين السادس والرابع عشر، حيث كانت حينئذ أكبر كنيسة انتشاراً جغرافياً ممتدة من مصر إلى البحر الأصفر شرقاً. وتحسب عليها اليوم بعض الكنائس الشرقية.

ويمكن اعتبار العامل الديني من العوامل المؤثرة التي أدت إلى انهيار دولة الفُرس الساسانية لاحقاً، فقد اتخذ الفُرس الساسانيون، منذ بداية عهدهم، المجوسية (الزرادشتية) ديناً رسمياً، كما تبنّوا أحياناً (المانوية) التي تحدثنا

عنها من قبل، وكذلك (المزدكيّة)^(١)، وكان تشجيع الأكاسرة لإحدى هذه الديانات يدفع مُعتقيها إلى اضطهاد مُخالفِيهم، بحيث وضع بلادهم في جوٍّ مشحونٍ بالنزاعات (المقدّسة).

ويذكر الدكتور حسن إبراهيم حسن في كتابه (تاريخ الإسلام)^(٢) أن استبداد الساسانيين بالحُكم في أواخر عهدهم دفع الأهالي في بلادهم إلى أن يكرهوهم وينظروا إليهم نظرة السخط والاستياء، وبذلك أعرضوا عنهم، واتّسعت مسافة الخُلف بينهم حين شجّع الملوك ديانة زرادشت - وكانت من قبلُ بغیضة لدى الأهلين - وأفسحوا المجال لكهنتها حتى أصبح لهم شيء من السلطة في الدولة ومنحوهم نفوذاً عظيماً في مجالس المُلك، فادّعوا أن لهم نصيباً كبيراً في سياسة الدولة، وأخذوا يضطهدون الجماعات الدينية المخالفة من يهود ومسيحيين وصابئة وبوذيين ومانويين، وساعدت هذه الأسباب على ضعف الدولة الفارسية وانحلالها.

• الوضع الاقتصادي:

كان معظم الدّخل الذي قامت عليه فخامة الملكية الفارسية يأتي من الأراضي الزراعية في العراق، يزرعها عدد كبير من الفلاحين الذين كانوا في ظلّ ظروف تشبه حياة العبيد، وكانت هناك هوةٌ شاسعة اجتماعية واقتصادية بين الأرستقراطية والناس الذين كانوا يفلحون الأرض.

١. المَزْدَكِيّة - كالمناوية - عقيدة ثنوية، بل هي منبثقة ومتحوّرة عن المانوية، مؤسسها الزعيم

الديني الفارسي (مَزْدَك) المتوفى نحو ٥٢٨ م.

٢. حسن: تاريخ الإسلام، ج ١، ص ٢١٦.

وكانت الطبقات العليا معفية من ضريبة الأفراد، بينما كان التجار والفلاحون مجبرين على دفعها للملك الساساني. كانت الأرستقراطية في العراق تتحدث الفارسية، ولكن معظم السكان كانوا يتحدثون الآرامية -وهي لغة تلتقي مع العربية في أصولهما- فقد كان الآراميون هم الفلاحين والمزارعين الذين جعلوا الأرض على هذا القدر من الإنتاجية.

• الوضع العسكري:

أما الجيش فكان في معظمه من الفرس والأرمن الذين كان لهم تراث حربي قوي، وجاءوا بفرقهم العسكرية التي تراوحت أعدادها ما بين ألف وثلاثة آلاف رجل للانضمام إلى الجيش الامبراطوري في مواجهة المسلمين.

وتذكر إحدى المصادر الأرمنية المعاصرة لتلك الفترة من غير المسلمين أن عدد الجيش الفارسي الذي وضع تحت يد القائد (رستم)، وصل إلى حوالي ثمانين ألف رجل، وهو ما يتوافق مع الرواية الإسلامية.

• الوضع السياسي:

كان الملك الساساني يحكم باعتباره ملك الملوك (الشاهنشاه)، إذ كانت الامبراطورية الفارسية تضم عدداً من الإقطاعات أو الولايات الكبيرة الواقعة تحت حكم عدد من العائلات الارستقراطية العريقة والشهيرة وعلى رأسها الأسر الأشكانية (الفرثية/الپارثية) التي كانت تحكم قبل الساسانيين لأكثر من أربعة قرون وذلك من (٢٤٧ ق.م - ٢٢٤ ب.م)، فكان رؤوس وحكام تلك الإقطاعات الضخمة ملوكاً، والملك الساساني ملك الملوك، في وضع يشبه ما

أوضاع دولة الفُرس

عليه حكام الولايات الأمريكية في مقابل رئيس الولايات المتحدة الأمريكية. وكانت الامبراطورية الساسانية تضمّ إيران الحديثة كلها، والعراق ومعظم أفغانستان وتركمنستان، وكانت طيسفون/ المدائن هي العاصمة الرسمية، وإن لم يتواجد فيها الشاهنشاه طوال الوقت، بل كان يتنقّل في المواسم المختلفة بين بعض المدن والأرياف المختارة في حدود مملكته.

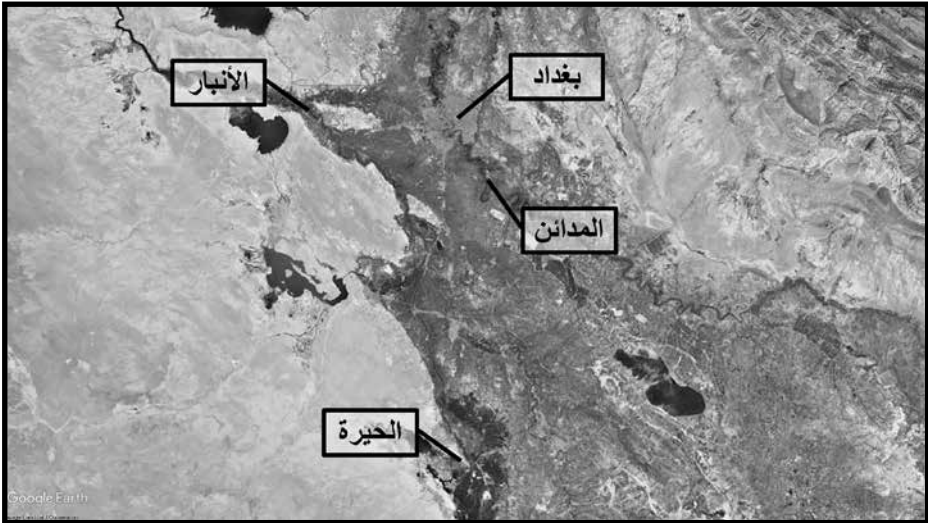
كان الفُرس يحكمون العراق منذ القرن السادس قبل الميلاد، وتخلّل ذلك حكم الإسكندر المقدوني لفترة محدودة خلال القرن الرابع قبل الميلاد، ولم يُحكم العراق من قبل أبنائه منذ ذلك الوقت إلى الفتح الإسلامي وما بعده، كما كان الفُرس والعرب متجاورين في شمال شبه الجزيرة العربية طيلة مئات السنين، بل سيطر الفُرس على شرق شبه الجزيرة العربية، وكان لهم حكمٌ ونُفوذٌ في اليمن في العهد القريب لبعثة النبي «صلى الله عليه وآله». وعندما نشب في بلاد فارس الصّراع على السُّلطة في أواخر عهد الدولة الأشكانية في القرن الثالث للميلاد، هاجرت بعض القبائل العربية التنوخية من (البحرين في حدودها القديمة) إلى الحيرة والأنبار، فأسسوا مملكتهم في ظل النُفوذ الفارسيّ الأشكاني، وهي الأسرة التي سبقت الساسانيين في الحكم. واتّخذوا من الحيرة عاصمة لهم. وقصد البدو المدينة لابتياح حاجاتهم، ولم يلبثوا أن أقاموا فيها، فأضحى سُكّان المدينة أخلاطاً من قبائل العرب.

وفي مطلع القرن الرابع الميلادي، تكررت الهجرة العربية إلى العراق ثانية، وكان ذلك أبان تخلخل الأوضاع السياسية والأمنية في الدولة الساسانية.

وقد ذكر أبو منصور الثعالبي (ت ٤٢٩هـ) أنه بالإضافة إلى بكر بن وائل،



حدود دولة الفرس سنة ٦٠٠ م

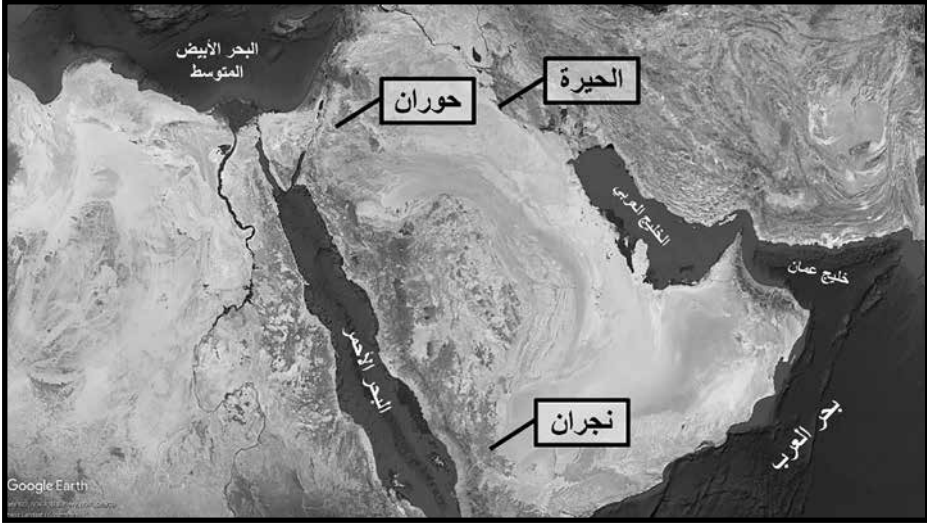


مدن الحيرة والأنبار والمدائن وموقعها من بغداد العاصمة الفعلية للعراق

سار جمع عظيم من بلاد إِياد -الذين كانوا في الأساس في تهامة وانتقلوا إلى نواح من البحرين- وناحية عبد القيس والبحرين وهجر وكاظمة وغيرها إلى أطراف العراق وأسياف فارس، فغلبوا أهلها على أراضيهم ومواشيهم. وأما التَنُوخِيُّونَ، فإنهم رأو في ضعف وانهيار الأشكانيين الفرصة للتمدد جغرافياً في وسط وجنوب العراق، فكان لهم ذلك، ثم لما قامت الإمبراطورية الساسانية تحالفوا معها. ثم أصبح الملك بيد اللخمين، وهم فرع من التَنُوخيين، وكان ملكهم امرؤ القيس بن عمرو الدور في اتساع مملكتهم بحيث وصلت إلى حوران غرباً، وفيها قبره، وإلى نجران جنوباً.

وحين اعتنى النعمان بن امرؤ القيس بـ (بهرام كُور) وهو الابن المريض للإمبراطور الساساني، وبنى له قصر (الخورنق) خصيصاً في القرن الميلادي الرابع، كوفىء النُعمان من قِبَل الإمبراطور الساساني بتعيينه ملكاً على العرب. وبهذا القصر ترتبط قصة المهندس العبقري سنمَار، الذي ما أن انتهى من بنائه بشكل هندسي فذ، حتى جوزي بقتله، إذ أمر الحاكم بإلقائه من الأعلى... والروايات مختلفة في السبب وراء ذلك القرار الغريب. وعلى كل حال أصبحت القصة مضرباً للمثل فيقال (جزاء سنمَار).

وعمل المُنذر بن النُعمان بعد ذلك على دعم ومُساعدة (بهرام كُور) حتّى يصل إلى عرش فارس، بعد أن حاول بعض أهل مملكته إقصاءه عن سُدة الحُكم لِنُشوئه في بلاد العرب وتخلُّقه بأخلاقهم وعاداتهم وتقاليدهم، بما في ذلك التقاليد المسيحية التي دخلت واستقرّت في نفوس عرب الحيرة، فقدّم المُنذر قوّةً عسكريّةً إلى (بهرام كُور) مكّنته من استرجاع عرشه، وبذلك



موقع نجران وحوران بالنسبة إلى الحيرة عاصمة المناذرة

ارتفعت مكانته في البلاط السَّاسانيّ.

وحيث كانت الحبشة حليفةً للروم، عمل الفُرس أيضاً على تقوية مواقعهم في اليمن جنوب الجزيرة العربية، وذلك بهدف مُقاومة النُفوذ البيزنطي في تلك المنطقة، والتقت هذه الإرادة مع إرادة الملك (تُبَّع أسعد أبوكرب) ويُعرف في كتب التراث العربية باسم أسعد الكامل (٣٧٨-٤٣٠ م) أحد ملوك مملكة حمير اليمنية وأطولهم عمراً، والذي ضاق بنشر المسيحية على يد خصومه البيزنطيين وحلفائهم الحبشيين، فجلب بدوره يهوداً من يثرب أو غيرها، ودعا اليمنيين إلى اعتناق هذا الدين بالإجبار، نكايةً بخصومه ففعلوا، وهدموا العديد من الهياكل والمعابد المُكرّسة للآلهة الوثنيّة. ودخل الفُرس على الخط لمدّ نفوذهم في تلك المنطقة، فتحالفا مع المذاهب النصرانيّة المناهضة للبيزنطيين مثل النسطوريّة، وتحالفوا مع اليهود ودعموهم حتّى تحكموا باليمن

أوضاع دولة الفُرس

طيلة القرن الخامس الميلاديّ، حيث قبضوا على أجهزة المملكة الحميريّة وبخاصّة المائيّة، وسيطروا على المراكز المهمّة حتّى الملكيّة نفسها، فكان جميع مُلوك حمير مُنذُ عهد أسعد أبو كرب في بداية القرن الخامس الميلادي حتّى عهد (مرثد إلن: ٤٩٥م) مُتُهودين باستثناء (عبد كلال بن مُثوّب).

وعادت اليمن لاحقاً إلى أحضان البيزنطيين والمسيحية، حتى جاء (ذونّاس يوسُف أسار الحميري) فاعتنق اليهوديّة، وتحالف مع الفرس من جديد، ونكّل بالنصارى. والمروي أنه صاحب قصة الأخدود الواردة في القرآن. وكعادة اللاعبين الكبار، قام الفرس لاحقاً بالتصالح مع البيزنطيين، وكان من بين الأثمان التي قدّمها الفرس أن تخلّوا عن اليمن لصالحهم، ولكنهم عادوا إليها لاحقاً لتقع تحت نفوذهم حتى زوال ذلك في بدايات العهد الإسلامي.

أما في العراق، وعلى الرغم من الخدمات التي قدّمها المناذرة للخميين للساسانيين على مدى عقود بمحاربة أبناء عموماتهم الغساسنة حلفاء الروم وتوسعة نفوذ الفُرس في الشام، إلا أن الأوضاع لم تدم كذلك، حيث تدهورت العلاقات بين الطرفين، وألقى كسرى القبض على الملك النُعمان وحبسه حتّى مات سنة ٦٠٠م. وبوفاة النُعمان وتعيين كسرى لرجل من طيء ملكاً مكانه، انتهى حُكم اللخمين المناذرة في الحيرة، وخسر الساسانيون حليفاً قوياً، فانكشفت جبهتهم الغربية أمام أعدائهم، وأخذ البدو يشنّون الغارات على أطراف الإمبراطوريّة في العراق، وساعدهم على ذلك الاضطراب الداخلي بفعل الصراع على السُلطة وانهماك كسرى بالحرب مع البيزنطيين.

وما لبث أن اشتبك العرب والفُرس في مُواجهة كبيرة عُرفت باسم

(معركة ذي قار) أو (يوم ذي قار)، في بدايات القرن السابع الميلادي، ومن المحتمل في (٦٠٩م) على وجه التحديد، وهي السنة التي بُعث فيها النبي «صلى الله عليه وآله»، وانهزم الفُرس في تلك المعركة، ولم تعد الأوضاع إلى سابق عهدها في المنطقة بعد ذلك.

• تعاقب الأكاسرة:

ثم إنَّ الضعف بدأ يُدبُّ في فارس بعد اغتيال كسرى الثاني سنة ٦٢٨هـ/ ٦٢٨م عقب هزيمته على يد الروم في الشَّام ومصر، واعتلى العرش ابنه الملقَّب قباد الثاني، وتم ذلك بمؤامرة جماعية لفصائل من السلالات الحاكمة حكماً محلياً ومن ذوي النفوذ وهم من الفرثيين، ومن بينهم (فُروخ هرمز) و ابناه (رستم) و (فرخزاد)، و(شهرَبَراز)، ومن الأرمن (فرازتيروتس). وكان الجيش الفارسي أصلاً قد انقسم بعد الهزيمة على يد الروم إلى ثلاثة جيوش مستقلة: جيش أذربايجان بقيادة (فُروخ هرمز)، وجيش الاحتلال بقيادة (شهرَبَراز)، وجيش نيمروز الذي سمي أيضاً جيش فارس والمشرق بقيادة (مهر هرمز)^(١).

ولم يلبث قباد الثاني أن مات، وكان قد أنهى ثلاثين سنة من القتال مع البيزنطيين من خلال توقيع معاهدة الصلح التي عُقدت نتيجة تفاهم تمَّ بين القائد العسكري شهرَبَراز وبين هرقل، وبتعاون من قبل فُروخ هرمز وابنيه رستم وفرخزاد، وكأنَّ أمر القرار الحاسم قد انتقل من الحاكم الساساني إلى القيادات والبيوتات الفرثية القوية.

١. بور شريعتي: اضمحلال الامبراطورية الساسانية وسقوطها، ص ٢٦٧.

وبموت قباذ الثاني وقع الاختلاف بين البيوتات الفرثية القوية وانقسم موقف الجيوش الثلاثة، حيث أيد جيشان منهما إيصال الولد القاصر لقباذ الثاني (أردشير الثالث).

ولكن القائد (شهربراز) المهراني وهو في نفس الوقت زوج أخت كسرى الثاني، تمرّد على القرار ورفض قبوله وتذرّع بأن عظماء الفرس لم يشاوروه في تملك أردشير الثالث.

قام شهربراز على إثر ذلك بتوجيه قوة عسكرية كبيرة مؤلفة من ستة آلاف مقاتل تم سحبهم من على الحدود البيزنطية ليستقروا في العاصمة الساسانية، فاستولى عليها، وقام بأسر عدد من القادة وصادر ثرواتهم وأعدمهم، كما أعدم الملك البالغ من العمر سبع سنوات، وبذا استولى على العرش في سنة ٦٣٠م، ليكون الحاكم من الفرثيين من جديد بعد أن كانوا على مدى أربعة قرون من الساسانيين. ومما يُذكر في هذا الإطار، أن هرقل سبق أن شجّع شهربراز على الثورة ووعدّه بقوات إسناد عند الحاجة!

وعلى العموم، ثار بعض الأمراء والشخصيات الرافضة لهذا الانقلاب، ومن بينهم فروخ هرمز، وقتلوا شهربراز، وقيل أنه اغتيل بالسم، إذ تقول إحدى الروايات أنه (لما جلس على سرير الملك ضرب عليه بطنه، وبلغ من شدة ذلك عليه أنه لم يقدر على إتيان الخلاء، فدعا بالطست، فوضع أمام ذلك السرير، ومدّ في وجهه ما ستره، فتبرز في الطست)^(١).

وتم على إثر ذلك تنصيب (كسرى الثالث) ابن أخ كسرى الثاني وهو طفل

١. ابن مسكويه: تجارب الأمم وتعاقب الهمم، ج ١، ص ٢٥٠.

صغير، ثم قُتل فخلفته (بوران/بوراندخت) ابنة كسرى الثاني، وأمها مريم ابنة موريس قيصر الروم، ودام حُكمها سنة وأربعة أشهر، وقامت بدورها بتعيين فرُّوخ هرمز في منصب وزير أول للبلاط، ويبدو أنها كانت مجبرة على ذلك من واقع ما لهذا القائد من قوة ونفوذ. وتذكر بعض المصادر أن فرُّوخ هرمز أرسل إلى الملكة بوراندخت رسالة طالباً يدها للزواج، فوافقت، إلا أن موافقتها - بحسب البعض - كانت مجرد حيلة لكي تتخلص منه لاحقاً، وهذا ما تحقق. وتذكر بعض المصادر أن القائد فرُّوخ هرمز ذاته قد نصب نفسه ملكاً في موازاة حكم شهربراز وما بعد، ولعله تقدّم للزواج من الملكة كنوع من التحالف وجعلته الملكة وزيراً لها، ثم قتلته وتخلّصت منه.

وأعقبها على الملك ابن عمّتها واسمه (شاپور شهروراز)، ثم جاء في نفس السنة ٦٣٠م أحد أحفاد (أنوشيروان الساساني) واسمه (كشتاسب) ويُعرف بلقب بيروز الثاني فحكم لمدة قصيرة.

ثم جاء دور (آزرميدخت) ابنة كسرى الثاني فانقلبت على بيروز الثاني في نفس السنة أيضاً، ولكن لم يدُم حُكمها سوى بضعة أشهر حيث انقلب عليها (كسرى الرابع). وقيل أن فرُّوخ هرمز كان قد عرض على هذه الملكة الزواج لا على أختها الملكة السابقة بوراندخت، وأن الثانية هي التي قتلته سنة ٦٣١م، وأن رستم ابن القتيل انتقم لأبيه فقتل هذه الملكة لاحقاً.

كما وظهر في هذه الأثناء (هرمز السادس) معلناً نفسه ملكاً، وعادت (بوران/بوراندخت) مجدداً في سنة ٦٣١م لتحكم، وفي السنة اللاحقة وُجدت

ميتة في فراشها !!

أوضاع دولة الفُرس

وجاء من بعدها (يزدجرد الثالث) حفيد كسرى الثاني وحكم مدة ١٩ سنة خلال فترة الفتوحات الممتدة في إيران وأفغانستان وتركمنستان.

ولابد من التنبيه إلى أن بعض هؤلاء الأكاسرة لم يكن مُعترفاً بهم إلا في بعض أجزاء البلاد التي ادّعوا حُكمها ووقوعها تحت سلطانهم. وفي واقع الأمر لم يكن الشاه الأخير سوى دُمية صوريّة بيد القائد العسكري (رُستم)، الذي أضحى الحاكم الفعليّ للإمبراطوريّة المتداعية، وتفكّكت المملكة بحيث استقلَّ كلُّ قائد ووالي بولايته أو إقطاعيته.

وقد حاول رُستم جاهداً أن يعمل على إعادة اللُحمة والقوّة إلى الدولة، لكنّه وَجَد نفسه عاجزاً عن وقف زحف المُسلمين الجارف، لاسيما مع تحالف مملكة الحيرة مع المسلمين، لتنتهي بذلك الدولة الساسانية.

وفي المنفى خلال العهد الإسلامي ادّعى الملك أربعة من أحفاد الملوك الساسانيين وذلك في فترات متقطّعة امتدت قرابة قرنين من الزمان.

وهكذا نجد أنه -ومنذ مقتل كسرى الثاني على عهد النبي- تعاقب اثنا عشر حاكماً من الساسانيين وغيرهم على كرسي مُلك بلاد فارس، وذلك في غضون أربع سنوات، أي من ما بين سنة ٦٢٨-٦٣٢ م!!

كل العوامل السابقة أدّت في نهاية المطاف إلى أن تتمكّن قوّات المسلمين من توجيه ضربات سريعة ومتتالية للإمبراطورية الساسانية في العراق بدءاً، ثم لتُسقطها وتُنتهي حُكم الساسانيين في غضون سنوات قلائل، مع التأكيد على أن ذلك لا يعني عدم وجود مقوّمات إيجابية في الجيش الإسلامي ذاته مكّنته

من تحقيق تلك النتائج، وذلك من قبيل التمسك بالدين والرغبة في الشهادة والتسامح والابتعاد عن الروح التدميرية التي يتّصف بها الغزاة عادة، وغير ذلك مما سنعرض له لاحقاً في فصل قادم بإذن الله «تعالى».



تمثال لرستم فرخزاد



وصف إجمالي للفتوحات

وصف إجمالي للفتوحات

بدأت حركة الفتوحات الإسلامية على عهد الخليفة أبي بكر، فإذا عددنا منها بَعَثَ أسامة بن زيد، فستكون هذه الحركة قد بدأت في الشهر الثاني بعد وفاة رسول الله «صلى الله عليه وآله»، لأن أسامة انطلق بالجيش -بحسب إحدى الروايات التاريخية وكما مر معنا من قبل- في شهر ربيع الثاني من سنة ١١ هـ/٦٣٢م، ودخل في عمق الأراضي الأردنية حتى بلغ مؤتة حيث استشهد أبوه زيد وذلك على عهد رسول الله «صلى الله عليه وآله» قبل ٤ سنوات من ذلك.

وأما إذا أخرجنا هذه الحملة العسكرية من حساباتنا، باعتبار أنه لم يكن الهدف منها -كما ولم ينتج عنها- أيّ (فتح/توسّع/سيطرة) على الأرض، بل كانت مجرد حملة توغل في الشام ومن ثمّ الرجوع إلى المدينة المنورة كما سيأتي تفصيله في محله، لذا فإنّ تأريخ بداية حركة الفتوحات ستكون بعيد انتهاء حروب الردّة، وذلك سنة ١٢ هـ/٦٣٣م.

بل برأيي أنّ من الصعب التفكيك ما بين بعث أسامة، وحروب الردّة، وانطلاقة الفتوحات الإسلامية، لأنّ جانباً من دوافع التمرد السياسي والإداري والردّة الدينية التي شهدتها الجزيرة العربية جاءت:

١. بتحريض من دولتي الفرس والروم.
 ٢. أو نتيجة التحالفات التي كانت قائمة بينهما وبين بعض الأطراف (العربية) في الجزيرة.
 ٣. أو لفقدان شيء من سلطانهما فيها.
- فدولة الفرس مثلاً كانت تحكم (البحرين) بحدودها القديمة التي تشمل الساحل الغربي للخليج العربي والشمال الشرقي للجزيرة العربية امتداداً إلى الإحساء، كما كانت اليمن واقعة تحت نفوذها، وقد توافد أهل هذه المناطق على رسول الله «صلى الله عليه وآله» في السنتين التاسعة والعاشر من الهجرة لإعلان الدخول في الإسلام أو في معاهدات سياسية وأمنية وتجارية مع الدولة الإسلامية الفتية، وهو ما اعتبره الفرس ضربة موجعة لكبريائهم، وتمرداً لا يُغتفر من قبل حلفائهم، وتهديداً مستقبلياً لأنهم وسلطانهم. فهل يمكن والحال هذه أن نتصور بقاء الفرس في حالة من الانتظار والترقب و(السلبية) تجاه هذه التطورات السريعة في المنطقة التي قد تؤثر أيضاً على نتيجة صراعها مع امبراطورية الروم البيزنطية، وهي عدوتها التقليدية، وخصمها العنيد الذي تغلب عليها مؤخراً؟ فهل يمكن للفرس تقبل المزيد من الخسائر لنفوذهم وسلطانهم على الأرض، خاصة مع نظرتهم الاستكبارية تجاه العرب الذين كانوا يحتقرونهم، وهو ما يعكسه تصرف كسرى الثاني تجاه رسالة النبي «صلى الله عليه وآله» إليه.

فكسرى/ خسرو الثاني والمعروف أيضاً باسم (برويز)، كان يحكم من سنة ٥٩١م، أي قبل ٣٠ سنة من الهجرة النبوية، واستمر حكمه إلى سنة ٦٢٨م /

٦هـ ، وهو يرى نفسه امبراطوراً قد قهر البيزنطيين من قبل، وإن هُزم لاحقاً، ويمتد مُلكه الواسع مناطق شاسعة من آسيا، بل امتدّ حكمه إلى مصر حين انتصر على البيزنطيين.

وقد روت مصادر متعددة أن النبي «صلى الله عليه وآله» كتب إلى كسرى الثاني برويز: (بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس، سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله ورسوله، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأدعوك بدعاية الله، فإنني أنا رسول الله إلى الناس كافة، لينذر من كان حياً ويُحقّ القول على الكافرين، فأسلم تسلم، فإن أبيت فإنّ إثم المجوس عليك)^(١).

وتذكر الروايات أيضاً أن النبي «صلى الله عليه وآله» اختار لحمل هذا الكتاب عبد الله بن حذافة السهمي، فدفعه السهمي إلى (عظيم) البحرين الذي كان يمثل امبراطورية الفرس في شمال شرق الجزيرة العربية، وتذكر الروايات أن كسرى مزّق الرسالة، واختلفت أنّ ذلك كان قبل أو بعد قراءتها عليه، وأنه -على رواية أنها قرئت عليه- قال وهو في غطرسته: (عبد حقير من رعيّتي يكتب اسمه قبلي؟). ولما بلغ ذلك رسول الله «صلى الله عليه وآله» قال: (مزّق الله ملكه).

وقد كان كما قال «صلى الله عليه وآله»، فقد كتب كسرى إلى عامله على اليمن، (بازان ابن ساسان جرون)، الذي يُعتبر آخر حاكم فارسي في اليمن، وكان قد عُيّن حاكماً على عدن وصنعاء وضواحيها وعلى قسم من جنوب شبه

١. المباركفوري: الرحيق المختوم، ج ١، ص ٣١٦.

الجزيرة العربية بأمر من كسرى أنوشروان: (ابعث إلى هذا الرجل الذي بالحجاز رجلين من عندك جلدَيْن فليأتياني به) (١).

فاختار باذان رجلين ممّن عنده، وبعثهما بكتاب إلى رسول الله يأمره فيه أن ينصرف معهما إلى كسرى، فلما قدما المدينة، وقابلا النبي قال أحدهما: (إن شاهنشاه) (٢) كسرى قد كتب إلى الملك باذان يأمره بأن يبعث إليك من يأتيه بك، وبعثني إليك لتتطلق معي، وقال قولاً توعدّه فيه). فأمرهما النبي «صلى الله عليه وآله» أن يلاقياه غداً. وفي ذلك الوقت كانت قد قامت ثورة كبيرة ضد كسرى من داخل بيته بعد أن لاقت جنوده هزيمة منكرة أمام جنود قيصر الروم هرقل، فقد قام شيرويه بن كسرى على أبيه فقتله، وأخذ الملك لنفسه، وتذكر الروايات أن رسول الله «صلى الله عليه وآله» علم الخبر من الوحي، فلما غدوا عليه أخبرهما بذلك. فقالا: (هل تدري ما تقول؟ إنا قد نقمنا عليك ما هو أيسر، أفنكتب هذا عنك، ونخبره الملك؟ قال: نعم، أخبراه ذلك عني، وقولا له: إن ديني وسلطاني سيبلغ ما بلغ كسرى! وينتهي إلى منتهي الخف والحافر (٣)، وقولا له: إن أسلمت أعطيتك ما تحت يدك، وملكتك على قومك من الأبناء).

والأبناء هي تسمية تطلق على العناصر اليمنية ذات الأصل الفارسي التي قدمت إلى اليمن في النصف الأول من القرن السادس الميلادي، في حملة أرسلها كسرى فارس (أنوشروان) لنجدة سيف بن ذي يزن في حربه ضد

١. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٢٩٦.

٢. أي: ملك الملوك.

٣. أي إلى حيث يمكن للإبل والخيول أن تصل.

الوجود الحبشي. سمووا بالأبناء لأنهم مكثوا في اليمن وخلفوا فيها، وأخلافهم يتواجدون اليوم في بني حُشيش الواقعة شرقي صنعاء وفيها قريتان منسوبتان إليهم هما: قريتا (الفرس) و(الأبناء)، وفي خولان وسنحان.

ثم تذكر الروايات أن النبي أعطى أحدهما منطقة فيها ذهب وفضة كان أهداها له بعض الملوك، فخرجوا من عنده حتى قدما على باذان وأخبراه الخبر، فقال: (والله ما هذا بكلام ملك، وإني لأرى الرجل نبياً كما يقول، ولننظر ما قد قال، فلئن كان ما قد قال حقاً، ما فيه كلام أنه نبي مرسل، وإن لم يكن فسنرى فيه رأينا).

وبعد قليل جاء كتاب بقتل شيرويه لأبيه، وقال له شيرويه في كتابه: (أما بعد، فإني قد قتلت كسرى، ولم أقتله إلا غضباً لفارس، لما كان استحل من قتل أشرافهم، فإذا جاءك كتابي هذا فخذ لي الطاعة ممن قبلك، وانظر الرجل الذي كان كسرى كتب إليه فيه، فلا تهجه حتى يأتيك أمري فيه).

فلما انتهى كتاب شيرويه إلى باذان قال: (إن هذا الرجل لرسول، فأسلم وأسلمت الأبناء من فارس من كان منهم باليمن)^(١).

وقد مررنا في الفصل السابق كيف تعاقب اثنا عشر ملكاً على حكم بلاد فارس في غضون أربع سنوات وفي جوٍّ محموم من الصراعات والمؤامرات والهزائم في مواجهة المسلمين، بما يمثل خير مصداق لدعائه «صلى الله عليه وآله».

بالطبع، فإن من المنطقي أن يتحرك الفُرس -ولو عن طريق حلفائهم في الجزيرة العربية أو في العراق- لمواجهة تمدد الدولة الإسلامية على

١. المجلسي: بحار الأنوار، ج ٢٠، ص ٣٩١.

حسابهم، وهو ما انعكس من خلال بعض حالات التمرد والردة بعد وفاة النبي «صلى الله عليه وآله»، باعتبارها الفرصة السانحة لتوجيه ضربة للدولة الفتية التي فقدت للتو مؤسستها وحاكمها وراعيها الروحي. وقد مرّت بنا في محاضرة سابقة عدّة شواهد على ذلك، كما مرّت بنا الشواهد على أن الساسانيين حرّكوا إحدى الأطراف العربية من العراق باتجاه الجزيرة العربية كما تحرّك أحد قادتهم أيضاً والذي نتجت عنه المواجهة في كاظمة والتي ضخّمها سيف بن عمر وأسماءها ذات السلاسل.

هذا الأمر دفع بالمسلمين في (العهد الراشدي) وفي امتداد معالجة الردّة وحالات التمرد والعدوان كي يكيلوا لهذا العدو الصاع صاعين، بل وليعملوا على القضاء عليه، ويمهدوا الطريق لتحرير الناس في العراق وبلاد فارس وما كان تحت نفوذ الفرس الساسانيين عموماً من سلطتهم الجائرة والمتهاكمة، وهو ما يعكسه إقبال أهالي تلك البلاد على (الفاتحين) في كثير من الأحيان دون قتال، أو بعد قتال يسير، لتُختتم مشاهد الفتوحات فيها بالصلح أو الإقبال على الإسلام أو حتّى التعاون مع المسلمين لفتح المزيد من الأراضي وتخليصها من حكم الساسانيين، وقد مرّت بنا وستأتي معنا شواهد عديدة على ذلك، دون أن يعني ذلك عدم وقوع المواجهات والمعارك العسكرية مع السلطة الحاكمة ومع بعض النواحي من بلاد فارس والعراق.

بالطبع، فإنّ هذه القراءة هي القراءة السليمة لمجريات الأحداث بعيداً عن تأثير روايات سيف بن عمر التميمي الذي أخذها إلى منحى آخر مختلف تماماً، وادّعى وقوع حروب ومجازر رهيبة على يد المسلمين راح فيها مئات

الآلاف من الناس من العسكريين والمدنيين، وهي ليست إلا أكاذيب اكتشفها منذ البداية مؤرّخون من قبيل الطبري، إلا أنهم وللأسف أقحموها في كتبهم وصارت هي المادة الرئيسة لأخبار الفتوحات، مع تصريحهم بأنها مخالفة للأخبار الصحيحة في هذا الباب!!

هذه القراءة التحليلية لمجريات انطلاقة حركة الفتوحات الإسلامية في اتجاه امبراطورية الفُرس في العهد الراشدي، بالإضافة إلى انطلاقتها في الشام الواقعة تحت حكم امبراطورية الروم ضمن السياق الطبيعي للصراع الذي نشب على عهد رسول الله «صلى الله عليه وآله» وتبلور في أكثر من مشهد، ومن بينه غزوة مؤتة فتبوك، وامتدّ بعد ذلك حيث أمر قبيل وفاته بإنفاذ (جيش أسامة)، وهو الصراع الذي تسببت فيه الروم وحلفاؤها -كما مرّ بنا- باعتدائهم على مبعوث النبي «صلى الله عليه وآله» وعلى بعض المسلمين ممّن كانوا يعيشون في مناطق نفوذهم، لنعود ونؤكد على أن حركة الفتوحات الإسلامية بدأت من منطلق الدفاع عن كيان الإسلام، لا من منطلق ما يُطلق عليه عنوان (الجهاد الابتدائي)، أي البدء بالهجوم العسكري على غير المسلمين.

• مليء الفراغ السياسي:

وبرأيي أيضاً أنّ الفتوحات لم تأتِ لمليء الفراغ السياسي كما حاول بعض الباحثين أن يُبرّر من خلالها الحروب التي شنها المسلمون على غيرهم، حيث افترضوا ذلك تخلصاً من تهمة (العدوان) بتصور أن المسلمين كانوا هم المبادرين في القتال.

فقد اتّجه بعض الباحثين إلى هذه الفرضية بذريعة أنّ ملء الفراغ السياسي أمر مقبول في عالم السياسة الواقعية، تماماً كما قامت تركيا بذلك مثلاً في شمال سورية قبل سنتين، حيث أنّ وجود الاضطرابات السياسية والأمنية في دولة مجاورة قد يؤدّي إلى جرّ المنطقة ككل إلى أتون فتن وحروب وصراعات بينية أو داخلية، وإلى مشاكل اجتماعية واقتصادية جراء حركة النزوح القسرية هرباً من الأوضاع في تلك المجتمعات التي تعاني من الفراغ السياسي، ومن هنا يحقّ للدولة الجارة مثلاً، أو لقوّة عظمى، ترى في نفسها القدرة أن تقوم بمليء ذلك الفراغ بأحسن وجه، وتقليل مخاطر الوضع السلبي القائم، وتجنب الجميع ويلاته وتبعاته الخطيرة على أكثر من صعيد.

ولو افترضنا جدلاً مقبولة ومشروعية مثل هذا (التدخل/ الغزو/ الفتح/ الاحتلال) وعدم دخوله ضمن النهي الصادر في القرآن الكريم بعدم العدوان والالتزام بالحرب الدفاعية فقط، فإنه يمكن تصحيح هذه الفرضية وقبولها، ولكنني بيّنت -من خلال الشرح والتحليل المتقدم- أننا في غنى عنها، كما أنّ عدم دخول (ملء الفراغ السياسي) تحت عنوان (العدوان) أمرٌ مشكوك فيه وبجاجة إلى إعادة نظر.

وخلاصة القول أنّ الفتوحات الإسلامية بغضّ النظر عن هذا الاسم الذي التصق بها، والذي قد يوحي بخلاف منطلقاتها الدفاعية، جاءت في إطار دفاع المسلمين عن دولتهم التي طالما تعرّضت للعدوان والمؤامرات والدسائس والتحالفات الشيطانية التي استهدفت إسقاطها، منذ عهد النبي «صلى الله عليه وآله»، سواء من قبل المشركين أو اليهود أو نصارى الأعراب أو

الروم أو الفرس أو حلفائهما أو غيرهم. وعلى ما سبق، يمكن أن نُؤقت لبداية حركة الفتوحات الإسلامية ضمن سيناريوهات مختلفة، وهي كالتالي:

- بعث أسامة بن زيد في ربيع الثاني ١١ هـ أي بعد شهر تقريباً من وفاة النبي.
- حروب الردة، في نهايات جمادى الأولى أو بدايات جمادى الآخرة ١١ هـ.
- بعد انتهاء حروب الردة، في صفر من سنة ١٢ هـ.

ولو أخذنا بالقول الثالث، فستكون بداية حركة الفتوحات في العراق بحسب (الوضّاع) سيف بن عمر، بينما نجد أن المؤرّخ البلاذري بعد أن انتهى من استعراض (حروب الردّة) بدأ بذكر (فتوح الشام) وقال: (قالوا: لما فرغ أبو بكر «رضي الله عنه» من أمر أهل الردّة، رأى توجيه الجيوش إلى الشام. فكتب إلى أهل مكة والطائف واليمن، وجميع العرب بنجد والحجاز، يستنفرهم للجهاد ويرغبهم فيه وفي غنائم الروم. فسارع الناس إليه من بين محتسب وطامع، وأتوا المدينة من كل أوب. فعقد ثلاثة ألوية لثلاثة رجال)^(١).

وهؤلاء القادة هم كالتالي:

١. خالد بن سعيد بن العاصي بن أمية

٢. شرحبيل بن حسنة

٣. عمرو بن العاص بن وائل السهمي

وأضاف البلاذري: (وكان عقده هذه الألوية يوم الخميس لمستهلّ صفر سنة ثلاث عشرة، وذلك بعد مقام الجيوش معسكرين بالجرف، المحرم كله،

١. البلاذري: فتوح البلدان، ج ١، ص ١٢٨.

وأبو عبيدة بن الجراح يصلي بهم. وكان أبو بكر أراد أبا عبيدة أن يعقد له فاستعفاه من ذلك. وقد روى قوم أنه عقد له) قال بذلك سيف بن عمر (وليس ذلك بثبت، ولكنَّ عمر ولاء الشام كله حين استُخلف)^(١).

• عزل خالد بن سعيد الأموي:

وهنا يستوقفنا حدثٌ ذكره الطبري والبلاذري وغيرهما عن محمد بن إسحاق وعمر بن شبة يتعلّق بعزل القائد خالد بن سعيد الأموي بعد تعيينه وذلك بطلب من عمر بن الخطاب، وهي الحادثة التي وجد فيها سيف بن عمر مادة دسمة للوضع والتزوير.

فلنتعرّف بدءاً على صاحب القضية ثم ننتقل لعرض المسألة. هو الصحابي خالد بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي، الأموي القرشي. أسلم قديماً، يقال: إنه أسلم بعد أبي بكر، فكان ثالثاً أو رابعاً، وقيل: كان خامساً. وقال ضمرة بن ربيعة: (كان إسلام خالد مع إسلام أبي بكر). وقالت أم خالد بنت خالد بن سعيد بن العاص: (كان أبي خامساً في الإسلام. قلت: مَنْ تقدّمه؟ قالت: علي بن أبي طالب، وأبو بكر، وزيد بن حارثة، وسعد بن أبي وقاص)^(٢). طرده أبوه -وكان شديداً على المسلمين- حين أسلم، وهاجر هو وأخوه عمرو إلى الحبشة، وعادا منها مع جعفر بن أبي طالب سنة ٧هـ، وشهد فتح مكة، وحنيناً، والطائف، وتبوك، وبعثه رسول الله عاملاً على صدقات اليمن أو بعضها، فتوفي النبي وهو عليها. ولما رجع بعد

١. البلاذري: فتوح البلدان، ج ١، ص ١٢٨.

٢. ابن الأثير: أسد الغابة، ج ٢، ص ٨٢.

وفاة النبي لم يبايع أبابكر وانتصر لعلي، فلما بايع الإمام أبابكر، بايعه هو أيضاً. استشهد في الشام ضمن حركة الفتوحات.

والآن، فلنتوقف قليلاً عند روايات غير سيف، ثم نقارنها بروايته. قال البلاذري: (ولما عقد أبو بكر لخالد بن سعيد، كره عمر ذلك. فكلّم أبا بكر في عزله، وقال: إنه رجل فخور يحمل أمره على المغالبة والتعصّب. فعزله أبو بكر ووجه أبا أروى الدوسي لأخذ لوائه، فلقية بذى المروة^(١) فأخذ اللواء منه، وورد به على أبي بكر، فدفعه أبو بكر «رضي الله عنه» إلى يزيد بن أبي سفيان. فسار به ومعاوية أخوه يحمله بين يديه... وسار خالد بن سعيد محتسباً في جيش شرحبيل^(٢)).

وقال الطبري: (وكان سبب عزل أبي بكر خالد بن سعيد فيما ذكر، ما حدثنا ابن حميد قال حدثنا سلمة عن ابن إسحاق عن عبد الله بن أبي بكر أن خالد بن سعيد حين قدم من اليمن بعد وفاة رسول الله «صلى الله عليه وسلم» ترّبّص ببيعته شهرين، يقول قد أمّرتني رسول الله «صلى الله عليه وسلم» ثم لم يعزلني حتى قبضه الله، وقد لقي علي بن أبي طالب وعثمان بن عفان فقال: يا بني عبد مناف، لقد طبتم نفساً عن أمركم يليه غيركم، فأما أبو بكر فلم يحفلها عليه، وأمّا عمر فاضطفنها عليه) من الضغينة (ثم بعث أبو بكر الجنود إلى الشام، وكان أول من استعمل على رُبع منها خالد بن سعيد، فأخذ عمر يقول: أتؤمّره وقد صنع ما صنع، وقال ما قال؟ فلم يزل بأبي بكر حتى عزله، وأمّر يزيد بن أبي سفيان^(٣)).

١. ١٨٠ كم شمال المدينة المنورة إلى الغرب من خيبر.

٢. البلاذري: فتوح البلدان، ج ١، ص ١٢٨-١٢٩.

٣. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٥٨٦.

أما سيف بن عمر التميمي فقد تلاعب في القصة حيثما انتهى، ووظفها في عدة اتجاهات تتناسب وزندقته من جهة، من خلال إضافة بعض التفاصيل المخترعة للتلاعب في خلفيات المواقف ومسبباتها، ثم محاولة تمريرها بالضرب على وتر الانتصار لفئة معينة من قريش كما هو ديدنه، قال سيف كما في تاريخ الطبري: (كان خالد بن سعيد بن العاصي باليمن زمن النبي «صلى الله عليه وآله» وتوفي النبي «صلى الله عليه وآله» وهو بها، وقدم بعد وفاته بشهر، وعليه جبة ديباج، فلقي عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب، فصاح عمر بمن يليه: مَزَقُوا عليه جبته، أ يلبسُ الحرير وهو في رجالنا في السلم مهجور؟) استثنى لبس الحرير للرجال ضمن ثياب الحرب المعهودة في ذلك الزمان (فمزقوا جبته، فقال خالد: يا أبا الحسن! يا بني عبد مناف! أغلبتم عليها؟) وكأن موقفه المعارض كان نتيجة انتقام لنفسه لا كموقف مبدئي انطلاقاً من ولائه لأمير المؤمنين «عليه السلام» والتزامه بما عهده عن رسول الله «صلى الله عليه وآله» بخصوصه (فقال علي «عليه السلام»): أمغالبة ترى أم خلافة؟ قال: لا يغالب على هذا الأمر أولى منكم يا بني عبد مناف. وقال عمر لخالد: فضَّ الله فاك. والله لا يزال كاذب يخوض فيما قلت ثم لا يضر إلا نفسه. فأبلغ عمر أبا بكر مقالته، فلما عقد أبو بكر الألوية لقتال أهل الردة عقد له فيمن عقد، فنهاء عنه عمر وقال: إنه لمخذول وإنه لضعيف التروية، ولقد كذب كذبة لا يفارق الأرض مدل بها وخائض فيها، فلا يُستنصر به. فلم يحتمل أبو بكر عليه، وجعله ردءً بتيماء، أطاع عمر في بعض أمره، وعصاه في بعض) (١).

ثم روى سيف رواية أخرى ادّعى فيها وقوع معركة بين خالد بن سعيد وبين الروم في تيماء، وأنها كانت السبب في اندفاع الخليفة أبي بكر لفتح الشام.

• حركة قوات المسلمين:

نعود من جديد إلى رواية البلاذري حول فتح الشام، حيث تحدّث عن حركة القوّات باتجاهات ثلاثة، وتحت كل لواء -في بداية الأمر- ثلاثة آلاف مقاتل، إلا أنّ عدد المقاتلين ازداد لاحقاً على دفعتين من خلال إرسال المدد تدريجياً، فقد بلغ عدد المقاتلين تحت كل لواء سبعة آلاف، ثم ازداد العدد فبلغ ثمانية آلاف. وهكذا تحرّك:

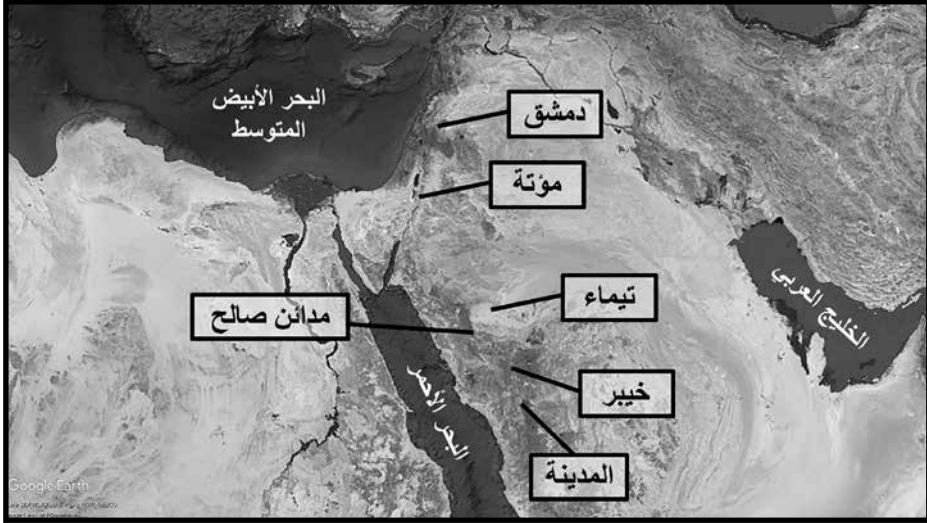
١. عمرو بن العاص باتجاه فلسطين

٢. شرحبيل باتجاه الأردن

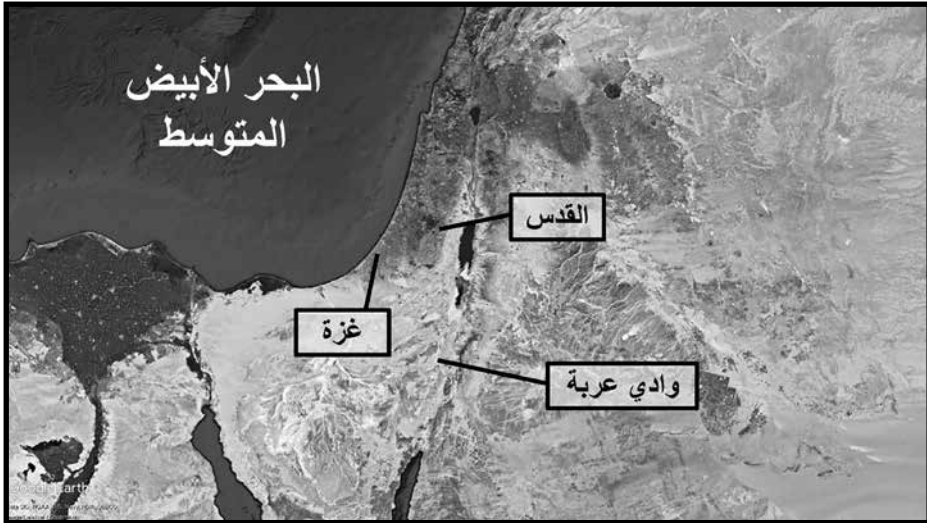
٣. يزيد بن أبي سفيان باتجاه دمشق

وكانت أول مواجهة مع الروم في جنوب فلسطين، وتُعرف باسم (وقعة العربة) نسبة إلى موقع المواجهة. قال البلاذري، وكأنّه يُعرّض برواية سيف التي ادّعى فيها وقوع معركة في تيماء فكانت هي السبب في الاندفاع لفتح الشام: (وحدّثني أبو حفص الشامي، عن مشايخ من أهل الشام قالوا: كانت أول وقائع المسلمين ووقعة العربة، ولم يقاتلوا قبل ذلك مذ فصلوا من الحجاز. ولم يمرّوا بشيء من الأرض فيما بين الحجاز وموضع هذه الوقعة إلا غلبوا عليه بغير حرب وصار في أيديهم)^(١).

١. البلاذري: فتوح البلدان، ج ١، ص ١٢٠.



موقع تيماء بالنسبة إلى المدينة المنورة وبعض مدن الشام والجزيرة العربية



موقع معركة العربة جنوب شرق فلسطين

وهكذا توالى فتوحات الشام بعد ذلك في أكثر من اتجاه، فخالد بن الوليد -الذي جاء كمدد من جهة العراق- وصل إلى دمشق بعد أن هجم على عدة مدن وقرى، وتراوحت المواجهات ما بين قتال ومصالحة، قال البلاذري: (قالوا: ونزل خالد بالباب الشرقي من دمشق، ويقال بل نزل بباب الجابية، فأخرج إليه أسقف دمشق نزلاً وخدمة فقال: احفظ لي هذا العهد. فوعده بذلك. ثم سار خالد حتى انتهى إلى المسلمين وهم بقناة بصرى)^(١).

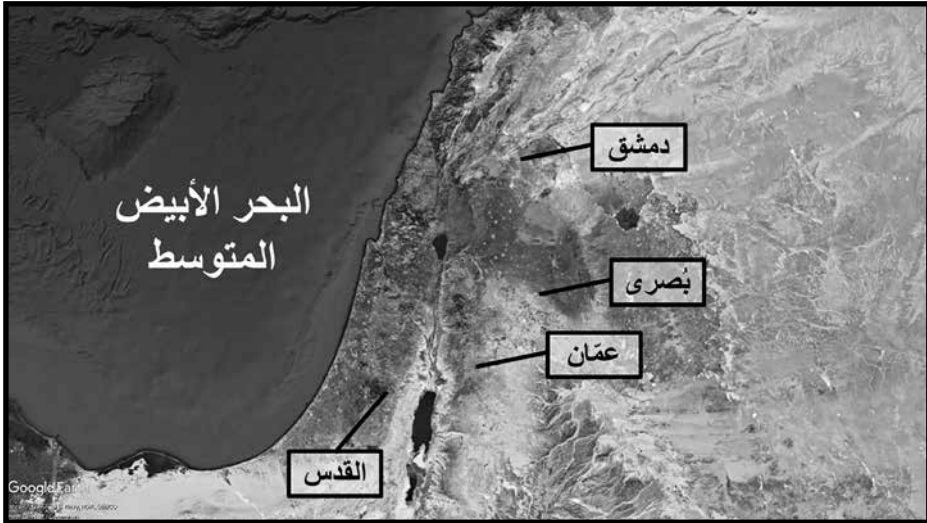
ووقع قتال في بصرى، ثم (إن أهلها صالحوا على أن يؤمنوا على دمائهم وأموالهم وأولادهم على أن يؤدوا الجزية... وافتتح المسلمون جميع أرض كورة حوران) تمتد هذه المنطقة من جنوب دمشق إلى شمال الأردن (وغلبوا عليها... وتوجه أبو عبيدة بن الجراح في جماعة من المسلمين كثيفة من أصحاب الأمراء ضُموا إليه، فأتى مآب من أرض البلقاء وبها جمع العدو، فافتتحها صلحاً على مثل صلح بصرى)^(٢).

ثم كانت وقعة (أجنادين) في ١٨ جمادى الأولى سنة ١٣هـ / ٢٠ يوليو ٦٣٤م، وشهدها من الروم زهاء مائة ألف، وهرقل يومئذ مقيم بحمص، فقاتلهم المسلمون قتالاً شديداً. قال البلاذري: (ثم إن الله هزم أعداءه ومزقهم كل ممزق، وقتل منهم خلق كثير... قالوا: ولما انتهى خبر هذه الوقعة إلى هرقل نخب قلبه وسقط في يده وملئ رعباً، فهرب من حمص إلى أنطاكية)^(٣).

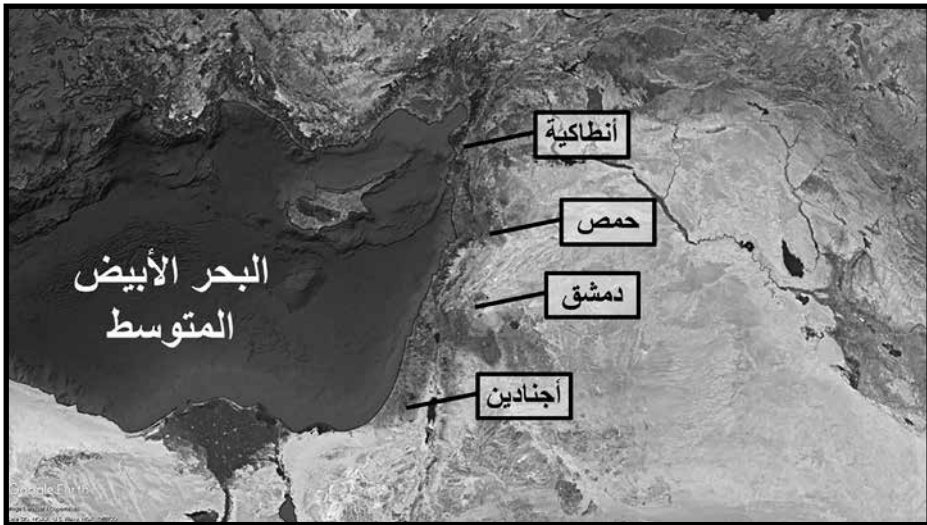
١. البلاذري: فتوح البلدان، ج ١، ص ١٢٣.

٢. البلاذري: فتوح البلدان، ج ١، ص ١٢٤.

٣. البلاذري: فتوح البلدان، ج ١، ص ١٣٥-١٣٦.



موقع بصرى ودمشق



موقع أجنادين وحمص وأنطاكية

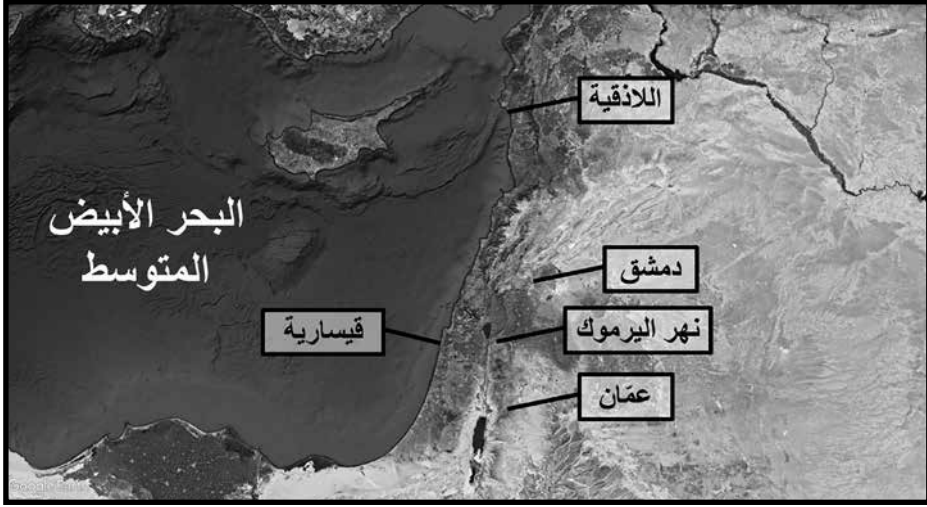
وبعد هذه المواجهة، توفي الخليفة أبوبكر، وتوالى المواجهات بين الطرفين في مواقع مختلفة من الشام على عهد الخليفة عمر، ومن بينها (مرج الصفر)، ثم فُتحت دمشق بعد حصار وُصِّلح في شهر رجب من سنة ١٤هـ، وأعقبها حمص التي استسلم أهلها وصالحوا المسلمين، ثم كان فتح اللاذقية بعد قتال يسير وُصِّلح، وأعقب ذلك بعض المدن الساحلية.

• معركة اليرموك الحاسمة:

على وقع الانتصارات التي حقّقها المسلمون في الشام، لم يهدأ لهرقل بال، فجمع قوة كبيرة من الروم وأهل الشام وأهل الجزيرة (شمال العراق) وأرمينية، وشكّل جيشاً قوامه مائتا ألف مقاتل، ووقعت المواجهة مع المسلمين الذين بلغ عدد مقاتليهم ٢٤ ألفاً أو ٣٦ ألفاً، قرب نهر اليرموك بالأردن، وذلك في رجب من سنة ١٥هـ/أغسطس ٦٣٦م.

وتعتبر معركة اليرموك التي استمرّت لعدّة أيام المعركة الفاصلة بين المسلمين وبين الروم في (فتوحات العهد الراشدي) وروي أنه قُتل من جيش الروم قرابة السبعين ألفاً، وخسر المسلمون أيضاً أسماء بارزة من قادتهم ومقاتليهم، وروي أنه اضطرت بعض نساء المسلمين للمشاركة في المواجهات، وذهبت يوم اليرموك عين الأشعث بن قيس سيّد كندة، وعين هاشم بن عتبة بن أبي وقاص المرقال بطل بني زُهرة، وعين قيس بن مكشوح المرادي سيّد مذحج^(١)، وعين المغيرة بن شعبه، وفيها شُتت عين مالك فلقّب بعدها بالأشتر.

١. البلاذري: فتوح البلدان، ج ١، ص ١٦٠.



موقع نهر اليرموك وقيسارية

ولكن ترتّب على هذا النصر العظيم أن استقرّ المسلمون في بلاد الشام، واستكملوا فتح مدنه.

وبعد ثمان (أو ست) سنوات^(١) من بدء الحملات على الشام، وفي سنة ١٩هـ/٦٤٠م على وجه التحديد، كانت بلاد الشام كلها تحت نوع ما من الحكم الإسلامي، باستثناء مدينة (قيسارية) الساحلية الفلسطينية والتي تقع جنوب حيفا بقرابة ٣٧ كم على ما روي.

ثم واصل المسلمون -بعد الانتهاء من أمر البيزنطيين في الشام- مسيرة الفتح إلى مصر فالشمال الإفريقي وشمال العراق وجنوب تركيا (الجزيرة).

ففي سنة ١٨هـ استلم عيّاض بن غنم قيادة الجيش بدلاً عن أبي عبيدة بن الجراح الذي مات بالطاعون، فأتاه أمر الخليفة عمر بالتوجّه لفتح الجزيرة،

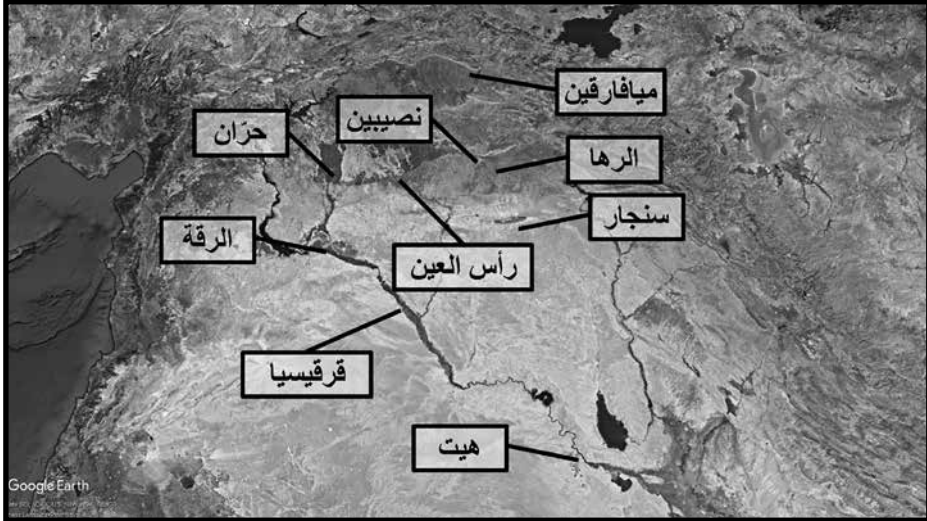
١. تبعاً لاختلاف تقدير زمن بدء الفتوحات هل هو مع بعث أسامة أم بعد ذلك بسنتين.

فصالح أهل الرقة والرّها وحرّان وقرقيسيا ونصيبين وميافارقين وسنجار وغيرها. وتعاقب قادة آخرون على قيادة هذه القوة العسكرية وفتحت (عين الوردية) ووصلح أهلها، ثم صارت الحصون الواقعة على نهر الفرات مثل (هيت) تتساقط بأدنى مجهود، وتدخل في الصلح مع المسلمين. وفي عهد الخليفة عثمان، فتحت بعض نواحي أرمينيا.

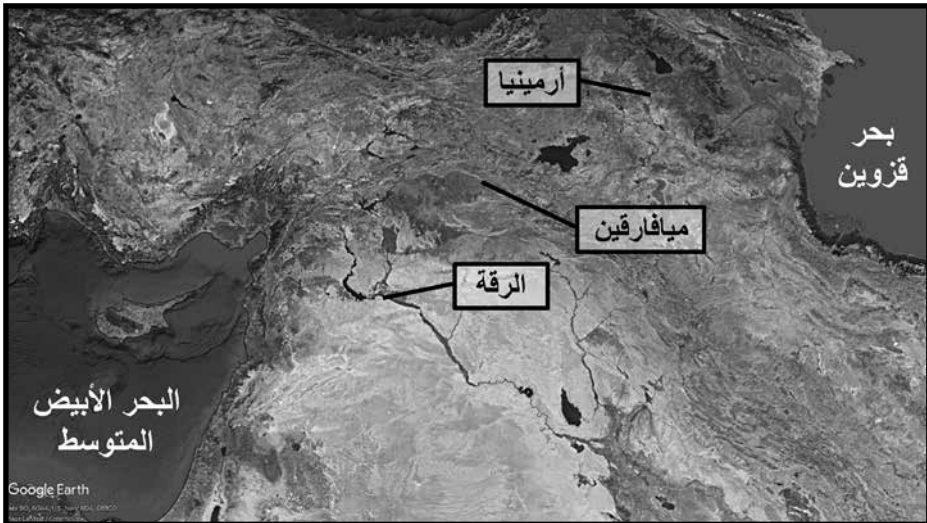
• فتح مصر:

ذكرت -خلال عرض أوضاع الامبراطورية البيزنطية من قبل- أن مصر وقعت في بدايات القرن السابع الميلادي ولمدة محدودة بيد الفرس الساسانيين، وبرز في هذه الفترة بطريك قبطي اسمه (بنيامين) وأصبح في سنة ٦٢٣م/١هـ بابا الإسكندرية وعُرف باسم بنيامين الأول، ولكن مع عودة البيزنطيين لاحتلال مصر، قام هرقل بالعمل على توحيد الكنيسة في مصر تحت سلطته واضطهاد المخالفين لمذهبه في النصرانية.

فقام بتعيين (كيروس) Cyrus القادم من بلاد القوقاز والذي تحدّث عنه المسلمون بعنوان (المقوقس)، ولعلها معرّبة من كلمة القوقاز، ليصبح من خلال هذا التعيين بطريك كنيسة الإسكندرية من جهة، والحاكم المدني على مصر ونائب الامبراطور فيها من جهة ثانية، أي أنه جمع بين الرئاستين الدينية والمدنية، وذلك في سنة ٦٣١م/٩هـ، بحسب بعض المصادر، ولكن الأصح عندي أن ذلك تمّ على الأكثر في سنة ٦٢٨م/٦هـ، لأن رسالة النبي «صلى الله عليه وآله» حينها للمقوقس وقدم السيدة مارية القبطية والدة إبراهيم كانت في هذه السنة.



أسماء المدن المذكورة في فتوحات الشام والجزيرة



أرمنييا - ميافارقين - الرقة

وعلى كل حال، هرب البابا بنيامين إلى صعيد مصر، وواجه الأقباط اضطهاداً شديداً تحت حكم كيروس، فمما يُروى مثلاً أن أخاً للبابا بنيامين واسمه (مينا) تمّ تعذيبه بالنار بحيث (سقط شحمه من جانبيه على الأرض، ثم خلعت أسنانه، وبعدها تم وضعه في غرارة مليئة بالرمال، وكان يُعرض عليه في كل مرحلة إنقاذ حياته إذا ما قبل قرارات مجمع خلقيدونية) أي تغيير مذهبه المسيحي (وكان يرفض في كل مرحلة، وأخيراً أخذوه مسافة سبع رميات بالقوس إلى البحر، وأغرقوه... وقيل أن الاضطهادات قد استمرت على مدى عشر سنوات.... الروايات تكشف عن مناخ من الخوف والعداوة العميقة المتمكنة تجاه السلطات الامبراطورية، وكان كثير من القبط يظنون أن أي شيء سيكون أفضل من ذلك)^(١).

في هذه الأجواء شديدة الانقسام والعداوة بين الطرفين، امتدّت حركة الفتوحات الإسلامية في الشام، وحاول كيروس أن يستبق الأحداث من خلال عقد معاهدة صلح مع المسلمين وتقديم الجزية، بل وعقد تحالف زواج بين إيدوشيا ابنة الامبراطور (أو إحدى الأميرات) والخليفة عمر بن الخطاب (وقيل عمرو بن العاص). إلا أن الامبراطور هرقل نفسه كان رافضاً لكل ذلك وألغى المعاهدة، وقام سنة ٦٣٩م/١٨هـ أو ٦٤٠م/١٩هـ بعزل كيروس ونفيه إلى جزيرة قبرص واستبداله بحاكم آخر اسمه تيودور.

وقد نقل البلاذري عن عدّة من المؤرخين أن عمرو بن العاص بعد انتهاء معركة اليرموك، توجه إلى مصر سنة ١٩هـ/٦٤٠م ليفتحها من تلقاء نفسه

١. كينيدي: الفتوح العربية الكبرى، ص ٢٠٩-٢١٠.



مواقع بعض المدن المصرية

ومن دون الاستئذان من الخليفة عمر، ومعه ٣٥٠٠ مقاتل، قال: (فغضب عمر لذلك، وكتب إليه يوبّخه ويعنفه على افتياته عليه برأيه، وأمره بالرجوع إلى موضعه إن وافاه كتابه دون مصر. فورد الكتاب عليه وهو بالعريش. ثم أتى الفرّماء^(١) وبها قوم مستعدّون للقتال. فحاربهم فهزمهم وحوى عسكرهم، ومضى قدماً إلى الفسطاط^(٢) فتزل جنان الرياحان وقد خندق أهل الفسطاط. وكان اسم المدينة اليونة فسمّاها المسلمون فسطاطاً لأنهم قالوا: هذا فسطاط القوم ومجمعهم. وقوم يقولون إن عمراً ضرب بها فسطاطاً فسميت بذلك.... ولم يلبث عمرو بن العاص وهو محاصر أهل الفسطاط أن ورد عليه الزبير بن العوام بن خويلد في عشرة آلاف، ويقال في اثني عشر ألفاً)^(٣).

١. كانت تقع شرق مدينة بورسعيد على بُعد ٣٠ كم تقريباً، وعُرفت في التوراة باسم (سين).

٢. وهي التي يُطلق عليها اليوم (مصر القديمة) وهي حالياً جزء من القاهرة.

٣. البلاذري: فتوح البلدان، ج ١، ص ١٢٥ - ١٢٦.

وفي رواية أنه تم فتح الحصن بالقوة، بينما في رواية أخرى أن أهلها صالحوا المسلمين بعد حصارهم لها. وعلى الروایتين فقد التزم أهل القسطنطينية بدفع الجزية وخراج الأرض، وسمح لمن بها من الروم بالمغادرة إن شاءوا. وقاتلت بعض قرى مصر، وسُبي بعض أهلها، وأرسلوا إلى المدينة، فأرجعهم الخليفة عمر إلى بلدهم على أن يكونوا من أهل الذمة، ويدفعوا الجزية.

ويبدو أن بعض الأقباط - على الأقل - رأوا في وصول المسلمين فرصة للإطاحة بأعدائهم البيزنطيين، فساعدوهم في ذلك بطريقة أو بأخرى: (حينما وصل العرب كتب بنيامين إلى أتباعه يقول أن الحكم البيزنطي قد انتهى، وأمرهم بالذهاب لمقابلة عمرو بن العاص، ونتيجة لهذا كان قبط الفرما أعواناً نشطاء لعمرو في أثناء الحصار)^(١).

وذكر الراهب القبطي (يوحنا النقيوسي) ما فعله (كيروس) بالأقباط، معتبراً أن المسلمين قد ساعدتهم الاضطهادات التي جرت في عهد الامبراطور هرقل من حيث أنها جعلت الأهالي المحليين معادين للرومان، وأن خطايا البيزنطيين بتعصّبهم المذهبي كانت السبب في أن «الرب سمح للعرب أن يفتحوا مصر»: (لأنه لم تكن لديه رحمة بأولئك الذين كانوا قد تعاملوا بخيانة ضده، ولكنه سلّمهم إلى أيدي الإسماعيليين)^(٢) أي العرب.

وقد أدى هذا إلى إسلام بعض المصريين الأقباط وتعاونهم مع المسلمين، حيث تحدّث النقيوسي - الكاره للمسلمين والذي يعتبرهم غير متحضرين -

١. كينيدي: الفتوح العربية الكبرى، ص ٢١٣.

2. John of Nikiu, Chronicle, P182.

عن: (المصريين الذين كانوا قد «ارتدّوا» عن الديانة المسيحية واعتنقوا ديانة «الوحش»)^(١).

كما وتحدّث عن الموظّفين المحليين الذين كانوا يعملون بإرادتهم لدى المسلمين، وهو السيناريو المتكرر في نواح عدّة من العراق والشام وأرمينيا ومصر كما سيأتي في فتح الإسكندرية، وغيرها، وقد مرّت -وستمرّ معنا- أمثلة عديدة على ذلك، وكأنّ البيزنطيين -من خلال سياساتهم التعسفية في الضرائب واضطهاد الآخر المذهبي- قد حفروا قبورهم بأيديهم، وفي هذا درس بليغ لكل الحكام عبر الزمن، ولكن هل من معتبر؟ ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾^(٢).

ومن المناسب أن أذكر هنا الرواية التالية التي ذكرها البلاذري في فتوحه بالسند عن الشعبي: (أن علي بن الحسين -أو الحسين- نفسه كلّم معاوية في جزية أهل قرية أم إبراهيم ابن رسول الله «صلى الله عليه وآله» بمصر، فوضعها عنهم. وكان النبي «صلى الله عليه وآله» يوصي بالقبط خيراً).

والأقرب أن يكون هذا -إن صحّ- بطلب من الإمام الحسين «عليه السلام» لا ابنه علي زين العابدين «عليه السلام»، لأنّ معاوية مات قبل استشهاد الحسين، فكيف يتجاوز الابن أباه بمثل هذا الطلب، ولعل الحسين بعث ابنه في هذه المهمة، فيصحّ القولان بذلك^(٣)، وهذا من قمّة الوفاء منه

1. John of Nikiu, Chronicle, P182.

٢. الروم: ٩.

٣. البلاذري: فتوح البلدان، ج ١، ص ٢٥٧.

«عليه السلام» تجاه جده رسول الله «صلى الله عليه وآله» وزوجه مارية.

وعن ابن لكعب بن مالك أن النبي «صلى الله عليه وآله» قال: (إذا افتتحت مصر فاستوصوا بالقبط خيراً، فإنّ لهم ذمّةً ورَحماً. وقال الليث: كانت أم إسماعيل منهم)^(١).

وفي شهر شوال من سنة ٢٠هـ/سبتمبر ٦٤١م أُعيد كيروس (المقوقس) إلى من منفاه في قبرص إلى الإسكندرية كممثل عن الامبراطور في المصالحة مع المسلمين، فتوجّه بنفسه إلى القسطنطينية مقدّماً الذهب كجزية، مبيناً أنه لم يكن المسئول عن نقض المعاهدة وعدم دفع الجزية في المرة السابقة، (وتوسل إلى المسلمين بلسان فصيح لكي يقبلوا الذهب الذي قدّمه لهم، ولكن عمرو بن العاص أجابه: الآن وقد ملكنا البلاد، لن نتخلّى عنها. وشعر كيروس أنه لا يملك بديلاً سوى القبول بالأمر الواقع، وتم في النهاية الاتفاق على الصلح يوم ٢٨ نوفمبر ٦٤١م^(٢) وتعيّن على أهل الإسكندرية أن يدفعوا الجزية وكان على الجيش البيزنطي أن يغادر المدينة بممتلكاته وخزائنه ويعود إلى القسطنطينية عن طريق البحر، وتقررت هدنة لمدة أحد عشر شهراً لتنفيذ هذه الترتيبات، وفي الوقت نفسه، كان للمسلمين أن يحتفظوا بمائة وخمسين مدنيّاً رهائن لكي يضمنوا تطبيق شروط الاتفاقية، وعاد كيروس بعد ذلك إلى الإسكندرية لتسويق اتفاقيته لدى القائد العسكري تيودور، ولكي يُبلغ الامبراطور)^(٣). وبحسب المصادر الإسلامية فإنه لم يقع بين أهل الاسكندرية سبي.

١. البلاذري: فتوح البلدان، ج ١، ص ٢٥٧.

٢. ١٨ ذوالحجة ٢٠هـ.

٣. كينيدي: الفتوح العربية الكبرى، ص ٢٢٧.

ويذكر الباحث المعاصر هيو كينيدي في كتابه (الفتوح العربية الكبرى) أنه: (ووفقاً للتراث المصري، لقيت الحملة مساعدة كبيرة في هذه المرحلة من جانب الأقباط الذين ذهبوا مع الجيش، وقد أصلحوا لهم الطرق، وأقاموا لهم الجسور والأسواق، وصار لهم القبط أعواناً على ما أرادوا من قتال الروم)^(١). وتذكر بعض المصادر القبطية أن أحد الشخصيات النبيلة من الإسكندرية واسمه (سانوتيوس) Sanutius أقنع عمرو بن العاص أن يرسل إعلاناً آمناً للبابا الهارب بنيامين ويدعوه للعودة إلى الإسكندرية، وعندما وصل البابا بعد ثلاثة عشر عاماً من الاختفاء في صعيد مصر، عامله عمرو بتقدير واحترام.

ثم أصدر تعليماته بعودة البابا ليكون رأس الكنيسة القبطية من جديد، والشروع في مصالحة أولئك الأقباط الذين غيّرُوا مذهبهم إلى مذهب البيزنطيين أثناء حكم كيروس، وفيهم عدد من الأساقفة، كما أمر بإعادة بناء أديرة وادي النطرون التي كانت قد دُمّرت على أيدي الروم. ويذكر (ساويرس) Sawirus في كتابه حياة بنيامين Life of Benjamin في التعبير عن مدى فرحة الأقباط بهذه النتائج المترتبة على الأحداث السابقة ما ترجمته: (لقد نمت الأعمال الطيبة للأورثوذكس)^(٢) وتزايدت وفرح الشعب بها مثل صفار العجول عندما تفك قيودها وتنطلق لكي تتغذى على لبن أمها)^(٣).

١. كينيدي: الفتوح العربية الكبرى، ص ٢٢١.

٢. الأقباط .

3. Sawirus: Life of Benjamin, P 500.

• فتح ما بعد مصر:

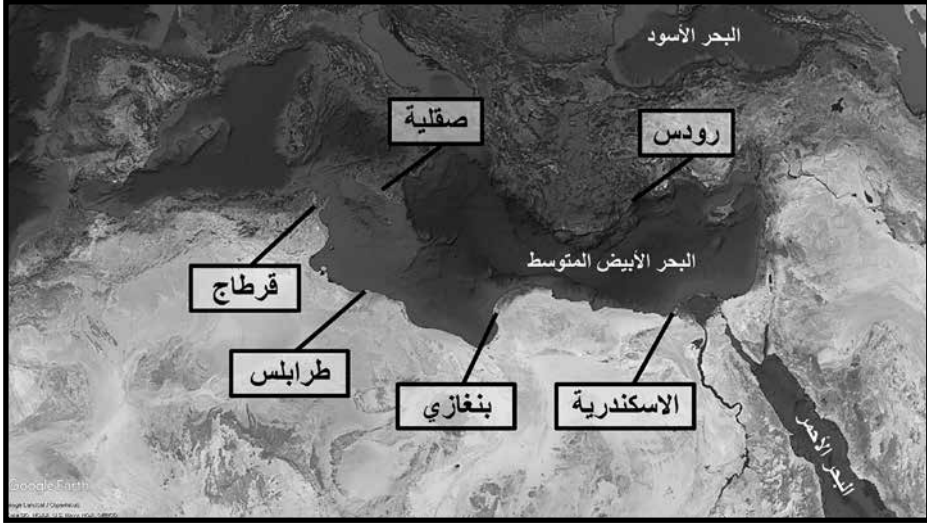
ثم توجه عمرو بن العاص إلى (أنطابُلس) التي سماها المسلمون لاحقاً باسم برقة في ليبيا، وتُعرف اليوم باسم بنغازي، وصالح أهلها. وعلى عهد الخليفة عثمان، توجه المسلمون إلى (أطرابلس) سنة ٢٢هـ/٦٤٣م ووقع قتال ثم فُتحت، ثم توجهوا لاحقاً إلى (أفريقية) وفيها مدينة (قرطاج) بالقرب من العاصمة التونسية، وهكذا إلى أن بلغوا في العهد الأموي أقصى المغرب العربي والأندلس وصقلية وروُدس وغيرها من جزائر البحر الأبيض المتوسط.

• فتوحات العراق وفارس:

اضطرت أن أسترسل في ذكر فتوحات الشام وما يليها إلى الغرب في أفريقيا حتى لا ينقطع تسلسل أحداثها، على الرغم من أنه -على الأرجح- بعيد إرسال القوات إلى الشام، أو بالتزامن مع ذلك، بدأت حركة الفتوحات في العراق ثم في بلاد فارس، وذلك على عهد الخليفة أبي بكر.

ففي روايات البلاذري حول فتح العراق أن الخليفة أبا بكر سمع بأن (المتى بن حارثة الشيباني) يغير على (السواد)، أي جنوب العراق والذي كان تحت سلطان الفرس، فاستدعاه، وعرض عليه الشيباني أن يعينه قائداً على مَنْ أسلم من قومه، ليقاتل بهم الفرس، فتمّ له ذلك.

وكتب (مذعور بن عدي العجلي) إلى الخليفة يطلب منه تعيينه قائداً على قومه ليقاتل بهم الفرس، فتمّ له ذلك على أن ينضمّ مع المتى الشيباني ليكونا تحت إمرة خالد بن الوليد.



بعض مدن الشمال الأفريقي وجزائر البحر الأبيض المتوسط

وتنقل جيش المسلمين من الجنوب باتجاه وسط العراق، وتراوحت الأحداث بين المواجهات العسكرية والمصالحة دون قتال، حتى بلغ الحيرة وهي عاصمة المناذرة وتقع جنوب الكوفة والنجف بعدة كيلومترات، فصالح أهلها.

قال البلاذري: (ثم بعث خالد جرير بن عبد الله البجلي إلى أهل بانقيا^(١)) فخرج إليه بصبهري بن صلوبا، فاعتذر إليه من القتال، وعرض الصلح. فصالحه جرير على ألف درهم وطيلسان ... ووجه إلى أبي بكر بالطيلسان مع مال الحيرة وبالألف درهم. فوهب الطيلسان للحسين بن علي «رضي الله عنه»^(٢). وفي المعاجم اللغوية أن الطَّيْلَسَان: شال، أو وشاح، أو كساء أخضر يضعه بعض العلماء والمشايخ على الكتف، ومن شتم العرب: يابن

١. وهي حالياً جزء من النجف.

٢. البلاذري: فتوح البلدان، ج ١، ص ٣٠٠.

الطيلسان، يريدون: يا عجمي. وتعتبر (الغرة) و(الشماع) وما يضعه أحياناً
أخبار اليهود على رؤوسهم أيضاً من الطيلسان.

ثم توجهت قوة عسكرية إلى الأنبار (الصقلاوية)، وكان بها مخازن الغذاء
للفرس، وكلمة (أنبار) بالفارسية تعني (مخزن)، وانتهى الحصار بالصلح،
ثم فتحت عدة مناطق، ووصل المسلمون إلى تكريت. صدر بعد ذلك الأمر
لخالد بالتوجه إلى الشام كما ذكرنا من قبل، وبقي المنتهى في العراق.

وعلى عهد الخليفة عمر بن الخطاب، تم تعيين (أبي عبيد الثقفي) والد
(المختار) قائداً للجيش في العراق: (فأقبل أبو عبيد لا يمرّ بقوم من العرب
إلا رغّبهم في الجهاد والغنيمة، فصحبه خلق. فلما صار بالعذيب^(١) بلغه أن
«جباب» الأعجمي بتستر في جمع كثير. فلقبه فهزم جمعه وأسر منهم^(٢)).

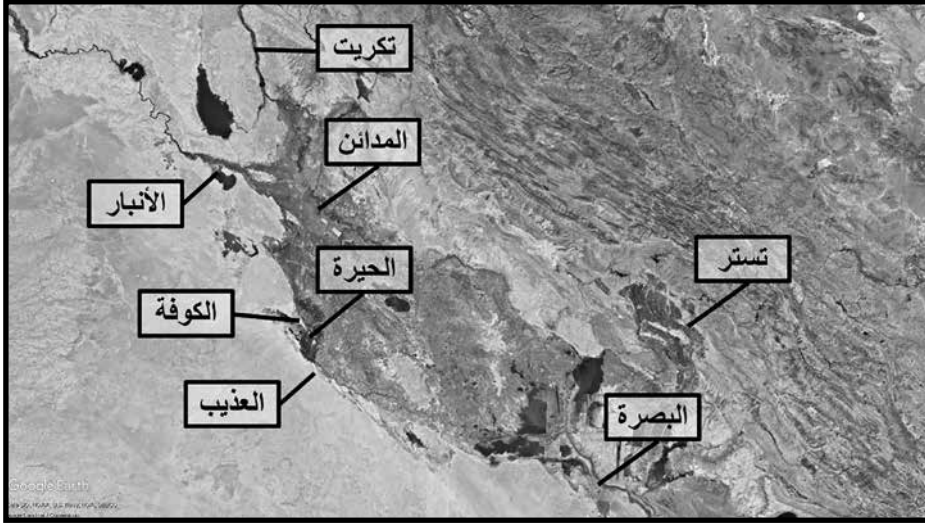
وتوالى الفتوحات بالقوة أحياناً وبالصلح أحياناً أخرى، حتى أرسل الفرس
رستم فرخزاد^(٣) ابن فروخ هرمز- وكان من الأشكانيين/ الفرثيين- ويعدّ
أحد القادة الكبار ومن الطبقة الأرستقراطية المتحالفة مع الساسانيين،
وبدوره أوكل القيادة لبهمن جاذويه^(٤) وتحت إمرته عشرة آلاف مقاتل،
فوقعت معركة (قُسُ الناطف) أو (يوم الجسر) آخر شهر رمضان سنة
١٣هـ/ نوفمبر ٦٣٤م.

١. تصغير عذّب.

٢. البلاذري: فتوح البلدان، ج ١، ص ٣٠٧.

٣. فرّخ بالفارسية تعني المبارك والميمون، وزاد / زاده تعني: ابن، فالعنى ابن المبارك.

٤. جاذويه بالنطق العربي، وجاذويه عند الفرس.

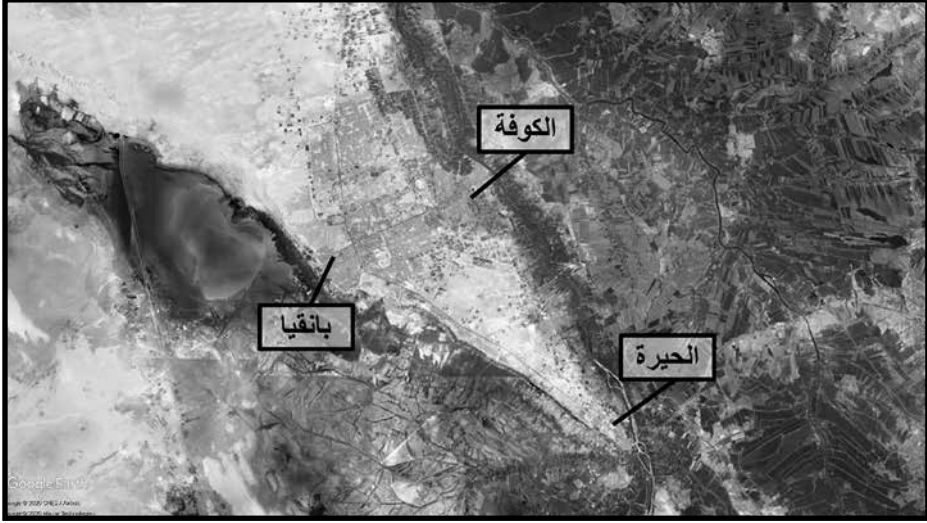


بعض مدن العراق

• يوم الجسر:

تُعد هذه المعركة حدثاً مؤملاً بالنسبة إلى المسلمين، حيث هُزموا فيها على يد قوَّات الساسانيين، بعد سلسلة من الانتصارات المتتالية على الجبهات المختلفة في العراق والشام. فقد روى البلاذري: (قالوا: بعث الفرس إلى العرب حين بلغها اجتماعها ذا الحاجب مردانشاه، وكان أنوشروان لقَّبه بهمن لتبركه به، وسُمِّي ذا الحاجب لأنه كان يعصَّب حاجبيه ليرفعهما عن عينيه كبراً^(١)).

١. جاء في القاموس اللغوي الفارسي (دهخدا) أن مردانشاه عُرف بلقب (چهارابرو/ چارابرو) والتي لو ترجمناها حرفياً فإنها تعني ذو الأربعة حواجب. وأن المراد بذلك كون شواربه خفيفة فاتحة اللون (خضراء) كالتي تنبت في بدايات البلوغ بحيث تشبه الحواجب لا الشوارب الغليظة المليئة بالشعر، أو غير متصلة في الوسط، فكأن لديه أربعة حواجب اثنتان فوق العين واثنتان فوق الشفتين.



موقع بانقيا بالنسبة إلى الحيرة والكوفة

ويقال إن اسمه رستم^(١) فأمر أبو عبيد^(٢) بالجرير فعقد، وأعانه على عقده أهل بانقيا. ويقال إن ذلك الجسر كان قديماً لأهل الحيرة يعبرون عليه إلى ضياعهم، فأصلحه أبو عبيد، وذلك أنه كان معتلاً مقطوعاً. ثم عبر أبو عبيد والمسلمون من المروحة على الجسر^(٣)، فلقوا ذا الحجاب وهو في أربعة آلاف مدجج^(٤)، ومعه فيل، ويقال عدة فيلة، واقتتلوا قتالاً شديداً، وكثرت الجراحات وفشت في المسلمين..... وسأل أبو عبيد: أين مقتل هذه الدابة؟ فقليل: خرطومه.

١. وهذا خطأ من القائل، فإن رستم بعث لخوض هذه المعركة القائد «بهمن جاذويه» الملقب عند العرب بذي الحجاب، وليس هو رستم ذاته .

٢. والد المختار الثقفي .

٣. المروحة هنا إما بمعنى اتجاه العددين على الجسر أو بمعنى المفاضة أو الأرض أو الموضع الذي تخترقه الريح.

٤. هذا الرقم أقل بكثير مما ذكرته مصادر أخرى حيث تذكر أن عدد المقاتلين في جيش الساسانيين بلغ عشرة آلاف .

فحمل فضرب خرطوم الفيل، وحمل عليه أبو محجن بن حبيب الثقفي فضرب رجله فعلّقها، وحمل المشركون، فقتل أبو عبيد رحمه الله. ويقال إن الفيل برك عليه فمات تحته. فأخذ اللواء أخوه فقتل. فأخذه ابنه جبر فقتل. ثم إن المثنى بن حارثة أخذه ساعة وانصرف بالناس^(١). ووقعت بالمسلمين هزيمة دفعت الخليفة عمر للتوقف عن إصدار الأوامر بالمزيد من الفتوحات في العراق.

قال البلاذري: (مكث عمر بن الخطاب «رضي الله عنه» سنة لا يذكر العراق لمصاب أبي عبيد وسليط.... ثم إن عمر «رضي الله عنه» ندب الناس إلى العراق فجعلوا يتحامونه ويتناقلون عنه، حتى هم أن يغزو بنفسه)^(٢) وناقشت هذه القضية عند دراسة موقف الإمام علي «عليه السلام» من الفتوحات.

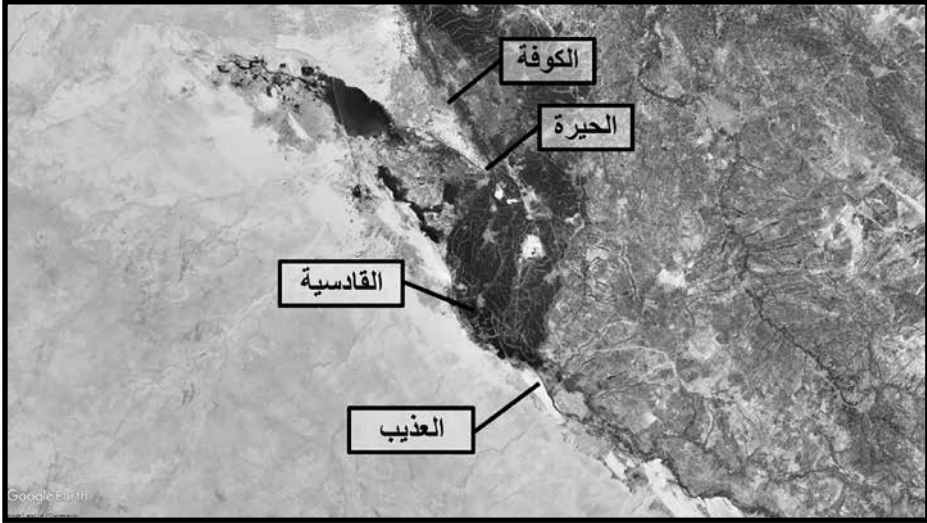
• يوما القادسية وجلولاء :

وهكذا بدأت الاستعدادات لمواجهة جديدة وكبرى، حيث بدأ الفرس باستجماع قوّتهم من جديد، وكتب المسلمون إلى الخليفة يُعلمونه كثرة مَنْ تجمّع لهم من أهل فارس ويسألونه المدد، فأراد أن يغزو بنفسه، ثم عدل عن ذلك وقرّر البقاء، ووجه سعد بن أبي وقاص قائداً للحملة. وكان من بين الاستعدادات أن (قدّم عليه خلق من الأزد يريدون غزو الشام فدعاهم إلى العراق، ورغبهم في غنائم آل كسرى، فردّوا الاختيار إليه فأمرهم بالشخوص. وقدم جرير بن عبد الله من السراة^(٣) في بجيلة، فسأل أن يأتي العراق على أن يُعطى وقومُه

١. البلاذري: فتوح البلدان، ج ١، ص ٣٠٨.

٢. البلاذري: فتوح البلدان، ج ١، ص ٣١٠.

٣. في اليمن.



موقع العذيب بالنسبة إلى مدن عراقية أخرى

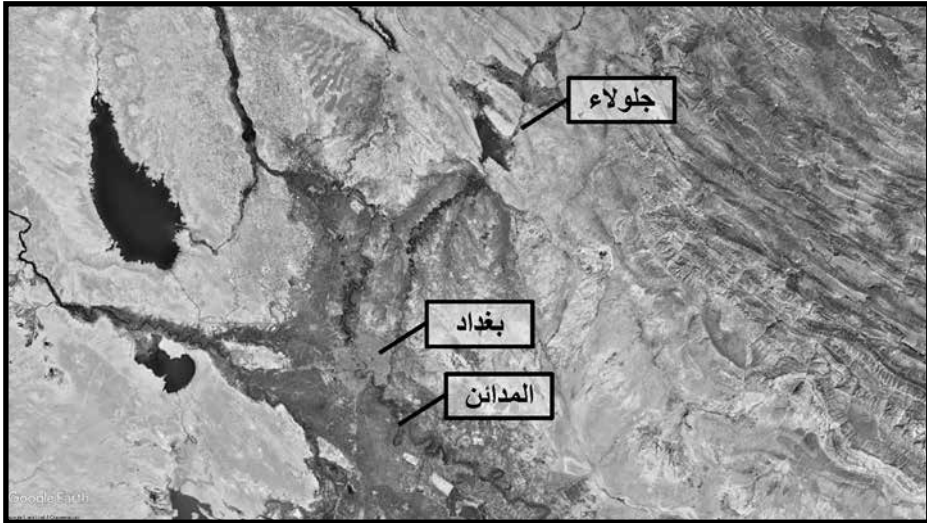
رُبِع ما غلبوا عليه. فأجابه عمر إلى ذلك، فسار نحو العراق^(١).

سار سعد بن أبي وقاص إلى العراق فأقام بالثعلبية^(٢) ثلاثة أشهر حتى تلاحق به الناس. ثم قَدِمَ العُذِيبُ في سنة خمس عشرة. وكان المثنى بن حارثة مريضاً، فأشار عليه بأن يحارب العدو بين القادسية والعذيب، والقادسية منطقة تبعد ٥٠ كم تقريباً عن الكوفة جنوباً، ثم اشتدَّ وجعه فحُمِلَ إلى قومه فمات فيهم.

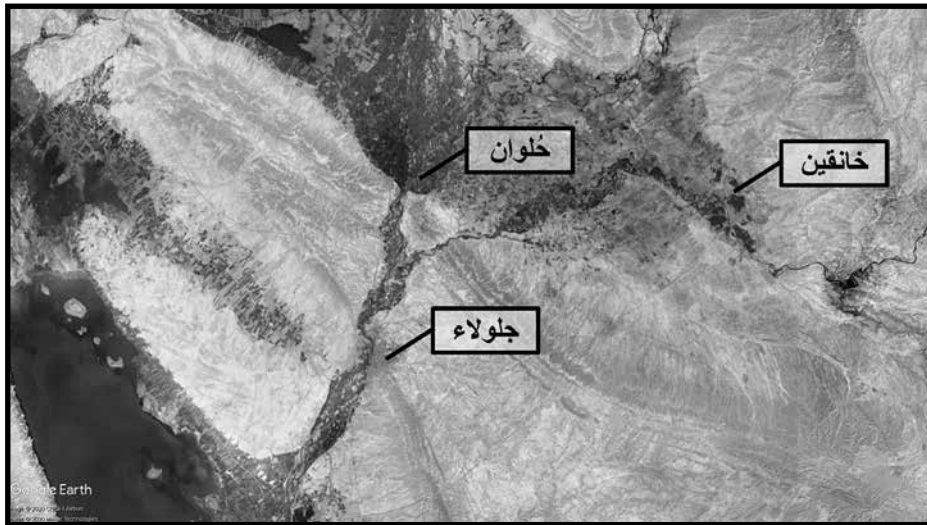
ومضت عدة أشهر حتى بدأت المواجهة بين الطرفين، وذلك في سنة ١٥ أو ١٦هـ/٦٣٦ أو ٦٣٧م، وكان تعداد الفرس ١٢٠ ألفاً ويقابلهم عشرة آلاف من المسلمين تقريباً، وقال المؤرخ الأرمني سيبيوس أن الجيش الساساني تشكل من

١. البلاذري: فتوح البلدان، ج ١، ص ٣١٠.

٢. تقع الثعلبية شمال شرق حائل في الأراضي السعودية.



موقع مدينة جلولاء في العراق



موقع مدينة حُلوان في العراق

٨٠ ألف رجل مسلّح، من بينهم ثلاثة آلاف مقاتل أرمني مدججين بالسلاح وتحت قيادة القائد الأرمني (موشيل ماميكونين ابن دافيد)، كما انضمّ حاكم (ساهونيك) الأمير (غريغور) إلى الجيش الساساني وتحت ألف مقاتل. أما سيف بن عمر فقد أضاف سرايا أخرى، ولعله جاء بها من محض خيالاته وأساطيره التي لا تنتهي. وعلى أي حال، فقد كان النصر الكبير حليف المسلمين، وقتل القائد رستم في المعركة. وتذكر الباحثة بور شريعتي أنه (ربما كان أحد أهم أسباب هزيمة الساسانيين في معركة القادسية، إضافة إلى الاستنزاف العام للقدرات البشرية والعسكرية بعد سنوات من الحروب مع البيزنطيين، هو الطاعون الذي أهلك المملكة، وحالة عدم الثقة والتحزّب السائدة بين أهل البيوتات، ومقتل جميع الأشراف البارزين، ومقتل القائد رستم أيضاً خلال الحرب. وبعد أن شخّص العرب دور التحزّب في إضعاف الكيان السياسي الساساني - حيث تجمعت الجيوش حول قادتها^(١) - أدركوا أيضاً أن أفضل استراتيجية تتمثل في استهداف أولئك القادة تحديداً، فلولاهم لتفتّت تحالف الفرس وتفرّقت جيوشهم. ولعل هذه الاستراتيجية تفسّر الروايات المفصلة لمعركة القادسية التي تهوّل أسر أولئك القادة وهزيمتهم ومقتلهم أيضاً^(٢).

ثم انهزم الفرس نحو عاصمتهم المدائن، فتبعهم المسلمون وهزموهم، ومكثوا فيها أياماً ثم بلغهم أن كسرى الفرس يزدجرد قد جمع عدداً كبيراً من المقاتلين في جلولاء، فسرّح سعد بن أبي وقاص إليهم ابن أخيه هاشم بن

١. ذكرت من قبل أن الجيش الفارسي انقسم إلى ثلاثة جيوش بعد هزيمته على يد البيزنطيين، وانحاز كل جيش إلى قائده المنتمي إلى أسرة مختلفة.

٢. بور شريعتي: اضمحلال الامبراطورية الساسانية وسقوطها، ص ٢٤٨.

عتبة بن أبي وقاص، الملقب بالمرقال، ومعه اثنا عشر ألفاً، فوجدوا الفرس قد تحصّنوا وخندقوا وجعلوا عيالهم وثقلهم بخانقين، وتعاهدوا أن لا يفرّوا، وجعلت الأمداد تقدم عليهم من حلوان والجبال. فقال المسلمون: ينبغي أن نعالجهم قبل أن تكثر أمدادهم.

فلقوهم وحجر بن عدي الكندي على الميمنة، وعمر بن معدي كرب على الخيل، وطليحة بن خويلد على الرجال، وعلى جيش الساسانيين يومئذ خرّزاد أخورستم فرّخزاد^(١). فاقتتلوا قتالاً شديداً لم يقتتلوا مثله رمياً بالنبل وطعناً بالرمح، حتى تقصّفت، وتجالدوا بالسيوف حتى انثنت.

ثم إن المسلمين حملوا حملة واحدة فهزموا الفرس الذين ولّوا هاربين، واستمر المسلمون في تقدّمهم في الأنحاء المختلفة، حتى لم يبق من قرى ومدن دجلة ناحية، إلا غلب عليها المسلمون وصارت في أيديهم.

• يوم الجراثيم:

ومعركة القادسية - كما قلت من قبل - من النماذج الواضحة لشدة تأثير سيف بن عمر على قراءة أحداث الفتوحات التي عاث فيها فساداً بيّناً، كما أنه أقحم معركة من وحي خيالاته أسماها (يوم الجراثيم)، والجُرثومة: التراب المجتمع حول أصول الشجر، وادّعى وقوعها سنة ١٦ هـ يذكر فيها عبور جيش المسلمين دجلة إلى مدائن كسرى.

وفي هذه المعركة الأسطورية، وصف سيف الأحداث الخارقة التي حدثت

١. خرّزاد، أو خورّه زاد، وتعني ابن الطيب أو ابن الحسن.

بقيادة الشخصية الوهمية عاصم بن عمرو التميمي، حيث عبر المسلمون نهر دجلة الذي كان متلاطماً في ذلك اليوم راكبين خيولهم: (وما زال فرس يستوي قائماً إذا أعى، يُنَشَزْ له تَلْعَةٌ^(١) فيستريح عليها كأنه على الأرض! فلم يكن بالمدائن أمر أعجب من ذلك، وذلك يوم الماء، وكان يُدعى يوم الجراثيم)^(٢).

وفي الرواية الأخرى: (كان يوم ركوب دجلة يُدعى يوم الجراثيم لا يعى أحد إلا أنشزت له جرثومة يُريح عليها)^(٣).

وفي الرواية الثالثة: (خضنا دجلة وهي تطفح، فلما كنا في أكثرها ماء^(٤)) لم يزل فارس واقفاً ما يبلغ الماء حزامه^(٥).

أما الرواية الأخرى فقد جاء بها ياقوت الحموي في معجم البلدان وهو يتحدث عن تمصير الكوفة، قال: (قال أبو عبيدة معمر بن المثنى: لما فرغ سعد بن أبي وقاص من وقعة رستم بالقادسية، وضمن أرباب القرى ما عليهم، بعث من أحصاهم ولم يسمهم^(٦) حتى يرى عمر فيهم رأيه، وكان الدهاقين^(٧) (ناصروا المسلمين ودلّوهم على عورات فارس، وأهدوا لهم وأقاموا لهم الأسواق. ثم توجه سعد نحو المدائن إلى يزدجرد.... فلم يجد معابر فدّلّوه

١. أي: أرض مرتفعة.

٢. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٣، ص ١٢٢.

٣. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٣، ص ١٢٢-١٢٣.

٤. أعرق نقطة.

٥. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٣، ص ١٢٣.

٦. من الأسرى.

٧. مأخوذ من كلمة دهكان الفارسية وكانت تطلق على الإقطاعيين وملأك الأراضي الريفية من الفرس، والمراد هنا زعيم فلاحي العجم.

على مخاضة^(١) عند قرية الصيادين أسفل المدائن، فأخاضوها الخيل حتى عبروا، وهرب يزدجرد إلى إصطخر^(٢) وهي مدينة كانت تقع بالقرب من شيراز. هكذا حوّل سيف المخاضات إلى جراثيم تظهر بصورة إعجازية لتحقيق النصر للمسلمين، ولاشك أن احتواء رواياته مثل هذه الصور الخيالية أشد طلباً وتقبّلاً من تلك التي تخلو منها، وكان ذلك من أسباب نجاحه في تمرير أكاذيبه وأساطيره.

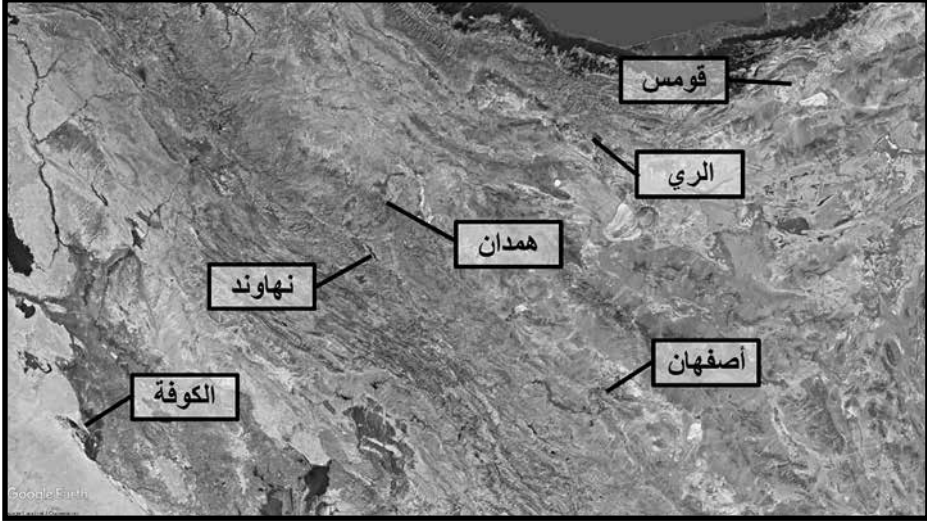
• فتح نهاوند :

بعد معركة جلولاء، تحصّن يزدجرد في حلوان، فتوجّه إليها هاشم المرقال سنة ١٩هـ/٦٤٠م فهرب يزدجرد إلى أصفهان، وجرت المصالحة مع أهل حلوان، وتكاتبت الفرس وأهل الري وإصبهان وهمدان وقومس (دامغان) وغيرها بالتجمع لتشكيل جيش بقيادة يزدجرد وذلك في سنة ٢٠هـ/٦٤١م، فأمر عليهم مردانشاه ذا الحجاب، وكانت عدّتهم ما بين ستين إلى مائة ألف. فكتب والي الكوفة آنذاك عمار بن ياسر إلى عمر بن الخطاب يخبره بخبرهم، وجرت مشاورات حول ضرورة مشاركة الخليفة بنفسه في القتال من عدمها، وانتهت ببقائه في المدينة، كما مرّ معنا عند بحث موقف الإمام علي «عليه السلام» من الفتوحات، ومن المحتمل أن المسألة ارتبطت بمعركة القادسية لا نهاوند كما ذكرت في محله.

على أن النتيجة الأهم والحاسمة لهذه المعركة التي سُمّيت (فتح الفتوح)

١. المخاض: مكان ضحل الماء يخوضه الناس مشاة أو ركباناً.

٢. الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٤٩١.



بعض المدن الإيرانية المرتبطة بخبر فتح نهاوند

-بالإضافة إلى انتصار المسلمين- أنها أعلنت نهاية دولة الفُرس الساسانيين، حيث لم تقم لهم بعد ذلك قائمة، وكانت البوابة التي من خلالها فتحت مناطق كثيرة من بلاد إيران من قبيل اصطخر (كانت تقع بالقرب من شیراز)، وقم وكاشان والري وقومس وقزوین وزنجان وأصفهان ونواحي أخرى إلى الشرق والشمال كخراسان وأذربايجان وسجستان وكابل والسند، وغيرها، وذلك على مدى سنوات متعاقبة.

وفيما يلي بعض الخرائط التي توضح المديات التي بلغتها الفتوحات الإسلامية في العهود المختلفة.

• تمصير البصرة:

كانت (الأبلة) هي الميناء البحري الواقع على الخليج العربي جنوب العراق،

وكانت مرفأ السفن من الصين وما دونها. سار عتبة بن غزوان إليها، ففتحها بعد قتال وقع خارجها، وذلك في سنة ١٣ هـ، ووصفه الطبري نقلاً عن عمر بن شبة بسنده عن الشعبي كالتالي: (قدم عتبة بن غزوان البصرة في ثلثمائة، فلما رأى منبت القصب وسمع نقيق الضفادع قال إن أمير المؤمنين أمرني أن أنزل أقصى البر من أرض العرب وأدنى أرض الريف من أرض العجم^(١)) فهذا حيث واجب علينا فيه طاعة إمامنا. فنزل الخريبة^(٢) وبالأبلة خمسمائة من الأساورة يحمونها وكانت مرفأ السفن من الصين وما دونها، فسار عتبة فنزل دون الإجانة^(٣) فأقام نحواً من شهر، ثم خرج إليه أهل الأبلة فناهضهم عتبة ثم التقوا فما اقتتلوا مقدار جزر جزور وقسمها حتى منحهم الله أكتافهم وولّوا منهزمين حتى دخلوا المدينة، ورجع عتبة إلى عسكره فأقاموا أياماً، وألقى الله في قلوبهم الرعب فخرجوا عن المدينة وحملوا ما خفّ لهم وعبروا إلى الفرات، وخلّوا المدينة، فدخلها المسلمون^(٤)).

ثم أرسل غزوان رسالة إلى الخليفة عمر يخبره فيها ضرورة تأسيس موضع خاص بالمقاتلين المسلمين، واقترح عليه : (أرضاً كثيرة القصب في طرف البر إلى الريف، ودونها منافع ماء فيها قصباء... فبنوا مساكن بالقصب. وبنى عتبة مسجداً من قصب وذلك في سنة ١٤. فيقال إنه تولى اختطاط المسجد بيده. ويقال اختطه محجر بن الأدرع البهزي من سليم. ويقال اختطه نافع بن ١. أي هي المنطقة الفاصلة بين منطقة برية يسكنها عرب البادية وأخرى زراعية ريفية واقعة تحت حكم الفرس .

٢. اسم موقع.

٣. اسم نهر.

٤. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٣، ص ٩٣..

الحارث بن كعدة حين خط داره. ويقال بل اختطه الأسود بن سريع التميمي...
وبنى عتبة دار الإمارة دون المسجد... وفيها السجن والديوان^(١).

وهذا مثال من أمثلة التضارب في الروايات. والطريف أن هذه الأبنية كانت مؤقتة، بحسب الحاجة، يتم تركيبها متى شاءوا السكنى في المنطقة، وتُفكّ متى ما غادروها، وهكذا: (فكانوا إذا غزوا نزعوا ذلك القصب وحزموه ووضعوه حتى يرجعوا من الغزو. فإذا رجعوا أعادوا بناءه. فلم تزل الحال كذلك. ثم إن الناس اختطّوا، وبنوا المنازل. وبنى أبو موسى الأشعري المسجد ودار الإمارة بلبن وطين، وسقفها بالعشب، وزاد في المسجد)^(٢).

وهكذا تأسست مدينة البصرة التي أصبح لها شأن كبير بعد ذلك، وكانت واحدة من هم الحواضر الإسلامية تأثيراً في تاريخها.

• تمصير الكوفة :

بعد هذه الأحداث والانتصارات، كتب الخليفة عمر إلى سعد بن أبي وقاص يأمره أن يتخذ للمسلمين دار هجرة، تكون موطناً للقوات العسكرية وأهاليهم. فأتى الأنبار وأراد أن يتخذها منزلاً، فكثّر على الناس الذباب، ثم انتقل إلى موقع الكوفة، وكان يقال له (سورستان)، فاخترطها وأقطع الناس المنازل، وأنزل القبائل منازلهم، وبنى مسجدها وذلك في سنة ١٧هـ/ ٦٤٨م.

وقد بدأ تخطيط المدينة وتوزيع أراضيها بتحديد موضع مسجدها أولاً، فأمر رجلاً فغلا بسهم قبل مهبّ القبلة فأعلم على موقعه، ثم غلا بسهم آخر

١. البلاذري: فتوح البلدان، ج ٢، ص ٤٢٥.

٢. البلاذري: فتوح البلدان، ج ٢، ص ٤٢٦.

قبل مهبّ الشمال وأعلم على موقعه، ثم غلا بسهم قبل مهب الجنوب وأعلم على موقعه، ثم غلا بسهم قبل مهبّ الصبا^(١) فأعلم على موقعه. ثم وضع مسجدها ودار إمارتها حيث كان يقف الرامي وما حوله، وأسهم لنزار وأهل اليمن بسهمين على أنه من خرج بسهمه أولاً فله الجانب الأيسر، وهو خيرهما. فخرج سهم أهل اليمن فصارت خططهم في الجانب الشرقي، وصارت خطط نزار في الجانب الغربي من وراء تلك العلامات. وترك ما دونها فناء للمسجد ودار الإمارة.

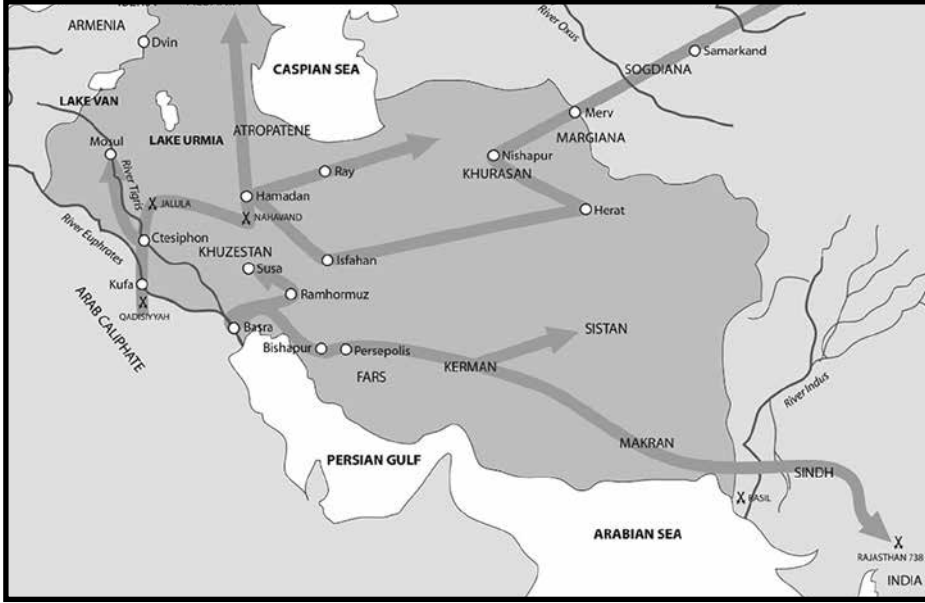
استقرّ سعد بن أبي وقاص في الكوفة وكان واليها، إلا أنه ما لبث أن تعاقبت الشكاوى عليه، وأتّهم في طريقة صلاته، وفي عدله ومساواته بين الناس، فعزله الخليفة، وعيّن عمار بن ياسر مكانه، ولم يبق إلا سنة وتسعة أشهر حتى عُزل بعد أن اتّهم بالضعف وعدم العلم بالسياسة، فقال عمر: (من عذيري من أهل الكوفة؟! إن استعملت عليهم القوي فجروه، وإن وليت عليهم الضعيف حقروه). ثم استدعى المغيرة بن شعبه فقال: (إنّ وليتك الكوفة أعود إلى شئ مما قرفت به؟ فقال: لا)^(٢).

وكان المغيرة قد اتّهم بالزنا في البصرة وهو واليها، وشاهد ذلك أربعة من المسلمين، ولكنّ الخليفة بعد أن استدعاه لم يُقيم عليه الحد، واكتفى بعزله وتعيين أبي موسى الأشعري مكانه، والقضية مشهورة. وهكذا تولّى المغيرة بن شعبه الكوفة، فلم يزل عليها حتى توفّي عمر. ثم إن عثمان بن عفان ولاها سعداً،

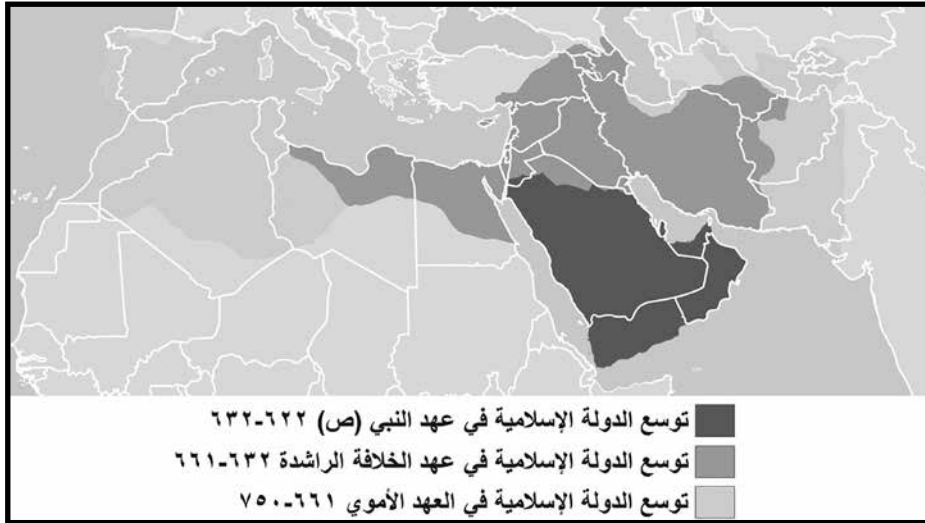
١. الصبا: ريح مهبّها من مشرق الشمس إذا استوى الليل والنهار.

٢. البلاذري: فتوح البلدان، ج ٢، ص ٣٤٣.

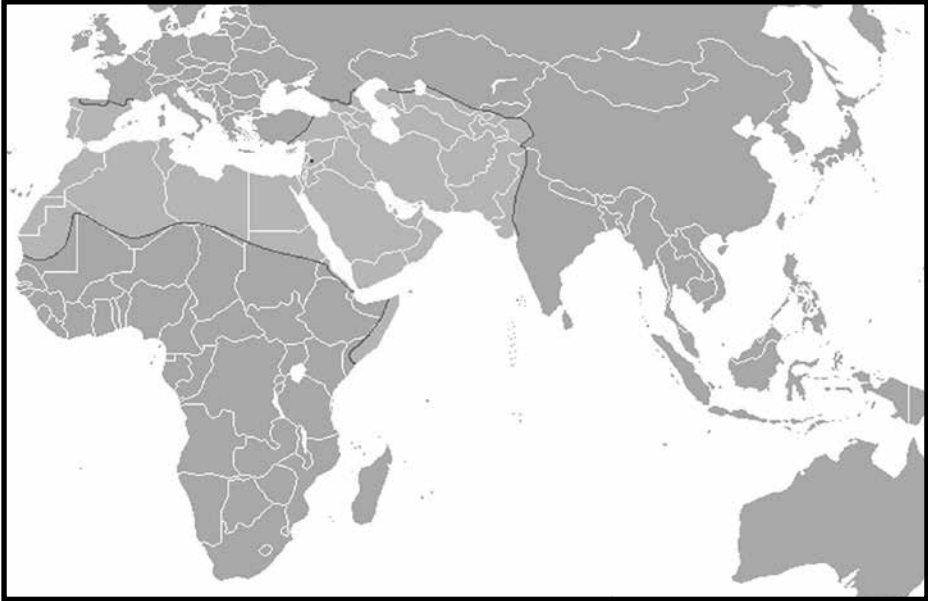
ثم عزله وولى الوليد بن عقبة بن أبي معيط، ثم عزل الوليد بعد شكاوى أهل الكوفة لما ظهر من شربه الخمر وغير ذلك، وولى سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص بن أمية، ثم استقر بها الإمام علي بعد حرب البصرة، واتخذها عاصمةً له، وفي مسجدّها تلقى ضربة ابن ملجم، فاستشهد على إثرها، ودفن بالقرب منها حيث موضع مرقده اليوم.



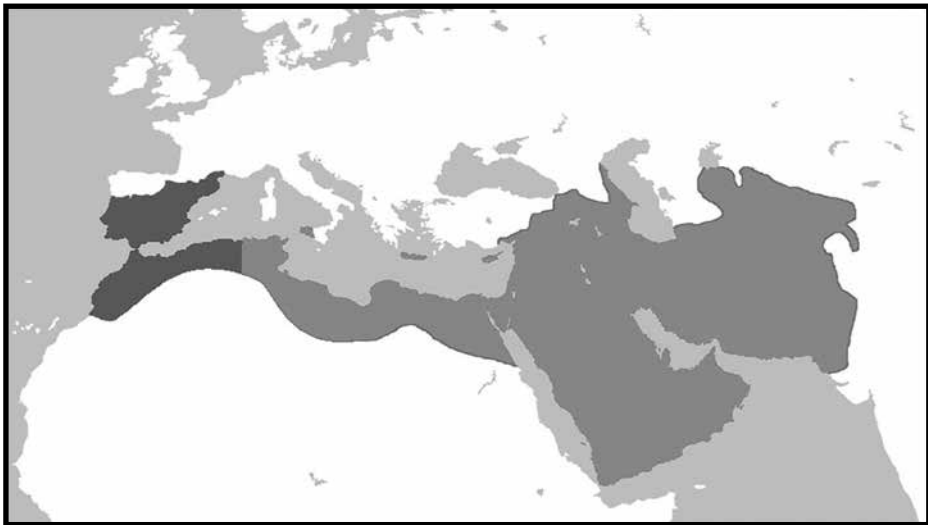
الفتوحات ضمن حدود الامبراطورية الساسانية



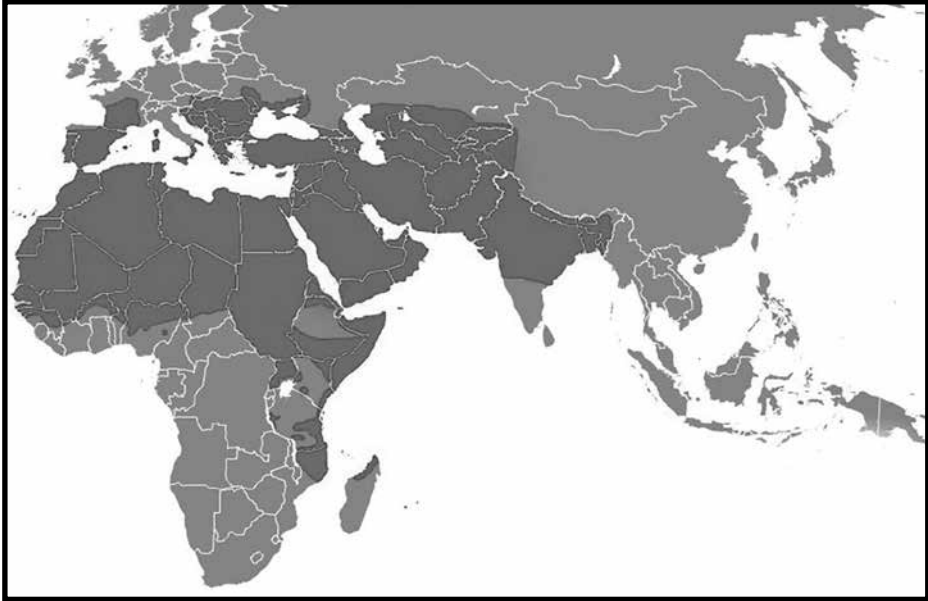
مديات توسع حدود الدولة الإسلامية في ١٣٠ سنة تقريباً



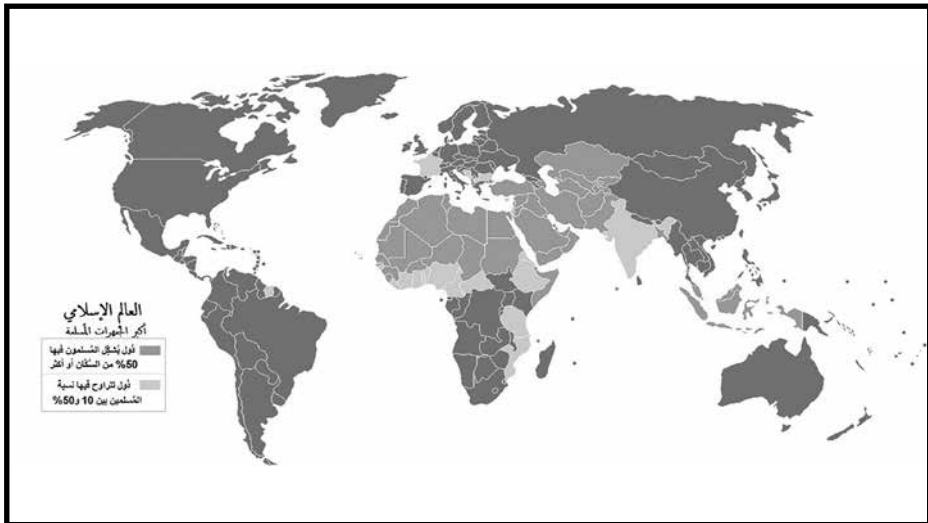
حدود الدولة الأموية سنة ١٣٣هـ / ٧٥٠م



الدولة العباسية في أقصى اتساعها



امتداد الدول الإسلامية في بعض العصور - باللون الغامق



امتداد العالم الإسلام اليوم

أسباب الانتصار

أسباب الانتصار

في طيّات عرض أوضاع الامبراطوريتين البيزنطية والساسانية الفارسية والعرض الإجمالي للفتوحات، تبين لنا بشكل واضح السبب الأول وراء تحقيق المسلمين خلال العهد الراشدي الانتصارات السريعة والحاسمة والضخمة بالقياس إلى الفترة الزمنية التي استغرقتها، وأيضاً بالقياس إلى عدد المقاتلين والإمكانات العسكرية المتوفرة لديهم بالمقارنة مع خصومهم.

إذ كان ضعف الامبراطوريتين وتهالكهما السياسي والاقتصادي والأمني والعسكري والاجتماعي لعوامل عديدة تقصيناها، الدور الكبير في ما تم إنجازه على يد المسلمين. إلا أن هذا ليس السبب الوحيد، ومن هنا قال د. سعيد عاشور: (وليس العجيب في أمر الغزوات هو أن العرب تجاسروا على مهاجمة الفرس والروم، وهما أكبر امبراطوريتين عرفهما عندد مستهل القرن السابع، وإنما العجيب هو أن العرب غزوا فارس في الوقت نفسه الذي غزوا دولة الروم، وأحرزوا انتصاراتهم الضخمة على الدولتين في وقت واحد)^(١).

ولا يمكن تفسير ذلك بسبب ضعف الخصم فقط، وإلا كانت الأمور تسير بالتدرج، وليس -كما عرفنا- دفعة واحدة وبشكل متزامن، ومن هنا أضاف

١. عاشور: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص ١٠٥.

د. عاشور قائلاً: (والواقع أن أسباب حركة الفتوح العربية والسرعة الفائقة التي تمت بها هذه الحركة والنجاح السريع الذي أحرزته كانت من الموضوعات التي استحلّت جزءاً كبيراً من تفكير المؤرّخين المحدثين)^(١).

وقد أكّد المستشرق الإيطالي فرانشييسكو غابرييلي في كتابه (الإسلام في عالم البحر المتوسط) على وجود المقوم الداخلي في الإسلام الذي أدّى إلى تحقيق النتائج الباهرة وفي أقصر مدّة وبأقلّ عدد حيث قال: (وُلد الإسلام في منطقة من أكثر مناطق العالم القديم بدائية وتخلّفاً، ولكنه سرعان ما تجاوز حدوده وتطور من ظاهرة محلية وعامل داخلي في حياة الأمة العربية إلى عقيدة كونية وقوة عالمية، وذلك في عملية لا يزال المؤرخون يختلفون حولها حتى اليوم. إنها بالنسبة لأولئك الذين يدرسون الديناميكية الغامضة لهذه العملية، لا تُعدّ شرقية ولا غربية، كما لا يُمكن إعطاؤها أي تحديد جغرافي أو ثقافي. إنها فقط القوة العجيبة التي تشع من العقيدة الجديدة، ومن الدولة التي أقامتها هذه العقيدة، والتي نمت في كل اتجاه، وأنتجت حضارة موحّدة إلى حد يدعو إلى الدهشة، وذلك رغم الاختلاف الشديد بين البيئات والمستويات الثقافية التي ازدهرت عليها)^(٢).

ولا يقتصر الأمر على العراق وفارس والشام، فقد تحوّل شمال القارة الأفريقية من الحضارة اللاتينية إلى الحضارة الإسلامية، ومن الديانة المسيحية إلى الديانة الإسلامية، حتى البربر الذين طالما أظهرُوا عناداً

١. عاشور: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص ١٠٩.

٢. غابرييلي، الإسلام في عالم البحر المتوسط، ج ١، ص ٨٥.

ومقاومة تجاه حضارة الروم، اندمجوا في تيار الحضارة الجديدة وأصبحوا مسلمين متحمسين، وبذلك مرّت سبعمائة السنة التي سيطرت فيها أوروبا على شمال القارة الأفريقية وكأنّ شيئاً من ذلك لم يكن، فقد أقبل الناس هناك على الإسلام - عن اختيار وإرادة حرة - بدلاً عن المسيحية، إلا ما استثنى، واستبدلت الحياة ذات الطابع الروماني بالنمط الإسلامي، والمدن تركها الرومان ليعودوا أدراجهم إلى أوروبا.

ولو قارنّا ذلك مع الزحف الجرمانى الهائل على الإمبراطورية الرومانية وسقوط الكثير من نواحي أوروبا بأيديهم في فترة ما، لوجدنا أن الناس لم يُقبلوا على معتقدات الجرمان وعاداتهم وأسلوب حياتهم، على خلاف ما جرى بعد الزحف الإسلامي على أفريقيا، بل وما تحقق لاحقاً بفتح جزر البحر الأبيض المتوسط والأندلس وغيرها من نواحي أوروبا.

وهنا نجد أنفسنا أمام ظاهرة جديدة باهتمام المشتغل بالتاريخ، فالمسلمون الذين اقتحموا العالم الروماني في القرن السابع وأوائل الثامن كانوا أقلّ عدداً بكثير من الجرمان الذين تدفّقوا على قلب ذلك العالم من قبل، ومع ذلك فإنّ الحضارة الرومانية والكنيسة المسيحية تغلّبت في النهاية على هؤلاء الجرمان واستوعبتهم، في حين كانت الغلبة في الجهات التي سيطر عليها المسلمون واستقرّوا فيها لصالح حضارتهم ودينهم ولغتهم.

هذه الظاهرة الفريدة والهامة ليس لها سوى تفسير تاريخي واحد، هو أن الجرمان لم يكن لديهم ما يواجهون به كنيسة العالم الروماني، في حين ظهر المسلمون مزوّدين بعقيدة وحضارة وقيم ومبادئ وأخلاقيات ومفاهيم

وتشريعات أدت إلى تماسكهم، وحالت دون ذوبانهم في المجتمع الجديد.

هذا هو العامل الثاني المهم الذي حقق النجاح الباهر للمسلمين في امتدادهم الجغرافي السريع، واستمرار بقائهم وحكمهم في الكثير من هذه المناطق، وتأثيرهم فيها حضارياً بتبني الإسلام، واللغة العربية، وبعض السمات الحضارية الأخرى من قبيل الأسماء، وأن يحدثوا هذه الثورة الضخمة في تاريخ العالم.

يقول البروفيسور الفرنسي إدوارد برّوي^(١): (وانجلى غبار الفتح وصلصلة السلاح عن إمبراطورية جديدة ولا أوسع، وعن حضارة ولا أسطع، وعن مدنية ولا أروع، عوّل عليها الغرب في تطوره الصاعد ورقية البناء، بعد أن نفخ الإسلام في قسم موات من التراث الإنساني القديم روحاً جديدة عادت معه إليه الحياة، فنبض وشعّ وسرى)^(٢).

على أن حضارات تلك الشعوب أثّرت أيضاً في المسلمين العرب (الفاحين/ الغزاة) ووجدت لديهم من المرونة والانفتاح ما جعل عملية التمازج والتخالط والوفاق الاجتماعي سريع التحقق والرسوخ.

وهذا من العوامل المساعدة لما تحقق من خلال حركة الفتوحات الإسلامية.

١. إدوارد برّوي Édouard Perroy (ت ١٩٧٤م) مؤرخ فرنسي وأكاديمي. متخصص في تاريخ إنجلترا في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، وهو أستاذ تاريخ العصور الوسطى، ومؤسس جمعية مؤرخي القرون الوسطى للتعليم العالي. ساهم في كتابة موسوعة (تاريخ الحضارات العام - القرون الوسطى).

٢. بروي: القرون الوسطى، ضمن (تاريخ الحضارات العام) بإشراف: موريس كروزيه، ج ٢، ص ١٠٩.

والعامل الآخر الذي يمكن إضافته هنا، هو امتلاك المسلمين -آنذاك- عقيدة خاصة في الجهاد في سبيل الله، وهي عقيدة يمتزج فيها الإيمان بالله بضرورة التضحية في سبيله، والاعتقاد بوجود عالم آخر يمثل الحياة الحقيقية التي من أجلها خلق الإنسان، فإذا ما قَدِّم التضحيات من خلال المشاركة في حركة الجهاد العسكرية، على مستوى النفس أو المال أو الولد أو غير ذلك، فإن هذا لن يعود عليه بالأثر الدنيوي الإيجابي فحسب، بل وسيجد أثره العظيم في الحياة الأخرى الأبدية في رضوان الله «تعالى».

بل إن مشاركته بالنفس إن انتهت بقتله في ساحة المعركة، فإن هذا يمثل قِمة السعادة بالنسبة إليه، لأنه موعود من قبل الله بامتيازات عظيمة لا ينالها سوى مَنْ قَدِّمها، ومن بينها ضمان الحياة البرزخية السعيدة والتي سيُحرم منها عامة الناس، علاوة على الحياة الآخورية التي يشاركه فيها المؤمنون، ويمتاز فيها على كثير منهم بالمرتبة وعظيم المثوبة من الله «عزَّ وجلَّ»: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ، فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ، يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(١)، وكأنهم كوفئوا مقابل تخليهم عن الحياة بمكافأة من نفس جنس العمل، وهو البقاء أحياء يُرزقون خلال فترة البرزخ.

وهكذا أكّد القرآن الكريم على الامتيازات الآخورية لمن يُقتل في سبيل الله: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ

فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا، دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١﴾.

وقال «تعالى»: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ ﴿٢﴾.

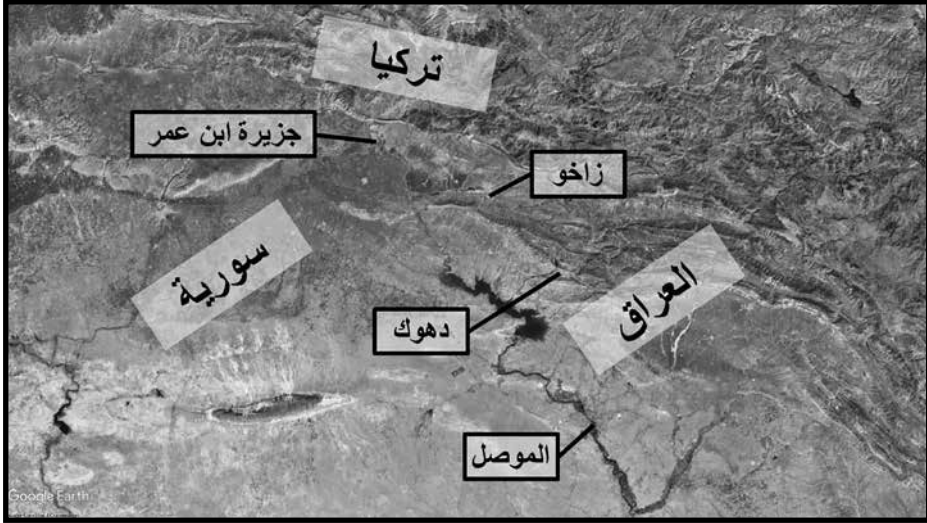
• تفسير غيبي:

وهناك تحليل ذو بُعدين، بُعد مرتبط (بالغزاة/ الفاتحين) وبُعد (بالمغزوين) طرحه الراهب السرياني يوحنا ابن الفنكي، نسبةً إلى بلدة فنك الواقعة على نهر دجلة شمال جزيرة ابن عمر (جزيرة بوطان) الواقعة جنوب شرق تركيا حالياً على حدودها مع سورية، وعاش في نهاية القرن السابع الميلادي/ النصف الأخير من القرن الأول الهجري، أي كان معاصراً للأحداث، وله كتاب (النقاط البارزة) ويفصّل فيه تاريخ العالم منذ بدء الخلق حتى الأيام التي عاصرها. ولم يُطبع هذا الكتاب حتى الآن، وهو موجود كمخطوطة تتألف من خمسة عشر جزءاً. يُعطى الجزء الخامس عشر الفتوحات الإسلامية.

ويبدو من كتابات يوحنا هذا أنه على الرغم من نظرته للمسلمين على أنهم

١. النساء: ٩٥.

٢. التوبة: ١١١.



موقع جزيرة ابن عمر

غير متمدّنين بلحاظ طبيعتهم البدوية، إلا أنه يرى أن تحقيق هذا القدر الهائل من الانتصارات على أعظم امبراطوريتين، ومن خلال قوّات لا تمتلك إلا شيئاً بسيطاً من التنظيم العسكري، لأمر مثير للاهتمام يكاد يشبه المعجزة، وأن هذه الانتصارات لم يكن لها أن تتحقّق دون المعونة والإسناد الإلهي، وأن في هذا تأديب للمسيحيين لما ارتكبوه من ذنوب وظلم وفساد.

قال في كتابه: (لا يجب أن نتحدث عن أولاد هاجر^(١)) وكأننا نتحدث عن أمر مألوف، ولكن كحملة لرسالة إلهية، فهم يحملون تعاليم إلهية لمعاملة الأديرة المسيحية والمسيحيين بشرف. عندما جاء هؤلاء بأمر الرب وسيطروا على المملكتين لم يسيطروا عليها بحرب أو قتال وإنما بطريقة مهينة لأعدائهم، فالرب وضع النصر بين أيديهم بهذا الشكل، وربما يصح القول أن رجلاً منهم

١. يُطلق هذا العنوان على العرب باعتبارهم من نسل النبي إسماعيل، وأمه السيدة هاجر.

يقابل ألفاً، ورجلين منهم يقابلون عشرة آلاف. كيف يمكن لرجال عراة لا يرتدون الدروع أن ينتصروا بهذا الشكل دون المعونة الإلهية. لقد ناداهم الرب من نهايات العالم لكي يقضوا على الممالك الآثمة^(١).

ونُقل عنه في نص آخر قوله: (ينبغي ألا نفكر في قدوم العرب باعتباره شيئاً عادياً، وإنما هو عمل من الأعمال السماوية، فقبل أن يناديهم الرب، كان قد أعدّ سلفاً لإبقاء المسيحيين مكرّمين، والآن عندما جاء هؤلاء الناس بأمر الرب، واستولوا على كل من المملكتين الروم والفرس ليس بالحرب أو بأية معركة وإنما بأسلوب عبودي، تماماً مثل جمرة قد استخرجت من النار، لا يستخدمون أسلحة الحرب أو الوسائل البشرية، وضع الرب النصر بين أيديهم)^(٢). بالطبع، فإنّ هذا لا يعني رضا وقبول وارتياح مثل ابن الفنكي للفتوحات ودخول المسلمين إلى بلدانهم، بل هو نوع من أنواع جلد الذات، ومحاولة تفسير الصدمة بكون غير المؤمنين بالمسيح (الكفار بحسب اعتقاده) قد انتصروا على المؤمنين به.

وإذا كان العهد الراشدي قد تعامل مع الشعوب التي تم فتح أراضيها كالشعب المصري بطريقة جذبتهم إلى الإسلام وحضارته، سواء من حيث غلبة روح التسامح، أو من حيث نسبة الضريبة المفروضة عليهم، إلا أنّ الأمويين والعباسيين غيّروا سياستهم تجاه مصر، فأثقلوا كاهل شعبها بالضرائب المرهقة، وكان لرغبتهم في المزيد من الفتوحات في أفريقيا انطلاقة من مصر

1. Empire and Elites after the Muslim Conquest: The Transformation of Northern Mesopotamia, By Chase F. Robinson, P 29.

٢. كينيدي: الفتوحات العربية الكبرى، ص ٤٧٩.

الدور في تحميل الشعب المصري ثقل الدعم المالي لها، وتُشير بعض الروايات إلى أن الأمويين أجبروا الحرفيين النصارى على المشاركة في صنع السفن على سبيل المثال. وقد أدت الضغوطات والأعباء المالية المفروضة والظلم الواقع على المصريين إلى الثورة أحياناً، وكان للأقباط المسيحيين منهم حصة في ذلك، وتعتبر ثورة أهل البشمو أو البشرو (البشموريين) في شمال الدلتا، والذين كانوا يعملون في إنتاج ورق البردي أشهر ثورة للمسيحيين على الحكم الإسلامي في مصر، حيث قاموا بطرد عمال الدولة العباسية في عهد المأمون، ورفعوا راية العصيان ورفضوا دفع الجزية. وقد اضطر الخليفة المأمون سنة ٢١٦هـ/٨٣٢م أن يصحب معه إلى مصر البطريرك ديونوسيوس بطريرك إنطاكية واستعان به وبيبتريرك الأقباط الأنبا يوساب، لإخماد ثورة البشموريين وسير إليهم قائده الأفشين لمحاربتهم، ثم سار إليهم بنفسه وقواته وقضى على حركتهم في السنة الهجرية اللاحقة، وتوفي بعد ذلك بسنة.

• تفسير اقتصادي:

وقد حاول بعض الباحثين المستشرقين تفسير هذه القوة على أسس اقتصادية بحتة، فالمستشرق (كارل هينرش بيكر)^(١) حاول أن يثبت أن حركة الفتوحات الإسلامية في القرن السابع لم تكن مفاجئة - كما تبدو - وإنما هي حلقة أخيرة من سلسلة طويلة بدأت قبل ذلك بعدة قرون، وأدت إلى خروج كثير

١. كارل هينرش بيكر Carl Heinrich Becker (١٨٧٦ - ١٩٣٣م) مستشرق ألماني وسياسي. درس في عدة جامعات غربية وشرقية، ونال الدكتوراه في عام ١٨٩٩. له عدة مؤلفات، بعضها مرتبط بالإسلام.

أسباب الانتصار

من الهجرات السامية من قلب شبه الجزيرة العربية نتيجةً لتقلُّب الأحوال الاقتصادية فيها، وما أصاب البلاد نتيجةً لذلك من ضعف وتدهور.

وبعبارة أخرى، فإن تعرُّض شبه الجزيرة العربية لأزمات اقتصادية هو الذي دفع شعوبها إلى الهجرة، ولا فرق في ذلك بين الهجرات السابقة التي قام بها الأراميون والكنعانيون، أو الهجرات اللاحقة التي قام العرب بها قبل ظهور الإسلام.

وهكذا فعل المستشرق الأمريكي المعاصر (برنارد لويس)^(١) حيث اعتبر أن بلاد العرب شهدت في قديم الزمان خصباً عظيماً أعقبه جفاف مستمر، مما أدَّى إلى زحف الصحراء على حساب الأراضي الخضراء، حتى أخذ سكان هذه البلاد يخرجون منها على هيئة هجرات بعد أن ضاقت سبل العيش في وجوههم، وأن الدافع وراء الفتوحات الإسلامية كان البحث عن أراضٍ ذات خصوبة وثروات تعوّضهم عن جذب الصحراء وشحّة الموارد الاقتصادية في الجزيرة العربية.

وقام المستشرق (توماس أرنولد)^(٢) بالتعبير عمّا سبق بأسلوب واضح

١. برنارد لويس Bernard Lewis (١٩١٦-٢٠١٨) مستشرق بريطاني-أمريكي، تخصص في تاريخ الإسلام والتفاعل بين الإسلام والغرب. استعانت به الإدارة الأمريكية على عهد الرئيس الأمريكي الأسبق (جورج دبليو بوش) للحصول على استشارته في مجال التعامل مع العالم الإسلامي.

٢. توماس وولكر أرنولد Thomas Walker Arnold (١٨٦٤-١٩٣٠م) مستشرق بريطاني، تعلم العربية وانتقل للعمل باحثاً في جامعة عليكرة الإسلامية في الهند حيث أمضى هناك عشر سنوات ألف خلالها كتابه المشهور (الدعوة إلى الإسلام)، ثم عمل أستاذاً للفلسفة في جامعة لاهور، وكان عضو هيئة تحرير دائرة المعارف الإسلامية التي صدرت في لندن بهولندا في طبعتها الأولى. عمل أستاذاً زائراً في الجامعة المصرية عام ١٩٣٠.

وصريح إذ قال: (إنَّ حركة التوسُّع العربي كانت هجرة جماعة نشيطة دفعها الجوع والحرمان إلى أن تهجر صحاريها المجدبة وتجتاح بلاداً أكثر خصباً كانت مُلكاً لجيران أسعد منهم حظاً).

• ملاحظات على ما سبق:

المقولات السابقة وأمثالها - وإن صدقت بالنسبة إلى مجاميع ممَّن شاركوا في حركة الفتوحات من الأعراب وغيرهم وبعضهم كان ضمن المرتدِّين ثم عادوا إلى الإسلام بسياسة العصا والجزرة - إلا أن اعتبار العامل الاقتصادي السابق هو المحرِّك الحقيقي أو الأساس وراء حركة الفتوحات يعتبر جانباً للصواب، لأنه يغفل أثر العامل الديني والرغبة الصادقة في الجهاد وخدمة الدين والدفاع عنه والاستشهاد في سبيل الله، وهو ما تُثبته الوقائع التاريخية لحركة جيوش المسلمين في الدور الأول من أدوار حركة الفتوحات، وتدلُّ عليه حالة الإقبال على الإسلام من قبل الأمم على تنوُّعها، والذوبان فيه على المستوى الثقافي والسلوكي والعبادي، والمساهمة بفاعلية في نمو الحضارة الإسلامية على كافة الأصعدة.

فاللغة العربية - على سبيل المثال - ليست باللغة السهلة القليلة التعقيد حتى يقال أن سهولتها أدَّت إلى سرعة انتشارها من المحيط الأطلسي حتى الخليج العربي، ومع ذلك فقد نجحت في أن تبسط سيادتها على جميع البلاد التي فتحها المسلمون وحكموها زمناً طويلاً، باستثناء فارس التي تأخّرت في ذلك، ورضخت له لاحقاً، وإن أخذت نظام حروفه مبكراً بعد الفتح.

لذلك لم يستطع الباحثون تفسير ظاهرة انتشار اللغة العربية في هذه

أسباب الانتصار

المساحة الجغرافية الواسعة وذات الأصول الحضارية العريقة إلا في ضوء انتشار العقيدة الإسلامية نفسها وما تطلّبت هذه العقيدة من معرفة بقواعد اللغة العربية لأداء فروض الدين.

وهذا ما أشار إليه (هيو كينيدي) في كتابه (الفتوح العربية الكبرى)، وإن كان كلامه حول الأثر اللغوي للفتوحات لم يشمل إيران التي تأخرت في هذا المجال لأسباب سيذكرها في الأثناء، ولكن اللغة العربية مع هذا فرضت نفسها في إيران منذ البدايات ولو في أطر محدّدة كما سيبيّن، فقد قال: (وقد خلّفت الفتوح الإسلامية بطبيعتها وتناثرها في إيران ميراثاً ثقافياً مهماً، ففي بلاد الشام والعراق ومصر أدّت الفتوح الإسلامية أيضاً إلى انتصار اللغة العربية سواء باعتبارها وسيطاً للثقافة الراقية، أو لغة الحياة اليومية الدارجة، ولم يحدث هذا في إيران. فعلى مدى قرنين من الزمان بعد الفتح، وعلى مدى أطول من ذلك في بعض المناطق، كانت العربية لغة الإدارة لحكومة الخلافة، كما كانت لغة الخطاب الديني والفلسفي، ولكنها لم تكن لغة الحياة اليومية.

وعندما أكّدت السلالات الحاكمة الإيرانية استقلالها عن حكم الخلافة في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين/الثالث والرابع الهجريين، كانت الفارسية هي اللغة المستخدمة في بلاطهم. وكانت الفارسية الجديدة تُكتب بحروف عربية واحتوت على الكثير من الكلمات التي استعارتها من العربية، ولكن القواعد النحوية والمفردات الأساسية كانت فارسية بشكل واضح، وهي لغة هندو-أوروبية تتناقض مع اللغة العربية السامية. ويجدر

بنا أن نتأمل كيف أن هذا الموقف مختلف عن الوضع في مصر، فلم يكن أحد في مصر سنة ٦٠٠م يتحدث اللغة العربية، وبحلول القرن الثاني عشر الميلادي/السادس الهجري على أقصى تقدير كان الجميع يتحدثون العربية. وفي العصور الحديثة تعتبر مصر المركز الرئيس للثقافة العربية. وفي إيران سنة ٦٠٠م لم يكن هناك من يتحدث العربية، وفي القرن الثاني عشر/٦هـ كانوا لا يزالون يتحدثون العربية. لقد رسخت العربية بوصفها لغة لأنماط بعينها من الخطاب الفكري، بحيث تشابهت كثيراً مع اللاتينية في أوروبا العصور الوسطى. وفي العصور الحديثة لا تُعدّ إيران بلداً عربياً بالتأكيد^(١).

ومن هنا لا يمكن أن تصحّ مقولة المستشرق (توماس أرنولد) إذ اعتبر أن الحماسة الدينية وبواعث العقيدة لم تكن قد تسرّبت إلا قليلاً في نفوس أبطال الجيوش الإسلامية، كيف وقد أرسل الامبراطور هرقل -بحسب بعض المصادر الغربية- يوبّخ أحد حكام الروم لعجزه عن صدّ المسلمين، فردّ عليه قائلاً: (إنهم أقلّ عدداً، ولكن عربياً واحداً يعادل مائة من رجالنا، ذلك أنهم لا يطمعون في شيء من لذات الدنيا ويكتفون بالكساء البسيط والغذاء البسيط، هذا في الوقت الذي يرغبون في الاستشهاد لأنه أفضل طريق يوصلهم إلى الجنة، في حين نتعلّق نحن بأهداب الحياة ونخشى الموت، يا سيدي الامبراطور!)^(٢).

١. كينيدي: الفتوحات العربية الكبرى، ص ٢٧٩-٢٨٠.

٢. عاشور: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص ١١٠.

• الانتشار بالعنف والإرهاب:

حاول البعض أيضاً أن يفسّر الانتصارات التي تحقّقت في الفتوحات بإرجاعها إلى عامل العنف والإرهاب والتخويف والتحريق والتدمير الهائل، وأن الإسلام إنما انتشر بالسيف، في صورة مشابهة لما فعله المغول من بعد، وأن خيانة أهالي بعض المناطق المفتوحة طمعاً أو خوفاً قدّم خدمة كبيرة للغزاة المسلمين ويسّر لهم مهمّتهم (المتوحّشة).

وممن قارب المسألة بهذه الصورة (يوحنا النقيوسي/ النيقاوي) المصري أسقف (أبرشية) مدينة نقيوس (نيقوس) في جنوب شرق الدلتا في القرن السابع الميلادي/ الأول الهجري، وقد عاش في زمن قريب من أحداث فتح مصر، وألّف كتاباً حمل عنوان (تاريخ مصر والعالم القديم) ويُعدّ أول مؤلّف كُتب من قبل المصريين حول الفتح الإسلامي لمصر.

في هذا الكتاب، يتّهم الأسقف يوحنا (المسلمين ذوي العرق الهمجي) بشتى الاتهامات، بدءاً من المذبحة التي وقعت بحق القائد الروماني ثيودوسيوس وجنوده، مروراً باحتلال (بهنسا) وذبح كل أهلها، ثم المجازر التي ارتكبت حيث حلّ (الإسماعيليون/ المسلمون) في مصر، وما تبع ذلك في الفيوم حين فرّ منها القائد الروماني (دومنتانوس) وبدء تعاون بعض المصريين مع العرب الغزاة، وتبدأ أعمال عمرو بن العاص بالظهور، حيث يجردّ القادة الرومان من ممتلكاتهم بعد اعتقالهم، ويضاعف الضرائب على الفلاحين، ويأمرهم بتزويد خيوله بالعلف، كما أن العنف الذي مارسه عمرو بن العاص دفع المصريين إلى الهروب جهة الاسكندرية المحصّنة، تاركين أموالهم وقطعانهم

نهباً للمسلمين. ويضيف الأسقف يوحنا أن المصريين الذين تركوا إيمانهم واتَّبَعُوا إيمان هذا (المخلوق الكريه) - يقصد عمراً والإسلام - قاموا بمساعدة المسلمين ذوي العرق الهمجي - بحسب تعبيره - وأعانوهم على الاستيلاء على كل أموال المسيحيين الهاربين، معلنين أن خدم المسيح هم أعداء الله^(١)!

من الواضح أن رواية الأسقف النقيوسي تتعارض مع شهادات أخرى مصرية وغير مصرية، ولا يمكنها أن تفسّر إقبال المصريين على الإسلام كبقية الشعوب التي أقبلت عليه واندмجت بسرعة في حضارته وتفاعلت معها، وكذلك فيما له علاقة بالبعد اللغوي.

• مقولات أخرى:

من بين الادّعاءات التي سيقّت لبيان دوافع الفتوحات الإسلامية في العهد الراشدي ما ملّخصه أن الشعور القومي العربي قد تبلور بعد رسالة النبي العربي «صلى الله عليه وآله» بقوة ووضوح، وأصبح لدى عرب الجزيرة العربية رغبة عارمة في جمع أبناء عموماتهم في العراق والشام ومصر تحت حكم واحد، وتحرير أراضيهم الشاسعة من سلطان الغزاة الفرس والروم.

وهناك من عدّ الظروف التي أعقبت وفاة النبي «صلى الله عليه وآله» بانتشار حالات الردّة والتمرد في الجزيرة العربية الباعث الأساس لحركة الفتوحات، إذ ارتأت الخلافة ضرورة التخلّص مستقبلاً من هكذا (مشاغبات) بتوجيه هذه (الطاقات الحربية) نحو أطراف تعيش خارج الجزيرة العربية، لتتخلّص

1. <https://www.sasapost.com/islamic-conquests-as-seen-by-the-defeat-ed/>

من احتمالات الفتن المستقبلية من جهة، ولتوظف هذه الطاقات الكامنة لدى عرب الجزيرة العربية في الغزو والسلب والغنائم نحو بلاد أخرى، لتحقيق من خلال ذلك أيضاً عوائد مالية ضخمة لها، ولتفكك قوة وترابط أبناء هذه القبائل ومراكز القوى المنتشرة في الجزيرة العربية وتبعثرها في العراق وبلاد فارس والشام ومصر والشمال الأفريقي وغير ذلك من الأنحاء، فتكون قد ضربت أكثر من عصفور بحجر واحد.

فالمسألة -بحسب المستشرق فلهاوزن^(١)- أشبه ما تكون بمناورة سياسية قامت بها الخلافة استهدفت من ورائها إسدال ستار نسيان الماضي وما فيه من الذكريات المؤلمة الناتجة عن الصراع فيما بينهم بسبب الردة، أو أنها وسيلة لرأب الصدع الحاصل بسببها^(٢).

ولكننا عندما ندقق في طبيعة الأحداث وتسلسلها منذ عهد رسول الله «صلى الله عليه وآله» والإصرار على بعث أسامة، وأحداث الردّة والتمرد بعد وفاة النبي «صلى الله عليه وآله» وتدخلات وتحركات الفرس والروم من خلال حلفائهما، كل ذلك يُبعد مثل هذه الاحتمالات التي تغاضت عن كل تلك المعطيات التاريخية وأرادت أن تفسّر الفتوحات وفق رؤيتها القومية أو المادية أو بتفسيرات لا تعدو أن تكون محاولات تحليلية لا تنهض على أساس من الأدلة الواضحة والدامغة.

١. يوليوس فلهاوزن Julius Wellhausen (ت ١٩١٨) باحث توراتي ومستشرق ألماني، ألف الكتاب الشهير «المملكة العربية وسقوطها» الذي أثار على الكتابة التاريخية العربية تأثيراً كبيراً في مسائل عدة من بينها التفسير القومي للصراع بين العرب والعجم.

٢. فلهاوزن: تاريخ الدولة العربية من ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأموية، ص ٢٣.

• كلمات منصفة :

وفي البين كلمات بعض المستشرقين المنصفين ممن قرأوا الأحداث وما وراءها بشكل علمي بعيداً عن أي نوع من الانحياز والتعصب.

فقد أنصف المستشرق البلجيكي (هنري بيرين)^(١) إذ أكد أن الحماسة الدينية وحدها هي التي أدت إلى نجاح المسلمين في حركة الفتوحات ضمن الفتوحات، معتبراً أن الفارق كبير بين الجرمان أو المغول الذين غادروا بلادهم ومعهم نساؤهم وأطفالهم وعبيدُهم ومواشيهم بغية السلب والنهب والحصول على أرض جديدة تدرّ عليهم من خيراتها ما يكفل لهم عيشاً رغيداً، وبين المسلمين الذين خرجوا في أوائل القرن السابع ينادون بأن لا إله إلا الله محمد رسول الله، دون أن يصطحبوا معهم سوى سيوفهم وخيولهم. حقيقة أنّ حركة الفتح الإسلامي أعقبها حركة أخرى للهجرة والاستقرار في الولايات العربية الجديدة التي تم فتحها.

ولكنّ هذه الحركة الأخيرة لم تبدأ إلا بعد أن انتهت الأولى بنحو قرنين من الزمان، تغيّرت فيهما أوضاع البلاد المفتوحة وأصبحت جزءاً من الوطن الإسلامي الكبير^(٢).

وجاء في كتاب (التاريخ الكامل للعالم) لمؤلفيه (جان كلود بارو وغيوم بيغو):

١. هنري بيرين Henri Pirenne (١٨٦٢-١٩٣٥) كان رائد المؤرخين البلجيكيين. طرح فكرة أن أوروبا دخلت مرحلة العصور الوسطى المظلمة بفعل ثلاثة عناصر أو عوامل تاريخية: المسيحية والإقطاع وظهور الإسلام. من مؤلفاته كتاب (محمد وشارلمان).

2. Pierenn: A Hist. of Europe, P. 47.

(لم يكن برابرة الشمال^(١)) يمارسون إلا ديانات ضعيفة. وإن كانوا قد ساهموا في انتحار الإمبراطورية، فإن فكرتهم الوحيدة كانت تتمثل في أن يصيروا روماً... أما العرب فكان لهم دين قوي.. لم يكونوا يريدون أن يصيروا روماً، إنما أرادوا صنع عالم جديد. إذن فقد كان عملهم أدوم.... كان الفرسان المسلمون يريدون أنهم لا يُقهرون، كما أنهم لم يكونوا يجلبون معهم الفوضى وإنما نظاماً جديداً^(٢).

كما أن المستشرق (بيكر) -الذي قدّمت تفسيره للانتصارات المتحققة بصورة اقتصادية- قد ردّ ضمناً على بعض الاتهامات التي جاءت عن طريق بعض المستشرقين، إذ قال أن أوروبا العصور الوسطى نظرت إلى انتشار الإسلام من وجهة النظر الكنسية الدينية، وكأن الكنيسة قد أفرعها وآلها ضياع بلاد مثل الشام ومصر وشمال العراق ترتبط جميعها بأصول المسيحية ونشأتها، فراحت تفسّر انتشار الإسلام في هذه البلاد على أنه لم يتم إلا بحدّ السيف وذكر أيضاً أن الوثائق المعاصرة كلها تثبت أن العرب لم يفرضوا دينهم على أهالي البلاد المفتوحة وإنما فرضوا سيطرتهم السياسية لا غير. فسيطرة العرب السياسية هي التي انتشرت بقوة السلاح، أما الإسلام نفسه فقد وجد سبيله إلى قلوب نسبة كبيرة من أهالي البلاد المفتوحة، بدليل ما أجمعت عليه الوثائق من تسامح العرب المطلق مع المسيحيين واليهود سواء، وهو تسامح لم يحظوا به في ظلّ حكّامهم السابقين^(٣).

١. كالجرمانيين .

٢. بارو وبيغو: التاريخ الكامل للعالم، ص ٩١-٩٤.

٣. عاشور: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص ١١٥.

ومن جانبه أبدى (ول ديورانت) في موسوعته (قصة الحضارة) انبهاره بما تحقّق على يد المسلمين في بعض البلاد التي فتحوها في الشمال الأفريقي وفي آسيا، معيدين إليها أمجادها التاريخية، ومحقّقين فيها الأمن والاستقرار والرخاء بعد أن فقدوا ذلك كله تحت سلطة الروم المحتلين، أو بفعل سلاطين أضاعوا بلدانهم في فوضى الصراعات الداخلية والفساد والاستبداد.

قال: (استعادت مصر تحت حكم المسلمين مجدّها الفرعوني؛ كما استعادت تونس ومراكش بزعامة العرب ما كان لهما من حكومة منظمة؛ وازدهرت مدائن القيروان وبالرمو وفاس إلى حين، أما إسبانيا في عهد العرب فقد وصلت إلى الذروة في تاريخ الحضارة؛ ولما حكم المغول المسلمون بلاد الهند فيما بعد شادوا كما يشيد الجابرة، وأبدعوا كما يبدع الصيّاغ)^(١).

وهكذا أكّد المستشرق غوستاف لوبون^(٢) على بُعد التسامح عند المسلمين الفاتحين ممّا سرّع من عملية التمازج الاجتماعي بين (الغزاة/الفاتحين) وبين المجتمعات (المفتوحة/المغزوة) وتحوّلها إلى أمم مسلمة ومساهمة في الحضارة الإسلامية، مقارنةً بين تأثير احتلال الفرس وغيرهم لمصر، والتأثير الإسلامي عليها، قال: (ما جهله المؤرخون أنّ حلم العرب الفاتحين وتسامحهم كان من الأسباب السريعة في اتساع فتوحهم، وفي سهولة اعتناق كثير من الأمم لدينهم ونظمهم ولغتهم، التي رسخت وقاومت جميع الغارات، وبقيت

١. ول ديورانت: قصة الحضارة، ج ١٢، ص ٢٦١.

٢. غوستاف لوبون Gustave Le Bon (ت ١٩٣١) طبيب ومؤرخ فرنسي. عمل في أوروبا وآسيا وشمال أفريقيا. كتب في علم الآثار وعلم الأنثروبولوجيا وعني بالحضارة الشرقية. من أشهر مؤلفاته: حضارة العرب، واليهود في تاريخ الحضارات الأولى.

قائمة حتى بعد تواري سلطان العرب عن مسرح العالم، ونعد من الواضح خاصة أمر مصر التي لم يوفق فاتحوها من الفرس والإغريق والرومان أن يقلبوا الحضارة الفرعونية القديمة فيها وأن يقيموا حضارتهم مقامها^(١).

وقد نبّه ابن الفكي الذي ذكرته من قبل إلى التسامح الديني لدى المسلمين (الغزاة/الفاتحين/المحررين) فقال: (لم يطلبوا من كل شخص سوى الجزية، مما يسمح له بالبقاء في أي دين يشاء)^(٢).

ونستذكر هنا عهد الإمام علي «عليه السلام» لما لك الأشر كنموذج على التسامح مع الآخر الديني من قبل والي مصر، والنص ككل جدير بالعرض والدراسة لفهم سياسته «عليه السلام» في إدارة الحكم في بلد لم يمر عليه وقت طويل على فتح، ويمتاز بتعدد الديانات، ولكن أكتفي بمقاطع منه: (هذا ما أمر به عبد الله عليّ أمير المؤمنين مالك بن الحارث الأشر في عهده إليه حين ولاه مصر: جباية خراجها، وجهاد عدوها، واستصلاح أهلها، وعمارة بلادها.... فليكن أحب الذخائر إليك ذخيرة العمل الصالح.... وأشعر قلبك الرحمة للرعية والمحبة لهم واللفظ بهم، ولا تكونن عليهم سبعا ضارياً تغتنم أكلهم، فإنهم صنفان إما أخ لك في الدين وإما نظير لك في الخلق يفرط منهم الزلل، وتعرض لهم العلل، ويؤتى على أيديهم في العمد والخطأ فأعطهم من عفوك وصفحك مثل الذي تحب أن يعطيك الله من عفوه وصفحه، فإنك فوقهم، ووالي الأمر عليك فوقك، والله فوق من ولاك. وقد استكفأك أمرهم

١. لوبون: حضارة العرب، ص ٦٠٥.

2. Hoyland, In God's Path ,P178 .

وابتلاك بهم. ولا تنصبن نفسك لحرب الله فإنه لا يدي لك بنقمته، ولا غنى بك عن عفوه ورحمته.

ولا تتدمن على عفو، ولا تبجحن بعقوبة، ولا تسرعن إلى بادرة وجدت منها مندوحة، ولا تقولن إني مؤمر أمر فأطاع..... وإذا أحدث لك ما أنت فيه من سلطانك أبهة أو مخيلة فانظر إلى عظم ملك الله فوقك وقدرته منك على ما لا تقدر عليه من نفسك، فإن ذلك يطامن إليك من طماحك، ويكف عنك من غربك، ويفئ إليك بما عذب عنك من عقلك إياك ومساماة الله في عظمته والتشبه به في جبروته، فإن الله يذل كل جبار ويهين كل مختال أنصف الله وأنصف الناس من نفسك ومن خاصة أهلك ومن لك فيه هوى من رعبتك، فإنك إلا تفعل تظلم، ومن ظلم عباد الله كان الله خصمه دون عباده، ومن خاصمه الله أدحض حجته وكان لله حرباً حتى ينزع ويتوب. وليس شئ أدعى إلى تغيير نعمة الله وتعجيل نقمته من إقامة على ظلم، فإن الله سميع دعوة المضطهدين وهو للظالمين بالمرصاد.

وليكن أحب الأمور إليك أوسطها في الحق، وأعمها في العدل وأجمعها لرضى الرعية، فإن سخط العامة يجحف برضى الخاصة، وإن سخط الخاصة يغتفر مع رضى العامة.... ثم الطبقة السفلى من أهل الحاجة والمسكنة الذين يحق رفدهم ومعونتهم... ثم تفقد من أمورهم ما يتفقده الوالدان من ولدهما... وإن أفضل قرة عين الولاة استقامة العدل في البلاد، وظهور مودة الرعية... وإن عقدت بينك وبين عدوك عقدة أو ألبسته منك ذمة فحط عهدك بالوفاء، وارع ذمتك بالأمانة، واجعل نفسك جنة دون ما أعطيت، فإنه ليس من فرائض الله

شئ الناس أشد عليه اجتماعاً مع تفرق أهوائهم وتشتت آرائهم، من تعظيم الوفاء بالعهود. وقد لزم ذلك المشركون فيما بينهم دون المسلمين، لما استولوا من عواقب الغدر! فلا تغدرن بذمتك، ولا تخيسن بعهدك، ولا تختلن عدوك، فإنه لا يجترئ على الله إلا جاهل شقي. وقد جعل الله عهده وذمته أمناً أفضاه بين العباد برحمته، وحرماً يسكنون إلى منعه ويستفيضون إلى جواره.

فلا إدغال ولا مدالسة ولا خداع فيه... إياك والدماء وسفكها بغير حلها، فإنه ليس شئ أدعى لنقمة ولا أعظم لتبعة ولا أخرى بزوال نعمة وانقطاع مدة، من سفك الدماء بغير حقها^(١).

• محاولة التفاف:

ومن المؤسف أن بعض المستشرقين فسّروا روحية التسامح لدى المسلمين الفاتحين وعدم فرض الدين على الأمم الأخرى تفسيراً مادياً، معتبرين أن غاية المسلمين من ذلك هي المال والثراء، ولذا ما كان يهتمهم أمر أهل تلك البلاد، وليبقوا على أديانهم ما دام أنهم يدفعون الجزية، فلو أنهم أسلموا لما كانوا سيُكْرَمون بالجزية بعد ذلك.

والواقع أن المسلمين لم يكونوا مثل غيرهم من العناصر العدوانية من جرمان وغير جرمان الذين انسابوا داخل الامبراطورية الرومانية والذين لا تقتزن أسماؤهم في التاريخ غالباً إلا بالهدم والتخريب. وفي الوقت الذي نسمع بما أحدثته إغارات الهون والوندال والقوط من تخريب شامل لكثير من أقاليم أوروبا، إذا بالبلاد التي فتحها المسلمون واستقروا فيها تتحوّل إلى مراكز

١. الرضي: نهج البلاغة، الكتاب ٥٣.

حضارية كبرى، يقصدها طلاب العلم والمعرفة من مختلف أنحاء العالم المعروف للتزوّد والاستنارة. وحسبنا أن نوازن بين أحوال بعض البلاد الأوربية مثل أسبانيا وصقلية، قبل فتح المسلمين لها وأحوالها بعد استقرارهم بها، إذ تبدّلت أوضاعها من جهل وتأخر وانحلال وخراب إلى نشاط فكري وتقدّم اقتصادي وعمران شامل وازدياد مطّرد في السكّان والأموال.

يقول الدكتور سعيد عاشور: (حقيقة أن العرب عندما خرجوا من شبه الجزيرة العربية في القرن السابع ليقوموا بحركتهم التوسعية الكبرى لم يكن لديهم تراث حضاري شامل بمعنى الكلمة، ولكن العرب كان لديهم ما هو أهمّ من ذلك وهو القدرة على استيعاب حضارات الآخرين وتشرب أصولها. وبفضل هذا استطاع العرب أن يتشربوا بسرعة ما وجدوه من دراسات وثقافات في غرب آسيا وشمال أفريقيا، وهي الدراسات اليونانية التي ترجمها الأراميون والكنعانيون إلى لغاتهم السامية حتى جاء العرب لينقلوها إلى العربية)^(١).

ويذكر البروفيسور المعاصر (هويلاند) في كتابه (في سبيل الله) In God's Path أن المنح الدراسية -التي قدّمت للداخلين في الإسلام حديثاً ولذوي المكانة الاجتماعية المتدنية- كانت وسيلتهم كي يحققوا من خلالها الاحترام والمكانة؛ ونقل هويلاند عن الخطيب البغدادي قول أحد علماء الحديث من غير العرب أنه لولا ما تعلّموه من الحديث لكانوا على قدم المساواة مع بائعي الخضار. وأضاف أن هذه المنح الدراسية كانت مفتوحة لكل من لديه الوقت والميل والقدرة على متابعتها، وقد استفاد العديد من المتحوّلين إلى الإسلام

١. عاشور: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص ١١٦.

من هذه الفرصة وكرّسوا أنفسهم لتطوير رؤية جديدة للعالم^(١).

وسرد هويلاند أسماء عدد من الفقهاء والمحدثين والمفسرين والأدباء من غير العرب، فالمفسر مقاتل بن سليمان (ت ١٥٠هـ/٧٦٧م) أسير من بلخ، والفقهاء يزيد بن أبي حبيب (ت ١٢٨هـ/٧٤٦م) ابن أسير من النوبة، والمؤرخ محمد بن اسحق (ت ١٥٠هـ/٧٦٧م) حفيد أسير من عين التمر في العراق، ومصنف كتب الحديث ابن جريج (ت ١٥٠هـ/٧٦٧م) حفيد الأسير من الأناضول، والإمام أبو حنيفة (ت ١٥٠هـ/٧٦٧م) حفيد أسير من كابل بأفغانستان، وحماد المعروف بالراوي الذي يقال بأنه كان من أعلم الناس بأيام العرب، وأخبارها، وأشعارها، وأنسابها، ولغاتها (ت ١٥٥هـ/٧٧٢م) ابن أسير من الديلم.

وقد دفع هذا عبد الملك بن مروان إلى أن يسأل ابن شهاب الزهري عن أصول فقهاء المسلمين المنتشرين في الأمصار الإسلامية المختلفة كما في الخبر التالي الذي رواه الدميري وغيره في كتاب (حياة الحيوان الكبرى)، قال: (قال ابن الصلاح، في رحلته: روينا عن الزهري، أنه قال: قدمت على عبد الملك بن مروان فقال: من أين قَدِمْتَ يا زُهْرِي؟ قلت: من مكة، قال: فمن خلفت بها يسود أهلها. قال: قلت: عطاء بن أبي رباح. قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قلت: من الموالي. قال: فبم سادهم؟ قلت: بالديانة والرواية. فقال: إن أهل الديانة والرواية ينبغي أن يسودوا الناس. قال: فمن يسود أهل اليمن؟ قلت: طاوس بن كيسان، قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قلت: من

1. Hoyland, In God's Path ,P182.

الموالي. قال: فبم سادهم؟ قلت: بما سادهم به عطاء. قال: من كان كذلك ينبغي أن يسود الناس. قال: فمن يسود أهل مصر؟ قلت: يزيد بن أبي حبيب، قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قلت: من الموالي. فقال: كما قال في الأولين. ثم قال: فمن يسود أهل الشام؟ قلت: مكحول الدمشقي، قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قلت: من الموالي عبد نوبي، أعتقته امرأة من هذيل. فقال كما قال، ثم قال: فمن يسود أهل الجزيرة؟ قلت: ميمون بن مهران. قال: فمن العرب أم من الموالي. فقال كما قاله، ثم قال: فمن يسود أهل خراسان؟ قلت: الضحاك بن مزاحم، قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قلت: من الموالي. فقال كما قال، ثم قال: فمن يسود أهل البصرة؟ قلت: الحسن بن أبي الحسن، قال: من العرب أم من الموالي؟ قلت: من الموالي) إلى هنا كانت الإجابات صادمة جداً بالنسبة إلى عبد الملك، لأن من المعلوم أن الأمويين كانوا شديدين في مسألة القومية، ولذا كان أمله الأخير في الكوفة. (قال: ويلك! فمن يسود أهل الكوفة؟ قلت: إبراهيم النخعي، قال: من العرب أم من الموالي؟ قلت: من العرب، قال: ويلك يا زهري، فرّجت عني) وكأنه تنفّس الصعداء وجاءه الفرج بوجود فقيه عربي في البين (والله لتسودن الموالي على العرب، حتى يُخطب لها على المنابر، وإن العرب تحتها) أما الزهري فقد بيّن القاعدة في المسألة، والقاعدة لا علاقة لها بالقومية، بل هي بكل بساطة تتلخّص في الآتي: مَنْ جَدَّ وَجَدَ (قال: قلت: يا أمير المؤمنين، إنما هو أمر الله ودينه، فمن حفظه ساد، ومن ضيّعه سقط) ^(١).

١. الدميري: حياة الحيوان الكبرى، ج ١، ص ٤٥٦.

كما أنّ ممّا يُحسَب للمسلمين -بشهادة الكثيرين- أنهم لم يفرّقوا في نشاطهم الحضاري بين مَنْ كان على دينهم ومَنْ لم يكن كذلك، ولذا فقد سمحوا للمسيحيين واليهود وغيرهم بالتّلمذ عليهم والاستفادة منهم، فأقبل الأوروبيون في الأندلس وصقلية والشام وغيرها على دراسة معارف المسلمين وترجمتها، مما ساعد على نهضة أوروبا في العصور الوسطى.

يُضاف إلى ذلك وضوح البُعد الدعوي في حركة الفتوحات الأولى، وفي ذلك يقول المستشرق غوستاف لوبون: (كان العرب قبل أن يسعوا إلى فتح بلد يُرسلون رسلاً حاملين إليه شروطاً للوفاق)^(١).

ولو كان غرضهم مادياً بحتاً وسعياً وراء الغنائم فحسب، لما بذلوا جهداً للدعوة إلى الإسلام بما يجعلهم خالي الوفاض من الغنائم أو على الأقل من الجزية وخراج الأرض، ولما أصرّوا على إيصال الإسلام إلى نواحي وعرة وفقيرة، ولاكتفوا بما كان أمره يسيراً وما كان عائده المادي كبيراً، ولذا نجد الأحنف بن قيس لما: (لحق بعض العدو بالجوزجان)^(٢) فوجّه إليهم الأحنف الأقرع بن حابس التميمي في خيل، وأوصى قومه بني تميم بقوله: يا بني تميم، تحابوا وتبادلوا تعدل أموركم، وابدأوا بجهاد بطونكم وفروجكم يصلح لكم دينكم، ولا تغلوا يسلم لكم جهادكم)^(٣).

والأحنف صخر بن قيس التميمي (ت ٧٢هـ)، كان من أصحاب أمير المؤمنين «عليه السلام» وأدرك عصر النبي «صلى الله عليه وآله» ولم يره، وشهد

١. لوبون: حضارة العرب، ص ١٣٤.

٢. إحدى محافظات أفغانستان حالياً وتقع في شمالها.

٣. الأمين: أعيان الشيعة، ج ٧، ص ٣٨٤.

صفين مع علي «عليه السلام» أميراً، وكان سيد أهل البصرة، نحيل الجسم دميماً قصيراً، صغير الرأس، خفيف الشعر عند العارضين. قال له عمر بن الخطاب: (ويحك يا أحنف، لما رأيته ازدريته، فلما نطقت قلت لعله منافق صنع اللسان، فلما اختبرته حمدته. ثم قال: هذا والله السيد)^(١).

وكان الأحنف حليماً حتى صار يُضرب به المثل في الحلم، وقد قال: (كنا نختلف إلى قيس بن عاصم نتعلم منه الحلم كما نختلف إلى العلماء فتعلم منهم العلم)^(٢). وقال الحسن البصري: (ما رأيت شريف قوم كان أفضل من الأحنف)^(٣).

وللأحنف موقف آخر ذكره البلاذري، وذلك حين أصرَّ على أن لا يصلح أهل أحد من الحصون في (مرو الروذ) الواقعة بالقرب من مدينة (مرو/ مرو الشاهجان) في تركمنستان، على الرغم مما قدّمه له من أموال مقابل الصلح، حتى يدخل نفرٌ من جند المسلمين الحصن فيؤذّن ويقيم الصلاة فيه، معلناً وصول الإسلام وتنفيذ المسلمين الأمر الإلهي بإبلاغ الدعوة.

ويذكر د. عدي الجبوري في كتابه (دوافع الفتوحات الإسلامية) أن المقوقس عرض على المسلمين المال مقابل الانسحاب، فرفضوا عارضين عليهم الإسلام أو الدخول في الصلح أو القتال^(٤).

وقال عبادة بن الصامت للمقوقس: (إنما رغبنا وهمّتنا الجهاد في الله

١. المزي: تهذيب الكمال، ج ٢، ص ٢٨٦.

٢. الأمين: أعيان الشيعة، ج ٧، ص ٣٨٣.

٣. الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ٥، ص ٣٥٠.

٤. الجبوري: دوافع الفتوحات الإسلامية في العصرين الراشدي والأموي، ص ٨١.

وأتباع رضوانه، وليس غزونا عدونا ممن حارب الله لرغبة في الدنيا ولا حاجة للاستكثار منها.... لأن غاية أحدنا من الدنيا أكلة يأكلها يسد بها جوعته ليلته ونهاره، وشملة يلتحفها)^(١).

وهكذا نجد سعد بن أبي وقاص يوصي أصحابه قبل قتال الفرس قائلاً: (انظروا ما قد عزم عليه)^(٢) فلعله أن يجيب إلى دين الإسلام فتكفى حربته)^(٣). ونجده في فتوحات (خوزستان) يخاطب جنده قائلاً: (فاصبروا على الجهاد.... وإياكم والركون إلى الدنيا، فإنها دار الفتنة، وسجن المؤمن، فلا يكون شيء أحب إليكم من لقاء ربكم، فإن ما عند الله خير للأبرار)^(٤).

• شهادة أرمنية :

الأسقف والمؤرخ الأرمني (سيبيوس) الذي كتب في حوالي ٦٧٥ م/ ٥٥ هـ، فهو بالتالي قريب عهد جداً بأحداث نهايات دولة الفرس الساسانية، يُنسب إليه كتاب (تاريخ هرقل)، وفيه تدوين للأحداث منذ نهاية القرن الخامس حتى عام ٦٦١ م، يكتسب كتابه أهمية لأنه من المصادر التاريخية - غير الإسلامية - النادرة - ولربما الوحيدة - التي كُتبت في القرن نفسه الذي ظهر فيه الإسلام، وامتدت فيه الفتوحات الإسلامية إلى بلاد الشام وأرمينيا وفارس، وما زالت موجودة. كما أن المصادر الإسلامية التي تناولت حركة الفتوحات قد جاءت

١. ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص ٦٦.

٢. أي رستم فرخزاد قائد الجيش الفارسي.

٣. الواقدي: فتوح الإسلام، ص ٤١.

٤. الواقدي: فتوح الإسلام، ص ٧١.

متأخرة عن ذلك، بينما كتب المؤرخ البيزنطي (ثيوفانس) -مثلاً- وجهة النظر البيزنطية في نهاية القرن الثامن وبواكير القرن التاسع الميلاديين.

أما آراء الإيرانيين في الفتوح الإسلامية فقد ضاعت -بحسب الباحث هيو كينيدي- لأن الزرادشتية قد اختفت بشكل أكبر مما جرى للمسيحية، ولم تكن هناك أديرة لتحفظ المؤلفات القديمة، ولدينا قصيدة واحدة باللغة الفهلوية، وربما يرجع تاريخها إلى القرن التاسع الميلادي/ الثالث الهجري، وفيها نستطيع أن نرى شيئاً من مواقف مؤيدي الديانة القديمة في وقت كان فيه اعتناق الإسلام يسير سيراً حثيثاً وكانت بيوت النار تُغلق^(١).

بدأ سيببوس في تدوين أحداث كتابه (تاريخ هرقل) منذ عام ٦٧٥م/ ٥٥هـ اعتماداً على بعض المصادر الأرمنية المفقودة بالنسبة إلينا، وكذلك عبر المعلومات التي جمعها بنفسه من أفواه الأسرى الأرمن الذين قام المسلمون بإطلاق سراحهم فيما بعد.

بدأ سيببوس منذ الفصل الثلاثين من كتابه وحتى نهايته في الحديث عن الإسلام منذ ظهور الدعوة المحمدية، وانتشارها في جزيرة العرب. وهكذا تتبّع سيببوس انتشار الإسلام، وامتداد الفتوحات الإسلامية إلى بلاد الشام وبلاد فارس. إذ ذكر انتصار المسلمين على الروم في موقعة أجنادين ١٣هـ/ ٦٣٤م، ثم رصد سيببوس رسالة من الخليفة عمر بن الخطاب إلى امبراطور الروم، تطلب منه رحيل قواته عن بلاد الشام، مع التهديد باجتياح جيوش المسلمين لبلاد الروم. غير أن الامبراطور البيزنطي رفض ذلك وأجاب،

١. كينيدي: الفتوح العربية الكبرى، ص ٤٨٨.

أسباب الانتصار

بحسب رواية سيببوس: «.... هذه الأراضي ملك لنا، أما أراضي المسلمين فتقع في شبه جزيرة العرب... عودوا الى بلادكم».

تابع سيببوس ذكره لفتوح بلاد الشام التي سماها أسورستان، وكذلك سامب، فتحدث عن انتصار المسلمين في موقعة اليرموك ١٥هـ / ٦٣٦م، وانسحاب قوات هرقل إلى آسيا الصغرى، وهو ما شجع المسلمين بعد ذلك على إرسال جيوشهم شرقاً حيث الجزيرة الفراتية وبلاد فارس، ولم يفته أيضاً رصد الاستعدادات الفارسية لملاقاة المسلمين وحشدتهم جيشاً بلغ ثمانين ألف مقاتل تحت قيادة رُستم، كما ذكر الانتصار الإسلامي الحاسم في القادسية ١٥هـ / ٦٣٦م. وأشار أيضاً إلى أن كل ذلك شجّع المسلمين على تسيير الجيوش نحو فتح فلسطين وسيّرهم لفتح مصر.

بعد ذلك اتّجه سيببوس الى وصف الفتوحات الإسلامية في بلاده أرمينيا التي كانت مقسّمة بين الإمبراطورية البيزنطية والساسانية، فذكر أن الجيش الإسلامي تمكّن من الوصول إلى دوين عاصمة الأرمن، التي قام سكّانها بتحصينها، غير أن المسلمين الذين حاصروا المدينة لأيام عدة تمكّنوا من اقتحامها في اليوم الخامس، وهكذا سقطت العاصمة الأرمينية في قبضة المسلمين ١٩هـ / ٦٤٠م، وسقط آلاف من الأرمن أسرى فبلغ عددهم -بحسب رواية سيببوس- خمساً وثلاثين ألف أسير، اعتمد على بعضهم في سرده لأحداث تلك الفترة.

كما تابع سيببوس بعد ذلك ذكره لانتصارات المسلمين عبر اجتياحهم لمدن أردزاب وأوردورو ويرفان وبلاد الطاجيك وبلاد الكرج -جورجيا- ومدينة

نخشوان. كما ذكر نجاح المسلمين في فرض معاهدة على الامبراطور البيزنطي يتعهد فيها بدفع الجزية، وكذلك الموافقة على ترسيم الحدود بين المسلمين والبيزنطيين. وقام سيبيوس بإيراد معاهدة السلام بين الأرمن والمسلمين، والتي بمقتضاها سمح المسلمون بالحرية الدينية الكاملة للسكان الأرمن أتباع المذهب المونوفيزي، وهكذا نجا الأرمن من الضغط الدائم الذي مارسه كنيسة القسطنطينية الارثوذكسية عليهم طوال تاريخهم.

كما ذكر سيبيوس أن هذه المعاهدة تضمنت أيضاً عدم جمع الجزية من الأرمن لمدة ثلاث سنوات، يدفعون بعدها الجزية التي يقومون هم بتحديدتها. كما تم الاعتراف لهم بحق الاحتفاظ بجيش مكون من خمسة عشر ألف فارس في بلادهم، شريطة أن ينضموا الى المسلمين في أي حرب دفاعية، عند تعرض المسلمين إلى هجوم على أراضيهم من الامبراطور البيزنطي، على أن يقوم المسلمون بدورهم بالدفاع عن الأراضي الأرمنية في حال تعرضها للهجمات البيزنطية. وذكر سيبيوس رفض السكان الأرمن نداءات الامبراطور البيزنطي بالعودة الى التحالف معه، في مقابل دفع أموال باهظة لهم. وإزاء هذا الرفض الأرمني، زحف بجيشه ليحتل الكثير من المدن الأرمنية، وليوعز لكنيسة القسطنطينية بالتبشير بمذهب الطبعيتين للمسيح بين السكان الأرمن. غير أن المسلمين قدموا في العام التالي ٣٥هـ/ ٦٥٥م إلى بلاد الأرمن، وقاموا بطرد الجيش البيزنطي، ومطاردته إلى طرابزون^(١).

1. <https://www.kachaf.com/wiki.php?n=5ed93f8567717625af0eeda1>

• شهادة صينية :

وأختم هنا بشهادة لرجل من الصين وقع أسيراً بيد المسلمين، وأخذ إلى الكوفة، وسُمح له بالعودة إلى دياره سنة ٧٦٢م/١٤٤هـ. والمسلمون وإن لم يفتحوا الصين، إلا أنهم أسروا عدداً من الصينيين في الحملة التي أدت إلى معركة (تراز) أو (تلاس) بين الجيش المسلم والجيش الصيني سنة ٧٥١م/١٣٣هـ، وفي هذه المعركة وقع (تو هان) أسيراً ونُقل إلى الكوفة. قال في شهادته التي يبين فيها شخص قادم من بيئة وثقافة مختلفة كيف نظر إلى تعاليم الإسلام وحضارة المسلمين الحديثة وانعكاساتها على سلوك الناس وعن موقفهم من الظلم ونظرتهم إلى الالتزام بالقيم والمبادئ التي آمنوا بها، بالإضافة إلى آثار حالة الرفاهية والنعيم التي يعيشها المسلمون في ظل الرخاء الاقتصادي في بدايات العهد العباسي: (العاصمة اسمها الكوفة^(١)) واسم الملك العربي مومين^(٢) وجميع الرجال والنساء يتسمون بالوسامة وطول القامة، كما أن ملابسهم لامعة نظيفة، وسلوكهم مهذب، وعندما تخرج المرأة إلى العلن تغطي وجهها بغض النظر عن مكانتها الاجتماعية، سواء كانت راقية أم متواضعة. ويؤدون الصلاة خمس مرات يومياً. ويأكلون اللحم ويصومون ويعتبرون ذبح الحيوانات أمراً سليماً.

وهم يلبسون أحزمة من الفضة حول أوساطهم ويعلقون بها خناجر من الفضة ويحرمون شرب الخمر، ويمنعون الموسيقى، وعندما يتشاجر الناس

١. كان أبو جعفر المنصور قد اتخذ من الحيرة القريبة من الكوفة عاصمة له قبل تأسيس بغداد عاصمة للعباسيين سنة ١٤٥هـ، أي بعد سنة من عودة هذا الأسير إلى بلاده .

٢. يقصد أمير المؤمنين .

فيما بينهم، لا يتبادلون الضربات. كما أن هناك قاعة احتفالات^(١) تسع عشرات الآلاف من الناس، وكل سبعة أيام يخرج الملك للصلاة^(٢) ويرتقي منبراً عالياً ليُلقي خطبة على الجَمْع المحتشد عن الشريعة. فيقول: «الحياة الإنسانية صعبة للغاية، وطريق الاستقامة ليس سهلاً، والزنا خطأ. وليس هناك ذنب أكبر من السرقة أو النهب. أتفه أشكال غش الناس بالكلمات، وأن يؤمّن المرء نفسه بجلب الخطر على غيره، وخداع الفقير، وقهر المسكين، وجميع الذين قُتلوا في المعارك ضد الإسلام سيدخلون الجنة. اقتل العدو وسوف تنال السعادة التي تفوق الوصف».

لقد تحوّلت الأرض بأسرها، ويتبع الناس عقيدة الإسلام مثل ما يتبع نهرٌ مجراه، ويطبق القانون بأسلوب ليّن فقط. ويُدفن الموتى شكل بسيط دونما إسراف. وسواء كان الناس داخل أسوار مدينة كبيرة أو في داخل بوابة قرية، فإنهم لا يحتاجون إلى شيء مما تنتجه الأرض، إذ أن بلادهم محور العالم، حيث البضائع الوافرة كثيرة ورخيصة، حيث أقمشة القصب المطرزة الفاخرة، واللآلئ والنقود تملأ الحوانيت، على حين تملأ الجمال والخيول والحمير والبغال الشوارع والأزقة. وهم يقطعون السكر^(٣) لبناء الأكواخ التي تشبه الحملات الصينية، وحينما تكون هناك عطلة يحضر الأعيان بأواني من زجاج وأواني من النحاس تفوق الحصر. ولا يختلف الأرز الأبيض والدقيق الأبيض عنه في الصين. ومن ضمن فواكههم الخوخ والتمور التي زرع نخيلها

١. يقصد مسجد الكوفة .

٢. أي صلاة الجمعة .

٣. أي القصب.

من ألف سنة. واللفت عندهم كبير الحجم ومستدير وطعمه شهى جداً، ولكنّ خضرواتهم الأخرى تشبه الخضروات في البلاد الأخرى. وحبّات العنب عندهم كبيرة مثل بيض الدجاج. وأكثر الزيوت قيمة لديهم نوعان، أحدهما يسمّى الياسمين، والثاني اسمه المر. وقد عمل الصنّاع الصينيون الأنوال الأولى لنسج خيوط الحرير، وكانوا أوّل من عمل في صياغة الذهب والفضة وكانوا أوّل الرّسّامين^(١).

١. كينيدي: تاريخ الفتوح الكبرى، ص ٤٩٣-٤٩٤.

مصادر الكتاب

المصادر العربية

١. القرآن الكريم
٢. الكتاب المقدس
٣. الإتيقان في علوم القرآن: جلال الدين السيوطي
٤. الأخبار الطوال: أحمد بن داود الدينوري
٥. الإرشاد: محمد بن محمد المفيد
٦. الاستيعاب في معرفة الأصحاب: يوسف بن عبد الله النمري القرطبي
٧. أسد الغابة في معرفة الصحابة: علي بن محمد الجزري
٨. الإسلام في عالم البحر المتوسط: فرانسيسكو غابرييلي
٩. اضمحلال الامبراطورية الساسانية وسقوطها: بروانه بور شريعتي
١٠. أعيان الشيعة: محسن الأمين
١١. الاكتفا بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلثة الخلفاء: سليمان بن موسى الكلاعي
١٢. الأم: محمد بن إدريس الشافعي
١٣. الأموال: القاسم بن سلام الهروي
١٤. الأنوار ومحاسن الأشعار: علي بن محمد الشمشاطي
١٥. بحار الأنوار: محمد باقر المجلسي
١٦. البداية والنهاية: إسماعيل بن عمر الدمشقي
١٧. البيان في تفسير القرآن: أبو القاسم الخوئي
١٨. تاريخ أسماء الضعفاء والكذابين: عمر بن أحمد البغدادي
١٩. تاريخ الإسلام: محمد بن أحمد الذهبي

٢٠. تاريخ الإسلام: حسن إبراهيم حسن
٢١. تاريخ الأمم والملوك: محمد بن جرير الطبري
٢٢. تاريخ الحضارات العام: مورييس كروزيه
٢٣. تاريخ الدولة العربية: يوليوس فلهاوزن
٢٤. التاريخ الكامل للعالم: بارو وبيغو
٢٥. تاريخ المدينة: عمر بن شبة النميري
٢٦. تاريخ اليعقوبي: أحمد بن إسحق اليعقوبي
٢٧. تاريخ أوروبا في العصور الوسطى: سعيد عبد الفتاح عاشور
٢٨. تاريخ مار ميخائيل السرياني الكبير: مار ميخائيل
٢٩. تاريخ مدينة دمشق: علي بن الحسن بن عساكر الدمشقي
٣٠. التاريخ: جعفر بن خياط
٣١. تفسير القرآن العظيم: إسماعيل بن عمر بن كثير
٣٢. تمام نهج البلاغة: صادق الموسوي
٣٣. تهذيب الأحكام في شرح المقنعة: محمد بن الحسن الطوسي
٣٤. تهذيب التهذيب: أحمد بن علي بن محمد الكنائي العسقلاني
٣٥. تهذيب الكمال: يوسف بن عبد الرحمن المزني
٣٦. ثمرات الأوراق: أبو بكر بن علي بن عبد الله بن حجة الحموي
٣٧. جامع البيان في تأويل القرآن: محمد بن جرير الطبري
٣٨. الجامع لأحكام القرآن: محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي
٣٩. الجامع المسند الصحيح المختصر: محمد بن إسماعيل البخاري
٤٠. جواهر التاريخ: علي الكوراني العاملي
٤١. جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام: محمد حسن النجفي
٤٢. حضارة العرب: غوستاف لوبون
٤٣. حياة الإمام الحسن: باقر شريف القرشي
٤٤. حياة الحيوان الكبرى: محمد بن موسى بن عيسى الدميري
٤٥. الخراج وصناعة الكتابة: قدامة بن جعفر البغدادي

٤٦. الخراج: يحيى بن آدم القرشي
٤٧. الخصال: محمد بن علي الصدوق
٤٨. خمسون ومائة صحابي مختلف: مرتضى العسكري
٤٩. دراسات في ولاية الفقيه: حسين علي المنتظري
٥٠. دوافع الفتوحات الإسلامية في العصرين الراشدي والأموي: عدي سالم الجبوري
٥١. ربيع الأبرار ونصوص الأخيار: محمود بن عمر الرمخشري
٥٢. الرحيق المختوم: صفى الرحمن المباركفوري
٥٣. رواية الشاميين المغازي والسري في القرنين الأول والثاني الهجريين: حسين عطوان
٥٤. السنن الصغرى: أحمد بن شعيب النسائي
٥٥. السنن الكبرى: أحمد بن الحسين البيهقي
٥٦. سير أعلام النبلاء: محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي
٥٧. سيرة الأئمة الاثني عشر: هاشم معروف الحسني
٥٨. السيرة النبوية: عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري
٥٩. السيل الجرار المتفق على حدائق الأزهار: محمد بن علي الشوكاني
٦٠. شرح نهج البلاغة: عبد الحميد بن أبي الحديد المعتزلي
٦١. صفين: نصر بن مزاحم المنقري
٦٢. الطبقات الكبرى: محمد بن سعد البصري الزهري
٦٣. عبد الله بن سبأ وأساطير أخرى: مرتضى العسكري
٦٤. العبر وديوان المبتدأ والخبر: عبد الرحمن بن خلدون
٦٥. علل الشرائع: محمد بن علي الصدوق
٦٦. عيون أخبار الرضا: محمد بن علي الصدوق
٦٧. فتح الباري شرح صحيح البخاري: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني
٦٨. فتوح الإسلام: محمد بن عمر الواقدي
٦٩. فتوح البلدان: أحمد بن يحيى البلاذري
٧٠. فتوح الشام: محمد بن عمر الواقدي
٧١. الفتوح العربية الكبرى: هيو كينيدي

٧٢. فتوح مصر وأخبارها: عبد الرحمن بن عبد الحكم
٧٣. الفتوح: أحمد بن أعثم الكوفي
٧٤. فهم القرآن الكريم: محمد عابد الجابري
٧٥. قصة الحضارة: ول ديورانت
٧٦. قواعد فقه العلاقة مع الآخر الديني: حيدر حب الله
٧٧. الكايفي: محمد بن يعقوب الكليني
٧٨. الكامل في التاريخ: علي بن أبي الكرم محمد بن الأثير الجزري
٧٩. كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال: علي المتقي الهندي
٨٠. لسان الميزان: أحمد بن علي بن محمد الكناني العسقلاني
٨١. مختصر تاريخ دمشق: محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي
٨٢. المدرسة الإسلامية: محمد باقر الصدر
٨٣. مروج الذهب ومعادن الجوهر: علي بن الحسين المسعودي
٨٤. مصادر نهج البلاغة وأسانيده: عبد الزهراء الخطيب
٨٥. معاني الأخبار: محمد بن علي الصدوق
٨٦. معجم البلدان: ياقوت الحموي
٨٧. المعجم الكبير: سليمان بن أحمد الطبراني
٨٨. المغازي: محمد بن عمر الواقدي
٨٩. المناقب: الموفق بن أحمد الخوازمي
٩٠. مناهل العرفان في علوم القرآن: محمد عبد العظيم الزرقاني
٩١. منهج الإمام أبي عبد الرحمن النسائي في الجرح والتعديل: قاسم علي سعد
٩٢. الموضوعات: عبد الرحمن بن علي بن الجوزي
٩٣. ميزان الاعتدال: محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي
٩٤. الميزان في تفسير القرآن: محمد حسين الطباطبائي
٩٥. ناسخ القرآن العزيز ومنسوخه: محمد بن عبد الله المعافري
٩٦. نهج البلاغة: محمد بن الحسين الشريف الرضي

المصادر الأجنبية

1. A History of Europe, Henri Pirenne
2. Empire and Elites after the Muslim Conquest: The Transformation of Northern Mesopotamia, Chase F. Robinson
3. In God's Path, Robert Hoyland
4. Life of Benjamin, Sawirus ibn al-Mukaffa
5. The Chronicle of John, Bishop of Nikiu

مواقع الإنترنت

1. <https://www.almaany.com>
2. <https://www.alukah.net>
3. <http://aramean-dem.org>
4. <https://www.kachaf.com>
5. <https://www.sasapost.com>
6. <https://www.wikipedia.org>

